« الآداب » في عامها العشرين ..

انهض صباح هذا اليوم ، وانا افرك عيني متسائلا : أصحيح ان المجلة تدخل بعد ايام عامها العشرين ؟ أصحيح اننا قضينا هذه الاعوام الطويلة كلها ونحن نعيش معها الادب والفكر والسياسة ، فنبتهج تارة يحدونا الامل والتفاؤل ، ونأسى تارة اخرى يرهقنا الحزن والتشاؤم، ثم نحاول تارة ثالثة ان نتحلى عن واقعنا المعاش ، لنستشرف مستقبلا افضل نرصد له طاقاتنا وقوانا ، ونهدهد احلامنا باننا انما نعمل لجيل اولادنا اذا كنا نعتقد ان جيلنا قد سقط ؟ » .

أجل ، لقد عايشت « الآداب » الفكر العربي في لحظات الصعود ، لحظة الثورة المصرية وحرب السويس والثورة الجزائريه والثورة العراقية ودوله الوحدة ، وطلب طوال السنوات العشر التي شهدت هذه اللحظات صوت الضمير العربي المتلهف الى بناء الحضارة العربية الجديدة على أسس ثوريه حديثة في الايديولوجية والابداع والثقافة وحضنت جيلا من الادباء ارسى قواعد المرحله الجديدة في تاريخنا الادبي بعد جيل الرواد ، ورفعت راية الشعر العربي الحديث قبل اية مجلة تزعم انها شفت له الطريق ... عايشت « الآداب » لحظات الصعود تلك ، فهفت اليها أقلام الكتاب العرب في كل مكان من الوطن العربي ، ولكنها عايشت كذلك لحظات الهبوط التي شهدها العقد الثاني من حياتها لحظة كارثة الانفصال وهزيمة حزيران ، ولا تزال تعيش التمزق الفظيع الذي يعانيه الوجدان العربي لهفة الى استرداد الكرامه بتحرير الارض واستئناف المسيرة .

ولقد عكست المجلة ، خلال ذلك كله ، وضع الادب العربي الذي كان يتراوح بين الخلق والركود ، وما كان لها هي ، ولن يكون لها ، ان تخلق ما يعجز الادباء عن خلقه . من هنا كان الرد المتواضع على من يتهمونها بالضعف والانحدار : اين هي المجلات العربية الاخرى الشبيهة « بالآداب » التي هي ارفع منها مستوى او أقدر على تقديم نماذج الابداع الادبية في هذه المرحلة من تاريخنا ؟

ان هذه المجلة تكره التبجح الذي اصبح عنوان بعض من ماتت مجلاتهم فظنوا انهم يبعثونها باختراع مزايا ومناقب لم يكن في ماضيها . ان « الآداب » قد سارت بقوة وصلابة ، وواجهت عقبات كثيرة ولا تزال تواجه العقبات ، ولكنها تحس الان ، وقد غابت عدة مجلات لم تستطع هنا وهناك ان تقاوم مثل تلك العقبات ، انها فيما هي مدعوة الى مزيد من الصمود ، مدعوة كذلك الى بذل جهود كثيرة في ميدان التحرير لتتجاوز ذاتها وتكون أقدر على مواجهة التطورات التي تعصف بالامة العربية ، ومن ثم بالفكر العربي ووسائل اعلامه ، ومنها المجلات الادبية .

ولكننا مع ذلك ، نعتقد ان « الآداب » تملك مزية نرجو الا نكون مبالغين في تقييمها : وهي انها استطاعت دائما ان تجاري وتتابع احدث التيارات الادبية في الانتاج العربي الحديث ، وان تقدم دائما أصواتا جديدة ، وأقلاما جديدة ترهص بمواهب تحمل الوعود الكثيرة ، في الشعر والقصة بصورة خاصة . ولكن هذا لا يعني انها قدمت كل « الاقلام الجديدة » فهي لا تستطيع ذلك اولا ، ولا تقره ثانيا ، لان في كثير من هذه الاقلام الجديدة ما يحتاج الى اصالة يحسب بعضهم اكثر الاحيان انها تكمن في الابهام والتعقيد والشطحات الخيالية والمغامرات اللغوية التي تتحدى كل قاعدة . ولما كان « للاداب » خط واضح المعالم في تقديم النتاج الادبي،فانها قد امتنعت غالبا عن افساح المجال لمثل تلك المادة القائمة على النزوة والهوى اكثر منها على الاصالة والموهبة . ونذكر هنا على سبيل المثال ان هذه المجلة قد آمنت منذ البدء باهمية القصيدة الجديدة ، فافسحت لها اوسع المجال ، وساعدتها على تثبيت اقدامها وتوضيح هويتها ، ولكنها لم تؤمن بأهميه قصيدة النثر التي لا نعتقد انها استطاعت حتى الان ان تبرر القناعة بأهميتها في تطور شعرنا الحديث .

وقد كان « للآداب » وما يزال خطها الواضح في الفكر العقائدي ، خط العروبة والتقدمية . كان ابدا هو الخط القومي العربي الذي يؤمن بالوحدة والاشتراكية ، والعمل ضد جبهة الاستعمار والصهيونية . وبالرغم من ان المجلة أفسحت صدرها بعد هزيمة حزيران ، لكثير من الدراسات والقصائد والقصص التي تحمل النقد لآفات الحياة العربية في السياسة والاجتماع ، فانها حاذرت دائما ان ينقلب هذا النقد الذاتي الى اشكال التعذيب النفسي والاذلال للذات والتنكر للتراث كله ، مما يفقد الانسان العربي كل مرتكز له ، فيصير الى تخبط شديد لن يعينه اطلاقا في التغلب على أزمته الحالية والشفاء من آفاته .

ولا شك في ان هذا الوعي لوضع الانسان العربي الذي تتناهبه التيارات في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ القضية العربية هو الذي فرض احترام هذه المجلة على السلطات الحاكمة في البلدان الثورية ، على اختلافها في كثير من الاحيان ، لانها تقدر « للآداب » دورها النضالي وعدم تلوثها بأية نزعة او ارتباطها بأي حكم .

★★★

والآن ، ما الذي ستأخذه « الآداب » على عاتقها في عامها العشرين ؟

اننا لا نحب ان نبذل الوعود ، ولكننا سنحاول ان تبقى هذه المجلة صوت الفكر العربي الملتزم بخدمة النضال العربي من أجل الحرية والتحرير . وهذا يقتضينا ان ندعو كتابنا الى مزيد من حرية التعبير في معالجة مشكلاتنا الايديولوجية والاجتماعية ، وأن ندعو شعراءنا وقصاصينا الى مزيد من الجرأة في تشخيص أمراضنا ونقائصنا تمهيدا لبناء انسان عربي سليم معافى .

مؤتمر ومهرجانات ...

في الحادي عشر من كانـــون الاول الماضي ،انعقد في دمشق والموصل مؤتمر الادباء العرب الثامن ومهرجان الشعر العاشر في العاصمـــة السورية ، ومهرجان ابي تمام في الموصل ... وتفرق الادباء والشعراء بين البلدين العربيين ، وكان همّ كل بلد ان يجتذب اليه حملة القلم من كل قطر ... وقامت ، في اللحظات الاخيرة ، مساع حثيثة لتجنيب الادباء هذه الفرقة ، حفاظا على روح التضامن الادبي من ان يصدّعها ما هو خارج عن الادب ، ولكن هذه المساعي آلت الى الاخفاق ، فانعقد المؤتمر والمهرجان في اليوم نفسه !

هذا العدد الخاص ، تحاول به « الآداب » ان تنجح المسعى الذي أخنق ، فتجمع بين المؤتمر والمهرجانين ... ولقد كانت مادة المؤتمر أغزر بالطبع، فاحتلت معظم صفحات العدد . المهم في الامر اظهار هذا الرمز ، رمز اللقاء والتضامن بين الادباء العرب الذي كانت هذه المجلة ، منذ صدورها ، وما تزال تجسده أفضل تجسيد ...

« التحرير »

وابتداء من العدد القادم ، ستعـود الى « الآداب » أقلام بدأت منذ سنوات بعيدة تخط على صفحاتها سطورها الاولى ، ولكنها ما تزال تنبض بالقوة والفتوة ، وتشارك في تحديد اطار المرحلة الجديدة من تاريخ ادبنا الحديث ، تلك المرحلة التي شقت للابداع الادبي آفاقا مشرقة في الشعر والقصة والدراسة .

ولايمان هذه المجلة بأن الفكر الغربي والشرقي يقدم لنا زادا ثمينا في درب خلق ثقافتنا الجديدة ، فاننا سنعنى بتقديم المزيد من الدراسات عن الآداب الاجنبية ونماذجها المعبرة التي ان ضاق صدر المجلة باستيعابها ، فان « دار الآداب » سوف تسعفها في ذلك .

وستحاول المجلة كذلك ان تدخل تنويعات جديدة في ابوابها ، تبدأها في العدد القادم بتقديم عشرة نقود لمؤتمر الادباء العرب الثامن ومهرجانه الشعري ، يكتبها عشرة نقاد من الوطن العربي ، متناولين فيها ابحاث مؤتمر دمشق التي ننشر في هذا العدد اكثرها ، لا اقرارا منا بأهمية هذه الابحاث ، التي كان معظمها في الواقع دون المستوى المفروض فيه ، بل لنتيح لمؤرخي الادب ونقاده وللقراء في وقت واحد مجال النقد والتقييم والنقاش .

وعلى ذلك ، فاننا لا نعتبر هذا العدد الخاص مثالا لما نريده « للآداب » من تجديد ، بل وسيلة لتقديم هذا المثال في الاعداد التالية .

وفي خطة المجلة لهذا العام وللاعوام القادمة ، أن تقدم بين الحين والحين اعدادا خاصة في موضوعات معينة تقترحها على الدارسين والنقاد لمعالجتها على نحو شامل يوفر للقارىء معرفة معمقة بتلك الموضوعات .

وستقدم كذلك اعدادا خاصة عن آداب البلاد العربية تتناول دراسات مستفيضة ونماذج جديدة معبرة عن تطور تلك الآداب . ولما كان القارىء العربي غير مطلع اطلاعا كافيا على آداب شمال افريقيا العربية ، فستبدأ المجلة باصدار عدد خاص عن « الادب التونسي » الحديث ، تتوخى من تقديمه شد أواصر الاخوة الادبية ، بله العربية ، مع هذا القطر الشقيق الذي يدخل مرحلة انفتاح صريح يرحب بها كل عربي مخلص يطمح الى توثيق عرى التضامن العربي في كل مجال . وسوف تكون اعداد مماثلة مخصصة لاقطار عربية اخرى .

* * *

ولا بد أخيرا من كلمة حول وضع « الآداب » المادي وهو أمر يعني القارىء حتما ما دام حريصا على استمرار المجلة في الصدور ، وما دام يدفع ثمن النسخة التي يقتنيها كل شهر .

فلقد أصبح امرا مفروغا منه ان المجلة الادبية ، في العالم العربي ، مجلة خاسرة حتما من الناحية التجارية . وهذا هو السر في اغلاق المجلات الادبية واحدة بعد الاخرى . وليست هناك وسيلة لاستمرار الصدور الا في ان تكون المجلة صادرة عن وزارة مسؤولة ترصد لها ميزانية لا تحسب حساب الربح والخسارة ، بل يكون ارتباطها بها اصلا لسد خسارتها حين تحصل .

و « الآداب » مجلة مستقلة لا علاقة لها بأية مؤسسة حكومية ، وترفض اصلا ان توصي عليها أحدا ، كما ترفض ان تتلقى « اعانة » بغير مقابل . ولكنها لا ترفض طبعا ان تتلقى « اشتراكات » محددة الاسعار في الصفحة الاولى من كل عدد ، بل هي لا ترى سبيلا لثباتها واستمرارها الا في تضاعف هذه الاشتراكات ، سواء كانت من الافراد ، او من المكتبات والمؤسسات العامة . وهذه الاشتراكات حتى الآن ضئيلة نسبيا ، والمورد الاساسي للمجلة يأتي من البيع في السوق ، وهو بيع تأكل المكتبات معظم ربحه. ولو ان نصف القراء الذين يشترون المجلة من السوق يستعيضون عن ذلك بتحويل قيمة اشتراكهم الى الادارة ، لتجنبت « الآداب » كل المصاعب والازمات . وهي على اي حال ، ستظل صامدة قوية ، وسنظل نبذل لها من جهدنا ونشاطنا ما دمنا على قيد الحياة .

وتحية مخلصة صادقة لاسرة « الآداب » ، كتابا وقراء في هذا العام العشرين من عمرها ، آملين ان يكون عام النصر والتحرير .

سهيل ادريس

الأديب العربي ومشكلات الالتزام

بقلم الدكتورة سهير القلماوي

كنا يوم اجتماعنا في مؤتمرنا السابع في بغداد من اكثر من عامين ونصف متلهفين لان نعرف هل يؤدي الاديب العربي دوره في المعركة وما هي العوائق او الصعاب التي تعترض طريقه ومن هنا جاءت نداءاتنا بحرية الاديب وبضرورة التمكين لتراثنا العظيم من ان يؤدي دوره الضخم الفعال ويحل مشكلات النشر والتوزيع اي مشكلات التقاء الاديب بجمهوره . وكان قربنا النسبي من النتائج الاولى للمعركة يتحكم في كثير من مرئياتنا وافكارنا ويحكم تصورنا وما قدرناه انذاك ممكن العمل سهل التحقيق .

ولقاؤنا في هذا المؤتمر الثامن هو الدليل على هذه اللهفة المتجددة والبرهان على ان ضمير الادباء العرب ينوء بمسؤولية ضخمة لا يكفي ازاءها ان يدرك الاديب انه ملتزم بالقضية قد نذر قلمه وفعله للمعركة حتى النصر ، وانما هو يريد ان يلقي رفقاء سلاح الكلمة ليتدارس ما فعل وما يمكن ان يفعل . ذلك ان الايام قد اثبتت ان المعركة ليست طويلة شاقة فحسب ولكنها ايضا مراوغة لا تتحكم فيها معطيات علم السياسة كما عرفناه حتى اليوم ولست اقول منطق الحق او العقل لان السياسة الدولية لا تعترف بحق ولا بعقل .

وكنا في مؤتمرنا السابق حريصين على ان نستعرض نتاجنا الادبي وخاصة بعد الخامس من حزيران لنرى من خلال العرض ماذا استطاع الاديب ان ينجز في هذه الفترة . ولقد استعرضنا هذا النتاج في جملة دراسات لاحقة للمؤتمر فدرسنا شعر المعركة وقصصها ورواياتها ومسرحها وحللنا هذا النتاج في مجلاتنا الادبية واستطاع كثيرون ان يشيروا الى تطلعاتهم في هذا المجال .

وباستعراض هذه الابحاث وقد اطلعت عليها قدر المستطاع خرجت بنتائج اجملها في مستهل بحثي لمقدمة موضوعي الذي ارى انتهاز فرصة تجمعنا لنفكر فيه جميعا ونخرج منه بعلامات هادية على طريق نضال الادباء في المعركة . ان اهم هذه النتائج هي ان ادب المعركة لم يولد مع الهزيمة في الجولة الاولى يوم ٥ حزيران (يونيو) وانما كان هناك ادب قبل المعركة يتنبأ ، كما يجب لكل ادب ان يتنبأ ، بان المجتمع العربي يجتاز فترة انحلال وتجزؤ وتفسخ داخلي حتى داخل القطر الواحد لا بد مؤدية الى كارثة وشيكة . لقد نقد الاوضاع كثيرون من الادباء حتى الذين كانوا يوافقون على الخطوط العريضة او العامة . ذلك انهم كانوا يرون خيانة ما في طريقة التنفيذ او عبثا واضحا ببعض القيم الاساسية . ومع كثير من الاحداث الخطيرة المؤسية مثل حدث تحطيم اول صورة تنفيذية للوحدة العربية سطعت الاضواء امام نظر الاديب ليرى امراض المجتمع العربي وان لم يوفق في كثير من الاحيان الى استشفاف المستقبل الكفيل بازالتها او الوسائل المؤدية الى تغيير المجتمع تغييرا جذريا .

كذلك استطاعت هذه الدراسات ان تبين المراحل المختلفة التي مر بها ادب المعركة قبل الهزيمة وبعدها عند شاعر خاص مثلا كالشاعر محمود درويش ودراسة الناقد الدكتور عبدالقادر القط له (مجلة المجلة مارس سنة ١٩٧١) او في المسرح والقصة مثلما فعل الناقد غالي شكري في بحثه في المؤتمر السابع او في الرواية وحدها في اخر بحث له في مجلة الطليعة (اغسطس سنة ١٩٧١) او في الادب عامة كما نجد في بحث الدكتور شكري عياد في المؤتمر السابع او في الشعر خاصة كما نجد في بحث الاستاذ خيري حماد للمؤتمر السابق . وهذه المراحل تبين اختلاف موقف الاديب من التنبؤ بالمأساة مثلما نجد في شعر ابراهيم طوقان والخطيب وابو سلمى الى البكاء على حدوث المأساة واقامة دولة اسرائيل على تل من جماجم كل القيم الانسانية وكل القوانين الدولية ثم الى الايمان بضرورة المعركة الطويلة والحث على الثورة حتى جاء الخامس من حزيران المشؤوم فهب الشعراء خاصة يعذبون الذات يصرخون ويلطمون الخدود وفي لسعة الحزن العميق يتهمون ، حتى افقنا من الهول على واقع صلد جامد يحتاج منا الى عزيمة الصمود ولهيب الفداء لتغييره .

ولست استطيع ان اعرض لكل هذه الدراسات ولم اشر الا الى بعضها ولا ان اعطها حقها في مواكبة آنية لادب هو في نظري آني ايضا ولكنه كله علامة على الطريق . فهذه الدراسات الجادة قد حاولت ان تستلهم واقع هذا الادب وان تشير في وضوح وربما في بساطة ايضا الى الدور المنتظر لهذا الادب ما دامت المعركة مستمرة وما دمنا ما نزال نتطلع الى نصر حاسم فيها .

واننا جميعا قد قرأنا وسمعنا الكثير من هذه الاعمال الفنية منها ما اثار فينا فكرا او انفعالا ومنها ما خرجنا من معاناة

تجربته بشيء من الفتور او السخط احيانا اخرى وكنا بعد ان نعود الى انفسنا في كل مرة نحاول الاجابة على سؤال ما يزال يتردد كيف يمكن للادباء والشعراء فعلا ان يقوموا بدور اقوى واشد في سبيل النصر في معركة المصير .

اما ان الاديب الحديث ملتزم بقاضايا قومه وعصره فهذه بديهية لم يعد يناقشها احد ومنذ ان افاق العالم الغربي على حالة التفسخ التي قادته الى حرب عالمية ثانية خرج فيها المنتصر والمنهزم مهزوميين والنقاد شرقا وغربا قد قتلوا هذه القضية بحثا . واخذت جمعياتهم ومؤسساتهم وافرادهم يعملون من اجل ما سموه بالسلام ، وعلى قبر الضحية الرامز لمأساة هيروشيما ونكازاكي التي عرت الامبريالية الاميركية وفضحتها . نقش اليابانيون هذه العبارة « حتى لا يحدث هذا مرة اخرى » نعم حتى لا يموت ملايين البشر في سبيل اطماع الاستعمار والامبريالية يجب ان نذكر دائما ان علينا واجبا مقدسا. ولقد وضعت منظمة اليونسكو التابعة لهيئة الامم هذا القول شعارا لها ما دامت الحروب تنبت اصلا في عقل الانسان ففي عقل الانسان يجب ان تبنى معاقل السلام » .

ونسأل انفسنا في مرارة ماذا فعلت هذه الاقوال وهي ما زالت شعارات انسانية رفيعة في سبيل السلام في سبيل الا يحدث هذا مرة اخرى .

اذا كنا نحاسب على سياسة او اقتصاد فان الحساب عسير ولكنا اذا كنا نحاسب على دور الفن والادباء خاصة فاننا ولا شك نستطيع ان نتطلع الى المستقبل في تفاؤل نسبي . ولهذا فان ادباءنا يستطيعون الكثير لو ان جهادهم بالكلمة فتح لهم افاقا جديدة لا لمجرد الاخذ عن الغير ولكن للمساهمة بدورهم في سبيل السلام . السلام العادل في الوطن العربي اولا ثم في العالم كله . فليست هناك امكانية انعزال هنا وهناك حرب فيتنام حرب الهند وباكستان الاستعمار في افريقيا ومشكلات التفرقة العنصرية احتلال ايران لجزر الخليج العربي كل هذه وغيرها وجوه متعددة لنشاط اعداء السلام وكلها بلا استثناء تعكس اوضاعها وتاخذ وتعطي من قضيتنا العربية ومن حربنا مع اعداء السلام.

وهكذا نجد ان عالمية الجهود من اجل السلام لا بد ان تكون نبراسا يستعين به الاديب العربي حتى لا تفقد قضيتنا بانحصارها او محدوديتها ثقلها الدولي سياسيا او ثقلها الانساني فنيا .واقصد بثقلها الانساني فرصة الانفتاح على نماذج من متعددة من كفاح الانسان اينما كان في سبيل ان يتخطى بارادته الحرة الثائرة واقعا لا يرضاه لانسانيته وفرصة الانفتاح على الفكر الحر والاراء الخصبة بل فرصة الانفتاح ايضا على التجارب الفنية شعرا ونثرا ومسرحا وقصة في سبيل تليين القوالب وتطويع الاشكال لتحمل اشواق الاديب وتطلعنا الى الجماهير العريضة التي يعبر عنها وينطق بلسانها . ولكن النقاد شرقا وغربا خارج الوطن العربي ان كانوا قد انتهوا من حسم قضية الالتزام فانهم ما يزالون يختلفون فيكيفية القيام بدور الملتزم ما هذا الذي يلتزم به الفنان وكيف يلتزم به بل كيف يطوع الاشكال الفنية لتعبر عنهذا الالتزام .

وفي سبيل الرد عما يلتزم به الاديب او الفنان لا يكفي ان تقول انه يلتزم بقضايا المجتمع او الناس او الجمهور اذ اننا نتساءل منالذي يبلور هذه القضية ، والاهم منذا الذي يرسم الجهاد في سبيلها ويضع الهدف القريب والبعيد لهذا الجهاد . مرة اخرى انهم المفكرون في كل امة وكل عصر والادباء من هؤلاء المفكرين دون ريب صحيح انه عندما تختفي من حياة الناس القوة التي توحد فيما بينهم وعندما تبدو متناقضات المجتمع وكانما لها كيان مستقل يتضخم بمرور الزمن وبسلبية افراد المجتمع فتنشأ الحاجة فعلا الى فلسفة تستهدف التغيير ولكن هذه الفلسفة ليست من صنع فلاسفة بالمعنى القديم انها من صنع المفكرين بل ليس المفكرين وحدهم وانما هم المفكرون المتفاعلون مع الجمهور الصاحب الاول لكل قضية اجتماعية والمجاهد الاصلي في كل جهاد في سبيل التغيير الجذري الذي من دونه لا يمكن ان تقوم معركة .

ومجتمعنا العربي مملوء بالمتناقضات المتضخمة ولا بد لنا من فلسفة سياسية واجتماعية واقتصادية متكاملة هي خلاصة فكر المفكرين العرب وجهاد الامة العربية العريضة بحيث تتضح لنا معالم القضية العربية العامة الشاملة . ان معركة المصير المحتومة مع العدو ليست بداية المطاف ولا نهايته وحتى النصر واسترداد الارض السليبة ليس هو نهاية المطاف انه خطورة اساسية على الطريق ولكن طريق العرب ممتد الى آفاق اوسع وارحب .

ان قضية العرب هي تحقيق وجود الانسان العربي بكل امكانيات العمل الخلاق في سبيل عيشه وفي سبيل تحقيق ذاته وفي سبيل مساهمته الفعالة في الاحداث التي تصنع بها الانسانية مستقبل البشرية كلها . ان للعرب تاريخهم وفلسفتهم وواقعهم وكيانهم الانساني المتميز من وجهة والمتحد مع سائر الكائنات الانسانية من جهة اخرى. وكل هذا يحتاج الى جهود فلسفية وعلمية لاستبيان حقيقته واستخراج خصائصه وايجاد فلسفة او ايديولوجية عربية حقة . ايديولوجية لا تهدف الى مجرد الرفاء المادي او التقدم العلمي وانما هي تستهدف تحقيق الذات الانسانية عن طريق العمل الخلاق والثورة المتجددة والارادة الحرة .

والتراث والواقع في العالم العربي لا بد من ان يتفاعلا في عقل المفكر العربي المعاصر لاستخراج هذه الايديولوجية الجديدة التي سترفع راياتها في الجهاد وبعد الجهاد لتكون لنا نبراسا على هديه تحقق الوجود العربي الكريم . ولا يمكن لاية ايديولوجية مستوردة ان تقوم مقام الايديولوجية المستوحاة من واقعنا المبنية على ما يجب ان يبقى من تراثنا والتي يمكن ان ترسم لنا من خلال تطلعاتنا ماذا سيكون عليه التطور العربي في الغد .

ان شعارات الكفاح في معركتنا المصيرية والهاب الحماس الجماهيري لخوض معركة التحرير ليست على اهميتها وخطرها كل شيء . بل انها ليست وهذا ما احب ان اؤكده مما يترفع عنه الاديب او المفكر ولكنها وحدها لن تؤدي الى اعمال موقوتة محددة وانجازات صغيرة مشكوك في فعاليتها . ولا بد من فلسفة عربية تصنعكل هذه الاعمال الآنية في سلسلة البطولات المطلوبة التي من حصيلتها تصل الى البناء الشامخ المحقق لتطلعات الشعب العربي في المستقبل الفسيح الافاق .

ولست بحاجة الى القول بان تاريخنا الحديث والوسيط مختلف اختلافا كليا عن تاريخ اوروبا الحديث والوسيط وان العامل العربي او المصري لم يمر بنفس التجارب التي مر بها العامل الاوروبيعندما غزت الآلة عندهم كل مرافق الحياة وتضخم الانتاج وانعدمت الصلة الروحية بين المنتج والسلعة والمستهلك وتجاربهم الاخرى الكثيرة ، بل ان الفلاح العربي لم يشهد بعد عصر المكننة في العمل الزراعيكل هذا يحتاج منا الى دراسة الواقع العربي تفصيلا حتى نصل مستفيدينبكل الفلسفات العالمية والايديولوجيات المختلفة الى فلسفتنا العربية ، صحيح ان هذا لن يؤجل معركتنا او يخفف من سرعة خطاها وصحيح ان هذا لا يمنع من ان نصب جهودنا في سبيلتحرير الانسان الحديث من الاستعمار والامبريالية الدولية ولكنا ما دمنا نؤمن باننا لا بد ان نحارب ونبني معا وفي وقت واحد فان البناء يكون ارسخ قدما واوضح خطة لو اننا عرفنا كيف نبني وبهدف ماذا نبني وكذلك فان حربنا ستزداد قوة وحرارة وحيوية لو عرفنا اننا انما نحارب في سبيل غايات قريبة واخرى بعيدة وانها كلها تحقق تطلعاتنا شعبا وافرادا التي شكلناها على نحو بعيد . واخيرا لا بد

ان نذكر دائما ان ثورتنا متجددة ابدا وان تطلعاتنا لا نهاية لآفاقها .

تأتي بعد ذلك المشكلة الفنية الحقة وليس كيفية التعبير عن فلسفتنا العربية . اننا على مدى تاريخ طويل قد اوجدنا تقاليد فنية وصقلنا ادوات موروثة ، كما طوعنا ادوات واشكالا مستوردة .ولكنا فيما ازعم نواجه مشكلات تعبير خاصة تحتاج منا الى اعمال فكرنا الخاص في سبيل ان نتغلب عليها . لنا من تقاليدنا مثلا ان الفن كان دائما في خدمة الجماعة حتى وان انحرف في بعض عصور الانحراف فقد كان الفن الرسمي ينحرف احيانا ولكنه الفن الشعبي ظل معبرا عن الشعب حاملا اشواقه واحلامه وتطلعاته . لذلك قد نفيد من دراسات لصور دور الفنان في حضارات غربية ولكنا لا نستطيع ان نطبقها كما هي على حالنا . دور المنشد الشعبي كان عندهم شاعرا ممتازا او رئيسا للجوقة او الى غير ذلك من صور ، والمنشد الشعبي كان عندنا شعبيا بكل معنى الكلمة لا يمتاز الا بموهبته المحدودة التي تبعده عن جمهوره لقد ظل من صميم الشعب طوال العصور وعلى مدى الازمان. اتصال الفن بالسحر وبالاديان ودور الاسطورة موضوعات رئيسية في الفن الواقعي بل في الواقعية الاشتراكية في الفن ايضا فهل يمكن ان نقارن هذا الاتصال كما تجلى عندهم بصورته التي تجلت عندنا قد نستفيد من الدراسات ولكنا لانستطيع ان ننقلها من بيئتها ونلون اها لنؤقلمها عندنا . نجد في تاريخ المذاهب الفنية مثلا مجموعة من المحاولات التي قصد بها احياء الفن والادب بعد ان انهارت انظمة قديمة بقيمها الثابتة واخذت انظمة جديدة بقيمها الثورية المتجددة تحل محلها ، وبتغير العلاقات الاجتماعية كلها ، علاقة العامل بحركة الانتاج اداة وسلعة ومستهلكا وبحركة انحسار البرجوازية امام الفكر الاشتراكي الجديد . هذه المحاولات التي تسمى سماء عديدة واقعية او وجودية او رمزية او مصطلحات اخرى من دنيا الفن التشكيلي او من دنيا الفلسفة كالعدمية والتفتت واللانسانية والشيئية لا شك انها درست دراسات مثمرة لقيتة واثارت حولها جدلا عنيفا واثارت السبيل امام كثير من المبدعين كتابا وشعراء وفنانين وفتحت الآفاق للتجديد المستمر وللتعبير المستحدث ولكنا ننسى فيغمرة التفكير فيها انها لا تمت الى واقع ادبنا الا بصلات محدودة حقا كانت عندنا مذاهب ادبية تتبنى الفن البرجوازي وتدافع عنه . هل كانت عندنا ثورة برجوازية على الاقطاع اوجدت رومانسية ثائرة ثم تداعت القيم البرجوازية امام واقع جديد فادى ذلك الى حيل فنية او مستحدثات في سبيل البقاء ، بقاء الاشكال البرجوازية في الفن . اذا لم يكن عندنا هذا بتفصيلاته فهل كان موجودا في عمومياته . كل هذه امور لا تحتاج الى نفيثم اخفاء رأس النعامة في الرمال انها تحتاج منا الى دراسة جادة قبل النفي او الاثبات دراسة لواقع المجتمع وللتغيرات التي حدثت فيه ولانعكاس هذا كله على الادب ولدور الادب في احداث التغيرات الثورية التي تمت في العالم العربي .

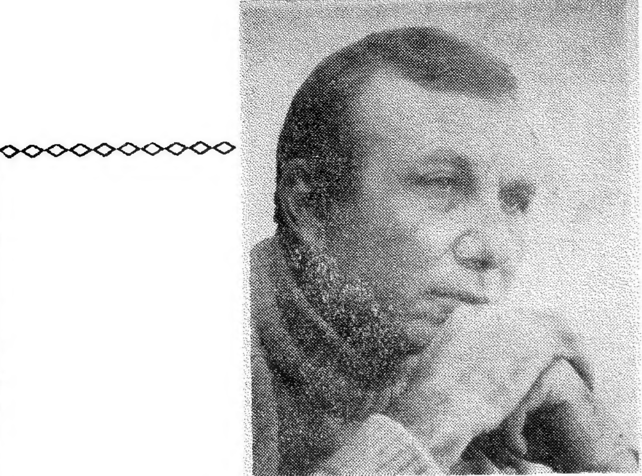
كذلك موقف الدين وعلماء الدين من حركاتنا الوطنية ودور الدين في فلسفتنا وتغلغله في حياتنا اليومية واثر النص القرآني الكريم وهو ذروة في الروعة الفنية ، ولقد يقرأ مرات ومرات يوميا وتعتاده الاذن العربية حتى الاذن الامية ، ثم اثر كل هذا في الفكر وفي الاراء وفي اللغة ذاتها التي يعبر بها الاديب . هذه كلها مشكلات وقضايا ولا تعارض بين ان نسير قدما في نضالنا ومعاركنا من اجل التحرير وفي الوقت نفسه تتخذ هذه الموضوعات اهميتها ومكانتها من عملنا البناء في سبيل تغيير المجتمع عن طريق الفكر .

اما مسالة علاقة الفن بالدعاية فهذه ايضا من اهم ، ان لمتكن اهم ، نقاط الرد على كيف يعبر الاديب الملتزم عن فكره وعاطفته ازاء مشكلات المجتمع وقضاياه . ان المباشرة التي ظهرت على اعمالنا الفنية عقب النكسة بل قبلها ايضا مسئولة ولا شك عن تعطيل دور الادب وفقدانه السحر الذي يجب له ليؤثر في الجماهير . لقد عيبت المباشرة على الاعمال المسرحية على مسرح نعمان عاشور والفريد فرج ويوسف ادريس والشرقاوي ، ولقد حاول كل منهم بطريقته ان يفر من المباشرة اما الى التاريخ او الفانتازيا او الخيال والوهم ولكن ما زالت القضية غير متعمقة بسبب صعوبات التعبير غير المباشر في القضايا الراهنة وكذلك يتسم بالمباشرة المفقدة للجمال الفني كثير من مسرح لادباء الفلسطينيين انفسهم وشعرائهم مثل معين بسيسو في ثورة الزنج وشمشون ودليلة حتى شعراء الارض المحتلة على ما في شعرهم من نفحات الارض الحبيبة وحرارة المعاناة الواقعية ونار الثورة الحقة . لقد كان شعر درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وفدوى طوفان نفحة جديدة ملتهبة صادقة للتعبير عن مأساة الحقائق في نكسة حزيران ولكن المباشرة التي يقتضيها القرب الشديد منالتجربة وربما الانفعال المضخم بها قد ازرت بغير قليل من فنية هذا الشعر مما افقده اثره العميق الدائم .

وهنا يثور السؤال الجوهري في موضوع الالتزام وهو موضوع اطلق عليه خطأ اسم الشكل والمضمون وفصل فصلا تعسفيا بين شكل ومضمون في حين ان الفن يرفض هذا التقسيم رفضا باتا . لا يمكن لمضمون الا ان يفرض نفسه على الشكل فاذا كان المضمون فجا من الناحية الانسانية او الفنية فرض فجاجته على الشكل الفني . حتى في الموسيقى عندما يخفت دور المضمون ويكون الفن او يكاد ان يكون شكلا صرفا نجد الموضوع او المضمون يعرض نفسه ، يستبعد ايحاءات معينة من انواع بعينها من الموسيقى ، ويضرب النقاد لذلك مثلا بمرثية لينين الموسيقية وهل يمكن للحن يوحي بالقداسة الدينية او المارشات الجنائزية الاسطورية ان يدخل في نسيج لحن رثاء رجل مثل لينين وكذلك هل يمكن للالحان الحربية والاناشيد الحربية ان توحي برثاء رجل ليست عظمته عظمة حربية باي حال . وهكذا نجد الدراسات العديدة التي اثبتت بشتى الطرق كيف ان الشكل والمضمون كل لا يتجزأ .

وجاءت وسائل الاعلام الحديثة ففرضت بقوتها الجبارة تغيرات هامة في اداة الادب وشكله ، لقد احتضنت اول الامر اشكالا منالادب كالمسرحية والشعر والقصة القصيرة ثم اخذت تنشىء اشكالا جديدة خاصة بها في هذه النواحي . واكتفت بان تستلهم المسرحية الادبية مؤكدة ضرورة نمو المسرحية الاذاعية باسلوب اخر ، وكذلك الشأن في القصة . ثم وقفت من الشعر موقفا مختلفا احيته بالانشاد بصوت الشاعر نفسه وما زالت حائرة في وسائل ايصاله عن طريق مصاحبة اللحن والصور الخاصة ولكنها كلها تجارب . ووقفت اشكالنا الادبية على تخوم هذه المشكلة ولم تدخلها بعد . لقد ترفع الادباء عن ادب الدعاية وهذا موقف لا يتمشى اطلاقا مع متطلبات المعركة . ان الادباء العرب لا بد ان ينزلوا بكل ثقلهم ليطوروا ما استطاعوا اساليب الدعاية واشكالها ، فهي الصلة الواقعية بالجماهير العريضة اى هى الصلة الحقة بالجنود الاصلاء فىالمعركة. على ان يعرفوا ويعترفوا ان ادب الدعاية ليس الادب بمفهومه المتعارف عليه وانه وهذا هام جدا لا ضير اطلاقا ان ينشىء الاديب نوعين من الادب مساهمة منه فى الا تترك الجماهير فريسة الاساليب التافهة والمفاهيم المتخلفة التى تلجأ اليها الدعاية في غياب ما هو افضل فتكتفي بما يستطيعه خراؤها . ان خبير الدعاية خبير فى اعداد بعض المواد وخبير فى العرض والاداء ولكن محتوى المادة لا بد للادباء من ان يسهموا فيه عن قصد وعمد وبارادة واضحة. لا بد للاديب من ان يحاول اتقان الوسائل والاساليب التى تجعل

ـ التتمة على الصفحة ـ ٩٦ ـ



من مذكرات عاشق دمشقي

فرشت فوق ثراك الطاهر الهدبا
فيا دمشق . لماذا نبدأ العتبا ؟
حبيبتي أنت . فاستلقي كأغنية
على ذراعي . ولا تستوضحي السببا
أنت النساء جميعا . ما من امرأة
أحببت بعدك ، الا خلتها كذبا
يا شام . ان جراحي لا ضفاف لها
فمسّحي عن جبيني الحزن والتعبا
وأرجعيني الى أسوار مدرستي
وأرجعي الحبر ، والطبشور ، والكتبا
تلك الزواريب . كم كنز طمرت بها
وكم تركت عليها ذكريات صبا
وكم رسمت على حيطانها صورا
وكم كسرت على أدراجها لعبا

□

أتيت من رحم الاحزان يا وطني
اقبّل الارض ، والابواب ، والشهبا
حبي هنا . وحبيباتي ولدن هنا
فمن يعيد لي العمر الذي ذهبا
أنا قبيلة عشاق بكاملها
ومن دموعي سقيت البحر والسحبا
فكل صفصافة حولتها امرأة
وكل مئذنة رصعتها ذهبا ..

□

هذي البساتين .. كانت بين امتعتي
لما ارتحلت عن الفيحاء مغتربا
فلا قميص من القمصان .. ألبسه
الا وجدت على خيطانه عنبا
كم مبحر ، وهموم البر ، تسكنه
وهارب ، من قضاء الحب ، ما هربا

□

يا شام . أين هما عينا معاوية
وأين من زحموا بالمنكب الشهبا
فلا خيول بني حمدان راقصة
زهوا .. ولا المتنبي مالىء حلبا
وقبر خالد في حمص نلامسه
فيرجف القبر من زوّاره غضبا
يا ربّ حيّ ، رخام القبر مسكنه
وربّ ميت على اقدامه انتصبا ..
يا ابن الوليد .. الا سيف تؤجره
فكل أسيافنا ، قد أصبحت خشبا

□

دمشق . يا كنز أحلامي ، ومروحتي
أشكو العروبة أم أشكو لك العربا
أدمت سياط حزيران ظهورهم
فأدمنوها ، وباسوا كفّ من ضربا
وطالعوا كتب التاريخ ، واقتنعوا
متى البنادق كانت تسكن الكتبا

سقوا فلسطين أحلاما ملونة
وأطعموها سخيف القول والخطبا
وواعدوها ، وما جاؤوا لموعدها
وأسكروها ، وكانت خمرهم كذبا
عاشوا على هامش الاحداث ، ما انتفضوا
للارض منهوبة ، والعرض مغتصبا
وخلفوا القدس فوق الوحل عارية
تبيح عزة نهديها لمن رغبا ..
هل من فلسطين مكتوب يطمئنني
عمن كتبت اليه ، وهو ما كتبا
وعن بساتين ليمون ، وعن حلم
يزداد عني ابتعادا كلما اقتربا
أيا فلسطين . من يهديك زنبقة
ومن يعيد لك البيت الذي خربا
شردت فوق رصيف الدمع ، باحثة
عن الحنان ، ولكن ما وجدت أبا
تلفتي .. تجدينا في مباذلنا
من يعبد الجنس أو من يعبد الذهبا
فواحد أعمت النعمى بصيرته
فللخنى ، والفوائي ، كل ما وهبا
ووأحد ببحار النفط مغتسل
قد ضاق بالخيش ثوبا فارتدى القصبا
ووأحد نرجسيّ في سريرته
ووأحد من دم الاحرار قد شربا
ان كان من ذبحوا التاريخ ، هم نسبي
على العصور ، فاني أرفض النسبا

□

يا شام . يا شام . ما في جعبتي طرب
أستغفر الشعر أن يستجدي الطربا
ماذا سأقرأ من شعري ، ومن أدبي
حوافر الخيل داست عندنا الادبا
وحاصرتنا ، وآذتنا ، فلا قلم
قال الحقيقة .. الا اغتيل او صلبا
يا من يعاتب مذبوحا على دمه
ونزف شريانه ، ما أسهل العتبا
من جرّب الكيّ لا ينسى مواجعه
ومن رأى السم ، لا يشقى كمن شربا
حبل الفجيعة ملتف على عنقي
من ذا يعاتب مشنوقا ، اذا اضطربا ..
الشعر ليس حمامات نطيّرها
نحو السماء .. ولا نايا .. وريح صبا
لكنه غضب طالت أظافره
ما أجبن الشعر ، ان لم يركب الغضبا

دمشق **نزار قباني**

نحو منطلقات جديدة في التزام الأديب العربي

بقلم
صدقي اسماعيل

« لو ان كاتبا واحدا في تاريخ الادب الانساني قد استطاع ان يلتزم حقا قضية مصيرية لما بقي لنا ما تكتب عنه » .

بمثل هذه العبارة الساخرة يعلق كاتب مسرحي معاصر على مسالة الحرية والالتزام في حياة الاديب . وعلى الرغم من انه قد يكون رأيا عابرا ، غير ان هذه المسالة في حقيقتها كانت تنطوي كل حين على مثل هذا الالتباس ، فما من كاتب ــ مهما يكن عليه من عدم الاكتراث ــ الا وهو ملتزم على نحو او آخر ، انه يكتب بلغة قومه ويطورها على الاقل ــ ومع هذا ، فان تاريخ الادب لم يعرف كاتبا استطاع ان يحل قضية انسانية كبرى او ان يتجاوز التناقضات في اية مشكلة على نحو يتيح للنتاج الادبي ان يكون عنصرا حاسما في صنع الواقع البشري .

ومع هذا فان هناك حوارا قديما بين الحرية والالتزام في العمل الادبي ، ما يزال مستمرا ، يحمل الينا حشدا لا نهاية له من المفاهيم المستهلكة والتصورات المألوفة ووجهات النظر المتباينة ، ولا بد من تحديد الجوانب الجديدة التي تسوغ لنا تناول البحث على نحو ما ، واعادة النظر في بعض المنطلقات المستحدثة ، اي التي تمليها المرحلة التاريخية الراهنة من تجارب الثقافة العربية المعاصرة ، وهذا هو الهدف الاول لهذا الموضوع ، بل ان تحديد هذه المنطلقات الجديدة ــ وقد اسفرت عنها هذه التجارب في السنوات الاخيرة ــ يمكن ان يكون اكثر تعبيرا عن الواقع الادبي بما تنطوي عليه معاناة الاديب العربي المعاصر من سلبيات المواقف العملية خلال المراحل ، وما يحمله التاكيد على العمل الادبي الجدد من ارتباط بالمرحلة وتفاؤل بالمستقبل .

اننا نقتصر في هذه الصفحات على التنويه بما يضاف في الحقبة الراهنة من مفاهيم الى هذا الموضوع ، ولا ريب في ان التاكيد على ما يضاف من جديد الى كل موضوع ، انما هو محاولة لفهم التاثير المباشر الذي يمثله واقع التجربة الانسانية في المرحلة على الفكر بصورة عامة . وليس من الصعب ان نتبين في هذا الصدد ما يمكن ان يعد من المنطلقات التي يقدر لها ان تلعب دورا كبيرا في كل حوار فكري او ادبي او عقائدي ، حول مسالة من هذا القبيل ، ممارسة الحرية في العمل الفني ، اللغة العربية في دورها القومي وحركتها التاريخية وطبيعتها « البدبعية » ، الثورة ومسالة الصراع ، المعرفة الفنية وشرعيتها في صنع الوجدان الجماهيري ... الخ .

في طبيعة القضايا الانسانية الكبرى ، حين تطرح مشكلاتها العديدة على الادب ، ان الحوار الجاد حولها ينطلق عادة من تصور المستقبل ، اننا نقف امامها كما لو انها منعطف حاسم ، علينا ان نتبين فيه صبغة معينة لكل مصير الاخرين ، ومن ثم فان كل دراسة مجدية لاية مشكلة من هذا القبيل ــ مهما تكن هذه المشكلة ثانوية عابرة ــ تفرض اكبر قسط من حرية الاختيار ، لا لانها تحتم الكثير من الوان الصراع الفكري فحسب ، بل لانها تنطوي دائما على شيء يتكون من جديد ، يصنع هنا او هناك ، على نحو او آخر ، ولا بد من تدخل الارادة البشرية في تحديد سماته الاخيرة ، او اعداد المناخ الصحي الملائم لان يصبح هذا « الجديد » صورة مغايرة للحاضر المثقل بالفجوات المزمنة ان لم تحمل هذه الصورة ملامح النقيض ، او البديل الذي انتزعت منه ــ على الاقل ــ كل دعائم الانهيار الراهن .

ومع ان هذه الحقيقة قد اصبحت تفرض نفسها على حياتنا الادبية في سلسلة لا نهاية لها من مفاهيم التمرد والثورة والنضال المصيري .. وغيرها من المفردات اللفظية المثيرة ، وعبارات « التعميم » الملتبسة ، فان صيغة « الادب ــ القضية » ــ على ما فيها من التصدي الجريء في عمليات التغيير ــ تمتد بجذورها البعيدة الى اعماق الواقع العربي وتبدو اشد ارتباطا بالتجارب الحية بكل ما تحمل هذه التجارب من طابع محسوس ملتصق بالمعاناة اليومية ، واضح المعالم ، وليس من الصعب ان نتبين الكثير من مظاهر هذا الارتباط ، من خلال المسائل الادبية الرئيسية التي تهيمن على واقعنا الثقافي منذ بداية القرن ، وتتمكن جيلا بعد جيل من تاكيد اولويتها وجدارتها .. وليس على صعيد البيئات الثقافية فحسب ، بل في بوادر الوعي الجماهيري ايضا ، محنة اللغة العربية امام الحضارة الحديثة ، كيف يتاح للاديب العربي ان يتمثل اصالة التراث اللغوي مثلا ، على نحو يمنح معاصريه قدرة التعبير عن معايشة العصر ، او يجسد لهم ولو في نتاجه الفنى المحض تجربة الانعتاق من بنى الاداء اللفظية او الشكلية او المتعثرة الركيكة في عصور الانحطاط ؟..

لا ريب في ان الحديث عن « محنة » في هذا الصدد ، قد ينطوي على المبالغة ، فقد استطاع الادب العربى الحديث ، في السنوات العشرين او الثلاثين الاخيرة ، على الاقل ، ان يمارس تجربة التحرر « اللغوي » ــ اذا صح التعبير ــ على نحو لا يخلو من الابتكار والتجديد ، غير ان مسالة اللغة ما تزال ــ وقد تبقى امدا طويلا ــ على احتفاظها بكل خطورتها عبر الاجيال المتعاقبة . وها نحن بعد اكثر

من قرن على بداية التنبه الثقافي بين العديد من الجماعات العربية المتباعدة ، نقف في بعض الاقطار امام مأساة من الاغتراب اللغوي الكامل تطرح مشكلة تعريب الجماهير من جديد ، مثلما نقف في اقطار اخرى امام اغتراب اشد تعقيدا ، تعانيه الثقافة ذاتها :

ان يتقهقر الاداء المشرق ، المرتبط بوضوح الحقيقة واصالة التجربة ، امام المحاولات الادبية الموغلة في تعثر العبارة وركاكتها احيانا ، وفي كل صور الالتباس والابهام ، ليس ما يدعو الى الحذر القلق ، انها محض محاولات عفوية متفردة ، تقتحم سياق الحياة الادبية ، بتأثيرات معينة ، بل انها تكاد ان تصبح بادرة التجديد الوحيدة في مستقبل الادب العربي الحديث .

ان ارتباطها الصارخ بكل ما هو « جديد » « معاصر » في تجارب الاجيال الناشئة ، يتجاوز كونها « بدعا » طارئة تعبر عن التمزق الوجداني الذي تعانيه الحياة العربية في مرحلة معينة ، - وهو التقييم « التقليدي » المألوف الذي يؤكد في تفاؤل صامت ، ان اصطفاء التاريخ الادبي ، سوف يعيد الى الممارسة الادبية بنيتها الصحية السليمة - غير ان هذا التفاؤل يبدو على جانب من السطحية ازاء ما ينال اللغة ذاتها من اغتراب عن متانة بنيانها وصفائه من ناحية وعن الحقيقة الانسانية من ناحية ثانية ، انها تجابه تيارا جارفا من الارتباك والهجنة في الاداء الفني ، قد يحمل في كثير من التجارب الرائدة كل معالم الاصالة والابتكار ، غير انه يشرع لكل جيل ناشىء منطلقا متعثرا لا يمكن ان يوصف الا بالخوف من الحقيقة والافتقار الى الصدق في معاناة تجربة الواقع .

ليس هذا التأكيد على مسالة اللغة منذ البداية ، محض مثال عابر عن العلاقة الوثيقة بين الادب وقضية الثقافة العربية في مرحلتها التاريخية الراهنة ، وما تحمله هذه القضية من اشكال الالتزام امام محاولات التغيير الحاسمة في مصائر الاخرين . بل ان ازمة التعبير التي تثيرها مسالة اللغة هي احد جناحي الموضوع في خطوطه الرئيسية الجناح الاخر يتناول منطلقا لا يقل خطورة ، يتمثل في اكتشاف الارضية الاجتماعية التي تتحرك فيها المبادرات المتعاقبة للعمل الادبي . ان التلويح بصيغة « الادب - القضية » او الادب والقضايا المصيرية، يضع امامنا مهمة البحث الجاد في ميدان لم يقدر له بعد ان يتذرع بالمنهجية العلمية الواضحة ، هو ما يتعلق بعلم اجتماع الادب العربي .. ان نبض الدراسات والبحوث النقدية والتقييمية التي يحملها تاريخ ادبنا المعاصر ، لم يلامس بعد الا جوانب محدودة من الاسس التي يمكن ان يقوم عليها « علم الاجتماع الادبي » ، الاديب والحياة بصورة عامة ، الاديب والالتزام العقائدي ، الادب وواقع التعليم ، الادب - والاحداث السياسية ... الخ .

وكثيرا ما تنتهي الدراسات في هذا الصدد ، بالنتيجة السلبية المألوفة : الافتقار الصارخ الى نظرية « عربية » حديثة في النقد او الادب ، او الى الناقد « الكبير » الذي يمتلك « شرعية » التقييم المعاصر ، او الى المنهج النقدي الواضح ، ولشد ما تتعثر هذه التطلعات في الواقع الادبي ، وتفتقر هي نفسها الى رؤية الحقيقة ، ذلك ان الذين يتوجهون بها الى الحركة الادبية يعترفون في الوقت نفسه ، بان علم اجتماع « الواقع العربي » البحت لم يتكون بعد ، وان النظرية المعنية لن تكون الا ثمرة لجدارة النتاج الادبي الفنية - وهي ما تزال موضع الارتياب او التساؤل على الاقل ، وان المنهج - مهما يكن مرتبطا بموضوعية العلم - لن يكون الا امتدادا لموقف عقائدي تمليه الرؤية الشاملة للحياة العربية المعاصرة .

لا ريب في ان التعرض لمثل هذه الصعوبات على هذا النحو الجذري الصارم ، يضعنا امام كل مظاهر الفراغ في حياتنا الثقافية دفعة واحدة ، وقد يكشف لنا عن الكثير من منزلقات الدراسات الادبية الراهنة في تحديد مشكلاتها ومناهج البحث فيها ، مما قد يوحي بان جميع البدايات خاطئة في طبيعتها وانها لن تلبث ان تجد نفسها جميعا في طريق مسدود ، غير ان هذا كله لا يحمل على اعادة النظر في جدوى المحاولات الغزيرة القيمة التي تصدت لرصد الحياة الادبية منذ مطلع القرن ، وتولت شتى الاجتهادات في تقييم النتاج المعاصر او تطلعت الى تقييم جديد للتراث القديم . لقد اتيح لهذه المحاولات ان ترفد تاريخ النقد الادبي في ماضيه وحاضره ، بالكثير من معطيات الثقافة العالمية في هذا المجال ، وان تطعم فكرنا الادبي - اذا صح التعبير - بشيء من « المنهجية » المعاصرة لا غنى عنها في تلافي المحاذير المألوفة الخطيرة في اساليب النقد المتبعة : الارتجال والموقف الشخصي ، والمغالاة في الادانة او التفريط ، والبعد عن الموضوعية من ناحية وعن الصفات المرحلية « التاريخية » للاثر الادبي من ناحية ثانية .

ومع ان الطابع التجريبي الواضح في عمليات النقد الادبي الحديثة يمهد الطريق للعمل الثقافي الجاد في هذا المجال ، فان التجريبية التي تستند في الغالب الى معايشة الحياة الادبية في واقعية جريئة ، لا تستطيع ان تتجاوز حدودها الضيقة الا اذا ادرجت محاولاتها جميعا في اطار البحث عن الخصائص المميزة لقضية الادب العربي كلها في هذه المرحلة - لقد كان ينبغي ان لا تبحث مسائل الادب في علاقتها بالقضايا الكبرى للحياة العربية ، وبالمصير العربي ، على نحو عام ، الا بعد تحديد المعالم الرئيسية لتلك الخصائص ، قبل ان نتساءل ماذا يستطيع الادب او الاديب في واقع معين ، لا بد من ان نتبين في شيء من الوضوح ، ما هو ادب المرحلة ، ومن هو الاديب في مجابهة القضايا المطروحة ؟

وفي هذا السبيل نجد انفسنا ملزمين باولى المنطلقات الاساسية للعمل الادبي في جذوره البديهية والاجتماعية معا .

ولئلا نوغل في تشتت « التجريبية » المرتجلة التي تغمر حياتنا الثقافية في هذا المجال ، فان حركة الواقع في تغيراتها العميقة، تفرض علينا منذ البداية ان نتنزع من كل موقف فني او ثقافي او قومي ، ما يشير الى الصفة التاريخية ليس في الظاهرة الادبية فحسب ، بل في دراستها وتقييمها ايضا ، ذلك ان ما هو « تاريخي » متحرك ، هو وحده الذي يطرح مشكلة الحرية والالتزام . ولا نملك من هذه « التاريخية » على صعيد الحياة الادبية ، الا هذا الاندماج التقليدي العريق بين حياة اللغة العربية وحياة الادب ، من جهة ، وهذا الارهاص العنيف الذي يهيمن به الواقع الاجتماعي ملوحا بالتجارب الجماهيرية بصورة خاصة ، على جدارة الاديب ومصيره .

على هذا النحو ياخذ الحوار حول مشكلات الحرية والالتزام صيغة الصراع الثقافي الجاد وهو يتناول موضوعاته الاساسية في تحديد واضح ملموس ، لما يستطيع ان يمارس الادب والنقد معا في عمليات التغيير ، مهما تكن عليه العبارات الدارجة في هذا المجال من تغطية الكلمات ، وعمومية المعاني واتساع ميادينها النظرية . ان الالحاح على صيغة « الصراع » بدلا من الحوار ، هو نقطة البداية في معايشة الواقع الادبي والثقافي معا ، بصورته المحسوسة الواضحة ، ما دام الامر يتعلق بما نستطيع ان ندعوه « الالتزام المصيري » بكل ما يمكن ان ينطوي من الابعاد . قد يكون في الحوار متسع ارحب لاكتشاف الحقائق ، وتعدد وجهات النظر ، وتعايش المواقف المتباينة ، غير انه قد ينطوي ايضا على اخطر المحاذير حين يسوغ لكل ان يحتفل

« بحقيقته » الخاصة ، وان يتطوع بكل الشروط الموضوعية « الممكنة » لكي يتنصل من مسؤولية الالتزام ، حتى في العمل الادبي المحض .

وليس ما هو اكثر دلالة على مثل هذا التنصل من موجبات الادب « المتبذل » او « الغث » وهي توشك ان تغمر الحياة الادبية ، تحت شعار « مساومة الواقع » ما دامت شروط التخلف في الحياة العربية اقسى من ان تقاوم ، فليكن الادب متخلفا ايضا ، بل ينبغي ان يكون . وما دامت العربية لم تبلغ مرحلة النضج « الحضاري » في التعبير عن روح العصر ، فلتدرج المخاطبة الجماهيرية المباشرة ، في اساليب الاداء الفني ، بكل ما تحمله من التهاون في تطلعات المرحلة الى بناء ثقافي جديد . بمثل هذه الصيغ الدارجة ، تنحدر التنازلات بالعمل الادبي الى المزيد من مظاهر الضحالة والركاكة ، والاساليب « البهلوانية » احيانا ، واصطناع الحذلقة احيانا اخرى ، فرارا من مسؤولية التعبير الجريء الحر . غير ان ما هو اشد خطرا في مثل هذا التنصل يكمن في تجاهل الشرط التاريخي الوحيد الذي يفرضه المناخ الثقافي الراهن ، نقطة انطلاق اساسية في حرية العمل الادبي والتزام المصير القومي في آن واحد ، انه لا بد من التعبير عن شيء من الايمان العميق بان هذا المناخ يحمل روح الثورة قبل كل شيء ، وانه لا حوار في قضية الثورة ولا مكان لاية وجهة نظر ترفض رؤية المعاناة الجماهيرية في حركتها التاريخية او تمنح نفسها حرية الاختيار في اتخاذ موقف محايد ، الا اذا كان هذا الموقف محاولة لتجريد العمل الادبي من محتواه الانساني ومن بنيته الحية المتجددة في آن واحد ...

ان اقحام « الثورة » بمفرداتها المتشعبة في مثل هذا الحوار الثقافي المحض ، كثيرا ما يبدو نوعا من اصطناع الازمات الفكرية ، لا يخلو من فرض الوصاية على المرحلة او التعنت العقائدي ـ كما يردد الكثيرون ـ غير ان رفض الحوار التقليدي حول هذه القضايا ، هو الذي يحتم التأكيد على ما هو ثوري في كل مسالة ثقافية او ادبية ، مهما تكن جانبية او ثانوية ، فعن هذا التأكيد وحده ، تصدر ضرورة التمييز بين موقف الالتزام المصيري « الجاد » وبين الموقف الحائر الذي يوصف عادة بعدم الاكتراث . وليس هناك موقف ثالث . ومن ثم فان هناك صراعا حقيقيا ، وان لم تتحدد صيغته « العلمية » الواضحة وتتبلور عناصره وابعاده . اما ان يكون العمل الادبي في الاتجاه التقدمي المتحرر لحركة المجتمع المرحلية ، ومن ثم فهو طرف في معركة، واما ان يكون في الاتجاه المغاير الذي لا نملك من وصفه « الاجتماعي » الا العبارة التي يستخدمها عادة فقه القانون في ايجابيته الوضعية : وهي عبارة « السكونية » على انها نهاية المطاف في تكوين القيم الاجتماعية ، بعد القيمتين الاساسيتين : التقدم والعدالة ، وما يعنينا من هذا المفهوم القانوني العريق ، هو الموقف الانساني الذي يمليه في الحفاظ على التوازن الاجتماعي ، وقد يتجاوز هذا الموقف حدود التشريعات التي تحقق هذا التوازن ، ويبرز التناقض بين القوانين « الجائرة » والقيم الاجتماعية والاخلاقية التي تحمل تعبيرا اوسع عن شروط الحياة الانسانية « العادلة » ـ غير ان ذلك كله لا يلغي خطورة الروح السكونية ـ اذا صح التعبير ـ في مرحلة تتعثر فيها اسباب التقدم ويشوه وجه العدالة ، ويتلفت فيها الوجدان الجماهيري ، بكل عفويته وشقائه ، الى منطلق حاسم للعمل ضد « السكونية » الاجتماعية الزائفة .

على هذا النحو ترتسم اولى ملامح الثورة . وتلوح في الوقت نفسه كل مغالطات العقلية « السكونية » وافتقارها الى الوعي التاريخي الحق ، فهي التي تتولى مساومة الواقع والاذعان لشروطه والدفاع عن اخطائه المزمنة ، في حشد من معطيات الخنوع المتوارثة ، تحمل فيها الثورة كل سلبيات الرفض والعصيان والشغب والتمرد والتزمت العقائدي والهيجان القطيعي المتهيج ، الا انها ـ اي الثورة ـ تجسد وحدها ممارسة الحرية الانسانية في خلق قيم جديدة وتكوين الانسان العربي المعاصر . ولا مجال لاستعادة جميع المعطيات « الثورية » المألوفة في هذا الصدد : ماذا يعني التكوين الجديد بالقياس الى العمل الادبي ، وما الذي تعنيه الثورة ذاتها ، في حركتها التاريخية ، وما هو الموقع الحقيقي المحدد للاديب العربي في صيرورة الاحداث المتعاقبة غير انه لا بد من التأكيد على ان للادب والاديب معا ، قسطا كبيرا من ممارسة التجربة الثورية كما تحياها المرحلة قد يتجاوز حدود الدور المباشر الذي يلعبه المثقف او السياسي او المناضل العقائدي .. ان الممارسة العملية قد تقف بهؤلاء جميعا عند حدود القضايا المرحلية الراهنة التي تغدق عليها تناقضات « الحاضر » كل الوان الخطورة المصيرية والمبادرة السريعة الحاسمة ، مما قد يعزلها في الغالب عن مسؤولية النظر في وراثات الماضي ، ورؤية المستقبل . اما ارتباط العمل الادبي بما هو مصيري في المرحلة ، فانه يفترض في « ثورية الاديب » ان تتمثل كل ما يمكن ان يمتد اليه وعي الوجدان القومي ، منذ ان ولدت الكلمة اداة للتعبير الفني عن هذا الوجدان في حساسيته الفنية وتطلعاته الاخلاقية ، الى ان تصدت لمهمتها الاكثر مسؤولية والابعد طموحا ، ان تسهم في اعداد ارضية طليعية جديدة للمصائر الانسانية التي لم تتكون بعد .

ومهما تكن عليه الثورة في الاطار السياسي او الاجتماعي او العقائدي ، من رؤية بعيدة لهذه المصائر ، ومهما تكن صيغتها معنية بما ينبغي ان يبقى من التغييرات الحاسمة ، بعد الثورة ، فان صفتها المرحلية وكونها محض وسيلة للتحرر ، يفرضان عليها ابدا، ان تستنجد بكل ما يمكن ان يتجاوز المرحلة من الوان الوعي والمعرفة ، وصور التعبير عن الحقيقة الانسانية .

وفي هذه الامور جميعا ، يمارس العمل الادبي ـ والفني بصورة عامة ـ وظيفة الكشف الجريء عن كل الجذور الدفينة في الواقع « التاريخي » الذي تعمل الثورة على تعرية تناقضاته وتبديل بنيته الاجتماعية من الاساس بكل قيمها المنهارة . في الوصف المألوف للثورة ان جميع الاسرار البشرية تصبح في العراء ، وان من العار ان يتراجع الانسان امام اخطاء الماضي ومخازيه . ان المرحلة الثورية تلزم الجميع بالتصدي لمشقة الكفاح من اجل البديل . قد يكون في هذه العبارات التقريرية الدارجة ، كثير من اعلاء شان العمل الادبي ، من شانه ان يؤكد الدور المزدوج للاديب : ان يحول الحقائق الانسانية التي تعريها الثورة الى قيم بديعية راسخة وان يكون مناضلا من اجل حرية التعبير في الوقت نفسه . غير ان كل ما يحمله هذا التأكيد من لفظية حماسية في واقعنا الراهن ، لا يزحزح الاديب العربي عن مكانه الطبيعي في عملية الثورة ، الا اذا اضطرته وصاية القيادة الثورية ، او تبعيته الطارئة للاندفاع الجماهيري ، الى التخلي عن مهمته الاساسية في ترسيخ القيم الجديدة في الوجدان الجماعي .

في مثل هذا التخلي تنعكس على موقف الاديب ونتاجه كل التناقضات التي تحملها قضية الحرية والالتزام ، وهي تشير جميعا الى منزلقات الثورية الكاذبة في التجربة الادبية . ان لا تكون اكثر من تحريض غوغائي في المناسبات المثيرة ، يصدر عما يدعونه عادة بالموقف البطولي .. او ان تقتصر هذه الثورية على التعبير « البديعي » المصقول عن وقائع « الثورة » باسم التاريخ الحي او الرواية الاسطورية التي ترصد نماذج الصمود او التمرد او الايمان بقضية الثورة لاتستمد شرعيتها الا مما تقدم من اجل ما بعد الثورة ، من اجل ان يتكون الوجدان الجماهيري المتبع الذي يقاوم في حسم نهائي كل محاولة جديدة لاستلاب الانسان والعبث بمصير الامة . واخطر ما يمكن

ان تتعرض له « الممارسة الثورية » من انحراف ، انما يلوح به هذا التساؤل العفوي : « ما الذي يتبقى من القيم الجديدة للاجيـــال القادمـة ؟ .. » .

في مثل هذه الارضية الصعبة ، يحمل الاديب العربي فـــي المرحلة الراهنة ، كل الوان المعاناة . ان شيئا من الحتمية التاريخية يفرض عليه الانتماء الى الواقع « الثوري » في حياة المجتمع ، الواقع الثوري الذي تمثله ارادة الانسان الجماعية في تغيير واقع آخر لم تبق من ملامحه الانسانية الا الانقاض . وسواء استنجدت هذه الارادة بالكفاح السياسي الذي يتوجه الى انتزاع السلطة وممارستها فـــي تحقيق المنجزات السريعة او اخذت صورتها الاجتماعية في تحالـــف طبقي جديد يمتلك بروحه التقدمية زمام المبادرة في صراع طويل الامد ، وسواء كان للكلمة « الفنية » ـ وهي ذريعة الاديب ـ اثر فعال مباشر في عمليات التفسير المرتقبة ، ام احتفظ بخصائص النخبة المتعالية التي تتوجه الى المستقبل الابعد ، فان الممارسة الحية للعمل الادبي الجاد ، تضع الاديب العربي في مسار التاريخ الذي يصنع من جديد . قـــد يكون للانتماءات الجانبية في حياته ، دور في تكوين شخصيته الادبية او فيما يتاح لاثاره من الوصول الى الجماهير ، غير ان « حقيقتـــه الفنية » بذاتها تمثل واقعا متحركا باتجاه التاريخ الجديد ، لا سبيل الى تجاهله او الحياد عنه .

لكي نتناول هذا الواقع في معطياته المحسوسة الراهنة ، لا بد من اشارة عابرة الى ما تعنيه هذه « الحقيقة الفنية » في تاريخ الادب العربي على نحو خاص ، ما دمنا نغامر بهذه المقولة : ان تكون تجربـة الحرية الحقة لدى الاديب ، متمثلة في مثل هذا الالتزام الثوري ، ان في طبيعة الثورة منطلقا اول هو معرفة الواقع على نحو يحدد معالـم الحتمية والضرورة في تغيراته جميعا ، ويجيز بالتالي اين نستطيـع الارادة البشرية ان تمارس فعاليتها من اجل ما هو مصيري في حيـاة الجميع ، ان الصفة المصيرية .. تحتم ان تكون هذه المعرفة ـ على ارتباطها بالحقائق العلمية والمنطلقات العقائدية ـ ذات طابع تقويمي واضح ، نسميه عادة « تبصر المستقبل » او « الرؤية الطليعية » الى العالم . وفي هذه الصيغة يمكن ان تنحل كل معرفة الى شكل اخـر للمعرفة ، من هو من قوانين السياسة مثلا يتحول الى حقائق علـم الاجتماع ، واطراد العلاقات الاجتماعية ينحل الى شيء من الترابط الضروري في الظواهر العلمية ، الا ما يمثله وعي الفنان للحقيقـة الانسانية ، وما يتاح له من صياغة هذا الوعي في الاداء الفني المبدع .

وعلى هذا النحو ، ففي كل مرحلة تاريخية من مراحل الانعطاف الجذري الذي تمليه الثورة ، تبرز « المعرفة الفنية » او « البديهية » على انها الاطار الاوسع لممارسة الحرية الحقيقية ، على الرغم من ان الفكر العربي اصبح في السنوات الاخيرة يقحم « ما هو مصيري » في كل مجال ، واصبح المفهوم نفسه على شيء من الابتذال . ان المنطلق الطبيعي لفكرة المصير في هذا الصدد ، هو اقرب الى التصورات العفوية الساذجة التي يمليها الوجدان الجماعي لاول وهلة ، بعيــدا عن كل اجتهاد فكري غائم او اطار عقائدي متسع الابعاد ، « ما هـــو مصيري » في مسائل الفكر والادب والفن ، يعني ان الحقيقة الثقافية سواء تجسدت في ملمات الفكر ويقينه او في اصالة العمل الادبـــي والابداع الفني ، لا تعد حقيقة تاريخية حية ، الا اذا كانت على صلة وثيقة مما يتبدل بمصائر الناس المعاصرين . وبمقدار ما تحمل هـــذه الصلة من التطلع الجريء الى تغيير هؤلاء الناس ، او تكشف لديهم شيئا من ارادة التغيير الجذري ، تكون الحقيقة في مظاهرها المختلفة ، ذات طابع مصيري . من دون ذلك لا مجال للحديث عن اي شكل من

اشكال الالتزام الحقيقي ولا سيما في نطاق الادب والفن . ان تجاهل هذا المنطلق البديهي البسيط ، قد غمر حياتنا الثقافية الراهنة بفيض من الوان المغالطة والتضليل ، ليس حول معنى الكلمة وما يتفرع عنها من المفردات الدارجة ، فحسب ، بل حول القضايا الاساسية للحياة الادبية والفنية ايضا ، ان يلتزم الاديب صناعته الفنية مثلا ، او يلتزم المعاناة التي تتيح له ان يبدع عملا فنيا ذا طابع انساني شامل ، او يلتزم الحفاظ على اصالة التراث في « نتاج » شامخ يمكن ان يندرج في تقاليد هذا التراث ، او يلتزم التجديد في الاداء الفني عن طريق الاخذ بروح الحداثة في انضج تجاربها والاستجابة لتقنية الفن المعاصرة ... صور لا نهاية لها من مواقف الالتزام ، تملك كل شرعيتها ومسوغاتها على الصعيد الثقافي المحض ، غير انها ليست في النهاية الا تعبيرا واضحا عن التقهقر امام مسؤولية الالتزام الحقيقي الجاد بالمرحلة التاريخية الراهنة . في مثل هذه المسؤولية ينطلق الاديب او الفنان من التساؤل العفوي الصادق الذي تمليه المرحلة ذاتها بكل ما فيها من اشكال التناقض والمعاناة : هل يملك العمل الادبي ان ينفصل عما هو مصيري في واقع التجربة الانسانية كما يعانيها الاخرون ، ولا سيما ان هؤلاء الاخرين ، ينحسرون جيلا بعد جيل ، عن قوى بشرية جديدة ، تمنحها الاحداث المتلاحقة ، ملامح شتى عن هوية تاريخية صارمة تتجمع كل عناصرها حول محور واحد هو ارادة الثورة في ابعادها المختلفة ؟ وسواء اخذت هذه الملامح صيغة الكيان القومي المتحفز الذي يستنجد بوعي الماضي العربي وتراثه البعيد ، والصمود امام تحديات الواقع ، وشعار النضال المصيري الواحد ، او كانت الصيغة في وعي الاستغلال الطبقي والاستلاب « اللاانساني » الذي يقوم على انقاضه كل بناء اشتراكي راسخ او اقتصرت هذه الصيغة على الافكار الثورية وما تفرضه على الجماهير من الشعارات التحررية ، فان اول مظهر للتحولات الجذرية في الواقع العربي ، يتمثل في انحسار الطابع القطيعي ، القارق في الاذعان والتبعية ، واذا كان باستطاعة الاديب ان يفصل بين موقفه السياسي او العقائدي او باحدى هذه الصيغ او سواها في التعبير عن استجابته لحركة الواقع « الديناميكية » كمن يؤكد صفة المعاصرة ومعايشة الاخرين ، في شخصيته الادبية ، فانه لا يستطيع ان يتجاهل ارتباط العمل الادبي حتى في بنائه الفني المحض ، بكل ما تحمله المرحلة في واقعها الجماهيري ، من مثل هذا الانحسار الذي يمثل الخطوة الاولى في عمليات التحرر الذاتية للحياة العربية .

تبدو هذه الحقيقة لاول وهلة ، بصفتها التقريرية الصارخة ، وكأنها دفاع عن واقعنا الادبي كله ، فاذا كان هناك انفصال بين شخصية الاديب التي يمكن ان تاخذ بكل اشكال الالتزام السياسي او العقائدي وبين عمله الادبي الذي لا يحمل خصائصه الفنية الا لارتباطه بحركة التحرر العامة فان الاديب في حل من اي التزام مصيري ، بل ان تاريخ ادبنا الحديث ليلوح في كثير من محاولات « التقييم » التقليدية المالوفة ان مثل هذا الالتزام قد يفسد العمل الادبي ذاته ، لا لانه يقوم على قسر « الصناعة الادبية » ـ اذا صح التعبير ـ للغائية السياسية او العقائدية في حين تشترط هذه الصناعة تحرر الوجدان من اجل الغائية الفنية وحدها بل لان « ما هو مصيري » يحتم ايضا ان يكون التقييم الفني نفسه في ابعدحدود الصراحة : ان يطالب ابدا بالاعمال الاصلية المبدعة والنتاج الذي يتسع لما تحمله القضايا المصيرية عادة من الطابع العالمي للتطلعات الانسانية ، وفي جميع الاحوال ، يجابه الاديب العربي ازمة الاعتراف بجداراته الحقيقية في كل مرحلة ، اذا كان التزامه العمل الفني المحض معبرا عن تفتح الوعي الثقافي في المرحلة ، فلماذا لا يكون للكلمة دورها التحريري المباشر في تحريك الجماهير ؟ . لقد اصبح هذا التساؤل الصارخ مالوفا في حياتنا الادبية ، غير انه ، مع هذا لم ياخذ ابعاده التاريخية الحقة ، بل ان الكثرة من الادباء يرونه دخيلا على قضية الادب وكثيرا ما يعزى الى الحماسة الطارئة ، لدى الاجيال الناشئة في تأثرها التلقائي بتجاوب الثورات التحررية او البناء الاشتراكي في كثير من اقطار العالم ... ماذا تستطيع الكلمة في غمرة الصراع المرير من اجل تحرر الوطن ، وثورة المجتمع على نفسه في شؤون الحياة الاساسية ، التخلف والجوع والبنية « القطيعية » للجماعات العربية ، وتناقضات السلطة ؟.. اليس هذا الصراع ، مهما تعددت الوانه ، ذا طابع سياسي محض ؟ . وطوال عصور الانحطاط كانت التقاليد « الادبية » تحذر من تعاطي السياسة ، لانها مهلكة للكاتب . قد يكون التحذير مشروعا في مراحل الاصابة الاستبدادية الجاهلة التي كانت تفرضها سلطة اوكلت نفسها برعاية التناقضات وخلق المناخ الملائم لاستمرار الانهيار والسقوط ، بما فيها من ادانة للغة القومية السليمة، والادب والفن ، والنظر اليها جميعا على انها اما ان تكون في خدمة الواقع المتعفن واما ان لا تكون ، غير ان كل تلك المراحل ، لم تكن الا فترات انقطاع متعاقبة عن تاريخ الادب العربي ذاته ، ان ما اصبح من السياسة في العصور المتاخرة لهذا التاريخ ، كان في العصور المزدهرة من اكثر التقاليد عنفوانا واصالة : ان تكون الكلمة ـ حتى في ارهف اداتها الفني المحض ـ تجسيدا لوجدان الامة ، ورؤية جديدة للمستقبل . ان الشاعر الجاهلي مثلا لم يكن صدى لتجارب القبيلة ، ولم يكن القرآن وسيلة سحرية للايمان ، حتى قصائد الفخر والمديح والرثاء في العصور التالية لم تكن وسائل تعبير عن مشاركة المشاعر الانسانية ، بل كانت « العبارة العربية » ، في صياغتها الواعية ، عملية بناء مصيري جاد ، ليس في الحياة العربية فحسب ، بل في سياق التراث الحضاري للانسانية كلها .

في مثل هذا المنعطف تقف حياتنا الادبية المعاصرة ، منذ ان قدر للاديب ان يعايش شيئا من مصائر الاخرين ، وبدأ يشعر بانه قد يملك الحرية المطلقة في اختيار اي موقف من المجتمع والحياة والعصر ، ولكنه لا يملك حرية التصرف بمصيره الثقافي : ان يتراجع عن كونه شاعرا او قاصا او روائيا ، في هذه الحقبة من تجارب المجتمع الذي يعيش فيه ، وخلال الوضع الثقافي الراهن بكل ما فيه من مظاهر الاضطراب والضياع او ما ينطوي عليه من التماسك والنزوع الى التفتح والازدهار .

ان ما يحدد الجدارة الحقيقية للاديب العربي هو هذا الارتباط الوثيق بين تجربته الفنية وبين ما يمكن ان تمنيه في صنع المصير الثقافي للمرحلة التاريخية ، وسيان في هذا السبيل ان كان مؤمنا بانها مرحلة انبعاث وتجدد ، وان له دورا مجديا في رسم ملامحها الطليعية او كان ممعنا في السلبية امام مظاهر الصراع في الواقع الحي برفض الاعتراف بان في هذا الصراع شيئا حاسما في صيرورة المجتمع ومصائر الاخرين .

وعلى الرغم من جميع التطلعات الايجابية المتفائلة التي تحشد للتعبير عنها جميع المفردات « التحررية » المعاصرة ، منذ عشرينات هذا القرن ، فان تاريخنا الادبي الحديث ، ما يزال بجذر اليقظة القومية الممتدة حتى منتصف القرن الماضي ، يخضع لكثير من الاوهام في تقييم المراحل المتعاقبة . ان المفهوم التقليدي القديم للسياسة كما يقحم في قضية الادب ، هو احد هذه الاوهام الكبيرة . ليس من السهل ان ننظر الى الالتزام السياسي في حياة الاديب العربي خلال هذه المراحل ، نظرة تقويم مصيري ـ اذا صح التعبير ـ ان تعزز الادباء في لوائح الصراع الاجتماعي والعقائدي (الرجعية والتقدمية ، اليمينية والثورية ، التقليدية والطليعية .. الخ) ، ما دام تاريخ الادب نفسه، ينطلق من مسلمة اساسية هي انها جميعا مراحل تكون واختمار ، وان بداياتها في كل جيل ، ما تزال تحمل شعار ترويض اللغة العربية على استيعاب التجربة المعاصرة ، او اكتشاف سبيل الاداء الفني في بنيته

السليمة . لقد كان هذا المنطلق ، وما يزال ، على صلة عميقة بالتجربة السياسية ، في اطارها القومي العام . ومن خلال هذا الاطار ، مـا يزال الجيل التقليدي مثلا في العشرينات حتى الخمسينات يضـم العديد من الرواد الحقيقيين في هذا المجال رغم كل ما يحملون مـن التعثر والتنافس والارتباك ، في انتماءاتهم السياسية . ففي سنوات الاحتلال مثلا ، كان الشعر العربي كله يرسم بالكلمة صورة الوطـن المتحرر ، والكفاح البطولي من اجله ، قبل ان يتكون حتى مفهـوم « المواطن » الذي يملك شرعية الانتقال من بنية الرعية القطيعية حتى بنية الكائن السياسي .. المعاصر . وكان هم « الاداء » في المقالـة والقصة والرواية والمسرحية ، مثقلا بالتزاماته الشاقة امام الوجـدان الجماعي ، فكيف يتاح للعبارة العربية ببنيتها اللفظية الموشاة بالحذلقة والالتباس او بركاكة تعبيرها العامي المبتذل ، ان تحمل شيئا من صفاء المشاركة الوجدانية الحية بين تجربة الاديب ووعي الاخرين ، ان تصبح من واقع الاتصال الانساني والقومي ، بعد ان كانت اشارة مبهمة ، او اداة تحريض غائم ؟...

على هذا النحو تحمل الزيادة لدى كل جيل تقليدي في النصف الاول من هذا القرن ، شيئا من ملامح الالتزام الجاد لا يمكن الا ان يوصف بالمعاصرة والتجديد ، ما دام يهدف تلقائيا الى ان تصبح البنية التقليدية للتراث اللغوي اكثر مرونة في التعبير واقرب الى حـرارة التجربة المعاصرة .

من هذه الوجهة وحدها يمكن الحديث عن اوائل الرواد ليس بين ممثلي الجيل التقليدي فحسب ، بل في التجربة الادبية لكل مرحلة تالية ايضا . في نصيحة لاحد النحاة القدامى : « وانظر كيف اصبحوا يقولون ماذا يريدون ، لكي تعرف كم قصروا عن الاوائل ، وهـل سبقوهم في الكلام البليغ ؟ .. منذ ان يوضع الاداء في سياقـه التاريخي ، وهو المطلق الاول لكل تقييم ادبي جاد ، يبدو المضمـون ـ رغم ارتباطه بقوة البيان ـ عنصرا ثانويا ، ولا سيما حين يكتنـف الالتباس ما في تجربة الاديب من اصالة « ذاتية » ، او وعي فني عميق يضع نتاجه في المستوى الانساني الشامل . بل ان مثل هذا الالتباس يمثل الان ازمة النتاج العربي الحديث كله ، فاذا كان من السهل ان نتبين فيه التأثر البعيد بالتراث الادبي القديم وهو مصدر ادانة لجيل المقلدين حتى الثلاثينات ، فان التلقي المعنوي لتجارب التراث العالمي ، يمنع كل تمييز تقييمي واضح لما هو من شخصية الاديب الفنيـة ، ومظاهر ابداعه . وكثيرا ما تلوح في هذا التلقي ظاهـرة التسرب الحضاري الذي يفرض مبدا الهيمنة والاذعان : ما هو ضحل مهلهل في التجربة ، يذعن بالضرورة لما هو اعمق وعيا واغنى في التعبير عـن المعاصرة . واذا كانت هذه الظاهرة طبيعية في انضاج العمل الادبي ، فان من سلبياتها الخطيرة الا يتجاوز هذا التلقي حد التأثر الـذي قد تقتضيه المشاركة الوجدانية ، او الاستيحاء او الاقتباس المتواضع الى تقمص التجربـة وادعاء معاناتها وصياغتها الفنية على نحـو او آخر. مظهر صارخ ـ للاستلاب في حياة الاديب العربي : ان يكـون حتى في وجدانه الفني اداة للتعبير عما هـو من ثمار الابداع لدى الآخرين ، اذا تجاوزنا الصورة الهزلية لهذا المظهر الذي يعد فيه حتى الناشئة ، اكليل العبقرية سلفا من اجل ما لم يكتبوا بعد ، فان هناك وجها اليما لا يخلو من عنصر المأساة والرثاء : ان الاديب المستلب في هذا المجـال لا يقتصر على التخلي الطواعي عن بدائيته وسذاجته العفوية فـي ممارسة الادب ، وقد يكون فيهما الكثير من نفحات الصدق والموهبة ، بل انه يقوم بالدور المحزن لكل بهلوان دعي ، يحمل جسده فوق طاقته من جهد الحركات ، لكي يتسع له مكان في العرض الكبير ، وينتزع اعتراف الجماهير .

اذا كان المضمون على هذا النحو من الالتباس في « تقييم » الاثر الادبي ، بالقياس الى الوضوح الذي ينطوي عليه تقييم الاداء والشكل الفني ، في ارتباطهما بالمرحلة التاريخية من حياة العمل الادبـي ، واستجابتهما الحتمية لتطور الوعي الجماعي في تذوق الادب ، فان هناك جانبا مشرقا في كل مضمون ، يكاد ان يكون خاليا من الارتباك والغموض هو الموقف الفكري للاديب من مسالة الحرية والالتزام ، في هذا الموقف تكمن الصلة التاريخية بين « فنية » العمل الادبي وبين ما تمثلـه شخصية الاديب في تفتح الوجدان الجماهيري من هذه الناحية ، وفي انغلاقه ايضا .

ان « تاريخية » الاداء تحمل لنا صورة واضحة للتجدد المستمر منذ كان وشيا في القرن التاسع عشر ، معبرا عن موقف سلبي محض من قدرة الاداء التقليدي على امتلاك التجربة الحية ، حتى يصبح منذ اوائل القرن العشرين معاناة ادبية جادة تعبر عن موقف ايجابي مناقض لا يؤمن بدور الكلمة العربية في شؤون الحياة فحسب ، بل يجد نفسه ملزما بقفزة نوعية في ممارسة الانبعاث الادبي : اصبح الامر لا يتوقف على ترويض اللغة واصطفاء ما يصلح من بنيتها المتوارثة في حياة العصر بل ان مفهوم الانبعاث يتجاوز كل ذلك ، الى استعادة الكثير من مضمون التراث نفسه . حيث نبدأ محاولات التجديد ، يبدأ البحث عن الجذور الدفينة . هذا ما تمليه حركة التاريخ الذاتية في نطاق العمل الادبي ، وسواء امتدت هذه الجذور الى العروبة والاسلام ، او اوغلت فـي ينابيع الحضارات « الاثرية » البعيدة ، فان صنيعة الانبعاث ، في اطارها الثقافي المحض ، هي ذاتها في كل موقف .

والسؤال نفسه يبقى مطروحا في صدد البحث عن هوية «متميزة» لكل مرحلة ادبية جديدة : ما اصبح يعوق البناء الجديد للثقافة العربية لانه من تركة الماضي المندثر ، وما احتفظ بقدرته الخلاقة على توطيد هذا البنـاء .

ومع ان هذا التساؤل العفوي المالوف يحمل على الصعيد الادبي كثيرا من عناصر جوابه الحاسم ، فان هناك مواقف فكرية « دخيلة » على طبيعة الادب ، تحيطه بالكثير من الاوهام ولا سيما ان ما يوصـف بانه دخيل في الموقف يمكن ان يحتوي كل ما يتنكر « لتاريخية » الواقع الادبي ـ اذا صح التعبير ـ اي علاقته الوثيقة بتغيرات المجتمع والحركة الذاتية للمرحلة .

ان مثل هذا التنكر بما ينطوي عليه من الفرار امام تناقضات الواقع ، والافتقار الى الرؤية الموضوعية الواضحة ، هو اول مظهر لهذه الاوهام ، ان في طبيعة العمل الادبي شيئا اسطوريا نمليه الممارسة الفعلية للحرية من خلال التجربة الفنية .

ومهما تكن عليه بواعث العمل الادبي وشروطه واهدافه ، فانه ليس في نهاية المطاف الا ما ينبغي ان يقال في التعبير عن تحرر الوجدان وتطلعه الى رؤى جديدة لمسائل الحياة .

ان هذا الذي « ينبغي ان يقال » هو النسيج الحقيقي في الاثـر الادبي لا لان الاديب لا يملك اي التزام آخر في تجسيد حريته فحسب، بل لان ما ينبغي له .. ايضا يعتبر بالضرورة عن مرحلة من التحرر في الوجدان الجماعي .. انها صورة لالتزام آخر لا بد منه تجاه الآخرين ، بل انه كثيرا ما يحدو وحده حقيقة الحرية في تجربة الاديب ، ان يتحرك العمل الفني لديه على ارضية انسانية يمكن ان تضم مصائـر الجميع ، وفي كلا الحالين من الالتزام ، ترتسم ملامـح الشـيء « الاسطوري » في العمل الادبي ، شيء خارج الزمن يفرض وجـوده على الحقيقة الانسانية في كل جيل لانه يمتلك من ناحية وسيلة خرجت على الزمن هي اللغة ببنيانها المتماسك في صيغه عبر الاجيال ، ولانه

يرفض من ناحية ثانية ، كل تبعية زمنية تفرضها المرحلة ، وتجعل الاديب فيها اداة اتصال ثقافي لا اكثر ، تنتهي مهمته بانتهاء الدور الذي حدد له في حقبة معينة .

لكي يؤكد الاديب العربي موقعه المتميز في جماعات كبلتها العصور بارتباك الاداء والجمها القهر عن التعامل مع لغتها القومية الصريحة ، ولكي يعبر عن رفضه الا يكون اكثر من متعلم او مثقف عادي ، فانه يجد نفسه مضطرا الى التعلق بوهم الشيء الذي يتخطى الواقع بكل تقويماته النسبية ، لكي يضاف بشخصيته الادبية « المتفردة » ونتاجه الذي يجسد وعي المرحلة ، الى حلقات التراث الجديرة بالبقاء والخلود

من خلال هذا الوهم تبرز كل المعايير المطلقة في التقييم الفني ، ويلتبس المعنى الحقيقي للحرية بشتى المفاهيم « الغيبية » لما يوصف بعملية التحرر . في هذه التعابير مثلا ، يتجاوز الموقف الفكري تقييم العمل الادبي في جوانبه البديعية « الجزئية » (المعاني المبتكرة ، واشكال الاداء الجديدة) الى التاكيد على الشخصية الفنية « الفذة » التي تكمن وراء الاثر . واخطر ما في مثل هذا التاكيد ان يعني ان المرحلة « التاريخية » كلها يمكن ان توجز بكاتب فذ (شاعر او قاص او روائي) ينبغي ان يدور الجميع في فلكه وهو ما يحدث في واقعنا الادبي حين نرى النقد كله يلهث وراء مثل هذا النموذج ، في حين يؤكد الجميع ان الشخصية الادبية التي يقدر لها ان تطبع اية مرحلة ، لم تظهر بعد . انها ما تزال تعطي الكثير من الجودة والتعثر معا ، في انتظار الموسم الكبير ، وعليها ان تكتفي من « التقييم » بما يتناول نفحة الاصالة في نتاجها ، بين حين واخر لا ما يحاول ان يكتشف فيها كل الملامح النهائية لتجربة فنية اصيلة .

وهم آخر يتفرع عن مثل هذا « التقييم » المصطنع ، هو الذي يتناول « حرية التعبير » بذاتها . ان المعايير نفسها تفرض على الكثير من مواقفنا الفكرية ، في صدد هذه الحرية ، نوعا من الالتباس المائل واللفظية القائمة ، ليست الحرية شرطا انسانيا لتكون الشخصية الادبية ، وممارسة الابداع في العمل الفني فحسب ، بل هي ايضا منح الاديب حق الاصابة المطلقة على الوجدان الصناعي ، وبالتالي على كل المصير الثقافي للاخرين ، هذا ما نطالب به منذ البداية . وسواء تناولت هذه المطالبة منح الحق أو استرداده او الاعتراف بشرعيته ، فانها تتوجه في القالب الى واقع سياسي او اجتماعي يقوم على شيء من الاستبداد والقهر . وما دام كل واقع من هذا القبيل ، ذا طابع مرحلي يزدحم بصراع التناقضات ، فان مسألة الحرية على الصعيد الادبي ، تبقى مسألة معلقة ، شأنها في ذلك شأن الحقوق السياسية في حياة الشعب ، مهما أتيح لها ان تمارس فعليا ، فانها تلبث تابعة للقضايا المطروحة . ان قضية البطالة مثلا هي التي تطرح حرية المطالبة بحق العمل . وعلى هذا النحو فان حرية التعبير تتبع ايضا حق الكاتب في ان يقول كلمته الصادقة في « ازمة » نظام سياسي معين ، او في مأساة تعانيها العاطفة البشرية او في مازق قومي . ان الحرية في هذا المجال لا تعني ان يقول الاديب شيئا باسم الالتزام الادبي الذي تفرضه معايشة الواقع البشري في معاناته الصارخة ، بل هي تعني ان رؤية جديدة قد تكونت لدى الاديب الحي فحسب ، بل لان ما « لا بد من قوله » يجب ان يصبح من التقاليد الثقافية الراسخة في المرحلة .

ان وهم الحرية يفترض النقيض . انه لا يكتفي بتجاوز القضايا الانسانية او القومية في منعطفاتها التاريخية ، والمطالبة بالوصاية الشاملة ، بل يضع الاديب في موقف السيد « القديم » في تاريخ العلاقات البشرية ، فلكي يمتلك معنى وجوده ، ينبغي ان تتوفر له اولا كل شروط « السيادة » وفي طليعتها ان تناط به جميع المصائر . هكذا يقفز الاديب بروح اسطورية خارقة ، من موقع الكائن الاجتماعي البسيط الذي يكفيه ان يعترف الاخرون بجدارته المرحلية وبأن وظيفته الثقافية هي عنصر لا بد منه في عملية التغيير ، الى موقع الشخصية الانسانية المتميزة التي تشترط مسبقا كل ما يمنحها الخصائص الفوقية في اداء رسالتها الفنية .

يكثر الحديث في هذا الموقف عن الازدواج في شخصية الاديب العربي ، على انه يحمل قضية الادب ويلتزم قضيته السياسية في آن

واحد ، وتكاد ان تكون هذه الظاهرة ، طابع الحياة الادبية منذ اقدم العهود بل انها كانت من مظاهر الصدق والاصالة في تجارب الشعراء الجاهليين الاوائل ، حين كان الشاعر صوت الجماعة القبلية ، او كانت الفردية الجامحة تحفزه الى التزام احدى قضايا الحياة الكبرى في تحدي القوى الخارجية التي تمارسها السلطة السياسية في هذا العصر غير ان مثل هذا الازدواج لا يملك في اية مرحلة معاصرة ، صيغته المصيرية القديمة ، « الادب ـ القضية ـ » .

لقد احتفظ الادب بكيانه الفني ، اما القضية فقد تحولت الى سلسلة لا نهاية لها من المواقف السياسية والانتماءات كلما تستغرق من تجربة الاديب اكثر من التدليل على صلته بواقع الاخرين ، ان لم تكن ذريعة مألوفة لاستهواء الجمهور ، اكثر مظاهر الالتزام ريبة ورياء واشدها بعدا عن الحرية الحقيقية .. هذا اذا كان بمقدورنا ان نورد مفهومي « الالتزام » و « الحرية » في هذا اللون من تبعية الكاتب للجماهير ، كما تعبر عنها ذرائعية الرواج التجاري في السنوات الاخيرة .

لا سبيل الى تتبع جميع التناقضات الماثلة التي تتفرع عن وهم « الروح الاسطورية » في شخصية الاديب العربي المعاصر ، واعماله الفنية ، وحرياته « الخيالية » والتزاماته النظرية ، غير ان الرؤية الموضوعية لموقعه الاجتماعي الراهن ، وتاريخية واقعه الادبي يكشف عن الصيغة الاساسية لازمته الحقيقية مع الحرية والالتزام .

لكي نتبين هذه الرؤية في وضوح ، لا بد من اعادة النظر في الكثير من التساؤلات المألوفة الدارجة في صدد الحرية خلال ممارستها الحية ، وما يمكن ان يتمخض عنه طابعها التاريخي هذا ، من اشكال الالتزام .

« الحرية لمن ؟ ولماذا ؟ » هذا هو التساؤل الاول ، وقد اصبح في السنوات الاخيرة جوابا بحد ذاته ، لا يخلو من التحديد الحاسم الذي يرسم للاديب الجدير بالحرية كل ملامحه الطبقية والنضالية والعقائدية ... الخ .، مثلما يعطي صورة تكاد ان تكون نهائية عن دوره «التاريخي» في تغيرات المرحلة . ومع ان الجوانب السلبية هي التي تبرز غالبا في تلك الملامح وهذا الدور ، ما دامت عملية التمرد على الواقع الادبي المتغير في خطوات التكون الاولى ، فان هناك مسلمات في نظرية « حرية الاديب » ، هذه لا سبيل فيها الى النقاش والجدل ، لا لانها اصبحت تهيمن على حياتنا الادبية فحسب ، بل لان ما هو ايجابي في موقف الاديب حتى من عمله الفني ، انما تصنعه وتفرضه المرحلةالثقافية بصورة عامة ، بما تحمله من الوعي الفكري وهو في اوج ارتباطه بقضايا الانسان ، والتزامه الخط التقدمي المتحرر . فمن الايجابية في هذه النظرية مثلا ان يتجاوز الاديب تعرية الجذور الدفينة لوراثات الانحطاط في الواقع « الراهن » بكل ما يؤدي ذلك الى ادانة السلفيات الجامدة مثلا والنضال من اجل المعاصرة ، لكي يجسد في نتاجه الفني ، شيئا مما يصبح دعامة للبناء الثقافي الجديد ، غير ان هذا التجاوز كثيرا ما يكون عملا فكريا محضا ، لا علاقة له بالنمو الطبيعي الناضج للحركة الادبية . عندئذ يفرض المناخ الثقافي العام وحده ، جوابه الرادع : « الحرية للذين يكتبون عن الشعب في معاناته المريرة لشروط الواقع، او للذين يرسمون بالقصة والرواية رؤية انسانية جديدة للحياةالعربية ـ او للذين يصنعون ايقاعات شعرية صادقة للتجارب التي تحمل ارادة التحرر في الكفاح القومي والجدارة الانسانية والحب والاحساس الفني بالطبيعة وما الى ذلك . والواضح ان صفة « الردع » في مثل هذا الجواب تتناول جميع الذين لا حرية لهم في الواقع ، ولا ينبغي ان تكون ، لانهم لا يتمثلون « ديناميكية » المرحلة ـ اذا صح التعبير ـ في الوعي الذي يتيح لالتزامهم الادبي على الاهل ، ان يوصف بحرية الاختيار ، غير ان هذه الحرية ـ وقد منحت للاخرين ـ لم نعط ثمارها الادبية الحقة بعد . ان ما تفرضه من الالتزام لا يتعدى المخطط الثقافي الذي تمليه بوادر النضج والتفتح في المرحلة ، وليس في طبيعة اي مخطط من هذا القبيل ان يدرج في قاموسه مفردات التقييم المسبق للمواهب التي لم تعبر عن حقيقتها كما ينبغي ، او الآثار الادبية التي لم تولد بعد .

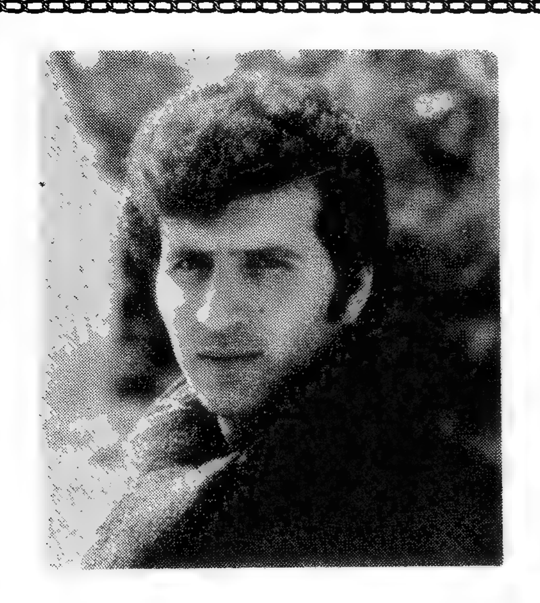
اذن لا بد من المنطلق الاخر في التساؤل نفسه ، وهو اقرب الى التعبير عن « ديناميكية » المرحلة التاريخية : « الحرية » لماذا ؟. والواضح اننا لا نملك الا جوابا واحدا هو الذي تفرضه « الموضوعية » في النظر الى حقيقة « الكاتب العربي » ، ضمن الشروط المرحلية الراهنة . ان ما يمثل هذه الحقيقة هو الدور المزدوج الذي تقوم به الكلمة العربية في التعبير عن وعي الوجدان العربي للتغيرات الجذرية تتمخض عنها تجارب الجماهير . انه دور الكلمة بصرف النظر عن انتمائها الى كاتب او اديب او مذهب فني او موقف عقائدي ، وهو دور مزدوج لانه يمارس التزامه قضايا الواقع الثقافي ، من ناحيتين ، بناء الصيغة « المعاصرة » الجديدة ، لاداء اللغة العربية ، وامتلاك الرؤية المصيرية للواقع العربي عن طريق المعرفة الفنية .... وفي الحالين لا بد من ان يكون الاديب العربي قد عايش كل الشروط التي تتحكم بالواقع ، بما فيها من اسباب التغيرات التقدمية الحاسمة ، وما يثقل حركتها التاريخية ايضا من وراثات الماضي وانحلال الاجيال الغابرة ، وسواء كانت هذه المعايشة من اجل الاسهام في تكوين الوجدان « الثوري » الجديد ، او من اجل الاثر الادبي المحض ، فان كل ما يمكن ان توصف به من الحرارة والوعي والصدق ، انما يقاس بمقدار ما تستطيع المعرفة « البديعية » المتميزة ، على نحو خاص ، ان تكتشف من الجذور الدفينة لارادة التغيير في تجارب الانسان العربي ، ان تتوجه باستمرار الى ما يمكن ان يصبح من جديد موضعا للتساؤل في كل قضية انسانية كبرى ، ان ما تحمله الصياغة الادبية المشرقة من دفء الحياة ، وتغلغل الرؤية البديعية في وجدان الآخرين ، لا يفهم الا من خلال هذا الحنين الازلي الى احتواء التجربة بكل ما تستنفد من الوان المعاناة « المعاصرة » وما توحيه صياغتها الفنية رؤى « جديدة » للوجدان البشري عبر الاجيال .

دمشق صدقي اسماعيل



صفحات من دفتر الفلسطيني التائه

حتى إشعار آخر ..



واشتقت يا أمي اليك ، اشتقت يا أمي كثيرا
لا غير صندوق البريد
يهب اليتامى التائهين وراء آلاف الحدود
تهليلة أو حبل سرّه
وعليك يا أمي السلام ،
وفي الحضارات التي قتلت أبي كل المسرّه !

لا غير صندوق البريد
علقت منديلي عليه (شراع ملاّح عنيد)
علقت منديلي المبلل بالدموع عليه. صارت لي سفينه
لكنني قرصان حبي . آخ . أرتكب الحنين الى ملاذك كالجريمه

وجنودهم وجنودنا وجنود U.N
جاهزون لقتل قبَّرة يتيمة ..

في آخر الايام ، صندوق البريد
بابي اليك ،
وبيننا
في آخر الدنيا
الاساطير الدساتير الاساطيل الوزارات الاذاعات السجون

وتقول آلاف الملفات الخزينه
كالمومياء اللفز في الهرم الجديد مقر U.N :
هللي وتهللي يا ايها الامم الحزينه
وتقول :
يصبح كل شيء جاهزا في الشرق
الا أن تكوني أو اكون .

(العابرون يقهقهون لان منديلي الشراع
نامت عليه الريح كالقط السعيد

ويظل صندوق البريد سفينتي
لكنها لا تستعيد ولا تعيد .)

غريب كصقر قريش
كنخلة صقر قريش

واشتقت يا أمي اليك ، اشتقت يا أمي كثيرا
لكنني والحمد لله الرحيم
في صحة لا يستهان بها ، لان الذاكره
٦ على ٦ ،
وزرقاء اليمامه
في الانف . لا ، في القلب . لا ، في الاذن ،
او في معطف ارسلته للمغسله
لا تقلقي . بصري حديد (تلك تلك المعضله)

نبضي دبابيس ونمل . كيف بلعام العجوز ؟
هل عاد ؟
أم نطقت حمارته الذكيه بالنبوءه
واستغنت السلطات عنه ، وأودعته السجن ؟

(بلعام التعيس
يخشى وجوه محققي البوليس
يخشى المحكمه
ومراسلي الصحف اللميئة
والفضوليين
واللغة الفصيحه
ويظن وقع خطاه في الدنيا فضيحه !)

أمس انتقلت لفندق قرب المحطه
لكن افعى الحلم لم تيأس ، وعادت رافقتني
حملت حقائبها ، وعادت رافقتني
(تحت الوسادة . دائما . افعى الرؤى تحت الوساده
وصرير اسناني ، وسم الحلم ، عاده)
ورأيتهم !!

يتوقفون امام باب الموت .
يبتسمون .
تنطلق الاشاره
من منزل هدمته أيدي الله والامم الحديثة والحضاره
يتنفسون هنيهة ،
يتقدمون .... ويسقطون
وتدفّ في ذعر عصافير المغارة
ويوزع الضباط للقتلى الشتائم
ويوزعون على الجنود الصيد
.. أوسمة الجداره .

ورأيتهم في ظل قنطرة غريقه
في ليلة أخرى . وكانوا يحملون على الاكف قلوبهم
(كانت مصابيح الطريق الى الحقيقه)
ولعلهم طرحوا السلام
اخذوا معاطفهم
بكوا وتبسموا وتعانقوا بالباب
وانغرزوا خناجر في الظلام

ولعلهم أوصوا بزوجات واطفال نيام
قبل ارتعاش شجيرة العنب المريضة في الحديقه
قبل السقوط مضرجين بحزنهم
لكنهم
لم يسمعوا رد السلام
قبل السقوط بلا وثيقه
وبلا كلام ....
والضابط المغرور
يقلب بالحذاء العسكري Mode in U.S.A
جثتي ،
وتطلب طفلته
مني الطوابع (لم أجرب يا ابنتي هذي الهوايه
عفوا ، ولكني اذا يوما ...)
وتبسم ،
وهي طيبة وساذجة ، كأختي .
أمي الحبيبه
سيكون شيئا جيدا
أن تفتحي الشباك من حين لحين
اخشى على كتبي القديمة
سطوة العث اللعين ..

في آخر الاسبوع شاهـــدنا مباراة التزلج فوق
سطح الماء ، في البحر القريب
ورأيت مار بطرس
وسألته : ماذا ستفعل ؟
قال : امشي فوق هذا الماء . امشي كالمسيح !
وصفق المتفرجون ..
لكنه أهوى بجثته الثقيلة في رماد البحر
وانفجر الجميع مقهقهين .
وذكرت منديلي وصندوق البريد
ذكرت يا أمي سفينتي التي لا تستعيد ولا تعيد
وبكيت من شوقي اليك ..

غريب كصقر قريش
كنخلة صقر قريش
ولكنني لست صقرا
وأهلي ليسوا قريش !

بالله ، كيف الحال يا يمَّه على عمي أمين ؟
ما زلت أذكر حين صادرت الوكاله
بستانه الشرقي ،
أذكر كيف دار على البيوت
يبكي ويضحك وهو يقرأ في الرساله :

« السيد الـ ...
بستانك الشرقي ملك الدولة ،
الاوراق جاهزة تفضل كي توقعها ،
نقودك اصبحت في البنك ، فرع الـ ...
أنت تعلم ان سعر الارض لا ....
والحرب باهظة .... والا !.. »

لو متَّ يا عمي أمين !
لو متَّ يا عمي ولم تجـــرع قرار الكأس قطرانـــا
وزقوما وطين.
بستانك الشرقي أعتق خمرة (والله يشهد)
لكنها ملأت كؤوس الآخرين
لو متَّ يا عمي الحزين !

قلبي دليلي
واخاف يا أمي مكائدهم وآفات الفصول
واخاف ثوار المقاعد والجرائد والمقاهي
واخاف سور الدار ـ بواباته خشبية منخوبة الاعماق
والاقفال شمع احمر ـ والحارس المشبوه منقطع بعيد
أبيقور نصَّبه وزير دفاعنا والقائد العام الوحيد
ووكالة الانباء تصرخ (ثم تنعب من جديد)

قلبي دليلي
وأخاف يا أمي البيان المشترك
وأخاف أولاد الحرام
أخاف محترفي النظام
اقراص منع الحب والتفكير ، لا اقراص منع الحمل
غايتهم ،
هنا وضعوا الشرك
وهنا يجابهني دمي ..

وهنا أجابه مستحيلي
وأخاف يا أمي ، فعفوك ، ارسلي لي
حبات زيتون قبيل سقوط زيتون الجليل
وأرسلي لي
تفاحتين وبرتقاله
وأريد ــ للذكرى ــ كلبشتي الجميله
تلك التي صنعت تناسب معصميَّ من الطفوله
ونمت معي عشرين عام
ونمت معي حتى الكهوله
(من مادة التوراة : في البدء الظلام) ..

يمّه الحبيبه
سأبيع بعد غد قليلا من ثيابي
وأبيع بعض دمي (فبنك الدم اقرب من شبابي)
وسأرسل المال القليل ، اليك ، من ثمن اغترابي
ولانني جوعان ، بيعي
برواز صورة والدي
وصوانك الاثريّ ،
بيعي فرشتي وقصائدي
ولترسلي بعض النقود .. مع البريد العائد
جوعان يا أمي . أنا . والجوع يعرف سر جوعي
بيعي عظام أبيك ... بيعي !

الطقس اجمل ما يكون
لو ان تانيوشكا معي
والبنت تانيوشكا تحب سفينة حمراء
في بحر صغير ، فوقه قوس القزح
وأنا سأهديها قبيل الموت في منفاي سلة فاكهه
وتكون فيها صورتي (كسفينة حمراء
في بحر صغير ، فوقه قوس القزح)
والبنت تانيوشكا ستهديني الفرح
يوما قبيل الموت في منفاي
او يوما قبيل عناقنا (نحن الثلاثه)

الطقس اجمل ما يكون
خريف هذي القارة الذهبي حلم أشتهي الا يزول
لكن أوراق الشجر
تهوي (الحكومات العميلة) آه .. تهوي في الثلوج
وفي الوحول
واطل من شباك غرفتي الجديده
وتلوح لي عبر الزجاج
هذي المدينة . آه يا أمي . تلوح غريقة قفراء طاهرة
بعيده
وتلوح لي مدني البعيده
عبر الدموع ،
قريبة . خلف الزجاج . قريبة . لصق الزجاج..

الطقس أجمل ما يكون
ومسلم بحنين زهر النار للوادي المبلل بالندى
لكن هذا الطائر العالي المحلق في المدى
يبدو قتاما ساكنا . يبدو جمادا للعيون !

والارض أجمل ما تكون
لكن اسجاري واطفالي واعشابي تموت
ويظل بيت العنكبوت
بيني وبين الله والدنيا وابواب السجون
ويظل بيت العنكبوت
بيني وبين البندقيه
ويظل بيت العنكبوت
بيني وبينك يا أميمتي الشقيه !

غريب . كصقر قريش
كنخلة صقر قريش
ولكنني لست صقرا
وأهلي ليسوا قريش
غريب .. كنخله !

كصبية خجلى ، تلم الريح اطراف الرداء
وتجوب أرصفة المدينه
ركضا ، لتسبق غيمة حبلى وشارات المرور
ركضا ، وتضرب معطفي الريح اللعينه
فيطير كالباراشوت .. (كالبالون ..)
ترحل جثتي تحت السماء
وأرى الجسور
... أرى الجسور
... أرى الجسور ..
(ويكون لي يوما من الايام جسر ، ثم أعبر
ثم يعبر .. ثم نعبر ..
لا تقلقي . سيكون . يمّه
وسأعبر الجسر الجديد اليك
كلفني عذابي بالمهمه !)

والعفو يمّه ،
من تمر نخلتك الحزينه
كوّنت أصنامي ،
وجعت اليوم ،
عفوك لو أكلت اليوم أصنامي اللعينه
وسأعبر الجسر الجديد اليك يا أمي اليك
سأعبر الجسر الجديد اليك يا أمي سأعبر
وليكن موتي وراء الجسر تذكرتي اليك ...

موسكو

سميح القاسم

الأديب العربي بين التراث والمعاصرة

بقلم حنفي بن عيسى

موضوع البحث : الاديب العربي بين التراث والمعاصرة
البلـد : الجزائر
الكاتب : حنفي بن عيسى
عنوان البحث : الاديب العربي بين التراث والمعاصرة

كلما فكرت في وضعيةالاديب عندنا اذكر كلمة قالها ابوالطيب المتنبي ، منذ حوالي احد عشر قرنا ، في موقف الساخط على الدهر الذي ارغمه ـ وهو الانسان الابي الانوف ـ على مدح قوم لا قيمة لهم . فقد قال ذلك الشاعر المفوه :

الى كم ذا التخلف والتواني   وكم هذا التمادي في التمادي ؟
وشغل النفس عن طلب المعالي   ببيع الشعر في سوق الكساد

ولعله ، من القدامى ، الشاعر الوحيد الذي تمردت نفسه على ما سماه صراحة بعملية البيع والشراء ، في سوق تعمها الكساد وليس فيها من يلقي اليك السمع ، او يلتفت الى ما تقول .. ومتى بيعت الكلمة ، فقد ذهبت قدسيتها ، وصوحت روضة الشعر واقفرت دوحة الادب .

لقد اشار المتنبي الى لون من الادب لم يعد له ، في اغلب الظن ، وجود في البلاد العربية ، واعني به ادب الارتزاق : انه قائم على التمسح باعتاب الطبقة المترفة ، والتغني بامجادها والتقرب من افرادها . اما اليوم فان الاديب ـ لحسن الحظ ـ لاتلجئه الضرورة الى الحالة المحزنة التي وصفها بعضهم ممن هجا المتنبي بالعبارات التالية :
اي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة وعشيا

عاش حينا يبيعفي الكوفة الماء وحينا يبيع ماء المحيا

لقد اصبح الشغل الشاغل بالنسبة الى الاقطار النامية وشعوب العالم الثالث هو الازدهار والتقدم المادي ، الا ان هذه الاقطار والشعوب ليس لها الا سهم قليل في الابتكار والاكتشاف . ولذلك فان هذه الرغبة الملحة في الازدهار والتقدم كثيرا ما تنقلب الى نزعة شيئية ، واعني بهذه العبارة حرص الدول المتخلفة على كسب جميع « اشياء » الحضارة ومصنوعاتها ، كالسيارة وجهاز الاذاعة وما الى ذلك .. انه لمن الغريب حقا ان يغيب عن اذهان البعض بان الرفاهية ليست كل شيء في الحياة وان لباس البذلة الانيقة وتوفير المرافق الحديثة لا يكفي لكي يرقى بالانسان من وضعية المتخلف الى وضعية التقدم حضاريا ، فنحن نستورد اكثر مما ننتج .. وبعبارة اخرى ، فنحن ننتمي الى حظيرة الشعوب المستوردة .. وبطبيعة الحال ، نستورد السلع والافكار .. الا اننا في اغلب الاحيان نكتفي باستيراد السلع الجاهزة ، ولا نكلف انفسنا اية مشقة لسلوك دروب الفكر الذي انتج تلك السلع .

وهذا الموقف من الحضارة المعاصرة له عواقب وخيمة في مجال الادب . فهذه العقلية السائدة عندنا في التباهي بمصنوعات غيرنا ، والتنافس على كسبها ، جعلت منا شعبا يستهلك منتجات الحضارة . وقد اصبح سلوكنا خاضعا في كثير من مظاهره لهذه العقلية « الاستهلاكية » اذا صح التعبير ، واخوف ما اخاف ان يكون الادب نفسه قد تحول الى ادب استهلاكي باتم معنى الكلمة .

وانا لا اقول ان كل ما ينتج عندنا يعد من النوع الرخيص ومن البضاعة المزجاة . فيما لا شك فيه انه يوجد اليوم في العالم العربي ادباء لا يقلون مقدرة واصالة عن غيرهم من مشاعر الكتاب في العالم .. وانما اقول انني اخشى ان تكون قد سرت الى ادبنا تيارات زائفة شبيهة باللوثة التي حذر منها حافظ ابراهيم في مطلع هذا القرن ، حينما قال دفاعا عن اللغة القومية :

سرت لوثة الاعجام فيها كما سرى   لعاب الافاعي في مسيل فرات

ان الشيء الاهم بالنسبة الى عقلية المستهلك هو اللحظة الراهنة. فكما ان الجائع مشغول البال باشباع بطنه ، فكذلك الكاتب يتحول الى شخص همه الوحيد حشو الادمغة ، ويعني بالسفاسف من القول ، والنوادر من الحكايات التي ليس القصد منها سوى التسليه وقضاء الوقت فيما لا يغني .

من الممكن اذن ان ينساق الاديب وراء الحلول السهلة ، وان تسول له نفسه الاقتداء بالتاجر والمهندس والطبيب والمحامي ، وغير هؤلاء من أصحاب المهن الحرة . ولقد يقول في نفسه : ان المهنة التي امارسها تستلزم من العناء وتتطلب من الذكاء ما يتطلبه ويستلزمه عمل الطبيب والمهندس . فالى متى اظل محروما من نعم الحياة ؟... والغريب انه يجد من المجتمع حوله تشجيعا على المضي في السبيل : فاغلب القراء لا يميلون الا الى ما يسمى بالمطالعات الخفيفة .. والناشر سوف يقنعه بان الكتب المبسطة وروايات الجيب والقصص البوليسية ومغامرات الجواسيس ، اكثر رواجا من المؤلفات التي لا يزال بعض « المتزمتين »

يكتبونها فلا يجدون من يقرأها .. ورجال الصحافة والاذاعة والتلفزيون سوف يشعرونه بانه لا سبيل الى قبول انتاجه الا اذا توفرت فيه بعض الشروط ، وكتب على نمط خاص مقرر سلفا . اضف الى كل هذا ان الادب اصبح اليوم مصنعا (بتشديد النون) باتم معنى الكلمة . فقد تسربت اليه اساليب لم تكن تستخدم الا في مجال النشاط الاقتصادي كاصدار النشرات المبسطة والاقتباس والاختصار وما الى ذلك ... بل اصبحت تعقد اتفاقيات دولية لشراء حقوق الترجمة قبل صدور الكتاب في اللغة الاصيلة ، ولا يكاد يصدر ذلك الكتاب حتى تتخاطفه دور النشر بالمزايدة في الثمن .

والترجمة في حد ذاتها ، بصرف النظر عن نواحيها الايجابية ، لا تخلو من جانب استهلاكي ، لانها عملية استيراد للفكر الاجنبي بقصد الاستهلاك المحلي ، على غرار ما نستورد السيارات تماما .

ولعلكم توافقون بعد هذا اننا لم نحرز في هذا المجال تقدما كبيرا على عصر المتنبي . فادب الارتزاق الذي كان سائدا في عهده وادب الاستهلاك السائد اليوم في كثير من الاقطار انما هما صنوان متشابهان يتحكم فيهما قانون العرض والطلب ، ونشتم منهما رائحة المنفعة العاجلة ويتسم كل منهما بطابع الزيف والتفاهة ، وليس في اي منهما شيء من الصدق والاصالة .

ولكننا نتساءل بعد هذا كله : هل خلق الانسان لتكديس الارزاق وجمع الكتب من غير تمحيص بين جيدها وزائفها ، ام خلق لتخليد ذكره في هذه الحياة بالعمل الصالح النافع له ولمجتمعه ؟ وهنا آتي الى الحديث عن لون اخر من الادب ، هو الذي اراه اجدر بهذه الامة ، واليق بها في هذه الفترة الحرجة من تاريخها . وهذا الادب اسميه « ادب الظروف الطارئة » او « ادب الاحداث الجسام » او يسميه البعض بادب النضال اوادب الالتزام .. ومهما اختلفت التسميات ، فان الشيء المؤكد هو ان معركة المصير في حاجة الى ان يساندها الكتاب والشعراء والفلاسفة والمفكرون لان الاحداث التي يمر بها الوطن العربي يحتم على الاديب ان ينهض بمسؤولية عظمى في التوعية ، وفي معركة المصير بالذات .

ولكنني ، قبل الخوض في هذا اللون الثالث من الادب ، احب ان امهد له ببعض الخواطر ، فيما فهمته من عبارتي « معركة المصير ».

ان كلمة « المصير » تتضمن معنى الصيرورة في الزمان ، ولذلك فسوف استطرد قليلا لاتحدث عن مفهوم الزمان عند العرب .. فلامر ما ، لا يوجد في لغة الضاد سوى الماضي والمضارع ، بينما نجد ان الشعوب الاخرى تحدد فكرة الزمان بالماضي والحاضر والمستقبل .. ولكن المسالة لا تقف عند هذا الحد ، بل تختفي وراءها فلسفة عميقة ان اراد ان يبحث في مكنونات الالفاظ ان ما مضى من الافعال والاعمال انما يمثل بالنسبة الى تاريخ الحضارة ، التراث الثقافي ، لان تلك الافعال ان هي الا اعمال اجدادنا وتصرفاتهم وانماط سلوكهم في هذه الحياة .. وكما ان الفعل الماضي في عرف النحاة ، مبني ، اي ملازم لحالة واحدة ، فكذلك التراث الثقافي ، يمثل القيم الثابتة التي لا تتغير ، ومن واجب الانسان ان يحافظ عليها ، وان يقاوم كل محاولة لطمس معالمها ، لانها بمثابة الاساس في بناء صرح الحضارة .. وكما ان الفعل المضارع في عرف النحاة معرب ، اي متغير الاخر ، فكذلك الاعمال التي تقوم بها في الحاضر او في المستقبل لا تثبت على حالة واحدة ولانها متعلقة بالنية في مواصلة المشروع الى النهاية ، او العدول عنه كلية او التراجع في بعض اجزائه .

ان مفهوم المضارعة عند العرب شيء طريف حقا ، وذلك ان العرب بموجب حتمية التاريخ الزاحف ، وبمقتضى الفلك الدائر ، والزمان لا يقيدون انفسهم بالحاضر ، ما دام هذا الحاضر صائرا الى المستقبل المتجدد السائر .. فالواحد منا لا يكاد يعي نفسه في اللحظة الراهنة حتى تكون تلك اللحظة قد انقضت وحلت محلها اللحظة التالية ومعنى ذلك ان فلسفة العرب قائمة على الصيرورة اي على تحقيق المصير ، انطلاقا من الماضي الذي يحمل القيم الثابتة ، وانطلاقا كذلك من الحاضر الذي يتضمن المستقبل وينصب فيه .. على ان الحاضر انما يمثل في عمر الزمان نقطة تحفز الى المستقبل لان العربي انسان لا يرضى بحاضره ، بل يظل دائما محدقا بالافق ، باحثا عن معالم المستقبل ، وطالبا « للمعالي » على حد تعبير المتنبي .

ان الحاضر ينجسم في وضعية لا بد من تجاوزها الى وضعية احسن منها ، فاذا ما بلغت تلك الوضعية الجديدة ، فلا بد من السعي لبلوغ البدل ، فكذلك المعاصرة تفرض على الانسان العربي ان يكيف وضعه بحسب مقتضيات الاحوال .. واذا نظرنا الى تاريخ الفكر العربي الاسلامي ، فاننا نجده حافلا بالعبارات الدالة على سعي المفكرين العرب لتغيير الواقع وتحسين المعيشة وتصحيح الوضع ... ومن تلك العبارات : « الاجتهاد والمناقشة والمجادلة والمناظرة والمحاورة » وكل عبارة من هذه العبارات تحمل في طيها روح الثورة الثقافية .

* * *

ان الجزائر التي خاضت بالامس غمار الثورة المسلحة المظفرة ، ترى ان تلك الثورة المباركة لا تكتمل الا اذا ساندتها ثورات ثلاث هي : الثورة الثقافية ، والثورة الزراعية والثورة الصناعية . وانا اعتقد ان كل واحدة من هذه الثورات الاربع هي معركة المصير بالذات ، لانها تعبر عن عدم الرضى بالحاضر ، وتدل على ديناميكية الفكر العربي وتكشف عن محاولة للحاق بركب الانسانية .

ويظن البعض ان مفهوم ، الثورة الثقافية ، مستورد ، وان عبارات « النهضة والتوعية والتمسك بالشخصية ، وتصحيح الوضع الثقافي ، والصراع العقائدي ، والتبعية الثقافية » ، ان هي الا كلمات منسوخة اذا صح التعبير ، اي انها وضعت على غرار مثيلاتها الاجنبية وربما نسي اكثر الناس ان الثورة الثقافية التي احدثها العرب والمسلمون منذ اربعة عشر قرنا ، ليس لها مثيل في تاريخ البشرية .

بطبيعة الحال ، لا يتسع المقام للدخول في تفاصيل هذا الموضوع، وانما اكتفي بالاشارة الى ان الآية الكريمة التي تقول : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » هي التي دفعت العرب في انطلاقة عبر الزمان والمكان ، لم يشهد لها التاريخ مثيلا ... ففي تلك الآية ، بصيغة الامر الذي وردت به ، حث صريح على القراءة ، وارشاد الى سبل المعرفة واشارة الى ان صرح الحضارة لا يمكن ان يبني الا اذا استعمل القلم (علم بالقلم) ، اي ان الحضارة لن تزدهر الا اذا انتقلت البشرية من مرحلة الرواية الشفهية الى مرحلة تدوين المعلومات ، وتسجيلها على القرطاس .

ولا ننسى في هذا المجال ان هذه الايات هي اول ما نزل من القرآن ، وذلك دليل قاطع على اهمية القراءة في الحياة .

ان المعاصرة ـ واعني بها الجهود التي يبذلها المرء ليكون ابن عصره ـ اصبحت تفرض علينا ان نتتبع باستمرار ما يجري في العالم من احداث ، وان ندرس القضايا المعروضة علينا ، وان نستزيد من العلم حتى لا نتخلف عن ركب الحضارة ، وان نرفه عن انفسنا بمطالعات جذابة ... وهكذا ترى الواحد من ابناء هذا العصر ، يطالع الجرائد والمجلات ، وينكب على دراسة التقارير والملفات ، ويقرأ القصص والروايات والمسرحيات ، ويقبل على كتب الثقافة والعلم ، اضف الى ذلك كله ما نتلقاه من رسائل ، وما نصادفه في الطريق من لافتات وما نراه ملصقا على الجدران من اعلانات ، فلا يجد مناصا من قراءة كل ذلك ... وهذا الامر يستوجب على من يريد ان يكون ابن عصره ، ان يتوخى طريقة في القراءة تمكنه من ان يطالع اكبر قدر ممكن ... وقد وجد بعض الباحثين ان السرعة في القراءة يمكن ان تتحسن بالتدرب

والمران ، وهذا موضوع اخر ، ويكفينا ان نقول بان المطالعة اصبحت من اوكد الواجبات بالنسبة الى معركة المصير ... ولا بد هنا من الاقرار بحقيقة مريرة ، وهي اننا لا نزال مقصرين في المطالعة ، واننا نعاني ازمة قراء .. او ليس من المؤسف ان نرى بعض انصاف المثقفين عندنا ، يقبلون على شراء مختلف انواع الاثاث ، وتجهيز بيوتهم بمختلف الادوات العصرية ، ومواعين الطبخ الحديثة ، والات التسلية ، الا انك تراهم يهملون ركنا اساسيا في البيت ، الا وهو المكتبة ؟.. ان اكثر الناس ، للاسف الشديد ، يتباهون بما لديهم من كتب .. ان تأسيس المكتبة في كل بيت ، يعود ببلادنا الى تقاليدها العريقة في حب العلم ، ويخلق جوا مناسبا للثورة الثقافية .

ان الادباء هم جنود هذه الثورة وطلائعها ، وروادها . وينبغي ان يقوموا بدور اساسي في التوعية . وكيف يكون للاديب جمهور يتابع انتاجه اذا لم يكن الشعب متعلما واعيا ؟ ولذلك فالثورة الثقافية قائمة اساسا اولا : على محو الامية بجميع اشكالها ، وثانيا على مقاومة الخرافات والاباطيل التي الصقتها جاهلية القرن العشرين بالدين وبالتراث القومي ، وثالثا على تصحيح الوضع الثقافي الراهن ،خاصة في الاقطار التي عرفت ليل الاستعمار ، وتعرضت للغزو الثقافي ونكبت في اعز شيء لدى الانسان ، الا وهو اللسان ، ورابعا على التفتح .. واحب ان اشير الى ان التفتح لا يمكن ان يكون سليم العواقب الا اذا حصل في اتجاهين : تفتح على الداخل وتفتح على الخارج ، وذلك ان كثيرا من الناس يتوهمون ان التفتح عملية شبيهة بفتح النافذة لكي تطل منها على الخارج ، وانا اقول بان عيوننا ينبغي ان تكون مفتحة قبل كل شيء على تراثنا القومي : فكل ما يلهج به الشعب من اغان وامثال وحكايات ، وقصص تروي البطولات ، كل ذلك ينبغي ان يعتبر من الروافد الزاخرة التي تصب في نهرنا الخالد الا وهو لغة الضاد . اما موقف الاستعلاء والترفع على التراث الشعبي ، فقد استنكره ابن خلدون بعبارات لا تزال حتى اليوم تحتفظ بجدتها وطرافتها ، فهو يقول دفاعا عن اللغات السائدة في عهده :

« ولا تلتفتين الى خرفشة النحاة ، اهل صناعة الاعراب ، القاصرة مداركهم عن التحقيق ، حيث يزعمون ان البلاغة لهذا العهد ذهبت ، وان اللسان العربي فسد ، اعتبارا بما وقع في اواخر الكلم من فساد الاعراب الذي يتدارسون قوانينه ... وهي مقالة دسها التشيع في طباعهم والقاها القصور في افئدتهم »

ان الاديب الحق لا ينبغي ان يكون مقطوعا عن الشعب . ولذلك يجب ان يتفرغ لمهنته ، والا فانه سوف يتناول الموضوعات الادبية من زاويته كموظف او كاستاذ او كطبيب الخ ... فالاديب الحق لا يتردد اذا اقتضى الامر ، في الانخراط للعمل في المصنع ، او في المزرعة ، او في اي مكان اخر يمارس فيه مهنة يدوية يمكنه من تلمس الواقع وتحسس آلام الشعب وآماله وافراحه واتراحه . بطبيعة الحال يمكن للاديب ان يتخذ موقفا اخر ، هو موقف المتفرج مما يقع حوله ، ولكن ما قيمة الاديب الذي يكتفي بوصف المشاهد اليومية او سرد الاحداث الخاصة او العامة ؟ وما قيمة الاديب الذي يكتفي بالوصف والسرد ويحاول ان يزيد من عنده شيئا من الشرح والتفسير والتحليل ؟ ان كل هذه المواقف تعتبر انهزامية ، وفيها تهرب من تحمل المسؤولية فلا بد اذن من المساهمة في عملية التحويل الاجتماعي وفي بناء صرح الامة .

اما التفتح على الخارج ، فهو مكمل للفتح على الداخل ولا يستقيم بدونه ، وذلك ان الانسياق بدون تحفظ وراء الاتجاهات الامية فيه خطر كبير على تماسك الشخصية القومية ، ان هذا النوع من التفتح له محاذير اهمها ان الخارج هو دائما مصدر لحملات التضليل .. فمن واجب الاديب ان يفضح بعض الاتجاهات السائدة عندنا ، وخاصة منها تلك التي تدعو الى التبعية الثقافية ، بدعوى اننا متخلفون في الميدان التقنولوجي .. وهذا لا يمنع من القول بان التفتح على الخارج شيء ضروري ، خاصة ان بعض الجوانب من الحضارة ، كالتربية والدين والتقنولوجيا ، انشأت لدى الناس من مختلف الجنسيات ، العديد من المفاهيم الثقافية والحضارية المشتركة وعلى سبيل المثال ، فان الانسان الافريقي اخذ يخرج من بوتقته الضيقة ويدرك ان هناك زنوجة تربط بين الافارقة السود ، وان هناك عروبة توحد شمل ابناء لغة الضاد ، وانه بعد هذا او ذاك ، توجد افريقانية ينتمي اليها الافارقة مهما اختلفت اوطانهم . ولا شك ان المهرجان الثقافي الافريقي الاول الذي عقد بمدينة الجزائر عام ١٩٦٩ قد اتى بالدليل القاطع على ان مختلف الفنون التعبيرية ، من ادب ورسم وغناء ورقص وتمثيل ، تكشف عن تراث مشترك من المفاهيم .

وزيادة على هذا ، فان التفتح يفرض على الكاتب ان يتجاوب مع جميع المعذبين في الارض ، فاينما كانت الحرية ذبيحة ، ينبغي ان يرتفع صوت الاديب منددا بالصهيونية والاستعمار والرأسمالية وجميع القوى التي لا تزال حتى اليوم تطبق اساليب التعذيب الوحشي ، وتستعبد الشعوب ، وتعكر صفو العلاقات بين الامم .

وبعد ، فان القيم التي ضمنت للغة قريش الانتشار في المكان والديمومة عبر العصور والازمان ، ينبغي ان تكون للادباء العرب خير رائد في مساعيهم للتفتح على العالم بما يعتمل فيه من افكار ، وما يتصارع فيه من مذاهب وعندئذ يمكن لهم ان يقولوا مع الشاعر الذي قال :

نبني كما كانت اوائلنا تبني ، ونفعل فوق ما فعلوا

الجزائر — حنفي بن عيسى

من حكاية الغول والمدينة المحاصرة

يتهدل لحم الليـل ، يتفسَّخ
يطايَر قطنا محروقا
وشظايا رمَّدهاقحط السنوات
الساعة تنقر وجه الزمن القادم
صدئت تلك الارقام
وانحدر الميزان القائم
ما بين عيون الطفلة والسكين
ضرب الاعصار الآتي منخاف
وعاء الارض
خارطة هذا العالم
فخطوط الطول اخترقت جلد خطوط
العـرض
واقامت فيها ، تتلاقح ، تنسل اشياء
بلا اسم او وجه او بعد
البرج تداخل في برج
وانحبس المطر
انطفأت نيران الافلاك
غيض الماء ، انبعثت حيتان العهد السابق
وتقطع سلك الايام
اختلط الحابل بالنابل
السبت تقدم ايام التكوين الاولى
السبت تتوّج في حفل التقويـم ،
ترامت بين يديه الرايات
الطور تكلم ، غنى الطور ،انتعل
الشمس
واحيا الاموات
اقام الحـد
انشرخ الوادي
لفظت بطن الصحراء افاعيها
وانشق البحر لهـا .
عاد التنين ...
انحدر الميزان القائم
ما بين عيون الطفلة والسكين
وانهد الليـل على الليل
تطاير قطنا محروقا
ومرايا تسكنها الاحداق
الصمت يخيم
يمتص الاشيـاء
يهيل الموت على الاسماء
يجري خيلا لا اطراف لها
وليس لها اعناق
خيلا لا لون لها
في القاع تـراوح
تتآكل ، يقرضها عث الاشعار المنسية
صوت في الغور يحرك سطح المأساة
صوت كالجرح النازف آت
من خارج الواح الزمن المطوية
حي ، حي

يا أهل الصبوة والعرفان .
اشرعوا القلـوب
افتحوا الابواب
فارسنا المحبوب
جاء مع السحاب
بالكشف واليقين
من سائلي عنه من العشاق ؟
فارسنا يريد ان نراه
ان نقرأ السؤال في عينيه
يريد ان نطعمه من جوع
ان نخلع الحديد عن يديه
وننزع الحربة من جنبيه
يريد ان نمنحه الحرية
نسلمه الراية والكتاب
فارسنا العائد في السحاب
من سائلي عنه من الاحباب ؟؟
ياهذا الصوت الهائم في الطرقات
يا عاري الوجه ،
تستر ،،
اخف العينين
العق وقع القدمين
واحجب بظلام الصمت الكلمات
لا تسأل حتى م ؟ واين ؟؟
قانون العتمة ساري المفعول
والعين سراج
اطفئها ، استرجع اصداء الكلمات
الغول على الباب الشرقي
الغول على الباب الغربي
الغول ، على كل الابواب
يا عاري الوجه
تستّر ... العق وقع القدمين
لا تطلب زادا او ماءا
لا تطلب شيئا
فالخبز لهم ، الماء لهم .. والحرية
حراس مدينتنا ، المجد لهم وحقول
السكر والابراج
ـ يأتيكم من صوب الكوفة صوت
يأتيكم في مثل النفخة في الصور
« الموت أولى من ركوب العار »
يـافقـراء
ياايتام الدار
الخبز لهم ، الماء لهم ..وطيور النار
ماذا لو دخل الواحد منا في الآخر ؟
لو سرنا غابـة
ودفعنا الباب ، خرقنا السور
أتينا الغول ،
اتينا الغول عرايا
الا من كفن وحطام صليب

فليأكل منا ، يأكل منا
حتى نقتله من تخمه
أو ....
يبقى اطفال قبيلتنا
تبقى الارحام ..
ـ عودوا الى جحوركم يا ايها النيام
كفوا عن الكلام
محظورة تجارة الافكار
سدوا مجاري السمع والبصر
ومن رأى منكم بشير النور
لا يشهد
للشاهد لاول صوم الدهر
عباءة من ابر النحل ومن خناجر العسكر
زندقة ان يسأل المؤمن كيف ؟ أين ؟؟
او ان يرى ما لا يرى
لا كشف لا يقين ،
الا على النار التي يوقدها «سفيان» *
في حضرة المنصور
أن تخرجوا عن طاعة السلطان
فالنار في التنور
لما تزل ، والسيف في الاعناق
يا ايها النيام في قرارة النهار
عودوا الى سلامة الانفاق
الناب في الوريد
ان تخرجوا ، فالغول خلف بابنايقيم
عيناه نهرا لهب
وفكه الجحيم
لا تهجروا المدينة المسوّرة
هنا ، هنا الاتباع والانصار
وغابة الحديد
هنا ، هنا الهاتف بالنزال
ان تخرجوا فالناب في الوريد
والنار في التنور ما تزال
والسيف في الاعناق
ـ من سائلي عنه من العشاق ؟
حبيبي المقطّع الكفين
بين يدي سيده الحسين ..
يخرج من مغارة الشهادة
يجيء في ملاءة الضياء
عبر سهوب الوجد والحنين
يدخل في اسرّة الصغار
يبوح بالسر لهم
ويكشف الغطاء
عن ذلك المجهول
يا اخوتي ، يقول للصغار .. الدرب
انتم
فيكم الوصول
والكشف واليقين
على خطى اقدامكم ينعقد المطر
وتحدث الولادة .

بيروت **حبيب صادق**

---

* والي البصرة ايام المنصور وهوالمسؤول عن مقتل « ابن المقفع »

بين التراث والمعاصرة في معركة المصير

بقلم الدكتور عباس الجراري

موضوع البحث : الاديب العربي بين التراث والمعاصرة في معركة المصير
البلـــد : المغـرب
الكاتـــب : د. عباس الجراري
عنوان البحث : بين التراث والمعاصرة في معركة المصير

يكشف الواقع الذي نعيش في مختلف انحاء الوطن العربي ، ان امتنا تعاني من تخلف عام يسري سرطانه العميق في سياستها واقتصادها وحياتها الاجتماعية والثقافية . فالصهيونية تحتل اجزاء من اراضينا العربية ، والاستعمار بشكليه القديم والجديد يفرض سيادته ويحـول دون تحقيق كياننا الوطني المستقل ، والرجعية العربية الحاكمـــة ، بتعاطفها معه وتحالفها مع الامبرياليـــة تستبد بالجماهير وتقمع طاقاتها وتسلبها حرية التعبير عن نفسها وممارسة حقوقهـــا المشروعـة ، والراسمالية والاقطاع متسلطان متربصان يقاومـان كل تيار يتفتح على الاشتراكية ، والمفاهيم البالية والافكار الخرافية تزيد بدورها ربـط المجتمع الى اوتاد التقهقر والانحطاط ، وكذلك تفشي الاميـة والجهـل والاعتماد على النقل والتقليد ، فانهما يمنعان العقل العربي من الانطلاق في ميدان العلم الحديث ويؤخرانه عن مسايرة تطور العصر .

وقد ادرك الشعب العربي ان الثورة هي الاطار الذي يمكن ان يحقق فيه وجوده الانساني ، وانها الاسلوب الجذري لتحقيق الحرية السياسية والاستقلال القومي والتحرر من السلطة الاجنبية واسترجاع السيادة وبناء مجتمع تقدمي حر كريم ، وخلق نهضة فكرية وحضارية وابتكار صيغ جديدة للحياة المتغيرة التي نسعى الى اعادة خلقهـــا وتشكيلها . وادرك كذلك ان الوحدة هي الحل الطبيعي لامكان مواجهة تحديات العدو واسترجاع اراضيهـا المغتصبة ولتغيير واقـع الشعوب الممزقة والمفصولة بحدود مفتعلة ، وادرك في النهاية ان الفكر العلمي الثوري هو وسيلة الخروج من التمزق الايديولوجي الذي يعيشـــه ، وبالتالي وسيلة تحقيق كل اهدافه وتطلعاته .

وعلى الرغم من ان الادباء العرب يلتزمون بهذه القضايا المصيرية في تلقائية وعفوية نابعين من انفعالهم الصادق واحساسهم العميـــق وتاثرهم المستمد من حياتهم ومن واقع الجماهير ووجدان الامة ومـــن مواجعها واهتمامها ومطامعها العادلة ، فان نظرهم الى هذه القضايا غير موحد يختلف ـ فكريا ـ باختلاف رؤاهم وانقسامهم في تمثـــل الحلول . منهم من يرى ضرورة الانطلاق من الواقع وروح العصر ونبذ التراث عامة ، ومنهم من يعتبر التراث وحده السبيل الى التقـــدم والخلاص . ويتجلى عند هؤلاء موقفان متشابهان : احدهما يدعو الـى الاقتصار على التراث العربي والتمسك الاعمى بروح السلف ، ويتحفظ تجاه ما يقدمه الغرب على انه استعماري ويشك فيه وفي صلاحيته ، بل يرفضه ويعتبره وبالا وخرابا . والثاني ينطلق من الاعجاب بالغرب ويرى تراثه كل شيء وانه المنجى الوحيد ، فيدعو الى الاقتصار على تقليده في فكره وحضارته ، وفي الوسائل التي جعلته يتقوى وينتصر. وهو بدوره يرفض التراث المقابل ، اي التراث العربي ، لانه لم يفض في رأيه الى غير التاخر والانهيار . وبين هذه الرؤى جميعا يقف نظر الذين يدعون الى المزاوجة بين الاصيل من تراثنا والصالح من تراث الغرب على ان ننظر فيهما من خلال شخصيتنا وفكرنا لا تقليدا لموقف الآخرين منه ، وعلى ان تبدأ انطلاقتنا من الواقع الذي نعيش .

اذا نحن امعنا النظر في هذه الحلول لاتخاذ موقف واضح منها ، الفينا منذ البدء ضرورة رفض كلا الرايين القائلين بالاقتصار عـــلى التراث . نرفض الاول لانه يقدس التراث العربي الاسلامي ويجمد عنده ولا يحاول التفتح على الثقافات العالمية ، بل يبالغ فيتكلف ارجـــاع المخترعات والمكتشفات والنظريات العلمية وحتى المذاهب والاتجاهات الاوربية في الفكر والادب الى اصول عربية . ونرفض الثاني لانه لا ينظر الى تراث الانسانية ولانه يرتمي في احضان التراث الغربي ارتماء كليا ومطلقا ، وهو تراث مرتبط بوجود اجتماعي غير وجودنا وبواقع تاريخي غريب سيفصلنا لا محالة عن قضايانا المصيرية والمشاكل النابعة من صميم مجتمعنا ، وسيسلبنا القدرة على مواجهتها كما سيسلبنا مقومات النضال في المعركة التحررية التي لا مناص من خوضهـــا ، وسنظل ان حاولنـــا المواجهة ـ ابتداء منه ـ بعيدين عـن المنطلقـات المتجذرة فينا ومجرد سابحين في الاوهام وخاسرين الى الابد . ثـــم ان اخذ كل الغرب يفرض علينا ان نقتبس الازمة الفكرية والحضارية التي يتخبط فيها والتي ان كانت ملائمة للبيئة الغربية فهي تختلـف كل الاختلاف عن مناخ بيئتنا .

ورفضنا لهذين الحلين لا يعني اننا نرفض التراث مطلقا . ذلك اننا لا نرفضهما لانهما يعتمدان التراث بل لانهما يتعصبان له ويقدسانه ويتحجران متقوقعين داخل حدوده لا يتعديانها لما سواه . اما التراث في حد ذاته وكمنطلق وحجر اساس فانا لا نرفضه كما سنبين بعد . ولعلنـــا ان نقف قليـــلا عند مضمونه لنوضحه ونتفق عليه ثم لنديـــر الحوار بعد ذلك دون خلاف .

فالتراث الحق ليس هو كل الماضي او ما صدر عن الاجداد دون تحديد ، ولكنه الجانب المضيء منه الذي يكشف عن الظواهر الثقافية والحضارية التي وصلت على مر الاجيال عبر فترات تطورية متعددة كانت تتجذر فيها وتتجدد وتتغير بخصوبة وتلقائية متأثرة بما تعانق او يعانقها من ظواهر ثقافية وحضارية اجنبية ، وهو كذلك الجانب الذي يمثل انماطا من وعي الانسان العربي ومراحل من واقعه ووجوده الفردي والاجتماعي خلال التاريخ ، ويعبر عن الذات العربية وتجربتها ويعطيها مميزاتها ويذكر بوجودها ويبرز شخصيتها واصالتها الذاتية ويحدد منظورها القومي الخاص . هو بهذا ملك للامة وجزء من وجدانها به تستطيع التعرف الى التغييرات التي طرأت عليها والى الشروط التي يمكن ان تصنع فيها تاريخها او تستمر في صنعه .

واذا كان تراثنا غنيا في فترات ازدهار امتنا فكرا وحضارة ، فانه ناضب في فترات التقهقر والانحطاط ، حيث تعرض لهزات بترت حلقاته بل كادت تقتلع جذوره الضاربة في اعماق التاريخ وفي اعماق الانسان والارض . ومن اخطر هذه الهزات تفكك الامة العربية وانقسامها والتدخل الاجنبي الذي فرض وجوده عليها ، وما نتج عن ذلك من انهيار عام شيأ الانسان العربي وطبع فكره بالجمود والسكونية وجعله يعاني من الانفصام وعدم التماسك والتجدد والاستمرار ويجرد من كل ما يجعله مؤثرا حضاريا في وجدان الامة . وقد كان الاستعمار اخطر تلك الهزات اذ عمل على تمزيق الروح القومية وتشتيت الشخصية الوطنية وتبديد ملامحها وتفتيت الوحدة ، كما عمل على تجميد طاقاتنا الخلاقة وقتلها ومحو كل ما ابدعته امتنا واجبارنا على التقليد والنقل وتنمية روحهما واستغلال الدين في تجميد العقول ، وعمل كذلك على تشويه تراثنا وابراز الفاسد منه والترويج له ، فانكر دور العرب الايجابي في تاريخ البشرية حضاريا وثقافيا ، ولجأ الى تاريخنا فطمس الجوانب المشرقة منه وكشف عن الجوانب المظلمة وعزا ظلاميتها لاسباب وعلل سلبية كانحراف وتصور العقلية العربية ذاتها . وبهذا وعن طريق محو تاريخ الامة العربية وتشويهه حاول محو وجودها نفسه وتشويهه .

من هنا يبدأ الذين يدعون للمعاصرة في مفهومها الضيق اي الى مسابقة العصر والتفاعل معه وتجاوز الماضي واعتبار الحاضر وحده البعد الزمني للانطلاق . وهم يرون الا حاجة بالرجوع الى اصول الاشياء ، وانه يكفي الاقتصار على ما له علاقة مباشرة بالحاضر وما يفيد فيه فحسب ، ويعتبرون التراث شيئا هامدا منتهيا لا قابلية له للتحرك والتطور والتفاعل والتأثير ، وان الاعتماد عليه لا يعني غير الرجوع الى الوراء ، ويستغلون الهزيمة ذريعة للحكم عليه بعدم الصلاحية ، وينادون بضرورة الدفع الى الامام بتفجير الواقع الثوري وقوى الجماهير النضالية .

وفكرة البدء من الواقع لا تعني في حقيقتها غير البدء من الصفر في انطلاق مشتت غير موجه يعتمد الخلق الكلي والابداع المطلق ، طالما انها تنبذ الماضي العربي وكل تراث الانسانية ، اي تصفية النفس تاريخيا وحضاريا ورفض الذات الوطنية والقومية ، وهو ما لا يتفق مع اتجاه الجماهير في النضال التحرري القائم على الوعي الوطني والاحساس بالكيان التاريخي الذاتي والانسية القومية .

ثم اي واقع هو ؟

انه واقع ملطخ بعار النكبات والهزائم المتتالية والتخاذل والاستسلام ، لا يكشف غير الانهيار المطلق والانسحاق التام ، يشيع الذل والبؤس والتخلف ، ويقوم على كيانات هشة متمثلة في اقليات واقليميات وحدود مصطنعة تحول دون الوحدة والقومية وتحول بالتالي دون تحقيق النصر في معركة المصير .

والحق ان الذين يرون ان الانطلاق لا يمكن ان يكون الا من الحاضر ماخوذون بما وصل اليه الغرب من تقدم علمي وتقني ومعجبون الى حد انهم مبهورون لا يستطيعون ادراك سلبياته وانحرافاته ، ولا يقدرون على التمييز بين ما ينفعهم وما يضرهم في فكره الذي اوشك عصر ريادته على الانتهاء ، وهو فكر يعاني من ازمات وردود فعل ضد العقل والعلم والتجريب والتحليل والمادية والآلية ، ونحن في نهضتنا الحالية ما زلنا بحاجة الى هذه المقومات ولكنا مع ذلك نروج لافكار ومذاهب لا تتفق مع متطلبات هذه النهضة وتطلعاتنا التغييرية ، وان كانت تتفق مع حياة الغرب لانها وليدة بيئته وظروفه الخاصة ولانها تمثل مرحلة من مراحل تطوره . وهم نتيجة ذلك يستصغرون انفسهم ويحتقرون فكرهم وتاريخهم وشخصيتهم وطبيعتهم ، ويشلون بالتالي قدرتهم على التجديد والابتكار .

وبعض هؤلاء يرجعون فكرة الوطنية وظاهرة القومية الى اوروبا ، ويرون ان العرب لم يعرفوها الا بعد اتصالهم بالغرب ويعتبرون ان ثقافتنا في الماضي خالية من الاصالة ومن الصبغة القومية ، ويحتجون لذلك بان البراعة كانت عند العرب في التقليد وفي محاكاة اشكال ونماذج ثابتة . وفات اصحاب هذا الرأي ان يعرفوا ان العرب مارسوا الحياة الوطنية والقومية قرونا طويلة ابان ازدهار دولة الاسلام حين كان الغرب نكرة لا يذكر ولا وجود له ، وفاتهم ان يعرفوا كذلك ان الاصالة او الصبغة القومية تلقائية في الثقافة نابعة من نفس مضمونها وشكلها العربيين الاسلاميين ، وان التقليد لم يكن طابع كل منتجي الثقافة لانه لم يصدر الا عن المنتجين الاوساط الذين لم تكن لهم قدرة على الخلق ، ثم لانه كظاهرة يقتضي وجود انماط ابداعية ممتازة تتخذ نماذج ينسج على منوالها . ولم يتسع نطاق هذه الظاهرة الا بعد ان تجمد الفكر العربي وبدأ يميل الى الانهيار .

وكثيرا ما نسمع من بعض القائلين بالمعاصرة الدعوة الى العمالية واعتبار القومية او الاصالة انغلاقا وانعزالا وتعصبا لم يعد له مبرر بعد ما انفتحت الافاق واسعة امام الانسانية وبحكم ظروف التقدم التكنولوجي وما ترتب عنها من تحويل في القيم والمفاهيم .

ولكن اية عالمية هذه التي يدعون لها ؟ انها لا تخرج عندهم عن نطاق « الاوربية » في حين ان العالمية الحق هي التي تستقي من الفكر الذي انتجته كل الامم والشعوب بما فيها اسم وشعوب العالم الثالث الذي نشترك واياه في كثير من الملامح والقضايا والتجارب . وهي لا تستطيع ان تكتسب ابعادها الحقيقية اذا هي لم توسع رقعة تفتحها الفكري والحضاري لتتحاور وتتفاعل مع كل مبدعات الانسان .

ومن حقنا — وواجبنا كذلك — ان نساهم في اعطاء العالمية معالمها الحقيقية ولكننا لا نستطيع طالما اننا متخلفون وطالما اننا نسير في ركاب الآخرين . ومع ذلك فاذا كان الاخذ من ثقافة العصر الغربية ضروريا للخروج من التخلف فانه ينبغي ان يكون مرهونا بفترة زمنية معينة ، لانه من غير الطبيعي ان نستمر في الاخذ والتقليد ، مما يستدعي البحث عن ارضية تكون منطلقا لطاقاتنا وامكانياتنا الذاتية نحو ابعاد الخلق وآفاق الابداع .

ويبدو ان معظم المتحمسين للمعاصرة يعتبرون ان لهذا الجيل من ابناء العروبة عقلية خاصة ووجدانا متميزا وشخصية مختلفة بسبب الظروف التاريخية والواقع الاجتماعي وتفاعلاته الثقافية والحضارية وبسبب مشاكله وقضاياه وحاجياته وتطلعاته . فهو لهذا وغيره يرفض الامتنان لسابقيه والاعتراف لهم بانهم علموه او قدموا له كثيرا او قليلا ، ويريد ان يعتمد على نفسه ويعتبر انه نتاج نفسه وحدها لا فضل لاحد عليه . وهذا ما يترجم عدم اعترافه بالماضي ونبذه للتراث اجمالا وتفصيلا .

وعلى الرغم من ان اغلب هؤلاء من الذين يعبرون بالشعر الحديث او القصة والرواية والمسرح والتشكيل اي بانماط لم يستقوها من

التراث العربي ، فانه لا جدال انهم اقتبسوها من التراث الاوروبي . على ان الشيء الذي لا ينبغي اغفاله هو ان الانسان ـ والمنتج خاصة ـ لا بد متأثر بتجارب غيره وان كان لا يعي دائما ما يعمل فيه من مؤثرات ثم اننا لسنا بدعا من الامم والشعوب ولا وجدنا من العدم ، بل لنا جذور ضاربة في اعماق الماضي البعيد ولنا امة عريقة كانت دوما تتفاعل مع غيرها من الامم فتستمد منها ما يوافقها وما تستطيع هضمه وتمثله وترفض غير ذلك مما لا يوائمها ، وليس في امكاننا تاريخيا وجدليا ان نتجرد او ننكر هذا التفاعل .

واذا نحن امعنا النظر في هذا الجيل الفينا انه بدأ مع نكبة ٤٨ وقوي واشتد عوده بثورة ٥٢ ، ولكنه في الواقع اصيب بخيبات متعددة كانت لها ردود فعل انعكست على نظرته للماضي باعتباره الشيء الوحيد الذي يملكه ويستطيع مواجهته . فهو ما زال موزعا بين نظريات ومذاهب واتجاهات لم يوفق الى تكوين ايديولوجية يستقر عليها وان كان ميله قويا الى الماركسية . ولم يتح له بعد ان يزاول عملية التغيير الجذري او بالاحرى عملية تنفيذ الثورة وممارستها مباشرة . وهو يعاني من تمزق في صفوفه على النطاق القومي نتيجة التمزقات التي تفتك في الامة العربية على صعيد السياسة والفكر وما يترتب عنها من انعدام الحوار بين المثقفين العرب التقدميين . ويعاني كذلك من الكبت والخنق والضغط والقمع ما يكبله ويشل طاقاته ويحول دون انطلاقه ، ثم هو لم يتمكن بعد من الالتحام بالجماهير لقيادة قاعدتها في تنظيم سياسي شعبي يكون هو طليعته القيادية .

ولو حاولنا ان نحلل فلسفيا فكرة « الحاضر » للنظر في امكان تحديد بعده الزمني لالفينا انه يكاد يكون غير موجود الا مرتبطا بالماضي والمستقبل . فهو لمحة سريعة خاطفة ومتناهية المحدودية لا يعيها الانسان حتى تفلت منه وتصبح ماضيا لا امكان لاسترجاعه وممارسته مرة ثانية لان الزمن يعدو ويجري ولا يتوقف ابدا . ولو كان الحاضر موجودا بالفعل لكان ضربا من الثبات والجمود وتوقيفا لدولاب الصيرورة وتصنيما لحركة التاريخ في لحظة معينة . واذا كان الحاضر يمثل فترة الادراك الحسي السابقة لفترة الوعي فانا لا نستطيع تصوره الا ماضيا . فهو في حقيقته ليس غير حصيلة الماضي او لحظة منه لا توجد اذا دخل وعينا ، ولا يدخله الا اذا ملأته اشياء ملموسة اي اذا اصبح الا فيه ومختلطة معه .

والوجود تناقض وصراع بين الماضي والمستقبل ما في ذلك شك ، اي بين طرفي حدود الانسان المشدود دوما الى الماضي يجذبه اليه ، والى المستقبل يغريه بالاقبال عليه . وهو يحقق ذاته بالتحرك نحو المستقبل انطلاقا من الماضي ، اما لاعادة تحقيق رغبة سبق ان حققها فيه اي بدافع النشوة ، واما لتعويض خيبة في ادراك شيء اي بدافع التغلب على هزيمة او حرمان تعرض لهما فيه . وهو في كلتا الحالتين يشعر بان الماضي عبء يثقل كاهله لو استطاع لالغاه حتى يستطيع الجري خلف المستقبل ، على الرغم من انه لا يعرف ما يخبئه له ، ولكنه يشعر في نفس الوقت بان الماضي هو الذي يبعث فيه روح المحاسبة ويقوي عمل الضمير .

والانسان في هذا الصراع يحاول ان يحقق وجوده في الحاضر اي لحظة آنية يجمع فيها بين تجربته في الماضي بما فيها من نجاح وفشل وتطلعه للمستقبل بما فيه من امل وجزع . وبهذا يستطيع ان يعيش الحاضر ويطيل فترته ، كما يستطيع ان يحس بالغاء الزمن والتغلب على محدوديته . وهو في الواقع انما يوهم نفسه بذلك لان قانون الصيرورة يأبى الا ان تكون الحياة حلقات مرتبطة بين ماض ومستقبل متتابعين . والذي يحيا في الحاضر وحده هو الذي لم يعش ولا امل له في ان يعيش اي لا ماضي له ولا مستقبل باعتبارهما وسيلة وغاية في الحياة .

وهذا الامتداد بينهما هو الذي يعطي الانسان ممكنات وطاقات ليتغلب على نهائية حياته ، ولينطلق من قيود الزمن في لا نهائية مطلقة لا تحد في الماضي الا حين تحد معرفته به ولا تحد في المستقبل الا حين يسد الافق امامه .

فالماضي هو الشيء الوحيد الذي يمكن للانسان ان يمتلكه ، بل ان امتلاكه مفروض عليه مهما حاول رفضه او التخلص منه لان يعيش في اعماق كيانه . وكل ما يستطيع هو ان يغير نظرته اليه بان يعيد تفسيره وتحليله وتقييمه على اسس جديدة تبث فيه الحياة وقوة التأثير وتفتح عين الانسان وقلبه عليه ليقبله ويرضى عنه ويشعر بانه يداخل ذاته .

وبهذا ننتهي الى ان الارتباط وثيق بين الماضي والحاضر والمستقبل في علاقة جدلية حتمية تجعل الماضي منعكسا على الحاضر ومؤثرا في المستقبل وتجعل بذلك حركة التاريخ حركة كلية لا تتجزأ ولا تنفصل فيها الازمنة الثلاثة ولا يبقى من ابعاد بينها الا بعد واحد للانسان هو الذي يقاس بما يتحمل من مسؤوليات ويحقق من اكتشافات ويبدع من اعمال . وننتهي كذلك الى ان الانسان مهما حاول ان يصل الى تحقيق وجوده من خلال صراع ذاتي وانطلاقا من الواقع المعاش ، فانه لن يستطيع ذلك بعيدا عن الناس وعن العالم وعن الوجود الانساني الزاخر بالتجارب والمواقف .

وحين ننظر في واقعنا العربي ، نجد ان تجربتنا التاريخية في الماضي البعيد والقريب هي الاطار الذي يستطيع ان يعيد بلورة هذا الواقع على الشكل الذي يمكننا من التخطيط لمستقبل يغنيه الماضي باضافات ، دون ان يفقده جدته وابداعيته . واخشى ان لم نفصل ذلك ان نقع في الارتجال والاغتراب والاستلاب لفكر وحضارة القوى التي تفرض بسيطرتها ونفوذها علينا ، وتفرض على حاضرنا ان يسير في غير مجراه الطبيعي وتفرض علينا حلولا لقضايانا الملحة نتحول بها عن معركتنا المصيرية الحقيقية .

اننا مطالبون اكثر من اي وقت مضى بالبحث في هذه القضية الجذرية واتخاذ موقف موحد وايجابي من التراث والمعاصرة يمكننا من حل معادلتهما المزمنة . ويقتضي البحث فيها امرين :

اولا ـ ان نعي ذاتنا ونعرف من نحن ، ونحصر ما عندنا من مقدرات وممكنات ونحدد الظروف والملابسات التي احاطت وتحيط بناء ونرسم على ضوء ذلك الاهداف ووسائل تحقيقها . ولن يتم لنا ذلك الا بوسيلتين . الاولى : تحليل فكري لواقعنا وللمرحلة التاريخية والحضارية التي تجتاز امتنا ولطاقات النضال الجماهيري وقوى الثورة الصاعدة ، ليس في هذا البلد او ذاك فحسب ، ولكن في كل اجزاء الوطن العربي ، حتى نغنى تجربة التحرر وحتى تكتمل لنا رؤيا عربية موحدة . الثانية : البحث عن الاصيل من تراثنا ، ليس بما يجعله عامل تجميد لنموّنا الحضاري والثقافي ، بل لتدعيمه وتطويره وادماج الصالح منه مع حاضرنا في وحدة نكيف بها المستقبل ونشرف منها عليه . وهنا كذلك الح على ضرورة اعتبار تراث جميع العرب دون الاقتصار على ما صدر في بلد دون آخر .

ثانيا ـ ان ناخذ من فكر الغرب ومن جميع ثقافات العالم وحضاراته القديمة والحديثة ما هو ايجابي وما من شانه ان يقوي فكرنا الثوري ويدفع بنا الى الامام ، ولا سيما ما انتجته البلدان المتقدمة من حركات فكرية ومدارس فلسفية معاصرة ، وما صدر عنها في عصور النهضة والاحياء حين كانت تمر بمرحلة شبيهة بمرحلتنا الراهنة وتجتاز ظروفا حضارية مشابهة ومسارا تاريخيا قريبا مما نجتاز لنستفيد من تجاربها في قضايا التطور التي سبقتنا اليها . ويتحتم علينا هنا ان نكشف بعمق عن الجانب الذي نقلته اوربا عنا وعن غيرنا ابان حركة بعثها ، ودراسة هذه الظاهرة بما يمكن ان يكشف عن وجوه

شبه او نقط التقاء قد تفيدنا الان ونحن نحاول منها ان نتعلم ، وينبغي ونحن ناخذ من العالم ان نتخذ موقفا نقديا مما ناخذ حتى لا نكون مجرد مقلدين واصداء ، وان نفعل دون تعقيد او احساس باي مركب ، لان طبيعة الثقافات والحضارات انها تقوم على الاخذ والعطاء وعلى التفاعل والتبادل .

ومهما بدت معادلة التراث والمعاصرة صعبة او معقدة فانها في حقيقتها ليست كذلك ، فقد سبقتنا اوروبا الى حلها بل حلها العرب قبلها حين اتصلوا بعد عصر الفتوح الاسلامية بغيرهم من الامم والشعوب وحين التقت حضاراتهم وفكرهم بحضارة الفرس وفكر الاغريق ، وعرفوا كيف يدمجون في تراثهم ما ياخذون عن الاخرين ويصهرون القديم والجديد في بوتقة واحدة استطاعوا بها ان يحافظوا على وحدة شخصيتهم . ولجاوا في ذلك الى الترجمة والاقتباس ، والى اخضاع اللغة لتقبل كل ما هو جديد وتطويعها لذلك بعيدا عن التصنيم والتقديس ودون الاحساس باي نقص ، الى جعلها وما ينتج عنها من فكر وحضارة اوعية تمتص داخلها كل جديد في غير معاناة من الازدواجية التي نعاني منها الان ، والى اتخاذ موقف من كل ما ياخذون على عكس ما نفعل نحن اذ نكتفي بالتعرف الى الفكر الغربي عرضا وتحليلا والترويج له كما يشاء اصحابه في غير قليل من الاعجاب والانبهار دون استيعابه بوعي وعمق ودون نقده او رفض ما هو سلبي منه .

ان العيب ليس في اننا لم نجد في التراث شيئا يمكن ان نفيد منه ، ولكن العيب في اننا نعاني من الازدواجية بين الوعي بالذات والتبعية للغرب وحتى بين ظاهرنا والباطن ، واننا لم نستطع ايجاد نقطة التقاء تكون في نفس الوقت نقطة توازن بين فكرنا والفكر الاوروبي والعالمي . والعيب كذلك اننا لا ننقل بوعي ولا ننظر بعمق وبرؤيا علمية ومن خلال ذاتيتنا وتصورنا الخاص . والعيب بعد هذا اننا منعزلون عن بعضنا وعن الجماهير ومنقسمون سياسيا وفكريا ، لا نستعمل نفس اللغة ولا نؤمن بقضايا واحدة . والسبب في ذلك كله اننا لم نتمكن بعد من الحرية الكافية لمعاملة تراثنا وللاختيار بين الفكر العالمي نفسه، لاننا ، كحكومات ودول ، تابعون للقوى الاجنبية التي تسيرنا من قريب او بعيد ، وتفرض علينا ولا تترك لنا حرية الاختيار بل تواجهنا بغزو فكري منظم تفرضه علينا مثل ما تفرض غزوها السياسي والعسكري والاقتصادي ، ولاننا ، كشعوب وافراد ، مضطهدون ومقهورون ومكبلون نعاني من وطأة اوضاع سياسية تواجهنا فيها الرجعية بانظمتها اللاديموقراطية القائمة على الحكم الفردي المطلق وبفكرها التقليدي الذي يسعى عن طريق تقديس الجانب الفاسد من تراثنا الى اجبارنا على قبول تلك الاوضاع باعتبارها قدرنا المحتوم لا حق لنا في مراجعتها فضلا عن تغييرها من الجذر .

لذا فليس غريبا ان تكون الحرية هي اول هدف يجب ان نناضل من اجله وان تكون قضايانا المصيرية مرتبطة بالتحرر من الاستعمار والتبعية الاجنبية ومن الانظمة الرجعية والدكتاتورية ، وبتحقيق الوحدة الشاملة وتغيير المجتمع العربي بما يجعله يسير في تطور وتفتح نحو الديمقراطية والاشتراكية .وليس غريبا بعد هذا ان تكون قضية فلسطين التعبير الحقيقي والعاري عن جميع الامراض التي تفتك في جسم الامة العربية وان يكون الظفر في معركتها المصيرية رهنا باستئصال جذور تلك الامراض .

واذا كنا ـ بعد ان كشفنا سلبية المعاصرة حين يضيق معناها ويقتصر عليها ـ في غير حاجة الى اثبات ايجابيتها من حيث انها تمثل الانطلاق من واقع يتحرك نحو تفجير الطاقات النضالية الثورية للجماهير ، فان السؤال الذي يطرح نفسه بالحاح هو : هل يوجد في تراثنا جانب ايجابي يمكنه ان يخدم قضايانا ومعركتنا المصيرية ؟

وطالما ان الحرية هي الاداة ، وطالما ان الثورة هي الاسلوب ، ثم طالما ان الوحدة هي السبيل للمواجهة الجدية والنضال الحق وللنصر في المعركة لا محالة بعد ذلك ، فان البحث في التراث ينبغي ان يوجه للكشف عن كل ما يعزز هذه المقومات .

اما الحرية فليس من شك في ان تراثنا الادبي والفلسفي عامل ايجابي لاذكاء روحها في نفوسنا افرادا وجماهير . وقد قدمت عنها للمؤتمر الموقر بحثا مستقلا حاولت فيه ابراز مواقف مختلفة من الحرية في ادبنا العربي القديم وتحليلها والاستنتاج منها واستخلاص ما يمكن ان يقوى منظورنا لها ، وان اختلفت الدوافع والمنطلقات نظرا لاختلاف الظروف والاحداث .

واما الثورة ففي تاريخنا ما يكشف بوضوح عن تيارها الوطني الذي كان دوما يمد جماهير امتنا بالقوة والفعالية ، والذي يمكن ان نستفيد منه ونحن نريد ان نحقق ثورة عربية اصيلة . ويتمثل هذا التيار في الانتفاضات الشعبية التي كثيرا ما اغفلها المؤرخون الرسميون ومنشئو التراث المدرسي ، او لم يغفلوها ، ولكنهم تعرضوا لها باعتبارها فتنا وحركات فوضوية تخريبية لم تتوان الاسر الحاكمة في قمعها واخمادها . وقد احتفظت لنا الجماهير بالملامح والاصداء الحقيقية لهذه الثورات فيما انتجت من تراث شعبي . والاسف ان الدراسات المعاصرة لم تعط هذا التراث حقه من العناية ، بل ما زال بعض مفكرينا يرفضونه ويرونه لا يعكس غير جوانب التاخر والانحطاط . وهو في حقيقته ـ والادب منه خاصة ـ زاخر بتمجيد البطولة والتغني بالحرية ، يبرز الوجدان الجماعي ويحافظ على الكيان القومي ويرفض التدخل الاجنبي ويواجه استبداد الحكام في تاكيد على المقاومة والجهاد وحث على الاستشهاد والنزوع الدائم الى التغيير والى الافضل والاحسن .

والثورة تقتضي بناء فكر ثوري علمي يستهدف التغيير من الجذر واعادة البناء السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي على اساس ايديولوجية تبلور سمات وجودنا وشخصيتنا القومية وتلبي مطامح امتنا في التحرر والتقدم ، بعيدا عن الشعارات التمويهية المفرغة من اي مضمون حقيقي للثورة . واذا كان لا بد لهذه الايديولوجية ان

تستمد من مقتضيات واقعنا المتوثب ، فانه لا بد لها كذلك ان تستمد من التراث ما فيه من جوانب تقدمية ومضامين انسانية ، مخلصة من كل الرواسب والمؤثرات التي حاول الاستعمار دسها فيه لطمس معالمه المشرقة ، ومخلصة ايضا من قيم التواكل والخنوع والاستسلام واللاارادة التي فرضتها الرجعية على العقلية العربية .

وليس من شك ان الكشف في التراث الفلسفي عن الفكر السياسي والنظريات الديمقراطية وعن العقلية العربية واطوار تجربتها لما يعطي هذه الايديولوجية منطلقات ويضفي عليها ملامح اصيلة ، وكذلك التراث العلمي الذي لا تفنينا معرفة تاريخ تطوراته واكتشافاته بقدر ما تفنينا معرفة المنهج الذي سلكه علماؤنا في مختلف الميادين العلمية وكيفية تطويع اللغة لاستيعابها . حتى التراث الديني ـ باعتباره وعاء ومحور ثقافة وحضارة غنيتين ـ يمكن ان يرفد هذه الايديولوجية ، اذا ما حلل ونقد عقيدة ونصا ونقي من كل ما يتخذ فيه للشعوذة والتخدير وتثبيت حكم الاقطاع والرجعية ، واذا ما كشف فيه عن الجانب التقدمي الثوري لخدمة قضايانا المصيرية .

والفكر الثوري لا ينهض بدور التقييم فقط ، ولكنه ينهض كذلك بدور توجيهي يحدد الاهداف ويخطط الوسائل ويوضح الافاق ويكشف الابعاد ، وهو لذلك ليس جزءا من الثورة الشاملة فحسب ، ولكنه الضمان الحقيقي لنجاحها واستمرارها سليمة ومتكاملة .

ثم نصل الى الوحدة فنجد انها ضرورة عصرية تقتضيها ظروف المعركة التي يتطلب قربنا منها قربنا الى بعضنا ، وانها في نفس الان مسؤولية تاريخية تجعلنا مخيرين بين ان نوحد او ننهار . وما احوجنا في الظروف الراهنة الى ان ندرك وجودنا القومي وكيفية التعامل معه ، وندرك ان انقسامنا يشكل اخطر ثغرة ينفذ لنا منها الاعداء .

والوحدة ليست حدثا مستجدا او ظاهرة مرتجلة ، بل هي طبيعية لها اساس تاريخي وجذور ضاربة في اعماق الحياة العربية . وهي حقيقة تاريخية وواقع كياني رغم حملات التشكيك التي يشنها خصوم الوحدة وبعضهم للاسف من العرب . ومع ذلك لا بد من الكشف عن دوافعها وعن دعائمها المتمثلة في عناصر التراث المتناقلة عبر الاجيال والمتطورة خلال العصور ، وتتلخص في الحيثيات المشتركة وعناصر التقارب التي كونت امتنا من جنس وتاريخ ولغة ودين وثقافة ووجدان ومواقف وقضايا مصيرية مشتركة . حتى هذه الحدود التي تفرق بين مختلف اجزاء الوطن العربي يكشف التاريخ انها مصطنعة غير طبيعية ، وانها اما من صنع الاستعمار كما هو الشأن بالنسبة للحدود الفاصلة بين بعض بلدان الشرق الاوسط واما ناتجة عن ضعف روابط الوحدة وزاد الاستعمار فعمقها ، كما حدث في الشمال الافريقي بعد انهيار دولة الموحدين في اوائل القرن السابع الهجري ، حيث قامت وتعاقبت على انقاضها دويلات ظلت وما زالت تقتسم الحكم .

والوحدة لا تقتضي البحث عن مواطن الالتقاء بين العرب فقط ، بل تقتضي البحث كذلك عن مواطن الاختلاف لتفاديها او لتعويضها وملء ثغراتها كما تقتضي تاريخيا معرفة المراحل التي تكشف عن معاناة الامة العربية لتحقيقها ، ومعرفة المشاكل القومية التي واجهت امتنا خلال التاريخ والتي لم تجد لها حلا غير التجمع في تكتلات وقوى موحدة ، ومعرفة مراحل التدخل وفترات الضغط الذي كان يمارس على العرب لتفتيتهم .

ولو تصفحنا التاريخ لوجدنا ان الروم كانوا يغيرون على العرب كلما دخلوا بينهم في نزاع ، ولوجدنا كذلك ان العرب عاشوا ازهى فترات تاريخهم على عهد الوحدة . ويكفي ان نرجع للحروب الصليبية ـ وهي كبيرة الشبه بمعركة فلسطين ـ لندرك هذه الحقيقة ، وهي ان تلك الحروب قامت مستغلة تفكك العرب وانقسامهم ـ ولا سيما في بلاد الشام ـ الى دويلات وامارات صغيرة ، ومستغلة كذلك ضعف الفاطميين في مصر وانشغال الشمال الافريقي في حروبه بالاندلس . وحين واجهها العرب والمسلمون مشتتين لم يستطيعوا ردها ، ولكنهم استطاعوا حين وحدوا صفوفهم . وتاريخ صلاح الدين شاهد على انه انتصر على الصليبيين بفضل الوحدة التي ضمت مصر والشام والحجاز واليمن والجزء الليبي من الشمال الافريقي .

وقد مر العرب بتجربة وحدوية من نوع اخر حين كانوا ـ باستثناء المغرب وعمان ـ يعيشون نوعا من الاتحاد الاجباري او الوحدة المفروضة من الخارج تحت حكم الامبراطورية العثمانية ، استمر من القرن السادس عشر حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، وان بدا يضعف في اواخر القرن الثامن عشر ليفسح المجال للتدخل الاوروبي .

والمغرب كان نزاعا الى الوحدة ، يشهد تاريخه الطويل انه كان دوما يتحرك ويتطور في اطار قومي نحوها . ويكفي لندرك هذه الحقيقة التي يحاول طمسها اعداء العروبة والوحدة في بلادنا ان نذكر عهد الفينيقيين الذي استمر قرونا في المغرب قبل الاسلام وعهد المرابطين والموحدين في القرنين الخامس والسادس الهجريين ، وكانت الوحدة فيه تشمل الاندلس وكل بلاد الشمال الافريقي حتى حدود مصر .

وتبقى بعد هذا قضية فلسطين باعتبارها قضية تاريخية لا يمكن النظر اليها ولا فهمها بمعزل عن تاريخها وتاريخ العرب في المنطقة ثم تاريخ اليهود واليهودية ، حتى تكون معركتنا المصيرية من اجل تحريرها منسجمة مع نضالية تاريخنا واستمرارية ثوريته ، وحتى نخوضها واعين هدفها وفعاليتها ومقتنعين بحقها وشرعيتها المستندين الى الوجود الاجتماعي والواقع التاريخي ، وحتى نكون مؤمنين ويكون الضمير الانساني مؤمنا كذلك بحقوق العرب في هذه البلاد .

ونحن بحاجة الى ان نفهم بعمق عقلية العدو الصهيوني وسلوكه خلال التاريخ لنفهم ما يتملكه من مركبات الفوقية والانانية والاستعلاء الجنسي باعتباره شعب الله المختار او الشعب الاله كما يزعم ، ولنفهم الانحرافات التي اصابت التعاليم الموسوية على يده والتي بلورت مشاعر الطمع والجشع والفلفلة والتعصب والغرور والانزواء ، ولنعرف ما تعرض له من هزات التشتيت وازمات التفريق منذ عهد الفرس والرومان قبل المسيح ، ولنعلم انه مع ذلك يعتبر كل شبر من الارض عاش او وجد فيه جزءا من الوطن الصهيوني لا بد من امتلاكه .

ونحن اليوم اكثر من ذي قبل بحاجة الى ان نعرف الحقيقة العدوانية للصهاينة ، ويذكر لهم التاريخ مذابح شنيعة اقاموها ضد غير اليهود اشهرها مجزرة سنة ١١٥ م حيث ذبحوا ازيد من خمسمائة الف ما بين مسيحيين ووثنيين ، ومجزرة سنة ١٣٤ م وفيها ذبحوا ما يزيد على هذا العدد بمئات الالاف . ومع ذلك كانوا يفشلون في اقامة كيان لهم وكانوا في احسن الاحوال يرحلون الى البلدان المجاورة فيقيمون فيها ويذوبون في كياناتها حفاظا على مصالحهم المادية ، وان كانوا لا يخلصون في المواطنية ، كما حدث لهم حين هاجروا الى اليمن والجزيرة العربية ، فقد كانوا حلفاء وعملاء لاعداء العرب ، وتاريخهم مع المسيحية معروف ، كذلك مع الاسلام ، اذ كانوا ينكثون العهود ويلجأون الى الخداع والغدر والكيد ومحاولة تفتيت وحدة المسلمين . ويكفي لاثبات ذلك ان نشير الى نكثهم لمعاهدة الرسول معهم بعد الهجرة الى يثرب والى ما كان له مع بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة ثم مع يهود خيبر .

ومع ذلك كان المسلمون ـ سواء في الشرق او المغرب ـ يعتبرونهم مواطنين ، لهم ما للمواطنين المسلمين من حقوق باعتبارهم من اهل الذمة ، يلتزم لهم المسلمون بالعهد والامان على انفسهم واموالهم وممتلكاتهم وعلى حرية العقيدة وتطبق الاحكام اليهودية عليهم في تسامح

وتعايش تامين . وبلغت هذه المعاملة اوجها على عهد صلاح الدين الذي فتح لهم باب الهجرة من مختلف البلاد حتى من اوربا ليستوطنوا فلسطين .

اما في اوربا فكانوا يعاملون بقسوة من طرف الامارات التي كانت لسبب أو لاخر تجليهم عنها وتشردهم على حد ما حدث لهم في انجلترا اواخر القرن الثالث عشر وفي شبه الجزيرة الايبيرية على يد الاسبان والبرتغاليين خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر وكانوا حين يسمح لهم بالاقامة يعتبرون اجانب لا مواطنين ، يعيشون معزولين في احياء خاصة وينظر اليهم باحتقار وازدراء . وبلغت هذه المعاملة اوجها في الاضطهاد الذي اصابهم على يد النازيين ما بين ١٩٣٣ و ١٩٤٥ في شكل ابادة عرقية جماعية لا مثيل لها في التاريخ . وحاول الاستعمار الاوربي تعويض اليهود عما اصابهم ، فلم يجد غير فلسطين وشعبها مستغلا لذلك المرحلة التاريخية التي يجتازها العرب والتي تجعلهم عاجزين عن مقاومة مثل هذا الظلم السافر .

بهذا تتاكد لنا ايجابية التراث في المعركة والقضايا المصيرية ، كما تتاكد لنا ضرورة الافادة الفورية من هذه الايجابية لتجميع القوى المادية والمعنوية لامكان المواجهة . ولكن كيف نعامل التراث حتى نستطيع استجلاء تلك الايجابية ؟

يمكن القول بانه منذ بدء النهضة كان ينظر الى التراث من خلال رؤى تقديسية تكتفي بالتصنيف والشرح والتبرير، وتنطلق من مسلمات لاحق في مسها او نقدها او الطعن فيها ورفضها ، وما زال ينظر اليه كذلك ، مما يجعلنا نعيش معه حالة اغتراب ولا نستطيع التجاوب معه ومع القائمين حماة عليه .

ومعاملة التراث ينبغي ان تسبق بالكف عن البكاء على الماضي او تمقليه والافتخار بامجاده ، لتسير في عملية احياء غير آلية تقصد الى اجلاء معالمه الخصبة الغنية وملامحه التقدمية الثورية والى تحويل فكرنا العربي المعاصر الى فكر علمي وثوري اصيل .

وتبدأ العملية بحصر ما عندنا وعندغيرنا من كنوز تراثنا ، لتنطلق بعد ذلك في ثلاث مراحل :

اولا : التحقيق ، وهو وان كان من اختصاص المحققين ، فانه لا ينبغي ان يبقى خاضعا لرغباتهم الفرديةاو لرغبات الدور التجارية، بل يجب ان يخضع لخطة تتفق ومتطلبات المعركة والقضايا المصيرية . ويخطىء الذين يرون ترك هذه العملية للمستشرقين ، بل انا مطالبون باعادة النظر فيما حققوه لان بعضهم كان يتخذ من العناية بالتراث مجرد قناع للدس والتخريب والتشويه .

ثانيا : الدراسة ، وهي من اختصاص الباحثين والنقاد ، ويجب ان تبتعد عن التجميع والسرد والقبول ، وتلجأ الى التحليل والتعليل العمليين ، والى فحص جزئياته بما يمكن من الفرز والاستنتاج والتركيب واستخلاص نظرة شمولية ، والى التساؤل والشك المنهجي واعمال النقد والعقل المنطقي بحرية وارادة واعية ترى بعين العصر ، حتى يبدو التراث وكاننا نصنعه ونخلقه من جديد ، وتنطلق من المشاكل والقضايا الملحة لتكشف عن كل ما يقوى نزعة التحرر وحوافز الثورة ، اي ان نراه بمنظار العلم كمنهج ومنظار الوطنية كدافع . وتقتضي دراسة التراث تصفيته من الصنمية والقداسة ومن الخرافات والاساطير وكل الانحرافات من تواكلية واستسلام وتقليد وفردية ونفعية وارتجال لامكان تحرير عقليتنا منها وبالتالي لامكان الافادة من كل ثقافة متحررة، كما تقتضي استجلاء جذور الحاضر ودوافع الحركة فيه وروابطه في مراحل تطوراته الذهنية ومعالم توتراته التاريخية ومدى ارتباطه بواقع منشئيه واصالته وقدرته على التفاعل والتأثير والاستمرار باطلاق ممكنات هذا الواقع ومقدراته .

ثالثا : استيحاؤه في الخلق والابداع ، شعرا وقصة ورواية ومسرحا ورسما وفنا في مختلف الوانه واشكاله ، بما يبرز منطلقات الحرية والمضامين الانسانية ، وبما يساعد على تفجير الواقع وتغييره ، وبما يكشف كل ما يصلح ان يكون سلاحا نضاليا للثورة ويعمق الوعي النقدي وينمي روح المبادرة .

هذه اشارات الى كيفية استجلاء ما في التراث من جوانب ايجابية لعلها ـ ان تمثلناها بصدق وعمق ـ ان تمدنا بالوعي الضروري لقضايانا واهدافنا ، وما احوجنا اليه ما دمنا نريد التغيير من الجذر والباطن ، وما دمنا نسعى الى ان نكون امتدادا لانصع فترات تاريخنا وتطويرا لاحسن ما ابدعه العقل العربي باعتباره حلقة في الفكر الانساني عامة . فهذا الوعي هو الذي يعطينا القدرة الذاتية على الاخذ والعطاء والتفاعل والتبادل ، ويقوى فينا الارادة ، ويمكننا من وضع القاعدة والتخطيط للوسائل والاهداف ومن الانطلاق البعيد في تحقيقها . وهو الذي يجعلنا نملأ قلوبنا بالايمان والثقة ، يساعدنا على الرؤيا الواضحة السليمة ، وهو الذي قبل هذا وبعده يعطينا الاطار الفكري لقضايانا ويحدد كيانها العلمي ، وبدونهما لن نتمكن من خدمة هذه القضايا بعمل محدد وموزع يفرض نفسه علينا كادباء وعلى الانظمة القائمة والمسؤولين والحكام وعلى الحياة العربية وعلى العالم .

اننا مطالبون بالايمان بالهدف المتمثل في قضية فلسطين وما تجسم من قضايا مصيرية ، وبحلها العادل ، وبوسيلة هذا الحل اي بالمواجهة ومطالبون بتوحيد الخطة بعد ذلك .

نحن قوة ولكننا مشتتون ، لاننا منشغلون عن القضية بمصالحنا الخاصة ، ولاننا منصاعون لتيار التفريق والتفتيت ومستسلمون للعراقيل التي تواجهنا من الخارج والداخل . واذا كانت العوائق الخارجية المتمثلة في الامبريالية والصهيونية والاستعمار معروفة لدينا، فان واجب المعركة يلح علينا ان نكشف عن العراقيل الداخلية التي تجعل ابعاد النضال متفاوتة في البلاد العربية ، وتتلخص في الدور الذي تقوم به الرجعية في تشويه الثورة العربية والتشكيك فيها ، ومواجهتها بتيار مضاد وبالخنق والقمع وكبت الحريات والطاقات الثورية عند الجماهير وبتزييف الثقافة العربية وتمييعها ، وتوجيه التعليم بعيدا عن نمو الامة ومطالبها واحتياجاتها العقلية والروحية ، وبترويج الشوه من التراث ومحاولة ضرب الانظمة التقدمية ورفض اي تعاون مثمر وصادق معها ومد اليد للمساعدات الاجنبية المسمومة ، والتضييق على المثقفين الطليعيين ومحاربة اي نشاط فكري وادبي متحرر ومتفتح .

ذلكم التراث الذي يكفينا دافعا لاحيائه انه يثبت عروبة فلسطين وانه يفتح عيننا على العدو المغتصب ، وانه يقوى فينا روح المقاومة .

ان حتمية النضال الذي ينتظرنا او ينتظر منا ان نخوضه تقتضي ان نستخلص من هذا التيار القومي ومن كل التيارات ايديولوجية عربية تقدمية تمثل بواقعية وصدق حقيقة امتنا وتطلعاتها العادلة ومطامحها المكبوتة ، حتى نؤمن بها ونسعى لاداء الرسالة التي تنيطها بنا ، بعيدا عن التعصب الاعمى للغرب والانمحاء فيه ، وبعيدا عن تقديس التراث والتعلق بالسراب ، وبعيدا كذلك عن تصنيم تجربة الحاضر واضفاء الوثنية على العصر الذي اخذت تتجاوزه الدول المتقدمة لتدخل في عصر آخر ، ولكن في تفتح وجمع بين الجوانب الخيرة والايجابية في كل تيار ، وفي اندفاع يتحفز من الذات ومن تربة الوطن للحاق بركب التقدم والرقي في العلم ، انطلاقا من واقعنا كامة اصيلة لم توجد من العدم ، وانطلاقا ايضا من ارادة الجماهير التي حملتنا المسؤولية الوطنية وقلدتنا الامانة والتي تتطلع لمستقبل تحقق فيه وجودها الانساني المشروع ، وهذه لعمري هي المعاصرة الحق .

المغرب

عباس الجراري

العودة الى كربلاء

آت ، ويسبقني هواي
ات ، وتسبقني يداي
آت على عطشي ، وفي زوّادتي تمر النخيل
فليخرج الماء الدفين اليّ ، وليكن الدليل
يا كربلاء تلمّسي وجهي بمائك ،
تكشفي عطش القتيل
ونري على جرح الجبين امانة تملي خطاي
وتري خطاي
قيل : الوصول اليك معجزة ،
وقيل : الارض مغلقة ،
وقيـــل
وذكرت انك لي ، وان الكون يأكل من ثمارك ما عداي
فأتيت يسبقني هواي

* *

لا تسألي وجهي الجديد عن الاحبّة
كانوا رعاة ــ بالثياب ــ وكانت الاسرار ذئبه
كنّا تبايعناعلىموت يقيلك من عذاب الموت ،
في الاسر الطويل
فتقاسموا تمر النخيل ولم يمت أحد سواي
شاهدتهم ، ومعي شهودي :
أنـــتِ ،
والماء الذي يغدو دمــا ،
ودم لديهم صار ماء ،
والنخيــل
شاهدتهم ــ عين المخيّم فيّ لا تخطي ــ
وكانوا تاجــرا ،
ومقامرا ،
ومقنّعا ،
كانوا دنانير الدخيل
ودخلت في موتي وحيدا استحيل
وطنا . فمذبحة ، فغربة
وأتيت تسبقني يداي

* *

يا كربلاء تفزّ فيّ النار ، اذكر كيف تنقلب الوجوه
عرفوا الغريم وامسكوه
ويقال : كان يخبّ في لحمي ويشرب من دماي
غضبوا عليه طوال ساعات احتضاري،
ثم متّ فتوّجوه
وتبادلوا رأسي ، فلم يركب على عنق ،
وعاد اليّ بالجرح النبيل
وأعــود ،
لن يتصدّروا باسمي ،
فجرحي جاء ينكرهم ،
وتنكر ما أستباحوا مقلتاي
واذا حسبت حسبتهم في صف غاصبك الدخيل

* *

يا كربلاء الذبح ، والفرح المبيّت ، والمخيّم ، والمحبة
كل الوجوه تكشفَت كل الوجوه
ورأيت ، كان السيف في كفّي ،
وكنت لنظرة الفقراء كعبة
ورأيت من باعوك ،
باعونا معا ،
وتقاسمونا ، في المزاد ، فما انقسمنا ،
كنت فيك النهر ،
والتحمت بعشبك ضفَتاي
وقتِلتُ فيك ــ كما رأيت ــ انا هو النهر القتيل
فليخَرج الماء الدفين اليّ وليكن الدليل

* *

يا كربلاء وانت جارحة وصعبة
آتيك بالفرح الجريء ، وما حسبت الحرب لعبة
آت ولو كره السعاة الى الخيول ،
بلا فــوارس ،
والسيوف بلا صليل
اودعتهم موتي وأرّخت الحياة لكل جيل :
هذا زمـــان يكبر الفقراء فيه فيقتلون ويقتلون
هذا زمـــان للبطولــة ،
او ــ لمن شاء ــ الجنون
هذا زماني ، فاشهدي ــ
جسدي يُردّد اليك حربه
ولديك ذاكرتي أفتحيها تفلقي زمن العويل :
ليس الوصول اليك ــ معجزة ،
وكنت خطوت فانهدم الجدار المستحيل
وظهرت فاتسعت خطاي
وأنا هنا ، فرحي معي ، ومعي الهدايا ، والشجون
آت ويسبقني هواي
آت وتسبقني يداي
آت على عطشي وفي زوّادتي تمر النخيل
فليخرج الماء الدفين اليّ ، وليكن الدليل

دمشــق

احمد دحبور

الأديب العربي بين التراث والمعاصرة

بقلم
أحمد يوسف داوود

موضوع البحث : الاديب العربي بين التراث والمعاصرة في معركة المصير
البلد : الجمهورية العربية السورية
الكاتب : احمد يوسف داوود
عنوان البحث : الاديب العربي بين التراث والمعاصرة .

ان الاثر الادبي رؤية للعصر من زاوية ما .. انه بالتالي موقف ، وجزء من سلوك تسلكه شخصية انسانية ، ذات تكوين فكري معين ، لم ينشأ تلقائيا ولا مصادفة ، بل يرتبط ارتباطا كليا بعملية الصراع المذكورة آنفا ، ولعله يجدر بنا ان نتبين طبيعة الصراع وأطرافه في الحقبة الراهنة لنستطيع ان نحدد شرط المعاصرة وملامحها .

لقد قاد ازدياد حجم المعرفة الانسانية وتسارع نموها ، دون ان يرافق ذلك الاتساع الكافي في تعميمها على قطاعات المجتمع البشري المختلفة ، الى ذلك النمط من الانتاج الضخم المتمركز الذي قاد بدوره الى نشوء رأس المال الاحتكاري ، ورافق هذا اشكال جديدة من الاستعباد اضيفت الى اشكال العبودية الاولى التي رافقت انماطا اخرى من الانتاج ، ولكن ما هو مهم في الاشكال الجديدة والنمط الجديد ، انما هو عمومية التأثير وشموله لكل جزئيات الحياة الانسانية ودقائقها . ان الآثار الجديدة تتغلغل ، حادة وعنيفة في اللقمة التي يتناولها الفرد كما في العاطفة التي يحس بها وكما في الفكرة التي يعتنقها دون ان يعفى من ذلك احد على وجه كرتنا الارضية . انه اطار القسر والاستلاب الامبريالي الذي لا يستثني احداً .

وهكذا فبعد ان كان الاستلاب موجها ضد قطاعات محددة في مجتمعات محددة اصبح الآن موجها ضد شعوب بكاملها ، تعيش خارج الحصن الذي يقيم فيه رأس المال الاحتكاري ، وتشكل نسبة كبرى من سكان الارض .

ومع ان بعض الشعوب قد استطاعت التخلص من دائرة تأثيره المباشر الا ان مجموعة هائلة من البشر ما تزال تعاني الآثار الدموية لمواجهتها الحاسمة معه . ان هذه الشعوب هي التي تعرف اصطلاحا باسم العالم الثالث ، او كما في التعبير المتأدب : الدول النامية ، ذات الانتاج المتخلف الضعيف ، والتي تنهار باستمرار حدود التبادل بينها وبين الدول المتقدمة لصالح الاخيرة كما يقول الاقتصاديون .
الا ان هذا ليس كل شيء في الواقع ، فمجتمعات العالم الثالث ليست ذات بنية موحدة : ان ثمة انقساما يحدد بشكل اوضح مختلف اطراف الصراع الكبيرة وعناصره .

ان طبيعة الانتاج والتوزيع ، وحصر المعارف التقنية وغيرها من المظاهر الاخرى للعصر الامبريالي قد اوجد ودعم طبقات وفئات داخل المجتمعات المتخلفة تعيش على هامش النظام الاقتصادي الامبريالي وتساهم مأجورة في تسهيل السيطرة على شعوبها واستنزافها . ذلك ان من أهم نتائج الاستعمار العسكري المباشر الذي سبق هذه المرحلة في العالم الثالث ، انقطاع التطور الذاتي بفعل علاقات القسر ، وخلق بنى طبقية واشكال من الدول التابعة ، مهيأة لتكون مدينة باستمرار لرأس المال العالمي ،وبالتالي لتكون الاطار المكمل لعملية الاستغلال الامبريالي . وهكذا فان عبء الاستلاب يقع في النهاية على كاهل طبقات الكادحين وفئاتهم ، في العالم الثالث اولا ، وفي داخل الحصون الامبريالية بشكل ما ثانيا ، وهؤلاء بالذات هم الذين يمارسون مواجهتهم الدموية للامبرياليين من اجل هدم العالم القديم الظالم وبناء العالم الجديد الخيّر والعادل والانساني قبل كل شيء .

ان وطننا العربي لا يخرج عن هذه الدائرة ، وان كان يتميز ببعض الخصائص التي تجعل المواجهة اكثر دموية واكثر عنفا وحدة .

انه يعاني من شكل جديد من الاستعمار يتمثل في الظاهرة الصهيونية التي هي التجسيد العياني للاستعمار القديم ـ الجديد المركب : الاستيلاء على الارض وابادة وتشريد السكان ، الاستمرار في التوسع ، السمسرة الدولية لصالح الامبرياليين ، التخريب المستمر في الدول النامية والاشتراكية على السواء ... الخ .. الخ ..

كما يعاني من ظاهرة اخرى عمل لها الامبرياليون وكرسوها لتسهل استغلالهم له : انها ظاهرة التجزئة القومية التي تبعثر قواه وتشتت امكانياته ، مما يجعل الوحدة القومية هدفا نضاليا حاسما ، لانه السبيل الوحيد للتكامل الاقتصادي الذي يمكن بواسطته اسقاط التخلف والتبعية من جهة ، وثوريا عادلا من جهة ثانية ، لانه صراع قومية مضطهدة ضد قوميات اخرى شوفينية ومضطهدة .

ويترتب على هذه الظاهرة ، ظاهرة تخلق مشكلات كبرى للدول العربية وتعيق نموها : انها ظاهرة التجمع لدرجة الانفجار السكاني كما في مصر العربية ، وظاهرة التمدد لدرجة الخواء الجغرافي كما في كثير من الاقطار الاخرى ، ويمكن ان توجد الحلول المثالية لهذه الظاهرة في ظل دولة الوحدة العربية .

ولعلنا لن ننسى موضوع تشويه الثقافة الذي تمارسه اجهزة

اعلام الامبرياليين بغية خلق الشخصية المهزوزة الاستسلامية غير القادرة على الانعتاق والتحرر .

باختصار ، تشكل قضية الثورة العربية جزءا حاسما من الازمة الحضارية لعصر انهيار الامبريالية ، وكل تأخير في انتصار الثورة العربية هو تأخير لبناء العالم الجديد الحر العادل الاشتراكي . والصراع في هذا الجزء من العالم انما تقوده من الجانب الثوري طبقات الكادحين ، والمثقفون الثوريون .

وهذه الحقيقة ليست ناتج عملية فرز فكرية مجردة تعتبر معرفتها والاخذ بها مسالة ذاتية ، وانما هي واقع اجتماعي يترك آثاره وارتكاساته على كل شيء وكل فعل ، ويصبح الاختيار نتيجة ذلك مصيريا وحاسما .

الا ان ما تجدر ملاحظته ايضا هو ان الفرد ليس مجرد متلق فقط لهذه الحقيقة الموضوعية . ان بينه وبينها علاقة حية تتمثل في محاولة التأثير والفعل من جانبه ايضا ، ولعل أهم ما يعانيه خلال ذلك هو احساسه المر بالاغتراب الدائم .

فكيف يمكن ان يكون هذا الاحساس في بلد متخلف كالوطن العربي ؟

ان الاجابة على هذا السؤال تشكل مدخلا لفهم الفرد ، وخاصة الفرد المثقف ، وبالتالي يمكن ان تساعد على فهم انماط السلوك المختلفة وكيفية تعاملها مع الواقع وحدود ذلك .

ان اصطدام المرء بالاطار الحضاري العالمي الذي سبقت الاشارة اليه ، امر لا تتناسب معه امكانياته ، ولهذا فهو يعيش مسحوقا مستلبا معنويا كما هو مستلب اقتصاديا .

ان حدود الاستلاب المادي واضحة في طبيعة علاقات التبادل بين العالم المتقدم والآخر المتخلف ، وفي واقع الانتاج الاولي في العالم المتخلف والمرتبط اساسا بحاجة العالم المتقدم وارباحه ومطامعه ، وهذا بالطبع يترك أشد الآثار على حياة الافراد في البلدان المتخلفة ، اذ نجد ان امكانياتهم « النقدية » تتدهور باستمرار على سلم الوفاء بحاجات الحياة ومتطلباتها .

اما حدود الاستلاب المعنوي ، فهي ان هذا الفرد يجد نفسه بعيدا عن المشاركة الفعالة في الانتاج الراقي المتفوق ، وبالتالي في صنع الحضارة . انه سجين « عقدة النقص الحضارية » هذه ، والتي نجدها واضحة جدا لدى الشعوب المغلوبة عسكريا كشعبنا .

وهذه العقدة تدفع المرء الى البحث عما يمكن ان يكون تعويضا او بالاحرى حلا ، وهو بهذا البحث يمر في حالة اقرب الى الضياع والفوضى .

فما دام يعيش على هامش المرحلة الحضارية الراهنة فهو لم يبدع قيمه الخاصة المنسجمة مع العصر ، ولذلك يعمد اما الى ان يعيشه باسلوب مزور جاعلا من تقليعات المتقدمين مثلا اعلى له ، واما ان يرتد الى الماضي باحثا عما يمكن ان يشبع الحاجة النفسية المتولدة ويرضي طموحها .

وهو في الحالة الاولى يرفض التراث رفضا عشوائيا صبيانيا مفتربا في تقليعات الآخرين التي تصبح سجنا له . وهو في الحالة الثانية يصبح اسير الماضي لا يسمع الا صوته الخاص ويتقوقع داخله مبتعدا عن عصره معتبرا أي تقدم ردة وانحرافا عن الماضي المقدس الذي لا يجوز لاحد ان يلامسه باكثر من الاستسلام له .

ولكن المرء لا يستطيع ان يستمر بشكل مطلق لا في سجنه الاول ولا في استسلامه التاريخي الثاني ، انه مرغم بحكم اندفاع العصر وطبيعته ان يكتشف نقص الوسيلتين وبؤسهما معا .

وهذا الاكتشاف سيقوده الى البحث عن الحل الاسلم ... وما دام قد عرف كل شيء ، فعليه ان يلغي اسباب اغترابه الحضارية كي ينتصر .. وهنا حالة اغتراب ثالثة :

ان عليه ان يبني مع مجتمعه قاعدة الانتاجية العصرية ليستطيع ان يجابه الاستلاب المادي والمعنوي ، وهذه العملية ، عملية بناء القاعدة الانتاجية العصرية ، مرتبطة بأمور كثيرة اساسها وجود قوة الفعل في يد الطبقات التي تتضارب مصالحها مع العملية . وهو كفرد يحس بعجزه عن امتلاك قوة الفعل تلك ، ويصبح هذا الاحساس مصدر الشعور بالاغتراب عن النظام السياسي ، فالفرد العربي مثلا يغترب في التجزئة وأنظمتها حيث تشكل ازالتها محور التحدي الاساسي لبناء قاعدة الانتاج العصري . ثمة حالة اغتراب اخرى ، وهي وان كانت اسهل كشفا الا انها اساس في سلوك الفرد وفي استجابته ، انها اغترابه في العقلية الاجتماعية :

ان هذه العقلية قد تراكبت من « مفاهيم وآراء وقيم لمراحل تطور تاريخية ماضية زالت وزالت معها البنى الاجتماعية التي أعطتها معناها » — عن غرامشي —

وهنا نلاحظ التناقض بين العقلية الاجتماعية وبين مرحلتها التاريخية الراهنة ، ان الجماعة مشدودة الى الخلف طبقا لذلك ، وهي تجعل من مفاهيمها شيئا مقدسا لا تكاد تسمح بالمساس به .

والفرد الذي يريد كسب معركته الحضارية سيكون بالضرورة عامل دفع الى امام ، عامل تقدم ، بحيث يكون من هذه الزاوية على نقيض مع الجماعة .

ولما كانت الجماعة تملك ثقلا لا يملكه الفرد فانه سيحس بالاغتراب تجاه عقليتها التي لا تستطيع ان تستوعب افكاره وقيمه وتهيىء له المناخ لتنميتها . وقد يذوب الفرد ، وقد يحاول ازاء ذلك ان يؤكد على شخصيته ودوره وافكاره . وغالبا ما يلجأ الى اسلوب شاذ فوضوي للتعبير عنها .. انه يود ان يؤكد على وجوده المستقل بنوع من الدراما غالبا ما تتوج بمهزلة . وهذه ظاهرة عامة في السلوك تستحق ان تدرس مستقلة .

الفرد العربي اذن يعاني من الضياع ايضا ، ولكن ضياعه يأخذ طابعا مختلفا عما لدى الغربي المتخم بقيم عصر الآلة المتقدمة .

ربما استطيع ان اقول الآن انني قدمت تلخيصا مكثفا للهموم القومية والفردية ، واستطيع ان اعود بعد ذلك الى السؤال : كيف يمكن ان يكون الاديب معاصرا ؟ ان كلمة المعاصرة هنا لا تعني العيش في مرحلة زمنية بشكل مجرد ، انها تعني ببساطة استيعاب هموم المرحلة المعاشة : انسانيا وقوميا وفرديا ، والتعبير عنها بالاسلوب المناسب.. انها ليست ، اطلاقا ، ارتداء ثياب الآخرين ، وبالتالي ليست سرقة قيم الآخرين ومفاهيمهم واساليبهم الادبية والفكرية وحشرها في امكنة لم تخلق لها ، وليست محورة العالم على الذات والاستغراق في نرجسية تعطل الاتصال بين الاديب ومجتمعه .

ان ذلك لا يعني ابدا رفض الاستفادة من تجارب الشعوب في آدابها ، كما لا يعني رفض الذات واغفالها . انه يعني بتعبير اوضح ، اقامة علاقة جدلية بين المشاعر الذاتية والهموم الاجتماعية من جهة ، وبين الهموم القومية والهموم الانسانية من جهة اخرى .

باختصار ، المعاصرة ليست « موضة » . انها ابداع مستمر لقيم جديدة اصيلة دافعة لمسيرة التقدم الى امام ، وهو في نظري شرط المعاصرة وحدها . وطبيعي ان هذا يتناول الاشكال كما يتناول المضامين حيث لا تفريق بين علاقتهما الحية .

انني أؤكد على توظيف الادب ضد كل شكل من اشكال الجمود والتخلف ولصالح حركة البشرية الناهضة وفلسفتها المستقبلية ، دون ان اقصد بذلك اي نوع من « الجدانوفية » او التسطيح ..

وما دام الامر كذلك فأين هو محل التراث منا ؟ وكيف ينبغي أن نتعامل معه ؟

لقد سبق وأكدت انه لا يمكن ان يوجد الانسان الذي لا علاقة له قطعا بالماضي ، ان الانسان المعاصر موجود حقا في اللحظة الزمنية

الراهنة ، ولكنه يستعمل اساسا وباشكال مختلفة ، انجـازات الماضي . صحيح ان معطياته تتراكم كميا في مراحل معينة اذا بلغت حدا معينا اصبحت نوعية جديدة وحـدثت الثورات والقفـزات الحضارية المختلفة ، ولكن هذه المعطيات لا تفقـد كل ملامحها . ان الصيرورة الجدلية التي تنتظمها لا تحدث فجأة وتنقطع . انها مستمرة ومتلاحقة ابدا ودون توقف . وقد يكون هذا اظهر في المجال الاجتماعي واقل وضوحا في الفكر ، الا ان الامر في الجوهر لا يختلف ، وعـدم الوضوح اصلا يعود الى طبيعة عمل الفكر لا الى الاختلاف في الصورة ، فليس الفكر في الواقع الا تعبيرا عن النشاط الاجتماعي سواء لحق به مفسرا اياه ، ام زامنه داعما له ، ام سبقه مبشرا به .

ان التراث اذن ، الذي هو حصيلة الماضي ، موجـود فينـا ومستمر الوجود ، ولكن ليس بكل حيثياته وجزئياته .

والتراث الادبي ، الذي يعنينا هنا اكثر ، لـم يتكون ، علـى هذا ، بمعزل عن بقية اشكال التراث : انه مرتبط جدليا بالمراحـل التاريخية المختلفة التي تكون من خلالها العقل العربي . والعقل العربي عقل حر في الاساس حتى سيطرت عليه الارستقراطية وسخرتـه لمصالحها ، ومع ذلك فقد ظل هذا العقل ينتفض دائما محاولا ازاحة القيود التي فرضت على حريته ، معبرا عن حريته من خلال الحركات الشعبية الكثيرة التي قامت في الماضي ، والتي وان انحرفت غالبـا عن اهدافها الاساسية بتأثير عوامل مختلفة ، تبقى مبررة تاريخيا بقيد العبودية الذي فرض على مجمل الحياة العامة .

ان تاريخنا حافل باللحظات المضيئة التي نفخر بهـا ، ولكننـا لا يمكن ان نتصور اننا نريدها الآن كما حدثت ، لانها حدثت في شروط تاريخية غير قابلة للاعادة ، وبمعنى اخر لا يمكننا ان ننسخها الآن كما وردت ، وانما يمكننا ان نسترشد بها في الحدود الملائمـة للشروط التاريخية الراهنـة .

ان هذا الكلام ، حتى لا يعتبر شوفينيا ، يحتـاج الـى دليل ، ولانه ليس لدينا مجال لتناول احداث تاريخية بالعرض والتحليـل ، فساكتفي بعرض ملاحظات متواضعة حول قيام اكبر حدث في التاريخ العربي له اثر بعيد في حياتنا الماضية والراهنة . انه قيام الاسلام . وساستعرض اولا شيئا من ملامح المرحلة التاريخية التي ظهر فيهـا لنتمكن من توضيح دوره وأهميته :

١ ـ كان المجتمع العربي في الجزيرة مجتمعا قبليا يعتمد عـلى الرعي كوسيلة للانتاج ، وذا خصائص تتسم بانغلاق القبيلـة تجاه القبائل الاخرى وعدائها لها ، مقابل تعاون من الداخل . كما تتسم بتدرج رتبوي في القبيلة الواحدة قاعدته العبد وقمته الشيخ سيد القبيلة . وكان المجتمع تبعا لذلك ممزقا بحروب طاحنة لا تكاد تهـدأ مما جعل القيم الفردية في السلوك هي السائدة . والفخر بذلك هـو منحى التفكير القبلي . وقد عبر الادب الجاهلي عن ذلك اسلم تعبير .

٢ ـ وفي اطار هذا المجتمع كانت ثمـة مراكز تجارية مدينية ، تنمو على اطراف الجزيرة (مكة ـ الطائف ـ يثرب) وتعيش عـلى التجارة مع مراكز الحضارات الزراعية القديمة في الشام واليمـن والعراق والحبشة ، مما ادى الى نشوء ارستوقراطية مالية اصبحت ذات نفوذ كبير في حياة الجزيرة وولد نموها المالي حاجتها الـى التنظيم في التشريع والتنفيذ ، وقد استمر الكثير من القيـم وجوانب العقلية القبلية في حياة هذا المركز ولكن بتطوير منسجم مع الظروف الاقتصادية الجديدة ، كما توضح الانقسام الطبقي وازدادت حدتـه بازدياد عدد المساكين والعبيد والذين لا مال لهم .

٣ ـ الاطار العام لتلك المرحلة يمتاز بكونه فترة نهاية امبراطوريات العبيد (الرومية ـ الفارسية) بنمط انتاجها الزراعي الراكد . كمـا يتميز بالاضطراب والخلل اللذين اصابا الحياة العامة نتيجة اقتراب انهيار تلك الامبراطوريات التي ، رغم انها كانت تمر في حالة النزع ، كانت تضغط بثقلها العسكري على الجزيرة (فارس في الخليج العربي. بيزنطة في شمال الجزيرة . الحبشة في اليمن ...) مما ولد شعورا مبكرا بالقومية وحاجة لدولة مركزية قادرة على الردع .

٤ ـ وقد جاء الاسلام ليرد على هذا كله . فاذا استثنينا مجموعة العقائد والشعائر ودققنا في مجموعة المبادىء الناظمة لعلاقات المجتمع الجديد ، وهي صلب حركة الاسلام الثورية التقدمة ، وذلك من خلال منظورها التاريخي ، لوجدناها تشمل التشريعات التي هدفت الـى تحقيق ثورة ديمقراطية تحرر فئة المساكين والفقراء والعبيد . انهـا تطرح شعارات الثورة الفرنسية قبلها باكثر من الف عام (انما المؤمنون اخوة ـ واذا حكمتم بيـن الناس فاحكموا بالعدل ـ النـاس سواسيـة كأسنان المشط) ، ولائحة دقيقة ورائعة لحقوق الانسان . كما انها أوجدت شكل الحكم المناسب الذي عادت الثورة الفرنسية فاكتشفته (وأمرهم شورى بينهم) واوجدت مدخلا لعدالة اجتماعية : كحـق الفقراء في أموال الاغنياء ـ رفض الاستغلال والاحتكار والغش ـ محاربة الربا ـ الدعوة الى العمل وان ليس للانسان الا ما سعى ... ـ وشراكة الناس جميعا في بعض معادن الارض ... الخ .

ورغم انها نشرت الطهرانية مقابل الفساد الخلق المستشري ، الا انها دعت لتحرير المرأة وقرنتها الى جانب الرجل في كل الامور تقريبا. ولم يعتبر الاسلام تنظيمه للمجتمع شيئا نهائيا بدليل فتح باب القياس والاجتهاد حيث كان يمكن تطوير تلك المبادىء الناظمة لعلاقات المجتمع وفقا للحاجات الجديدة لولا ان حدث تطور معكوس للتاريخ العربـي سأوضحه فيما بعد .

٥ ـ ولقد استجاب الاسلام استجابة كاملة للحاجة القوميـة الجديدة حيث عمد الى اقامة الدولة المركزية التي وضعت حـدا للحروب الداخلية ووجهت القوى جميعا نحو الامبراطوريات المسيطرة على حواف الجزيرة .

وقد قضى الخليفة الاول اكثر فترة خلافتـه في اقرار تلك الدولة المركزية وتثبيتها .

٦ ـ ولقد تابع الخليفة الثاني عمر (رضي الله عنه) مهمـة الاسلام الحضارية التي بدأت في عهد سلفه ، وهي اسقاط امبراطوريات العبيد ونشر تلك المبادىء السابقة التي من اجلها استقبلت الشعوب الاخرى العرب استقبال الراضي ، مما مكن لهم فتح رقعة كبيرة مـن العالم في برهة وجيزة ـ وهذا ما اشار اليه روجيه غارودي فـي محاضرته الاخيرة في القاهرة .

٧ ـ ولعله ينبغي هنا التوقف امام نقطة خطيرة اقرها الخليفـة العظيم عمر الذي كان متشبعا بروح الاسلام مدركا لمهمته الحضاريـة ادراكا عميقا ، هذه النقطة اشار اليها بروكلمان (في تاريخ الشعوب الاسلامية ص ١٥٠) ، حيث اعتبر عمر ان جماع الاراضي المفتوحـة انما هو فيء للجماعة الاسلامية ، وبذلك حظر على الفرد المسلم ان يستولي على شيء منها في المستقبل ، فاذا دخل احد الفلاحين مـن اهل الذمة في الاسلام ضمت ارضـه الى ممتلكات الجماعة فـي القريـة » .

انني أترك تصور شكل الملكية التعاونية التي كان يمكن ان تنشأ

نتيجة تنظيم هذا التملك الجماعي للارض فيما لو استمرت هذه السنة التي استنها عمر العظيم ..

فاذا اخذنا بعين الاعتبار ان الارض كانت وسيلة الانتاج الاساسية في تلك المرحلة ادركنا الى أي حد تذهب عظمة هذه المبادرة التاريخية ومداليلها .

٨ – ولكن الارستوقراطية القبلية ، بالغائها هذه المبادرة ، بدأت تتحول الى طبقة من ملاك الارض الجدد مكونة هرما اجتماعيا جديدا هدفه حماية مصلحة طبقة النبلاء الجديدة : « امراء – قواد – جيش – وزراء – نقباء – اشراف ... الخ » ، وبدأت المبادىء تتكيف وفقا لمصلحة هذه الطبقة التي اخذت تستغل بقية الفئات . تلك الفئات التي صارت واسعة جدا نظرا لاتساع الفتوح ، وهكذا اخذ تاريخ هذه المنطقة يسير في تطوره المعكوس الذي المحت اليه سابقا .

٩ – انني في هذه الملاحظات لا اقدم منهجا لتفسير تاريخنا وبالتالي لتقييم تراثنا ، كما لا احاول فلسفة الاسلام . لقد حللت ظاهرة نشوئه وبعض مبادئه بشكل مكثف وفي ضوء منظور تاريخي ، وذلك لأؤكد على امرين اعتبرهما هامين جدا :

الاول – ان اولئك المسلمين الاول بما حملوه من مبادىء اوجزت القليل منها ، قد هدموا امبراطوريات العبيد فاتحين امام البشرية فرصة كبرى للتقدم رغم ما تلا ذلك . وعلى هذا دلالة كافية على البعد الانساني للابداع الحضاري المتفوق الذي أهّل العرب للمساهمة بتطوير الانسانية .

وان العظمة التاريخية التي يجب علينا ان نحملها من هذا الحديث هو ان علينا ان نساهم من جديد في هدم امبراطوريات الاستعمار المعاصرة من خلال العمل على اقامة دولة الوحدة ذات المضمون الاشتراكي العادل . والالتزام بهذه الموضوعة يشكل مهمة اساسية للاديب وللادب ، اخلاقية بقدر ما هي مصيرية .

اما الامر الثاني : فهو ان تراثنا الادبي كان صورة صادقة عن المعطيات التاريخية المستجدة والعقلية الاجتماعية المتراكبة من جماع التاثيرات الناجمة عن تلك المعطيات وليس ينبغي لنا ان نفهم تراثنا الادبي الا في ضوء مراحل انجازه ، فلا نرفضه او نقبله الا بمقدار ما يسيء او يقدم من دفع لحركة التقدم . ولست أعني بقبوله ، اعادة نسخه وتوثينه ، فلا نخرج عنه في ادبنا الجديد ، وانما أعني بذلك فرز الاشعاعات المضيئة فيه واعتبارها وحدها الممثلة لروح شعبنا وأصالته في هذا الماضي .

أما الاساليب التي أدى بها هذا التراث الكبير فهي ليست الا قوالب فنية مرتبطة بتذوق الجمال في تلك المراحل ، وليس لنا ان نكون سجناء تلك المراحل وقيمها الجمالية . ان حياتنا قد تطورت ، واذواقنا قد تغيرت تغيرا عميقا ، ومن الطبيعي ان تتبدل اساليبنا فتكون قادرة على اداء تصورنا الشمولي الثوري للعالم العادل الذي نحلم به ، وعلى نقل صورة تحركنا الملحمي العظيم نحو هذا العالم .

انني فيما أظن قدمت صورة بشكل ما لكيفية وجوب حضور التراث فينا ، وجليّ انني لا ادعو الى عقد مصالحة معه بخيره وشره . انه لا ينبغي لنا الا ان نعريه ونفرزه اذا اردنا الخروج من اسر النظرة المتزمتة التي نعممها على كل همسة مرت في الماضي ، هذه النظرة التي لا ينتفع بها الا اعداؤنا واعداء الحياة الجديدة التي نحلم بها ونطمح اليها .

سوريا **احمد يوسف داوود**

البحث عن خان أيوب بالميدان من دمشق

تساءلت حين دخلت المدينة عن خان ايوب ،
ما دلّني أحد ،
فالتففت ببعضي ، ونمت :
كان وجه المدينه أزرق ...
أشجارها تستطيل وتكبو ، ولكنها تستطيل لتكبو ،
وثالثة تستطيل
وكانت منائرها خزفا مغربيا ،
وبحرا محيطا أزقتها ،
تتقافز منه الوجوه التي ترتدي عريها ..
كان بين العراق وبيني رمل الجزيره ،
قلتُ : انتهيت ..
ولكنني حين فتحت عينيّ ابصرت عينيك ..
ان السماء
تظل — كعينيك — زرقاء
اثث في الشجر — الوهم ، والوخز ، بيتي ومكتبتي ،
والسبيل الى سفح سنجار ..
لملمت بعضي وسرت

* *

لماذا يراني جنود الخليفة شخصا غريبا ؟
لاني تحدثت في السوق عمّا وراء النهر ؟

* *

يقول لي السوق شيئا ، يقول لي الشوق شيئا ،
فأقسم بين اثنتين القميص الذي ورث الفتن الداخلية ،
والكتب المستباحة ..
أقسم بين اثنتين الشفاه التي تتناول ،
والجامع الامويّ الذي يتناول ..
أقسم بين اثنتين الاله .

* *

ولكنني لدمشق ، المدينة والجرح ، امنح نار التوحد ،
أعلن في الصحف المشتراة
وفي الصحف المشتهاة بيان الذين راوا وجهها قبل ان
يولدوا ،
والذين يريدونها امراة تتزاوج فيها الشهادة والماء ،
بين الشهادة عشرون ميلا وبين دمشق ..
وعشرة آلاف ميل تناءت دمشق
واشجارها عن دمشق .

* *

مضى زمن كانت الارض فيه تدور على نفسها ،
واتى زمن العاشقين الذين اذا دارت الارض ماتوا ،
او اجترحوا الرفض كي يوقفوها

* * *

مضى زمن كانت البندقية فيه التفرّد ، والحلّ ،
انا على رقعة لا تهاجر فيها الخيول .

* * *

مضى زمن كانت المدن العربية فيه ثغورا ،
لقد جاءنا زمن المدن المصرفية

* * *

يراقبني الليـل ...
اعمدة الجامع الاموي العتيقة
تراقبنـي ..
وتدور الازقة بي ، وتدور المنازل خلف «الحريقة»
الى حيث ينفرد الظلّ بي ، والمياه العميقة
واسمع بين الغصون التي ازرقّت الارض منها ورقّت :
انا الطائـر
انا الصوت ، والجدول النافر
انا ابن الاله الدمشقيّ ..
اني انتظرتك عامـا فعاما ..
وعامـا فعاما هجرتك ،
لكنني العاشق الفردّ .
— هل نتحدث وقتا قصيرا ؟
— الا تجلس ؟
هنالك مقهى ، كراسيه سقف ، كان يرتاده العدميون
والهاربون ومن يصنعون القنابل سرية ، لوددت
لو اني آتيك منه بفنجان قهوة .
ولكنني — ان اردت الحقيقة — اخجل من بعض روّادها ،
فلنقل ما نشاء هنا .. انني قائل ما تقول .

تفتّح لي خان ايوب ،
ما دلّني احد ،
غير اني دخلت ...
وبين حديقته والدهاليز ابصرتهم يصنعون القنابل ...
انهم اخوتي ، يرسمون دمشق على هضبة الله والاحتلال
انهم اخوتي ، يرسمون على النهر اعمدة الجامع الامويّ
جسورا
جسورا
جسورا
جسورا
جسورا
وقد ينسفون الجسور
الى الناصرة .

* * *

سأسكن في خان ايوب ،
ما دلّني أحد ،
غير اني اهتديت .

بغداد

سعدي يوسف

الاديب العربي في معركة المصير

بين التراث والمعاصرة

بقلم عبد العزيز الدسوقي

هل الاديب العربي – حقا – حائر بين مواريثه الحضارية والروحية التي خلفها له الآباء والاجداد ، وبين القيم الثقافية والفنية والعلمية التي يحتدم بها عالمنا المعاصر ؟ هل هو حائر بين شيء مضى وأصبح تراثا ... وبين شيء حاضر تكسبه المعاصرة نبض الحياة وطبيعتها المتغيرة ؟

هل هو حقا ، واقف بين طرفين متميزين : الماضي والحاضر ؟ التراث والمعاصرة ؟ لا أريد أن أجيب على هذا السؤال بالنفي القاطع او الايجاب الحاسم ، فما أسهل الاحكام التقريرية الحاسمة.

ولكن أحب – في هذا البحث – ان اكشف طبيعة هذه القضية ، وما لابسها من مشكلات ، وما ثار حولها من مسالك متشعبة ، حتى أكون لنفسي تصورا خاصا محدد الجوانب واضح القسمات أسهم به في القاء بعض الاضواء على هذه القضية التي أعتبرها من أخطر القضايا التي تشغل حياتنا الفكرية والادبية في هذه الظروف الحاسمة من تاريخ امتنا العربية التي تحاول جاهدة اعادة صياغة كثير من قيمها السياسية والفكرية والادبية ، وهي تخوض معركة المصير العربي ، التي ستقرر معالمها الجديدة لعدة اجيال قادمة .

وفي البداية لا بد من تحديد المصطلحات ، ومعاني الكلمات حتى لا تختلط الافكار وتتشابك .

فماذا نعني بالاديب ؟ هل هو الاديب المبدع الذي يكتب الشعر او الاقصوصة او المسرحية او الرواية ... او هو الناقد الدارس الذي يضيء بالدراسة والتحليل نتاج الادباء المبدعين في هذه المجالات ، ويؤصل لها ، ويدرس التيارات والمذاهب الادبية ؟ أم هو المفكر الذي تشغله الحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ؟

وارجو ان يسمح لي في هذا البحث بأن أتناول القضية من خلال هؤلاء جميعا : الاديب المبدع ، والناقد ، والمفكر . ثم ماذا نعني بالتراث العربي ؟

لقد كتب الاجداد والاسلاف كثيرا ، وأنتجوا بغزارة في كل مجالات المعرفة والانسانية ، ولكن بعض هذا النتاج هو الذي صاغ عقل الانسان العربي ، وذوقه وضميره ، وأثر على نحو ما في مسار التاريخ الانساني وألهم الحضارات الاخرى اجمل القيم وانبل المعاني .

هذا « البعض » هو الذي انفلت من طوفان الزمن وكتب له البقاء وظل قادرا على الالهام والتأثير الى أيامنا هذه .

وهذا البعض لا يقف عند حدود الادب ، بل يتجاوز ذلك الى العلم والفلسفة والاجتماع والسياسة والاقتصاد وسائر ضروب المعرفة الانسانية .

فالتراث العربي – اذن – هو أكمل وأنضج ما ورثنا عن الآباء والاجداد في مجال الادب والفن والعلم والحضارة .

فما موقف الاديب المبدع من هذا التراث ؟ وهل هو حائر بينه وبين ثقافة العصر وما يمور في عالم اليوم من قيم فكرية وثقافية وفنية جياشة متجددة ؟

اعتقد ان الاديب المبدع مجهز بحاسة فنية تمزج الماضي بالحاضر وتصهر ما ينفعل به من التراث مع ما ينفعل به من ثقافة العصر وقيمه بصورة دائمة لا شعورية ، فتتحول الاصالة والمعاصرة الى مزاج جديد يصوغ عقله وذوقه وشعوره ، فاذا ما أنتج شعرا او قصصا او مسرحيات هز الوجدان وأثر في العقول والهم معاصريه وأثر فيهم ، واختط خطا متميزا في عالم الابداع الفني . وبغير هذا المزاج الجديد لا يؤثر الاديب ، ولا يضيف جديدا الى دنيا الفن . ولعل طوفان الزمن قد ابتلع بين أمواجه العاتية الاف الاعمال الادبية الشوهاء التي تقلد نمطا شاع في الماضي او تحاكي نمطا ذاع في الحاضر .

وقد عرفت الحياة العربية على امتداد تاريخها الطويل أدباء وشعراء يملكون تلك « الحاسة الفنية » التي تمزج الماضي مع الحاضر وتصهر التراث مع الثقافة المعاصرة فيخرج من ذلك مزاج جديد ... ففي عصر بني أمية لم يقف عمر بن ابي ربيعة او جميل أو كثير وغيرهم من الشعراء حائرين بين قيم الشعر الجاهلي والحياة البادية ، وبين قيم حياتهم الجديدة التي دخل عليها لون من التحضر والترف والرفاهية ، لكنهم راحوا يبدعون لونا جديدا من الشعر له طعم خاص ومذاق منفرد ... يختلف عن الشعر الجاهلي ويصور نوازع القلب ، وأهواء النفس ، وأشواق الروح ،

او يصور حياة الشك والمجون والتمرد التي نشات مع الحياة الجديدة ، او حياة الزهد والاعتزال التي تسللت الى عصرهم . وفي ايام بني العباس لم يقف ابو نواس او بشار او المتنبي او المعري او غيرهم من الشعراء حائرين بين التراث والمعاصرة ، بل تحولت عند كل واحد منهم ثقافة حاضرهم وتراث ماضيهم الى مركب جديد انصهر لا شعوريا بفضل ما يتمتعون به من (حاسة فنية) .

وبذلك أحدثوا في الشعر العربي ثورة جديدة عارمة ، واضافوا انماطا جديدة من الشعر كانت علامات مضيئة على الطريق .

فالحياة العربية كانت دائمة التجدد والتنوع والغنى بفضل هؤلاء المبدعين الذين كانوا يمتصون من رحيق الماضي ما يشبع شوقهم الفكري ويروي ظماهم الروحي ، ثم يتحول من خلال حاستهم الى زاد فني يتفاعل مع ثقافتهم المعاصرة ، ويصوغ ذوق كل واحد منهم ، ويكون رؤيته الفنية ، ومن هنا نشات التيارات الادبية . واختلفت المدارس . فلا شك ان مدرسة « امرىء القيس » وتلاميذه كانت تختلف عن مدرسة بشار وتلاميذه ... وتختلف المدرستان معا عن مدرسة مسلم بن الوليد او مدرسة البديع ، التي غنى في ظلالها وتاثر بها ابو تمام والمتنبي والمعري وغيرهم .. وتختلف هذه المدارس جميعا عن مدرسة التجديد في المعنى التي تزعمها ابو نواس والتي غنى في ظلالها البحتري وغيره من الشعراء .

هؤلاء جميعا جددوا في الشعر ، ولم يقفوا حائرين بين التراث والمعاصرة ، لان الله زودهم بتلك « الحاسة الفنية » التي تعمل بطريقة لا شعورية ، هذه العملية المعقدة المستمرة وهي مزج الماضي بالحاضر واستخراج مركب جديد مختلف عن الاثنين . هذه الحاسة صهرت في وجدانهم روائع التراث التي انفعلوا بها مع روائع الثقافة المعاصرة التي استهوتهم وبذلك تكون ذوقهم الفني ، وتميزت رؤيتهم الفكرية ـ كما نقول بلغة هذه الايام .

على ان العملية لم تقف ابدا ، فلا تزال الارض العربية تخرج ادباء مبدعين يمتلكون هذه الحاسة الفنية ، ويقودون من خلالها تيارات التجديد في الادب والفن حتى هذه الايام .

واذكر على سبيل المثال بعض مدارس التجديد في الشعر العربي في مصر . ففي مطلع هذا القرن جاشت الحياة الشعرية بمدرسة البعث التي رادها البارودي وغنى في ظلالها شوقي وحافظ ومحرم وغيرهم من الشعراء . ثم جاءت مدرسة اخرى تختلف عنها في مذاقها الفني وتصورها الفكري هي مدرسة التجديد التي رادها شكري والعقاد والمازني .

وجاءت بعد ذلك مدرسة ابولو التي قادها ابو شادي وناجي والصيرفي ومحمود حسن اسماعيل وصالح جودت والشابي والسحرتي وغيرهم من الشعراء .

ثم اخيرا جاء تيار الشعر الحر الذي تمكن بعض رواده ممن امتزجت في وجداناتهم ثقافة الحاضر بتراث الماضي ـ من ان يدخلوه في نسيج حياتنا الادبية والفنية .

ولا شك ان بقية اجزاء الامة العربية تحتدم بتيارات التجديد ولكنني اقتصرت هنا على مصر فقط لمعرفتي بهذه التيارات ، وتلك المدارس .

اذن الاديب المبدع يتحدد موقفه بين التراث والمعاصرة بطريقة تلقائية وبدون تردد من خلال عملية معقدة يعمل فيها الانفعال العقلي الحار والادراك الوجداني ، وبفضل ما اسميته « الحاسة الفنية » لو صحت هذه التسمية .

اما الناقد والمفكر فيختلفان عن الاديب المبدع في المقدمات ولكنهما يتفقان معه في النتيجة .. فالناقد يمتلك مثل الاديب ما اسميته « الحاسة الفنية » التي تمزج الماضي بالحاضر وتصهر التراث بثقافة العصر ، ولكنه يحتاج بجوار ذلك الى مجموعة من العمليات العقلية والتحليلية التي يدرك بها العناصر التي تكون العمل الادبي ، والظروف المؤثرة عليه ، وتاريخ الادب ومدارسه ... هذه كلها يدركها بعقله المجرد بعيدا عن الانفعال الوجداني .

اما المفكر فكل عمله من خلال الادراك العقلي ...

بطبيعة الحال لا يمكن ان نجرد المفكر والناقد من حرارة الوجدان ونبض العاطفة ، كما لا يمكن ان نجرد الاديب المبدع من شعاع العقل الذي يضيء له الطريق . فكل واحد منهم يتمتع بنصيب من العقل والوجدان والانفعال العاطفي ، ولكن تغلب على كل واحد صفة من هذه الصفات .

على ان المفكر والناقد يتفقان مع الاديب المبدع في النتيجة، لانهما ينسجان من خيوط الماضي والحاضر نسيجا جديدا ، ويحولون قيم الماضي الصالحة بعد مزجها بقيم الحاضر الصالحة الى مركب جديد يثري الحياة ويطور الادب والفكر .

ولا بد لهما من شرطين اساسيين :

١ ـ دراسة التراث دراسة عميقة واعية .

٢ ـ التفتح على ثقافة العصر وتياراته واتجاهاته .

ثم بعد ذلك لا بد من صياغة مركب جديد من هذين ، ولست في حاجة الى ذكر امثلة ، فالمسالة اوضح من كل مثال .

فقد اصبح من الحقائق المقررة في حياتنا ، ان رواد نهضتنا الادبية والفكرية في مصر واعلام ثقافتنا كانوا من الذين بداوا حياتهم العملية في الازهر الشريف او دار العلوم او القضاء الشرعي او المعلمين العليا او غيرها من امثال هذه المعاهد التي تعنى عناية خاصة بدراسة تراثنا دراسة عميقة ، ثم تفتحوا على ثقافات العصر واتصلوا بها في معاهدها وبلادها ومزجوها بتراث الماضي ، وتكون لهم من خلال ذلك تصور جديد هو الذي طور الحياة الادبية والفكرية بصورة دائمة . ومن هؤلاء رفاعة الطهطاوي وعلي مبارك وحسين المرصفي وحسين توفيق العدل وطه حسين واحمد امين ومصطفى عبدالرازق وامين الخولي وعبدالوهاب عزام واحمد حسن الزيات ومحمد خلف الله ومهدي علام وعلي عبد الرازق وزكي مبارك وغيرهم من الذين مزجوا الماضي بالحاضر وكونوا لانفسهم مركبا جديدا ذا خصائص جديدة يضم اكمل عناصر المركبين القديمين . ولقد كان هذا المركب الجديد دائما هو الذي يطور الحياة وينبض بها . اذن : الاديب المبدع والناقد والمفكر هؤلاء جميعا في الاعم الاغلب كانوا دعامات هامة لتطوير الحياة العربية والحضارة العربية .

* * *

ولكن لماذا احتدمت المشكلات حول هذا الموضوع بالذات ـ على الرغم من هذا الوضوح الذي صورناه به ـ وتعددت الآراء وكثرت المعارك حولهذه القضية ؟ في رايي ان سبب كل الضباب الذي تراكم على هذه القضية والمشكلات العديدة التي ثارت حول هذا الموضوع نشات بسبب :

١ ـ نقص ثقافة الاديب او المفكر .

٢ ـ او اضطراب احساسه بين الماضي والحاضر .

٣ ـ او اختلال قدرته على مزج ثقافة الحاضر بتراث الماضي .

ومن هنا نشات كل هذه الظواهر المعقدة التي نشهدها في حياتنا الادبية والفكرية المعاصرة .

فالذين درسوا الثقافة الحديثة وحدها وقضوا معظم تكوينهم العلمي في اوروبا او اميركا دون ان تتاح لهم دراسة منظمة لتراثنا القومي ، هؤلاء يفقدون ـ لا شك ـ القدرة على تذوق هذا التراث او فهمه ، ومن هنا لا يشعرون نحوه باي ولاء . بل ان بعضهم يحس بنفور منه ، والبعض الآخر يحتقره ولا يرى فيه الا اكفان الموتى !!

والذين درسوا تراثنا العربي بعمق واقتصروا على دراسته ، ولم يتح لهم ان يدرسوا ثقافة العصر ، او يقفوا على ما يحتدم فيه من تيارات ومذاهب ، لا يمكن ان يكون مثلهم الاعلى الا في

الماضي ، فاذا ما نظروا الى ثقافة الحاضر ، شعروا نحوها باستهانة او نفور ، وربما شعر البعض نحوها باحتقار شديد .

ومن هنا نشأت الجفوة المصطنعة بين الماضي والحاضر ، وترددت في حياتنا قضايا تأخذ طابع المناظرات هدفها المفاضلة بين « القديم والجديد » او « الاصالة والمعاصرة » .

وان كان من الحق ان نقرر ان هذا الصراع لم يقتصر على حياتنا المعاصرة فحسب ، فقد نشأ في الماضي شيء من هذا واخذ اشكالا مختلفة كالصراع بين الشعوبية والعروبة ، او الصراع بين السلفيين والمحدثين ، او الخلاف بين اصحاب اللفظ واصحاب المعنى .

ولكن هذا الصراع حسم في الماضي بانتصار هذه التيارات التي كانت تجمع بين الماضي والحاضر في مركب جديد متطور ، وانتهت كل البدع الشاذة والنزوات المنحرفة ، وتجمدت كل الدعوات التي حاولت وقف الحياة بكل مظاهرها الحضارية ، واختفى كل ذلك من قبو الزمن الرهيب وسار الفكر العربي في طريقه المتجدد وسارت الآداب والفنون في طريق التطور الخلاق الذي قاده هؤلاء المبدعون والمفكرون ، الذين يتذوقون تراث الماضي ، ويدركون عمق ما فيه من كنوز ، وفي الوقت نفسه يقفون على ثقافة العصر ويدركون ما يجيش به من تيارات واتجاهات .

وما أشد الحاجة الآن الى رواد من هذا الطراز يحسمون هذه القضايا التي اخذت شكل المظاهر المرضية .

وسنقف وقفة قصيرة عند قضية واحدة من هذه القضايا التي ثارت حول هذا الموضوع : قضية الجديد والقديم ، وهي من أهم القضايا التي نشأت عن نقص ثقافة الاديب او المفكر ... ثقافة الماضي وثقافة الحاضر ، هذه القضية كالظواهر الموسمية يتجدد الصراع حولها باستمرار ، ولا تتجدد المناقشات او الحجج والافكار.

ولو تأملناها وناقشناها بصورة علمية صارمة لادركنا على الفور انها قضية مصطنعة ليس لها اساس .

فالحياة تيار دائم الجريان لا يمكن ان يتوقف وما كان جديدا منذ لحظة يصبح قديما وهكذا ، اذا اخذنا بمعيار هؤلاء القوم .

ولكن الحياة بكل مظاهرها ، بحاجة الى تلازم « القديم والجديد » وهما عنصران هامان من عناصر الحياة ، متلازمان وضروريان لبقاء الحياة الجسمانية والنفسية والاجتماعية (١) كما يقول العلامة ساطع الحصري (يرحمه الله) . فجسم الانسان دائم التجدد . في كل يوم تولد ملايين الخلايا وتختفي ملايين الخلايا ، ولكن هيئة الجسم تظل كما هي ، وكذلك شكل الاعضاء وتركيبها . فالجديد يمتزج بالقديم ويحتفظ بالطابع العام ، ولو ان الجسم يتغير تبعا لذلك لتغير شكل الانسان آلاف المرات . والحياة الاجتماعية التي نعيشها هي ايضا مزاج من القديم والجديد، فخبرات الماضي ومؤسساته ، وقيمه وتقاليده ، تبقى ميراثا لكل جيل من الاجيال . يضيف اليها ويطورها ثم يسلمها للجيل الذي يليه . وهكذا تتطور الحياة . ولو تصورنا ان كل جيل يأتي يبدأ من جديد لظلت الانسانية حتى الآن تعيش حياة الكهوف .

حتى حياة الانسان النفسية ، لا بد ان يمتزج فيها القديم بالجديد والماضي بالحاضر والتراث بالمعاصرة .

ولو تصورنا على سبيل الجدل انسانا فقد صلته بالماضي تماما، ونسي كل معلومات الماضي وقيمه وعاداته وتقاليده ، لا شك انه سيتجمد ويصاب بالشلل تماما ويفقد القدرة على الادراك والتصرف والسلوك ، وسائر العمليات العقلية ، لاننا نفكر بالجديد بادوات الماضي وخبراته ، ونتصرف في الحياة المعاصرة باسلحة الماضي المتطورة التي تنتقل دائما الى الاجيال الجديدة .

ولو ان شخصا فقد صلته بالحاضر واقتصر على ميراث الماضي ، هذا الشخص سيتحول الى شيء منقرض كالبقايا والهياكل التي نحتفظ بها في المتاحف .

لا بد اذن من امتزاج القديم والجديد في عملية متوازنة تخرج مركبا جديدا يحفظ على الانسان صحته النفسية والجسمية والاجتماعية . واعتقد ان القيم الفكرية والفنية والحضارية لا تختلف عن المظاهر الجسمية والنفسية والاجتماعية ، فهي في حاجة الى امتزاج القديم بالجديد ، والتراث بالمعاصرة . فالحاضر ليس منفصلا عن الماضي وليس منقطعا عن المستقبل ، فالجميع تيار متدفق دائم الجريان ، والذين يقفون عند لحظة من لحظات الحياة يجدونها ويعزلونها عما قبلها وما بعدها ... هؤلاء يموتون وينعزلون عن تيار الحياة ، سواء أكانت هذه اللحظة في الماضي او في الحاضر .

الذين يعيشون في اللحظة الماضية يعيشون مع اكفان الموتى في اضرحة باردة من الرخام ، ولكن الذين يجمدون اللحظة الحاضرة ، ويفصلونها عن الماضي والمستقبل ، هؤلاء يموتون وتبقى اجسادهم عارية في طريقنا بلا اكفان . فقضية القديم والجديد في الادب والفكر ، قضية وهمية ، والحياة الادبية والفكرية في اشد الحاجة الى مزاج من القديم والجديد ، في حاجة الى التراث والمعاصرة .

وكذلك كل القضايا التي نشأت حول « التراث والمعاصرة » قضايا وهمية لا اساس لها ، اثارها اناس لم يتذوقوا التراث ولم يدرسوه بعمق ، ولم يدركوا تيارات العصر وثقافته ادراكا حقيقيا . او اناس تنقصهم القدرة على مزج ثقافة الحاضر بتراث الماضي او لا يدركون النسب التي تشكل المركب الجديد الذي يضم عناصر الماضي والحاضر والمستقبل . فلا بد من تحرير مفهوم التراث والمعاصرة وموقف الاديب والمفكر منه .

وفي رأيي ان تحرير هذا المفهوم وتحديد موقف الاديب او المفكر منه من اخطر القضايا واهمها في صراعنا الحضاري ، لان اضطراب هذا المفهوم يصيب الامة بالانفصام او الانعزال ، وكلا الامرين دمار محقق . ثم ان اختلاط هذا المفهوم يجعلنا شيعا واحزابا متنافرة متناكرة نتكلم لغات مختلفة لا تلتقي ابدا ، ونتصور تصورات متشعبة لا تجتمع عند هدف واحد .

ولست ابغي من تحرير هذا المفهوم وتحديده ، ان نصل الى تعريف جامع مانع لمفهوم التراث والمعاصرة ، ولكن ارجو ان نناقش بعمق ووضوح وصراحة ، كل ما يثور حول هذا الأمر ونتفق على أسس عامة تكون بمثابة الارض المشتركة نقف عليها جميعا ونتحرك الى اهدافنا الكبرى ، وغاياتنا العظيمة ، دون ان نتبادل التهم واللعنات.

* * *

وما دمنا قد توصلنا الى ان :

* التراث العربي ، هو اكمل وانضج ما خلف لنا الآباء والاجداد في مجال العلوم والفنون والآداب .

* وان الاديب المبدع والناقد الاصيل والمفكر ، لا يقفون حائرين بين تراث الماضي وثقافة العصر ، بل يمزجون هذا بذاك ويخرجون بمركب جديد ، يطور الحياة ويضيف الى التراث الحضاري قيما جديدة .

* وان النزاع يحدث بين القديم والجديد والتراث والمعاصرة نتيجة نقص في ثقافة البعض او اضطراب في ادراكهم للتطور او خلل في رؤيتهم الفكرية .

(١) ساطع الحصري : آراء واحاديث في التاريخ والاجتماع ـ دار العلم للملايين .

فمن الممكن ان نثير كثيرا من النقاش لنحدد كل عناصر القضية وأبعادها ، ونلقي نظرة على المؤسسات المعنية بالتراث العربي .

فلا يكفي ان نقيم المعاهد لتعنى فقط بتحقيق التراث ونشره ، بعد تصوير مخطوطاته وجمعها من انحاء العالم او تصويرها وفهرستها ، فهذا العمل الجليل قد حققنا فيه الكثير ويجب ان نحقق الاكثر ، ولكن نحن في حاجة الى خطوات اخرى تجعل التراث :

١ ـ في متناول الجميع .

٢ ـ وفي صور من الطبع والاخراج جذابة تغري الشباب بالمطالعة والاقتناء .

٣ ـ ثم لا بد ان يعنى الادباء والفنانون بالتراث دراسة واستلهاما واستيحاء ، بحيث تتحول عندهم صور التراث الى مسرحيات وقصص وقصائد ، يعطرها عبق الماضي ، وينضرها نبض العصر ورشاقته .

وهل يمكن ان يتبنى اتحاد الادباء العرب فكرة عقد مؤتمر دوري للتراث كل عامين او ثلاثة ندرس خلاله اهم الانجازات التي تمت في مجال خدمة التراث ، مع اعطاء عناية خاصة بالتراث العلمي وموازنته بأحدث النظريات العلمية ، كما يقيم مهرجانات لرواد نهضتنا الادبية والعلمية والسياسية والاقتصادية تكون فرصة لدراسة تراثهم وتقويمه من جديد على ضوء احدث النظريات ، ومن خلال معالجة جذابة تعيد بناء هذه الشخصيات بصورة تستهوي الجيل العربي الجديد ، وتضيء افكارهم ونظرياتهم ، وتدخلها في نسيج حياتنا المعاصرة .

هل يمكن ان تخصص جامعاتنا « كرسيا للتراث العربي » في كل كلية من كلياتها المتنوعة . يعنى بدراسة التراث العربي في مجال الفنون والآداب في الكليات الادبية ، ويعنى بالتراث العلمي في الكليات العلمية ؟...

هذه تساؤلات يمكن ان نناقشها ونصل من خلال مناقشاتنا الى رأي موحد ، قد ندخله في توصيات المؤتمر .

ولكنني اعتقد بعد هذا كله ان المشكلات التي تثار حول قضية التراث والمعاصرة ، لن يحسمها الا طلائع من الجيل العربي الجديد ، الذي اكتوى بلهيب المحنة ، واختنق بدخان الهزيمة ... طلائع من هذا الجيل تتاح لها دراسة تراثنا العربي بعمق ، ثم تتاح لها في الوقت نفسه دراسة ثقافة العصر دراسة علمية واسعة ، هذه الطلائع من الجيل العربي الجديد ، هي التي ستحمل الراية وستمتزج في وجداناتها ثقافة العصر بتراث الماضي ، وسيتكون لها فكر جديد ورؤية جديدة ، هي التي ستصوغ الحياة العربية من جديد . وستصوغ الذوق العربي والفكر العربي ، وبما لعدة اجيال قادمة ... ولن تنعزل هذه الطلائع المفكرة المثقفة عن معركة المصير العربي بل ستسهم فيها ـ فوق اسهامها الثقافي والحضاري ـ بخوض المعارك وحمل السلاح على جبهات القتال ، وفي ميادين الحروب ، وستحسم المعارك العسكرية باذن الله ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

أيتها الطلائع العربية الجديدة ، ايها الرواد المقبلون . انني أراكم الآن رأي العين على آفاق الارض العربية ، تطرقون ابواب النصر ، وتحملون على جباهكم أكاليل الغار ، وتغسلون عن امتكم العار ، وتنقذوننا من التمزق والاندحار ، وتعيدون الى أمتكم وجهها المشرق ، لتعود سيرتها الاولى كما كانت دائما خير أمة اخرجت للناس .

القاهرة — عبد العزيز الدسوقي

شهيد الفداء

يبس الجرح ، فانتفض يا شهيد نام عن ثأرك الكماة الصيد
العيون التي تجمر فيها السهد يوما .. قد مل منها الرقود
والسيوف التي تفجر فيها الحقد حتى ذابت عليها الغمود
نسيت انها ـ وقد أصحر الثأر ـ تهاوت عليه وهي جريد
والرماح التي ركزنا على البيد نشاوى تتيه فيها البيد
لم تزل في الثرى الذليل حيارى تتغنى بذلها وتميد
وانتشى جذرها فأينع نصل أريحي الجنى وأورق عود
كذب الوهم ليس يعرف طعم المجد رمح مزوق رعديد
الوغى تصطلي حواليه حقدا وهو في غمرة الجحيم جليد
كل أحلامه ـ اذا اشتد عصف الريح في الثائرين كيف يحيد

□□

يا شهيد الفداء نحن على الدرب ولكن شوطنا مكدود
لم نصل ذروة السرى بعد ، فالخيل عطاش ، والقفر جهم بليد
ورعيل الفداء بعدك ضاقت بخطاه سهولنا والنجود
فتنادت عليه ـ والشوط نشوان ـ فلول من الاعاصير سود
وتبارى (ايلولنا) و (حزيران) كلا الفارسين شهم نجيد
غير انا ـ والاهل أدرى ـ عرفنا كيف نطوي قلاعه ونبيد
فأريناه ان أرضا نما بذرا عليها ليست له وهو عود
وجبالا شابت عليها الليالي وهو في جذع كرمها مشدود
سيدور الزمان فيها ـ فيغدو وهو عنها بسيفه مطرود
يا لاردننا الجريح أغالت ضفتيه عروبة أم يهود ؟!

□□

يا شهيد الفداء نحن على دربك والذل زادنا والورود
في متيه جدب تمطى به الليل وأرخى عنانه التسهيد
وعلى طرة الصباح الذي ننشد ريب من محنة وهمود
والى يمنة الطريق ويسراها ربى صلدة الصخور عنود
وشعاب تخادع العين ، فالقصد القريب المنال ناء بعيد

فمشينـــا وأنــت تعــلم ان السيــر فــي مثلهـــا عسيــر شــديد
نتمـــلى مصـــارع التيـــه حيث النجم أعمــى والفجـــر بعـــد وليـــد
وانتهينـــا بعـــد اللغـوب الى (سرحـة سرو) مقيلهــــا مهـــدود
فحمـــدنا السرى وقلنـــا سنغـدو والضحـــى في جباهنـــا معقــود
ثم هب الصبـــاح يمـلأ برديـــه الغـد المرتجـي .. وتصحو الرقود
فاذا الســروة الغريبـــة اشبـــاح ظـــلال مـــع الريـــاح تميـــد
واذا نحـن في لظى القيظ حقـــل اجـرد النبت مـوحش مخضــود
يتســـاوى بسمعـــه ناعب الليـل وشـــاد على الضحـــى غريـــد

□□

يا لاحلامنـــا الثكـــالى أهذا الكـــالح الغـــر فجرنـــا الموعــود ؟!
أثمـار (الخمس) التـــي حشدتنـا للوغـــى : أننـــا قطيـــع بديـــد
خير ما عندنـــا حمـاس يشـق الدرب للســـالكين وهـــو قعيـــد
وخطـــاب كجـلوة الـــورد بـــاق منـه فـي كـل مسمـــع توريـــد
وطريـــق نحدو بـــه خانـــع السلم ونـــدري بأنـــه مســـدود
ثـــم ماذا ؟
مأساتنـــا ان يقـــول البعض : لا بـــد للاسيـــر القيـــود
ويك أن الاســـلام ما كـــان الا نفـــرا جلهـم اسيـــر طريد
ثم شبـت بـــه عزائمـــه الغــر فرفـت في الســند منــه البنود
وترانا والمسجـــد القـــدس منـــا قيـــد باع لم نـدر كيف نعيـــد
ما لنـــا من صلاتنـــا ـ بعد هـــذا الـذل ـ الا ركوعهـــا والسجـود
أين منـــا أيماننا ، والحفـــاظ المر ، والبـــأس ، والظبـــى ، والصمـود
طـــوي الفتـــح واستحـــال رمادا فـي الملايـــن جمــره الموقــود

□□

عيرونـــا على الفخـــار بماضينـــا فقـــالوا : غوايـــة وجمـــود !
وانطـــواء عـــلى القـديم وقـــد نضر قلب الصحـــراء هـــذا الجـــديد
شفـــق الامس لـــن يعـــود وفي الافـق بـروق لغيره ورعود
يا دعـــاة الغد الجديـد .. لنـا اليوم بمـــا فيـــه ، والغـد المنشـــود
ولنـــا الامس فجره ودجـــاه وشبـوب عليهمـــا وخمـــود
ولنـــا بعـــد أن جمـرا صلينـــا كـــان منا ضرامـــه والوقـــود
وكؤوســـا قد رنحتنـــا وفـــاضت ليس فيهـــا لغيرنـــا عنقـــود
أمسنـــا يا لمشرق الشمس فتـــح عربـــي وفيلـــق محســـود
ليس فيـــه ـ والحمـــد لله ـ سيف فاتـــك الغـــدر او سنان حقود
عارنـــا أننـــا نسينـــاه فاربـــدت سمانـــا وزاحمتنـــا العبيـــد
كيف يقـــوى على العواصف غـرس جـــذره فـــي ترابـــه موءود

بغداد مصطفى جمال الدين

نقاط وملاحظات حول
دور الأداء والتعبير الفني

بقلم محمد دكروب

١ ـ

لا بد لنا ، منذ البداية ، ان نحدد اطار موضوعنا فنحن لسنا بصدد بحث جمالي حول الاداء والتعبير ، بشكل عام . بل نحن بصدد الحديث عن الاداء والتعبير الفني ، للادب العربي الحديث ، في اطار معركة المصير التي نخوضها والتي تجابهنا ولا بد ان نجابهها .

لكل قدرة من القدرات البشرية دورها المفترض في المعركة . وللادب كذلك دوره الخاص ، داخل الوعي وتستطيع طرق الاداء والتعبير الفني ان تلعب ، هنا ، دورا حاسما بقدر ما تجد طريقها الى وجدان القارىء ووعيه .

فلا بد ، اذن ، ان ننظر الى الاشكال والانواع والاساليب وما اصطلح على تسميته « الاداء والتعبير الفني » من خلال الدور الذي تؤديه ، او يمكن لها ان تؤديه ، في معركة المصير العربي .

ولكي نصل الى هذا لا بد ، كذلك ، ان نحدد اطار معركة المصير هذه .

وبدون دخول في التفاصيل نقول ، بايجاز كلي : ان معركة المصير العربي لا تنحصر في المعركة الحالية التي تجابهنا ، اعني الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية . فالاحتلال الاسرائيلي ، ووجود هذا الكيان الغريب المصطنع ، اصلا ، الذي اطلقوا عليه اسم اسرائيل ، هو ظاهرة من ظاهرات معركتنا الاساسية الكبرى ضد الاستعمار ، وضد التخلف ، ومن اجل التحرر الوطني والاجتماعي والاقتصادي معا . فمعركة المصير العربي ، في مجراها الاساسي العام ، هي معركة موحدة ضد هذا العدو المثلث : الاستعمار (وكل مرتكزاته من القوى الرجعية في العالم العربي) والصهيونية (وهي الشكل الجديد الشرس للنازية ضمن كتلة الاستعمار نفسه) والتخلف (الذي هو ، بشكل اساسي من نتائج السيطرة الاستعمارية الطويلة وما نتج عن هذه السيطرة من تجزئة وقطع لطريق العرب نحو التقدم والوحدة القومية .)

وقد اظهرت الاحداث المريرة ، في السنوات الاخيرة ، وخصوصا هزيمة الخامس من حزيران وما نتج عنها ، اظهرت الترابط العضوي بين هذه الظاهرات الثلاث للعدو الواحد ، كما اكدت ، خصوصا ، الترابط العضوي بين عناوين الاهداف العربية المطروحة : بمعنى ان معركة التحرر من الاستعمار والصهيونية والتخلف ، هي في الوقت نفسه معركة العرب من اجل وحدتهم القومية المعادية للامبريالية ، وهي في الوقت نفسه ايضا ، وكما اكدت كل التجارب وكل الدماء ، معركة التغييرات الجذرية في تركيب المجتمع العربي ، معركة التوجه نحو الاشتراكية . وهي خصوصا معركة حرية كل القوى الوطنية والتقدمية في الاسهام الفعلي في هذه المعركة . ان دمقراطية الجماهير هنا ، اي حرية قواها الوطنية والتقدمية هي العامل الاساسي في التوجه الجدي نحو التحرر والاشتراكية . وبدون هذه الدمقراطية لا يمكن ان يقوم بناء راسخ للوحدة وللاشتراكية في بلادنا ، ولا يمكن ان نصل الى انتصار حقيقي في معركة المصير .

عندما ننظر الى انواع الاداء والتعبير الفني في الادب العربي الحديث ، سوف ننظر اليها ، اذن ، من خلال هذا الاطار العام لمعركة المصير ، اي من حيث قدرتها على ان تكون جزءا في هذه المعركة ، وعامل اغناء روحي واثارة للوعي العام بجوهر المعركة التي تجابه شعبنا كله ، والتي يصل لهيبها الى كل قوى التقدم فيه ، ومنها القوى التي تبدع الفن الاصيل .

٢ ـ

ان هذا الوضع للقضية يطرح ، مباشرة ، مسالة التفاعل والتواصل بين الادب والثورة ، ليس فقط بمعنى ان يحمل الادب مضمونا ثوريا ، بل الذي نقصده بالتحديد ، ذلك التفاعل المتبادل بين النتاج الادبي ، والقوى الاساسية ، البشرية ، للثورة ، ولكن القوى الاساسية للثورة في بلادنا ، وهي التي تضم العمال والفلاحين والطلاب والمثقفين الوطنيين ، هذه القوى لا تمارس كلها فضيلة القراءة ، او مطالعة النتاج الادبي . واذا كان هذا الواقع يطرح مسالة ارتباط انتشار النتاج الادبي بضرورة العمل على رفع المستوى الثقافي للجماهير بما فيه من محو للامية بالدرجة الاولى ، فانه يطرح كذلك ضرورة ان يملك النتاج الادبي امكانية الوصول ، في مرحلتنا هذه ، ولو الى الذين يقراون ويطالعون الادب .

ذلك ان اي فعل يطمح الادب (في اي شكل من اشكال الاداء والتعبير الفني) ان يمارسه في معركة المصير ، لا يستطيع ان يمارسه الا من خلال قدرته على اثارة وعي جماهير القراء التي تشكل جزءا فاعلا من قوى الحركة الثورية .

ان دخول الادب الى وعي الجماهير ، هو بالضبط ما نفهمه من اسهام الادب في حركة التاريخ ، ولا نعني تاريخ الادب فقط ، بل تاريخ حركة تقدم الشعب نحو الحرية .

ان قدرة اي شكل من اشكال الاداء والتعبير الفني ، على الاسهام في معركة المصير ـ في مرحلتنا التحريرية هذه ـ مرتبطة ، اذن ،

بقدرته على الوصول الى قوى الثورة وقدرته بالتالي على اثارة الوعي الثوري لدى القراء .

نقول هذا ، ليس بشكل مطلق ، بل ضمن الاطار المحدد لموضوعنا الذي يفترض رؤية دور الاداء والتعبير الفني في معركة المصير .

٣ -

ولسنا نريد ولا نحب ان نضع انفسنا في موضع من يخترع مواصفات محددة للادب او للاشكال الفنية التي يمكنها ان تمارس فعلها هذا في وعي القراء .. فهذا امر لا يجدي .. ولم يسبق لاديب ان ابدع ادبا اصيلا فاعلا حسب هكذا مواصفات ونصائح محددة .. بالعكس ، فان خصائص ومواصفات اي نوع ادبي انما يجري استخلاصها ، نقديا ، من خلال الاعمال الادبية نفسها لا قبل هذه الاعمال ، ولا من خارجها

فاذا اردنا ان ندرس اشكال الاداء والتعبير الفني ، في الادب العربي ، ومدى قدرتها على الاسهام في معركة المصير ، فلا بد ان ندرس هذا بشكل ملموس ، من خلال النتاج الادبي نفسه ، وبالتحديد من خلال نتاج الادب العربي الحديث في السنوات العشر الاخيرة خصوصا ، وذلك ليس فقط لان هذا النتاج هو الميدان الطبيعي لمثل هذا البحث ، بل لان هذا النتاج يحمل معه الكثير من قضايا التعبير الفني وتنوع اشكال الاداء ، وتعدد الانواع الادبية نفسها . واكثر من هذا ، فان نتاج السنوات الاخيرة احدث ثورة في مختلف الاساليب الفنية ، والاشكال والمضامين ، سواء في القصة ام الشعر ام الرواية ام حتى البحث الادبي .

فعلى مدى الستينات ، شهد العالم العربي اعنف التغيرات من ارتفاع الى ذورات من الانتصارات لحركة التحرر العربي ، الى انحدار ماساوي مريع نحو هزائم مارست في ارواح الناس وعقولهم آثارامدمرة. بل ان ما كان يبدو انه احد عوامل الانتصارات ، صار يبدو فيما بعد انه احد عوامل الهزائم والتغييرات التي كانت تحدث فيتركيب المجتمع كان يرافقها تغييرات عنيفة على مستوى الحكم ، وعلى مستوى الجماهير ايضـا .

هذه التغييرات والاحداث العنيفة ، مارست بالطبع تاثيرها ، السلبي والايجابي معا ، في النتاج الادبي ، وفي مواقف الادباء ، وفي تلقي الادب ، وحتى داخل العملية الفنية للابداع الادبي نفسه ، كما سياتي تفصيله فيما بعد .

ان التغييرات التي حدثت في مختلف انواع النتاج الادبـي العربي على مدى الستينات ، تمتاز كذلك بالعنف ، بالشراسـة ، بالجراة على الحسم القاطع في مجال القفز من شكل فني الى شكل فني آخر ، مضاد احيانا ، وتمتاز بتفجير ، وتدمير ، مختلف المقدسات في اشكال الانواع الادبية وطرائق التعبير ، وبالاقتحام الجسـور للطرق المجهولة ، والابواب المغلقة ، وبالابتداع المحموم لاشكال جديدة وجديدة، وبالثورة التي تكاد تشمل في رفضها كل ما سبق .

فاذا اردنا استخلاص ما هو عام في نتاج ادب هذه الفترة نجـد ان مـا هو عام هو التنوع نفسه ، وهو الاندفاع المحموم فيدهاليـز التجريب ، وهو الشعور بعدم الامان .

اكثر من هذا ، فان الثورة على كل الاشكال والانواع السابقة في بناء العمل الادبي ، رافقتها رغبة عارمة ، من جيل الشباب ، تهدف الى محو كل ما سبق ، كان تشطب ، مثلا ، نتاج مرحلة الخمسينات كله ، في حين ان مرحلة الخمسينات هذه بالذات اعطت - في الشعر وفي القصة وفي النقد - ادبا مارس تاثيرا فاعلا في الحركة الثورية وفي حركة التجديد الادبي على السواء ، وفي هذه المرحلة الخمسينية بالذات حسمت المعركة بين الشعر القديم والجديد ، لمصلحة الجديد ، وهذه المرحلة ، في راينا ، هي الاساس وقاعدة الانطلاق لمختلف الوان واشكال التجديد التحري التي انفجرت خلال الستينات والتـي تعيش الان عملية احتدامها وفوضاها ، وكذلـك نضوجها وتكاملها .

نقول ايضا ان ابرز بناة مرحلة الخمسينات ، هم كذلك من ابرز المنتجين في الستينات ، وباشكال وانواع نعتبرها كذلك من المكاسـب الفنية الجديدة التي تميز مرحلة الستينات هـذه (نذكـر على سبيـل المثال : البياتي - الحيدري - نجيب محفوظ - يوسف ادريس - يوسف الشاروني - ادونيس - زكريا تامر - وغيرهم) .

نذكر هذا لنقول ان المسالة ليست مسالة « اجيال » وعدد سنوات بل هي مسالة تطور عاصف ، في المجتمع وفي الفكر وفي الفن ، على صعيد البلاد العربية وعلى صعيد العالم كذلك ، تجد تجليهـا فيهذه الانواع والاشكال الجديدة ، التي يستجيب لها كل فنان يملك هـذه الطاقة الخلاقة على التطور والابداع والتجدد المستمر ، كما تحمل معها، كذلك، الكثير من المزيفين الذين يركبون الموجة ، ويظنـون ان المسالة كلها هي بضعة الاعيب غامضة في الشكل ، ومجرد عملية تاخير وتقديم لمقاطع القصة او القصيدة ... وانتهى الامر .

هذا النوع الطفيلي ، هو اكثر الناس صراخا بالطليعية وتطرفا في نفي كل ما سبق ، والشطب عليه ، ووضعه في خانة التخلف والرجعية. وهذا النوع الزائف المزيف ، هـو آفة كل مرحلة تجديدية ثورية سواءفي الادب والفن ام في حركة النضال السياسي .

على ان هذا التعصب القبلي من بعض شباب الادب ضد سابقيهم من رواد ومجددي الخمسينات ، لا يبرر مظاهر التعصب القبلي الاخر من بعض هؤلاء الرواد في محاولة للشطب ايضا على المكاسب الفنيـة التي اعطاها او يبشر بها جيل الشباب . فنحن مثلا لا نوافق على قول عبد الوهاب البياتي بان هؤلاء الشباب « لم يشكلوا اضافة جديدة لما ابدعه جيل الرواد . فهم لا يزالون يعتاشون على فتات موائدهـم او عطاياهم الكريمة » .. او قوله ، مثلا ، ان مـن سوء حظ بعضالشعراء انهم يظهرون في عصور العمالقة » ... ذلك ان جيل الرواد بالذات سبق ان سمع مثل هذه الاقوال تماما من سابقيه الذينَ نعتوا انفسهم ايضا بالعمالقة ، ولكن الرواد استمروا في حركتهم الثورية التجديدية، واضافوا الكثير الى حركة الشعر العربي ، وان بعضهم ، ومنهم عبد الوهاب البياتي بالذات ، لا يزالون يضيفون جديدا الى حركة الشعر، بروح الستينات نفسها ، فليس عجيبا القول ان باستطاعة شبـاب الستينات ان يضيفوا جديدا الى حركة الشعر والادب عامة ، وانهم بداوا بهذه الاضافات ، وان انكار هذه الاضافات او تجاهلها لا يعني انها غير موجودة ، او على الاقل انها لا تتبلور وتتكامل .

فاذا كانت تبلورت المفاهيم البنائية التشكيلية للشعـر الجديـد في الخمسينات فـي مصطلحـات مثل : « كسر العمـود الشعـري » و« تحطيم البيت المقفل في القصيدة » و « استخدام وتوزيع التفعيلة الواحدة » و « ضرورة الوحدة العضوية للقصيدة » وتحطيم اسطورة « الكلمة الشعرية » واثبات ان الكلمة تكتسب شعريتها من مكانها فـي القصيدة ومن قانون علاقتها الفنية بغيرها من الكلمات وبناء القصيدة ومضمونها الخ ... اذا كانت هذه المفاهيم وغيرها هي التي تجلـت وتبلورت ، مع الشعر الجديد في الخمسينات ... فليست هي التي تستخدم الان او تتجلى في شعـر الستينات ، ولا حتـى في الشعـر الجديد لرواد الخمسينات انفسهم .. وصرنا نسمع مصطلحات جديدة تتجاوز مسالة « التفعيلة « والايقاع » لتصل الى : الرؤيا (والى ان لكل قصيدة حركتها البنائية والشكلية الخاصة) والى « تحويل الواقع الى اسطورة » ثم تحويل العمل الشعري الى عمل يلتقي فيه الحـوار المسرحي ، بالسرد ، بالنثر الفني ، وحتى النزوع الى القول بالغـاء مصطلح « قصيدة » نفسه ، لان ما كان يقال له « قصيدة » شعريـة يتحول الى « كتابة » شعرية .. وان عملية تخطي مفاهيـم شعـر الخمسينات وانواعه ، هي الان فـي ذروة احتدامهـا ،وفوضاها ، وان النقد العربي نفسه يعيش هذه الفوضى ، ويحاول استخلاص المفاهيم

الجديدة للحركة الجديدة ، وبلورتها ، وهذه احدى المهمات الكبرى المطروحة امام حركة النقد الادبي العربي الحديث .

على اننا نعود الى المسألة الاساسية في موضوعنا وهي : ان نرى الى الدور الذي تؤديه ، او يمكن لها ان تؤديه ، اشكال الاداء والتعبير الفني ، لمرحلة الستينات هذه وما بعدها – في معركة المصير .

واسمحوا لي ان اركز الحديث على فنون القصة ، واحيانا المسرح، من بين الفنون الاخرى ، وذلك ، اولا ، لان هذا مجال قدرتي على الحديث ، وثانيا ، حتى لا يتحول الحديث الى ركام سردي من الاسماء والاشارات والمصطلحات حول كل فنون التعبير ، الامر الذي لا يجدي ولا نستطيعه على كل حال .

في معركة المصير « هي : الوصول الى الجمهور »

٤ –

قلنا : ان المسألة الاساسية في موضوع دور الاداء والتعبير الفني

ان اي اثر ادبي تقدمي – في اي شكل من اشكال التعبير الفني تجلى به – لا يستطيع ان يؤدي دورا مهما في معركة المصير العربي ، في مرحلتنا على الاقل – اذا لم يصل الى وعي الجمهور . ذلك ان هذا الجمهور هو السلاح الحاسم في معركة المصير هذه ، وان كل فكر وفن وادب انما يمارس تأثيره في المعركة من خلال وعي الجمهور .

ينتج عن هذا : ان الشكل ، او التعبير الفني ، الذي ينهض حاجزا بين العمل الادبي وبين وعي الجمهور له ، بسبب من الغموض او التعقيد او الاغراق في الرمز ، هذا الشكل ، محكوم عليه – في مرحلتنا هذه – ان لا يتمكن من اداء دوره في معركة المصير .

والواقع ان الكثير من الاعمال الادبية الجديدة ، في السنوات الاخيرة ، محكوم بما يشبه الانفصال عن الجمهور ، ولا نعني الجمهور العريض الواسع ، بل نعني الجمهور القارىء للادب بالذات .

ان الاشكال الجديدة ، التي كانما طفرت فجاة ، وبرزت مغلفة بالغرابة والضباب ، ثم الاغراق في الرمز ، والتحطيم الحاسم لطريقة السرد في القصة – التي تعود عليها القارىء طوال عشرات السنين – والتلاعب بالازمنة – وتداخل الاحداث ، وكسر الحدود بين الواقع والحلم ، ودخول كثير من القصص الى عالم الشعر والرؤيا والاسطورة ... هذه الاشكال والانواع ، التي دخلت عالم القصة العربية بشكل عاصف ، فاجات القارىء العربي ، اذهلته ، واخذت تخلق حاجزا بين الكثير من هذه الاعمال وبين الكثير من القراء ، وكاد جمهورها ينحصر في نطاق ضيق من الكتاب انفسهم ، وبعض النقاد .

هذا الواقع يطرح عدة قضايا :

اولها : ضرورة التأكيد على ان الادب الاصيل هو باستمرار اكتشاف ما لم يعرفه الجمهور من قبل ، واذا كان هذا الادب يشكل استمرارا لخط تطور الابداع السابق ، فهو بالدرجة الاولى اضافة جديدة اصيلة لما سبق .

هذا يعني – وهو ما نحب ان نؤكد عليه – ان كل ما هو اصيل في النتاج الجديد ، اذا لم يتح له الان – بسبب غرابته وغموضه وتعقده – ان يصل الى اوسع مئات القراء ، وان يسهم بالتالي في اثارة الوعي بجوهر معركة المصير ... فانه يبقى فنا اصيلا له دوره التحريري والثوري داخل عملية تطور الحركة الادبية نفسها ، فهو يشكل احد المكتسبات الجديدة على الصعيد الفني ، لتراثنا الابداعي ، وهو يزود مجموع الحركة الادبية بادوات تعبيرية فائقة الغنى ، وبالتالي فهو يحمل ، بحكم اصالته ، قدرة ممارسة فعله في وعي الجمهور ، عندما تتاح لهذا الجمهور القدرة الثقافية على استيعاب هذا الجديد ، (فاذا كانت بعض اعمال ماياكوفسكي لم تستوعب ، ولم تفهم من الجمهور ، خلال احتدام الاحداث الثورية في روسيا ، فان هذه الاعمال تلقى الان اوسع الانتشار في الاتحاد السوفياني نفسه بعد الارتفاع العام للمستوى الثقافي ومستوى الاستيعاب والتذوق الفني) .

ثانيا : ان هذه الحقيقة لا تعني ، ولا يمكن لها ان تعني : ان هناك تعارضا او تنافيا مطلقا بين المعاصرة والحداثة والغرابة في الاداء والتعبير الفني ، وبين امكانية الوصول الى جمهور القراء العرب في مرحلتنا الحالية .

والواقع ان السنوات العشر الاخيرة شهدت عدة اعمال ادبية ومسرحية جديدة معاصرة وصلت الى فئات واسعة من القراء العرب سواء عن طريق المجلات ام الكتب المستقلة التي لاقت رواجا واسعا، وان هذه الاعمال الفنية ذات تركيب بنائي معاصر ، ومعقد كذلك، وتتجلى فيها مختلف المفاهيم التي صرنا نسمعها عن خصائص الموجة الجديدة من : تداخل الازمنة ، التقطيع الاشبه بمونتاج سينمائي ، امتزاج الحلم بالواقع ، الجمل القصيرة ، المتوترة ، القافزة ، تحطيم السرد ، وغيرها من المكتسبات الفنية الجديدة .

وتحضرني الان ، على سبيل المثال فقط ، بعض الاسماء والاعمال :

– السوداني الطيب صالح ، خصوصا في موسم الهجرة الى الشمال ، هذه الرواية ذات التركيب الفني المعاصر ، والاصيل ، والتي تحمل عدة مستويات ، واقعية ، ورمزية ، وترتفع بالواقع الى مستوى الاسطورة ،وتتلاعب بمجرى الاحداث في تقطيع سينمائي مدهش ،وتطرح من خلال الفن نفسه ، قضايا قومية وفكرية ، قد تناقشها على صعيد الفكر ، دون ان تنكر قدرة الفنان على تحويل الموقف الفكري الى تجليات فنية مضيئة .

– سعدالله ونوس في تجاربه المسرحية المهمة ، وخاصة في « حفلة سمر من اجل ٥ حزيران » حيث يمتزج تعقيد التركيب الفني المعاصر بوضوح القضية المطروحة ، وتعدد وجوه هذه القضية ، وقدرة هذا العمل على الوصول الى فئات واسعة من المتفرجين .

– العديد من قصص الشباب في العراق (احمد خلف ، مثلا ، ومحمد خضير ، وبعض تجارب جمعة اللامي المدهشة) والعديد كذلك من قصص الشباب في مصر (جمال الغيطاني في مزجه الاصيل بينالتاريخ واحداث العصر ، سليمان فياض في قصصه النابعة من مأساة سيناء، وعبد الحكيم قاسم في واقعيته المتطورة) .

– الفلسطيني اميل حبيبي في تجربته الاصيلة الجديدة « سداسية الايام الستة » التي اراها تشكل نوعا جديدا هاما في ادبنا العربي الحديث يمزج بين القصة والرواية والحكاية والربورتاج القصصي باصالة فنية وقدرة خارقة على الوصول الى القارىء واثارة وعيه وامتاع حاسته الفنية معا .

– حتى العديد من القصص المعقدة ذات الجو الرمزي لنجيب محفوظ (مصر) في « تحت المظلة » خصوصا ، والعديد من القصص التعبيرية الاسطورية ، الغامضة احيانا ، لزيا تامر (سوريا) ، وقصص يوسف ادريس الاخيرة التي تحمل احداثها اكثر من بعد واحد ، سياسي واجتماعي وفكري ، وقصص يوسف الشاروني (مصر) الذي اعتبره الرائد المبدع للموجة الحديثة في القصة العربية ، والذي ابدع قصصا « ستينية » منذ اواخر الاربعينات – هذه القصص تجد طريقها ، الى جماهير القراء العرب برغم وربما كذلك بسبب ، تركيبها الفني المعاصر .

– واذا كانت هموم التجريب والتفتيش المحموم داخل الطرق الجديدة للاداء والتعبير الفني لم تشكل عندنا في لبنان ظاهرة ، عامة ،خصوصا في ميدان القصة،فاننا نجد بعض تجليات لها فيعدد من قصص : محمد عيتاني ، وسهيل ادريس ، وادوار البستاني ، وليلى بعلبكي ، هذه القصص التي تجد طريقها الى القراء ، بشكل او باخر، رغم الركود النسبي في ميدان القصة عندنا في لبنان ، على صعيد الانتاج والاستهلاك معا .

– واذا كانت رواية حنا مينة « الثلج ياتي من النافذة » لم تلزم نفسها بمثل هذه التجارب الستينية ، فان ما سجلته من تقدم فني

اصيل في ادوات حنا مينه التعبيرية . وما حملته من قضايا انسانية ونضالية ، سمح لها بانتشار واسع على صعيد القراء ، وبفرض نفسها فنيا وبنائيا على صعيد النقد ايضا .

هذه الاعمال الادبية ، التي ذكرناها على سبيل المثال لا الحصر ، استطاعت ان تخترق ذلك الحاجز التشكيلي بين العمل الادبي وجمهور القراء ، رغم انها تحمل بذاتها اشكالا وطرائق تعبيرية معقدة ، ويهمنا من هذا الواقع التأكيد على : ان الفنان الاصيل يستطيع ان يوازن بين المعاصرة وبين ضرورة الوصول الى الجماهير .. خصوصا اذا انطلق اصلا من موقف الايمان بضرورة هذا الايصال وضرورة ان يؤدي العمل الفني دوره في المعركة الشرسة التي تجابهنا الان جميعا على مختلف الاصعدة : الوطنية والاجتماعية والفكرية معا .

ولكن يبقى ان الطابع العام للادب العربي في السنوات العشر الاخيرة بما فيه الكثير من اعمال الادباء الذين ورد ذكرهم قبل قليل) هو طابع التعقيد .. والغموض ، والاغراق في التجريب ، والغرق احيانا كثيرة في شكلية التجريب ، وحمى التجديد من اجل التجديد ، الامر الذي اوجد ما نراه من انفصال بين هذا الادب وبين الجمهور ، هذا من حيث الاداء الفني ، اما من حيث ما تتضمنه هذه الاعمال من اجواء ومواقف ، فان الصور الكابوسية ، ونوازع اليأس والضياع ، والغربة ، والغضب المكتوم ، والشعور بالمطاردة ، والتصوير الاسود المرعب لاجواء الارهاب وشراسة الاضطهاد ، والعجز عن الخروج من دوامة الخوف والهزيمة والانسحاق وجدران السجون ـ هذا الجو « الكافكاوي » ـ اذا صح التعبير ـ هو الجو السائد الضاغط في اكثرية النتاج الادبي العربي خلال السنوات العشر الاخيرة . فهو بهذا يشكل ظاهرة عامة لا بد من محاولة التفتيش عن جوهرها واسبابها الفنية والفكرية والاجتماعية على السواء .

ـ ٥

وفي طريق الوصول الى تلمس منابع هذه الاجواء والمواقف واسبابها تجابهنا مسألة الدور الذي كان يمكن للنقد الادبي العربي ان يؤديه في هذا الميدان . ذلك ان المهمة الاساسية للنقد الادبي ، تجاه الظاهرات الادبية الجديدة ، تتعدى بكثير مسألة تحديد « الخطأ والصواب » فيهذه الظاهرات ، وتصل الى الاسهام الجدي في حركة التفاعل والتواصل الضروري بين الادب والجمهور . بمعنى ان ما يواجه النقد الادبي العربي الان هو ، الدرس الجدي لمختلف ظاهرات ادب الستينات (من شعر وقصة ورواية ومسرح وغيرها من الانواع الادبية) وتحديد الخصائص والمميزات الادائية والتعبيرية والبنائية لهذا الادب ، واستخلاص القوانين الداخلية لحركة تطور وتكون هذه القيم التشكيلية والتركيبية ، وهي غنية جدا ، رغم كل ما قلناه عن غموض وتعقد هذا الادب ، وبعده عن جماهير القراء . وبالتالي ، بسبب هذا الغموض والتعقد والبعد عن القارىء ، لا بد للنقد الادبي هنا ان يؤدي دورا مزدوجا ، اولا : تجاه المبدعين انفسهم ، من اجل فهم عملهم وتفسيره وانتقاده معا . وثانيا : تجاه القراء ايضا ، من اجل زعزعة ما عندهم من ركود التعود على ما سبق ، ومن اجل اغناء وعيهم الفني ، وبالاساس من اجل الاسهام في ايصال العمل الفني اليهم ، والتعويد على رؤية المفاتيح الجديدة للعمل الفني الجديد ، بحيث يستمتع القارىء والناقد معا ، واحيانا كثيرة الكاتب المبدع نفسه ـ بلذة الاكتشاف وريادة العوالم الجديدة . هذا كله في اطار محاولة الكشف عن واقع العلاقة الجدلية بين واقعنا العربي المأساوي ـ خصوصا واقع ما بعد الهزيمة ـ وبين الرؤية الكابوسية ، والاشكال الكابوسية ايضا ، واجواء الرعب والضياع التي رأيناها تسود اكثر النتاج الادبي العربي في السنوات الاخيرة .

وهذا في رأيي هو الدور الابداعي الذي لا بد للنقد الادبي العربي ان يؤديه ، حتى يتاح لمختلف انواع الادب العربي واشكاله ان تؤدي دورا اكثر فاعلية في معركة المصير .

والواقع ان الفكر النقدي عندنا لا يزال هزيلا جدا ، والابحاث في الفلسفة الجمالية شبه معدومة ، ويسود ، في النقد ، نوع مفرط في المديح ، ونوع من المعدن نفسه مفرط في التهجم الاعمى والتعصب القبلي ، والحديث عن شخص الكاتب باكثر من الحديث عن العمل الادبي نفسه .

ـ « نحن جيل بلا نقاد .. » !

انها صرخة واقعية اطلقها سليمان فياض باسم هذا الجيل الذي يشعر انه غريب ايضا حتى عن نقاد الادب .

وسبب هذه الصرخة هو واقع ان النقد الادبي العربي ، في الستينات ،متخلف جدا ، بالفعل ، عن حركة الابداع فيالفترة نفسها، بعكس ما كان عليه النقد الادبي في الخمسينات ، رغم كل ما ظهر فيما بعد من الوان جموده واخطائه ، فانه قد استطاع ان يعطي تقييما لمرحلة الخمسينات ، وان يسهم خصوصا في عملية التفاعل بين الادب والجمهور ، وان يؤدي بهذا دوراً كفاحيا شأن ادب الخمسينات نفسه.

ـ ٦

اذا كان ادب الستينات هذا (بما فيه من غموض ، وتعقيد ، واغراق بالرموز ، ويأس ، وانسحاق ، واجواء كابوسية مأساوية) يشكل ، كما قلنا ، ظاهرة عامة في اكثر بلداننا العربية ، فما هو اساس هذه الظاهرة وجوهرها ؟

لا شك ان الموجة التجديدية في الاداب والفنون ، التي تعم العالم ، والتي تختلط فيها الاصالة بالفوضى والخزعبلات ، تمارس تأثيرا كبيرا في اذهان معظم الكتاب والفنانين عندنا ، وينعكس هذا التأثير في اعمالهم الفنية ، وكثيرا ما ينجذب بعض الكتاب والشعراء الى التعامل مع تلك التجارب العالمية باكثر مما ينجذبون الى التعامل مع ضرورات واقع المجتمع ، والقارىء ، والتطور الطبيعي للحركة الادبية عندنا .

ـ ولا شك ايضا ، ان التجدد ، والتجديد بالتالي ، هو قانون عام للحياة والمجتمع والفن على السواء . وان الجديد ، يبدو دائما ، في بدايات تكونه وتجليه ، غامضا ومستهجنا ، غريبا ، وغير مألوف ، كأي مجهول لم يعرفه الناس من قبل .

ـ ولكن لا شك ، قبل هذا كله ، ان ظاهرات اللجوء الى الرمز ، والاسطورة ، واستجلاب احداث الماضي للرمز بها الى احداث الحاضر، والجو الكابوسي ، والتعقيد المقصود مع سبق الاصرار ...

هذه الظاهرات ليست مجرد تقليد الموجة الجديدة في العالم، ولا هي كذلك مجرد استجابة لقانون التجديد .. بل هي بالاساس نتيجة ضرورات واحداث موضوعية نجد تفسيرها في اوضاعنا العربية المأساوية على مدى الستينات ، وخصوصا ما تكشف للناس من اوضاع واوزار بعد هزيمة الخامس من حزيران .

وفي رأيي ، اننا اذا درسنا الانواع الادبية ، واشكال تجليها ، وما تصوره او ترمز اليه او تصدر عنه ، واذا درسنا مختلف طرق التعبير الفني لهذا الادب ، لا بد ان نجد ان ما في هذا النتاج الادبي من مأساوية ، وقسوة ، وصور ارهاب ، وكابوسية ، وضياع ، ودماء ،

وشعور بالمطاردة والهزيمة ... هي التجلي الفني القاسي لاوضاعنا العربية نفسها ، لواقع الهزيمة والارهاب والقمع وعدم الامان ، مع سلبية في الموقف تجعل الكثير من هذا النتاج الادبي اقرب ان يكون صرخة احتجاج ، وحتى دعوة انكفاء وانعزال غاضب ، من ان يكون صرخة غضب ودعوة مقاومة .

فقد شهدت سنوات الستين الكثير من التغييرات ، المصحوبة غالبا بالعنف والدم ، والتصفيات ، والتصفيات المضادة . حملت هذه التغييرات ، في البداية ، عددا من المكاسب الاجتماعية والوطنية حينا، وحملت كذلك فئات تستغل لنفسها هذه المكتسبات . وتحت شعارات الحرية والتقدم والنضال ضد الاستعمار ، كانت تجري ابشع انواع الاضطهادات والتعذيب والمطاردة والقمع الدامي ... وباسم القضاء على هذا الارهاب ، وعلى اجهزته ، كانت فئات اخرى تستولي على السلطة بقوة السلاح ، وتنفتح السجون هذه المرة ، لمن كانوا ، قبل ايام ، يمارسون الارهاب والقمع ، وتكشف السلطة الجديدة الكثير من الوان الهول والقمع والجرائم والتواطوء ايام السلطة السابقة ثم يدور الدولاب فاذا اساليب قمع جديدة ، تتكون ، والعيون اللزجة ترقب الناس من جديد ، وما ارخص التهم ، وما اسهل ان يقبض على الانسان ، فيقدم الى محكمة اصدرت حكمها عليه سلفا ، او الى الموت قبل ان يصل الى المحكمة ، او يزج في السجن رأسا دون تهمة واضحة .. وكأن ما يجري هو احداث فيلم رهيب عن روايات كافكا ، ممزوجة بروايات دراكيولا وافلام الرعب .

واكثر ما جرى من تغيرات في القمة ، كان يجري على صعيد القمة، بمعزل عن الجماهير ، وعلى حساب الجماهير ، وامنها ، وتحت الشعارات التي سبق للجماهير ان رفعتها .. وبدا كانما هذه الاحداث الغت دور الجماهير بمنعها ومنع ممثليها السياسيين من الاسهام في التغييرات الاجتماعية ، وفي التعبئة الحقيقية فعلا للقوى ضد الاستعمار والصهيونية وضد التخلف الذي يعمي العيون والعقول .

ونحن لا نبالغ اذا قلنا ان شعورا بالاستلاب ، وفقدان الدور ، واليأس ، سيطر على قطاعات واسعة من الجماهير العربية سواء قبل الهزيمة وبعدها .. وان هذا الشعور وجد تجليه الاعنف ، والاكثر قتامة وايلاما ، عند الكثيرين من الكتاب العرب ، وعند الشباب بشكل خاص : (لا دور لنا . الاحداث تجري بدون اسهامنا بها ، وبمعزل عنا واحيانا ضدنا .. كذلك فان ما ننتجه من ادب ، لا دور له ، فلنخلق لانفسنا عالمنا الخاص ، نفزع اليه ، نبنيه كما نريد ، خلافا لكل ما سبق ، نبنيه بشكل فانتازي ، ونحيطه بأسوار من التعقيد والغرابة والرموز ، ونصرخ فيه كما يحلو لنا ونصعد فيه آهاتنا وزفراتنا ، ونعبر عن حزننا العميق كما نحب وكما نريد .. بعيدا عن الجماهير .. فهذا كله لا يفيد ..)

وظن الكثيرون منهم ان تعبيرهم عن الاستلاب والغربة ، في عالم فني غريب ، يمكن ان يكرس عزلتهم عن محيطهم ، وعن الاحداث ، وعن العيون اللزجة التي تراقب الناس والكلمات .

على ان الفنان الاصيل لا يملك ان ينعزل عن النبع ، ولا يملك الا ان يكون صادقا والا ان يتنشق المحيط بكل ما فيه من هواء وعبير وسموم .. فاذا كل اوضاعنا العربية ، كل العنف والدم والهزيمة والمطاردة والغضب المكبوت ، تقتحم العالم السحري الذي بناه الكتاب لينعزلوا فيه .. بل اننا نكتشف الان ان مختلف عناصر هذا العالم السحري هي نفسها التجلي الفني لهذا الواقع نفسه . واذا معظم ما انتجه الادباء الاصيلون العرب ، في هذه الفترة ، ومهما بدت غرابة اشكاله غير مألوفة ، انما هو ادانة لما جرى ويجري ، وهو صرخة احتجاج :

ـ « تحت المظلة » لوحة نجيب محفوظ السريالية ، لا تدين فقط مرتكبي الجرائم والمذابح واللصوصية وتفتح العيون على لا معقولية ما حدث ويحدث ، بل تدين كذلك اولئك الذين يتفرجون على الجريمة وهي تحدث ، ملتجئين الى المظلة ، علها تحميهم ، ومندهشين مما يجري لا يعرفون هل هم في حلم ام في يقظة غير معقولة ؟ وتنذرهم بان العنف واصل اليهم حتما ، فلا تحميهم المظلة ولا نزعة التفرج على المأساة ، وطلب السلامة والامان .

ـ ويقول آمر السجن ، في قصة جمال الغيطاني ، بعنوان « هداية اهل الورى لبعض مما جرى في المقشرة . » واصفا السجن الذي تحت امرته ، والذي اطلق عليه الناس اسم « المقشرة » ـ يقول: « والعامة والسوقة والمشايخ وجميع اهل مصر يقولون انه من ابشع السجون واشدها هولا . يقاسي المسجونون فيه من الغم والكرب ما لا يوصف ، والذين يقولون عنه هذا لم يروه من الداخل ، فكيف بهم اذا دخلوه ، ولو مر الرجال والنساء من جواره لقالوا سرا او علانية ، وهم من بنائه يتعدون : اللهم عافنا شره وبلاءه ، واسمعهم يقولون هذا فاسخر منهم . لا يستبعد واحد منكم نفسه عن المقشرة . ربما اليوم وسط عيالك والى جوار امراتك ، وفي الصباح في اسفل طباق بالمقشرة » ... ويصف آمر السجن ، بسادية مخلوق يجد لذته في تعذيب الاخرين وشي لحومهم ، يصف مختلف ضروب التعذيب وفنونه ، التي يتعرض لها ناس سيقوا الى السجن جملة أو فرادى ، ولا ذنب لهم في الواقع ، اما عند السجان فذنبهم الكبير انهم ادخلوا الى السجن ، وهذا يكفي .. ويقول جمال الغيطاني ، عام ١٩٦٩ ، ان هذا كان يجري في مصر ايام حكم المماليك .. ولا شأن لكاتب القصة اذا كانت تنكشف وقائع تعذيب اكثر قسوة وشراسة داخل السجون او اقبية التحقيق ، بعد حكم المماليك ...

ـ وربما في الفترة نفسها (١٩٦٩) جاء في قصة « الذي احرق السفن » من مجموعة « الرعد » لزكريا تامر ، هذا المقطع تحت عنوان « الاستجواب » : « في اليوم الاول خلق الجوع ، في اليوم الثاني خلقت الموسيقى . في اليوم الثالث خلقت الكتب والقطط ، في اليوم الرابع خلقت السجائر . في اليوم الخامس خلقت المقاهي . في اليوم السادس خلق الغضب . في اليوم السابع خلقت العصافير واعشاشها المخباة في الاشجار . وفي اليوم الثامن خلق المحققون، فانحدروا توا الى المدن ، وبرفقتهم رجال الشرطة والسجون والقيود الحديدية » .. وفي المجموعة نفسها ، في الفترة نفسها ، ظهر ايضا ان زكريا تامر خلق نموذج رجل الشرطة الذي يسحق امن الناس ويطاردهم باستمرار ويقبض على الجائع لانه كان يتثاءب .. وخلق نماذج القضاة الذين يحكمون دائما باعدام الماثلين امامهم في القفص .. حتى على طارق بن زياد لانه احرق السفن في معركة انتصاره بالاندلس، فبدد بهذا اموال الدولة .. ثم خلق نموذج ذلك المواطن المثالي الذي يكتب الى السيد مدير الشرطة يقول « خضوعا لاوامركم ، ارجو السماح لي ان اموت » ..

ـ وبعد عام ، يمد محمد الماغوط يده الى التاريخ العربي القديم، فيتناول البطل الفاتح صقر قريش ، ويأتي به الى عصرنا ، ليشهد حالنا ، فيرى صقر قريش كيف ان اسرائيل هزمت احفاده العرب ، فيصيبه العجب مما يرى ، ولا يصدق ما يسمع ، ويصرخ متسائلا عن اسباب التخاذل ، والهرب من الحرب ، فيقول له « المهرج » (وهذا هو عنوان مسرحية الماغوط) : انه الارهاب . ولكنه ارهاب حديث ، معاصر ، لم يشهده تاريخ العرب . ويعرض امامه ضربا من ضروب التعذيب الحديث مما يجعل اشد ابطال العرب في تلك الفترة ، ينهار ، ويعترف بكل الذنوب التي لم يرتكبها .

ــ وفي عام ١٩٦٩ ايضا ، يكتب عبد الستار ناصر في العراق ، قصة «رجل اسمه شريف نادر »).. « هنا ايضا تنفتح القصة على مطاردة يواجهها البطل من قبل رجل مجهول ، غريب الاطوار ، اسمه (شريف نادر) . ويعيش البطل في جو من الحصار والرعب والاستجواب ، يشبه الجو الذي عاشه (ستيفن ك) بطل كافكا في (القضية) حيث نرى البطل ، رغما عنه ، يساق الى محاكمة يجهل سببها ودوافعها . والقصة ايضا تذكرنا الى حد ما باقصوصة (مشوار قصير) للقاص المصري محمد البساطي من مجموعته (الكبار والصغار) حيث يساق البطل (الاستاذ سلاموني) الى مقابلة رجل لا يعرف اسمه ، وهو ايضا نفس المناخ الذي يتنفس فيه ابطال جليل القيسي في معظم اقاصيص مجموعته (صهيل المارة حول العالم) ــ ونضيف انه ايضا جو المطاردة والرعب نفسه الذي يلاحق (محروس فياض سلامة) في قصة جمال الغيطاني (ايام الرعب) من مجموعته (اوراق شاب عاش منذ الف عام) ــ ونجد بطل عبد الستار ناصر في قصته هذه يتمزق بين الخوف من مواجهة الرجل المجهول ، والرغبة في الهرب منه ، وبين الانسياق المرعوب نحو مواجهته خوفا من غضبه وبطشه . ويجد البطل نفسه يغرق في الخمر لكي ينسى هذا الواقع، الا ان ذلك لا يكون مجديا . اذ تبدو له كل الوجوه البشرية مثل وجه شريف نادر تطارده وتستجوبه ، بل بدا له وجه الحارس هو وجه شريف نادر نفسه ، واحسس بانه يتعرض لاستجواب مماثل في كل خطوة يخطوها ، فاكتسب احساسا عميقا باستحالة خلاصة من المطاردة الدائمة ، وهو ــ خلال حالة الرعب هذه ــ يحاول الهرب من ذلك الرجل المجهول » (١)

... هذه النماذج من الوان القصة العربية الحديثة ، تجلت فيها ، كما راينا ، جوانب من واقع الجو الكابوسي الضاغط الذي ساد هنا وهناك طوال الستينات ، قبل الهزيمة خصوصا ، وبعدها كذلك . وللتعبير عن موقف القصاصين من هذا كله ، داخل اطار هذا الجو الضاغط نفسه ــ توسلوا مختلف الاساليب التي تطبع القصة بالطابع الاسطوري الفانتازي ، الرمزي ، الذي يشير ولا يفصح ، كما استجلبوا احداث التاريخ واسقطوها على الحاضر ، في نسيج فني مبدع يقول كل شيء ، كما لو انه لا يقول شيئا على الاطلاق .

على ان هذا النزوع الى الرمز ، والفانتازي ، والغموض ، ادى بكثير من هذه التجارب القصصية ان تكون شبه مغلقة ، وبعيدة جدا عن مدى قدرة الاستيعاب عند القراء، فحد بالتالي من قدرتها علىالايصال، وهو الامر الضروري اذا اردنا للادب الحديث ان يؤدي دوره في معركة المصير .

والامر الاساسي ، الذي نعلق عليه اهمية حاسمة في تادية الادباء ــ وبالتالي اساليبهم الفنية ــ الدور المطلوب في معركة المصير ، هو ــ الى جانب كل قدراتهم الابداعية ، وفي الاساس ــ موقف هؤلاء الادباء من الاحداث ، ومن معركة المصير .

ــ ٧

فما هو هذا الموقف ؟

يبدو ، من خلال الكثرة اقاصيص هذه الموجة الجديدة ، الطابع الاحتجاجي الغاضب ، لهذا الادب . وانه ، من خلال كابوسية الاشكال والاجواء والتراكيب ، يدين كابوسية الجو الضاغط في الواقع على الناس . وبتعبيره عن مأساوية الشعور بالاستلاب والغربة يدين كذلك واقع الاستلاب والغربة . على ان صرخة الاحتجاج التي يطلقها القصاص الحديث هنا ، مصحوبة باليأس من التغيير ، انه يصرخ ، ويحاول ان يقنع نفسه ، ويقنعنا انه يصرخ في واد ، فلا من يسمع ولا من يجيب . والدوامة ستبقى هكذا تراوح في مكانها .. ان وعي القصاص الحديث بالغربة ــ كما جاء في دراسة غارودي عن كافكا ــ « مصحوب بجهل اسبابها ووسائل التغلب عليها » ... ووعي كتابنا الشباب بالمأساة وواقع الارهاب والمطاردة ، مصحوب بالتسليم بان هذا الواقع ثابت ولا يتغير .. « نحن نرفض الشراسة والقسوة والقتل في هذه الاوضاع كلها » ..هكذا يصرخ ادب الستينات في معظمه .. و « لكن لا سبيل الى تغييرها » .. وهذا ما تظهره النغمة اليائسة في هذا الادب .

نحن لا نطالب هؤلاء الادباء بان يرسموا لنا طريق الحل .. فالادب يوحي ولا يخطط .. ولكننا لا نسكت عن ايحائهم بان الطريق مسدود .. فلا خلاص ... وفي الوقت نفسه نقول انه ليس على النقد الثوري ان يحكم بالسلبية المطلقة لهذا الادب ... وليس باستطاعته ذلك على كل حال . فان هذا الادب يبقى شاهد عصره ، واذا هو لم يكن ثوريا ــ كما يقول غارودي ايضا عن ادب كافكا ــ فهو يفتح العيون .. وفتح العيون على الارهاب والجريمة ، ليس شانا بسيطا على طريق الوعي بمعركة المصير .

ــ ٨

ان الوعي بجوهر معركة المصير ، والوعي الضروري كذلك بحركة المجتمع وعلاقاته ،صارمنالبدهيات التي تجابه الكاتب ــ اي كاتب ــ في عصرنا .

ففي عصر الاشتراكية هذا ، والفكر الاشتراكي الحي المتطور ، لم يعد العمل الادبي مجرد ميل رومنتيكي ، او حركة ابداع تحكمها العفوية الخالصة . لقد دخل الفكر في صميم النسيج الداخلي للعمل الادبي الطامح ان يكون بالفعل نتاج هذا العصر وشاهد مستواه . وصرنا نشهد في الشعر وفي القصة والروايه والمسرح ــ على صعيد العالم ــ تلك الاعمال التي تتميز بما تحملهمن (فكرفني) ،حيث يسري الموقف الفكري الفلسفي والبشري للكاتب في عملية تحول فني ينهض شاهدا ابداعيا ليس فقط على موهبة الكاتب واصالته ، بل على موقفه الفلسفي الفكري السياسي كذلك . وقد بدأ بعض الشعر العربي الحديث ، خصوصا ، وبعض الاعمال المسرحية ، تحمل هذا الطابع ، وهذا النوع من الفكر الفني الصادر عن روح عصرنا ، عن طبيعة هذا العصر وعن ضروراته كذلك . وبالطبع فان هذه القيمة الفكرية للعمل الادبيليست هي المقياسالوحيد لاصالته ولقيمتهالفنية. وكثيرا ما تتجلى في العمل الفني الاصيل قيم فكرية وفلسفية لم تكن واضحة اصلا امام وعي الفنان نفسه ، وقد تبدو وكانها لا تتعلقبقناعاته الفكرية والفلسفية على صعيد الوعي ــ بل قد تبدو كذلك وكانها ضد هذه القناعات . ولكن « اليس من الافضل ــ في عصر الاشتراكية هذا الذي نعيشه ونصنعه ــ ان يكون الوعي الفلسفي والسياسي عند الكاتب في مستوى موهبته » على حد قول غارودي ؟ .. أوليس من الافضل كذلك ، في مجابهتنا لمعركة مصيرنا ، ان ينتقل مجموع ادب الشباب من افق الفرد ، او الافراد ، الى افق الجميع ، لا كموقف فقط ومضمون ، بل كرغبة في الايصال ايضا ، وخصوصا ؟

في ادب الخمسينات ، اخذت تظهر تجليات فنية لهذا الموقف الفكري (السياسي ــ الطبقي) .. ولعل ما في ادب الخمسينات من ايجابية الموقف ، نابع من واقع النهوض الشعبي الوطني العام ضد الاستعمار والرجعية ، والانتصارات التي شهدتها تلك المرحلة ، والمجابهة المباشرة ضد الحكم الرجعي في بعض البلدان العربية (في

(١) هذا المقطع كله عن قصة عبد الستار ناصر مأخوذ من دراسة كتبها فاضل تامر بعنوان « علامات في طريق تطور القصة العراقية . ونشرها كمقدمة لمجموعة بعنوان « قصص عراقية معاصرة » صادرة عن « مكتبة بغداد » ودار « الطريق الجديد » ــ بغداد ١٩٧١ ص ٣٥

العراق ضد حكم نوري السعيد مثلا) ، والمجابهة الجسورة ضد الاستعمار ومصالحه في بلدان عربية اخرى (مصر : حركة يوليو ، وتحقيق الجلاء ، وتأميم القناة ، وحرب السويس ، والانتصار) ووضوح اتجاه الضربة ، ووافع وجود الجماهير ومنظماتها في قلب الاحداث .

كان ادب معركة واضحة المعالم

ولعل هذا يسمح لنا بالاستنتاج ان ما في ادب الستينات من سلبية في الموقف وكابوسية في الجو والتركيب ، نابع من واقع الانتكاسات والهزيمة ، وسنوات القمع والارهاب في ظل انظمة تمثل ، في خطها العام ، موقفا معاديا للاستعمار وللتخلف وللاقطاع وللرأسمالية الكبيرة .. وهذا ما كان يسبب تمزقات داخلية في اعماق الكتاب ، خصوصا الشباب منهم ، تؤدي بهم الى هذه السلبية : التنصل من المسؤولية ، الاكتفاء بالاحتجاج الغامض والصراخ المكظوم ، والشعور الحاد بالغربة ، والاحساس العميق بالانتساب الى عالم متخلف دون رؤية واضحة لامكانية الصعود من ظلمات هذا التخلف ، بل الغرق في رؤيا كابوسية مغلقة على المستقبل ، ولا تسمح برؤية امكانية الانتصار من جديد .

فاذا كان ادب الخمسينات ، في غمرة المعركة والصعود وتسجيل الانتصارات ، لم يتعمق جيدا واقع التخلف الروحي والثقافي والاجتماعي للجماهير في حقيقته المريعة ، فبالغ بتضخيم ما رآه من انوار النصر واندفاع الحركة التاريخية الى الامام ، وطلع علينا بادب كفاحي مفرط في تفاؤله ... فان ادب الستينات يكاد لا يرى سوى هذا التخلف الروحي والثقافي ، وظاهرات القمع والارهاب ، ويكاد لا يرى في حركة التاريخ سوى دوران غبي في المكان ذاته ، لا حركة صاعدة من واقع الهزيمة واليأس الى واقع الانتصار .

ان هذا يذكرنا بالنتاج الفني الادبي الاسود لما بعد فشل ثورة ١٩٠٥ في روسيا ، حيث مزق اليأس ارواح الكتاب والفنانين وكثير من المناضلين الثوريين . وظل لينين ، بفكرة الثاقب المتأجج ، يرى عمق الحركة الصاعدة للتاريخ ، ويسهم مع رفاقه في دفع هذه الحركة الى الامام ، واستطاع غوركي ، في تلك الفترة السوداء ، بروايته « الام » ان يغوص الى حقول اللآلىء في اعماق بحر الظلمات والشعب . وجاء الانتصار الذي عمل له لينين ، وبشر به غوركي .

ان الخطأ يكمن في احادية الرؤية ...

ومن الطبيعي ان تتزايد فاعلية اي نوع ادبي ، بقدر ما يصدر عن شمول في الرؤية ، مما يتيح للكاتب ان يرى واقع التخلف والقمع والهزيمة ، ويعيها ، ويعي اسبابها ، ويعي خصوصا انها ليست خالدة . « وان الوضع طالما انه قد وصل الى هذا الحد ، فهو لن يبقى عند هذا الحد » حسب تعبير بريشت .

— ٩ —

والادب كذلك ، لن يبقى عند حد معين .

وسنوات الستين قد انطوت .. ودخلنا في السبعينات . وفي ادب الشباب نفسه تطل اضواء تحمل ظاهرات اخرى .. فالمأساة ، عندما تصل الى حد الايلام الاقصى ، تخلق التمرد عليها . وحركة تطور الادب تأبى الجمود حتى في الاطار الفانتازي الرمزي المتعدد الالوان ، هذا الاطار الذي يتحول هو نفسه الى حاجز لا بد من كسره .

على انني اتطلع الى تباشير مرحلة تركيبية جديدة ، نابعة من ضرورات حركة الحياة وحركة الادب ، وضرورات معركة المصير بالدرجة الاولى . وما بدأ يظهر من نتاج ، لا يزال محدودا ومعدودا ، يبدو انه يحمل مكاسب ادب الخمسينات ، في الفن وفي الموقف ، ومكاسب ادب الستينات في غناه التعبيري ، وبنائيه المعاصرة ، وونيرته ، على وضوح في الرؤية لا بد ان يتجلى في نتاج عميق اصيل . يملك امكانية الوصول ، اوسع واعمق ، الى جماهير القراء بقدر ما يكون بعيدا عن النزوات الطفولية باختراع الالغاز ، والاحاجي .

ان تحرر الكاتب من غربته ، ومن السيف المسلط ، ومن الواقع الكابوسي ، لا يمكن الوصول اليه الا بمقاومة الكاتب لاسباب هذه الغربة ، وللسيف المسلط ، ولصانعي الكوابيس ، وذلك بالابداع الادبي نفسه ، وبالعمل ، وبالارتباط ، اساسا ، بحركة الجماهير .

فالادب الذي يملك امكانية الوصول الى وعي الجماهير ، والتأثير الفاعل داخل هذا الوعي ، هو بالضبط الادب الذي يغرف اللآلىء من بحر هذه الجماهير ، ويكون صوته هو التجلي الفني لصوتها ، ولقدراتها الخارقة ، الفاعلة ، والفائقة الغنى .

بيروت — محمد دكروب

في حرية التعبير الفني

بقلم خلدون الشمعة

اذا كان للفن مدينته العالية المتالقة والمشرعة الابواب دائما ، كما يحب ان يتخيل ناقد معاصر (١) فان المرء ليتشوف الى استكشاف مدينة الادب العربي الحديث ، التي لا تحاصرها الاسوار المغلقة ، ولا يبهظ روحها الفني عسف المعايير التاريخية والسياسية والسيكولوجية ، ولا تمنح نفسها الا لمفاتيح الموهبة ، والخلق ، والابداع .

وقد يلوح ان رفع العقيرة بهذه الامنية ، في هذه الفترة الضائعة ، الحائرة ، البائرة ، والقاصرة الادوات عن التطلعات ، من حياتنا الثقافية المعاصرة ، ضرب من التحلل من مسؤولية المفاضلة بين جملة من الاولويات الملحة ، قد يحتاج الى تبرير . غير ان مسالة حرية التعبير الفني ، لا تحتمل هذا القدر من التبسيط . فالتواشج بين الشرط الانساني ، وبين الشرط الفني ، في عملية الخلق الابداعي ، وثيق حتى ليكاد يستعصي عن الفصم . وبالتالي فان التصميم الذي سالجأ اليه في هذا البحث لن يكون جزافيا ، وانما سيحدد مرتسمه وفق عملية تشبه التحديق في سجادة : « ان تتبع لون واحد يقترح تصميما معيناً ، وتتبع لون اخر ، يكشف عن تصميم اخر » (٢) .

ان الحرية لا تتحقق الا من قيد . وقد اصبح من المالوف ان طرح القضايا التي تتصل بحرية التعبير الفني في ثقافتنا العربية المعاصرة، من خلال آفاق الثقافة الغربية ، وما تثيره من مفاهيم غامضة ما تزال تدور في مدار مغلق ، كفكرة الالزام والالتزام والانخراط ، ومفهوم الطليعة الادبية ، والفن للفن ، والاصالة والمعاصرة والحداثة والمعاصرة . وتبدو هذه الافكار ، للوهلة الاولى ، اشبه بالكوابح النقدية التي يراد لها ان تقوم بمهمة نزع اضراس غول خرافي لما يخلق بعد . (فكل ادب قمين بان يخلق مشكلاته الاشد الحاحا) . غير ان الازمة الحقيقية تكمن في ان ثقافتنا العربية المعاصرة ، التي هي حصيلة المجابهة ، والصدام ، والتفاعل ، والتمازج مع الغرب ، قد نهضت على التباس مفاده اننا كنا في بحثنا المرهق عن الحجر الفلسفي ، منهمكين في عملية تجريد مستمرة لهوية الحضارة الوافدة .

وقد لاحظ (جاك بيرك) ذلك عندما اشار الى حقيقة ان العرب المعاصرين قد آثروا استخدام كلمة « العصرية » بدلا من « الغربية » في وصفهم لما اقتبسوه عن الغرب . وقد يكون في الصورة شيء من المبالغة . الا ان الصورة نفسها انما تهتك الستار ، من جهة أخرى ، عن مقاومة مضمرة للغزو الثقافي الخارجي ، وهي المقاومة التي كان من أبلغ مفارقاتها اننا فتحنا الذراعين امام الثقافة العالمية الوافدة وتطبيقاتها التقنية ، بينما كنا نتشبث احيانا بمفهوم ضرير عن الاصالة ، ينظر الى التراث على انه مجرد ميراث عقلي ملزم ، وليس على انه التزام حضاري مبرر ، ويسكنه فيه وحدة ثقافية متكاملة ومتجانسة يمكن عن طريق الارتداد الى نطاق جاذبيتها التسامي على حقائق التغيير في مظاهر حياتنا الاخرى .

غير ان هذه المفارقة لم تلبث ان اتجهت نحو الضمور . ففي التبدل الهائل في الاساليب والاشكال والتقنيات ، الذي طرأ على الادب المعاصر ، وظهور النزعات الشكلية متمثلة في شعر الصوريين والتعبيريين والرواية المضادة والنقد الجديد ، كان لا بد من تجريد التيارات الادبية من حواضنها التاريخية ، والتركيز على حقيقة كونها معبرة عن خصائص تقنية واضحة المعالم أكثر منها معبرة عن فترة تاريخية ومجتمع معين . وبعبارة اخرى فان هذا يشير الى ان الدراسة « الكرونولوجية » لشكل او تيار ادبي ، هي اقرب الى المؤرخ التاريخي او الباحث الاجتماعي ، منها الى الناقد او الباحث الادبي . وهكذا فبدلا من دراسة الادب : « كتعبير يتبدل مع تبدل الفترة التاريخية ، لماذا لا نسعى الى فهم الامزجة الفنية المنفصلة التي حفزت على حدوث هذه التغييرات ؟.. فمن المؤكد ان المزاج الرومانتيكي مختلف عن الطبيعي ، والمزاج الذي يجعل الكاتب كلاسيكيا بعيد جدا عن ذاك الذي يكون الانطباعي او التعبيري . كما ان المزاج الرومانتيكي هو نفسه سواء نحن تقصيناه في شعر (او فيد) في القرن الاول قبل الميلاد او في شعر (كيتس) في القرن التاسع عشر او في قصة لبوكاتشيو او اخرى لستيفنسون » (٣) .

---

(١) Sight & Insight لالكسندر اليوت .

(٢) توماس هاردي .. اقتطفه ماريو براز في Romantic Agony مقدمة الطبعة الاولى .

(٣) انظر :
Writers of the western world by Franz & Hibbard
مقدمة الطبعة الاولى .. ويرى المؤلفان صلاحية هذا المنهج النقدي للتطبيق على مختلف آداب العالم بما في ذلك الآداب الشرقية .

« ان الدوافع البدائية تقودنا الى الرومانتيكية ، واحساسنا بالحقيقة يقودنا الى الواقعية ، واحساسنا الاجتماعي يؤدي بنا الى الكلاسيكية ، أي الفن الذي يمتثل فيه الناس للقانون والتقاليد » (٤)

وهكذا ابيح للكاتب العربي المعاصر أن يجد نفسه في وضع لا يضطر معه الى الشعور بالاستخذاء امام التقنيات الوافدة ، باعتبار انها تميز عصرنا الذي نحاول الالتزام به والعيش فيه وربما الاسهام في بلورته وتغييره .

اما (الاصالة) فان معناها يقترب هنا من (الصدق الفني) . فالمسألة في الفن - يقول نجيب محفوظ : « ليست مسالة جديد او قديم بل هي الوظيفة التي يؤديها في تعميق الحياة واثرائها بالتجربة وما يؤديه هذا الثراء في الفهم والتجارب ، من تطور في الحياة البشرية بوجه عام » (٥) .

ولعل في وعي هذه الحقيقة بالذات ، يكمن شيء من تبرير الخصائص التي يتميز بها المشهد الادبي العربي . ان عملية مسح لهذا المشهد الادبي المعاصر ، لا بد ان نبسط امامنا ظاهرة تلح على ان بعض الخصائص التي اكتشفت ، انما تنتمي الى اصل جيولوجي مشترك ، على الرغم من الصعوبة الماثلة في اية محاولة تستهدف تحديد نسبنها الى فترة من الفترات . فالفوضاء البلاغية ، والاختناق الشكلي ، كثيرا ما يعبران بالنسبة للكاتب العربي المعاصر عن الفوضى الروحية ، مقابل ما تعبران (بالنسبة للكاتب الغربي المعاصر) عن الخواء الروحي .

وفي الوقت الذي تكتسب فيه مغامرة الشكل ، لدى الكاتب الغربي المعاصر ، معنى الصبوة لاكتشاف الذات ، يحذر شاعر عربي معاصر هو « ادونيس » انه :

« لم يبق من تراثنا الشعري غير الشعر .. (وان) هذا ينبهنا اعتمادا على تراثنا نفسه ، الى ان الاهمية الاولى في الشعر ، ليست في مراعاة الاصول النظمية وانما هي في الاستسلام لجموع الموهبة وهواها ، وترك التجربة تاخذ الشكل الذي يلائمها بعفوية ودون قيد مسبق من اي نوع كان . الشعر طاقة متحركة لا تحد بأي شكل نهائي، فبالاحرى ألا تحد بأي وزن معروض .. » (٦) .

وهذا الاستكشاف الجديد للشعر العربي ، هذا الاستبصار المتميز لمعنى حرية التعبير كما ترسمها الحساسية الجمالية لدى الشاعر الجاهلي ، باعتباره القصيدة مغامرة في الشكل وفي اللغة معا ، يذكرنا في سيرتنا لعلاقة الشكل الفني بامزاج النفسي ، بالصورة التي رسمها (كانط) للعربي في كتابه « ملاحظات حول الشعور بالجمال والروعة » حيث يقول :

« للعربي شعور كثيرا ما يهبط الى مستوى المغامرة (....) ان مخيلته الملتهبة تقدم الاشياء له في صورة مضطربة وغير طبيعية . وحتى انتشار ديانته كان مغامرة عظمى » (٧) .

بيد ان هذا الجموح في المخيلة ، او الميل الى المغامرة في الشرط الفني ، وضع ويضع الكاتب العربي المعاصر امام مشكلة اختيار مشحونة بقدر عظيم من المراوغة . انه يحاول استتباع نقطة الصفر في مغامرته الفنية . وهو يشبه في ذلك الشاعر الايرلندي « ييتس » عندما قال :

« الآن وقد فقدت سلمي ، فان عليّ ان استلقي حيث تبدأ جميع السلالم » . وكان في ذلك يعبر عن الفنان الملعون الذي افاق ذات صباح ، ليكتشف كرجل معاصر بالكوابيس ، انه قد نسي كل قدرة لديه على استحضار خبراته الحياتية والبديعية ، فاخذ يترنح بجناحين محطمين ، محاولا الطيران دون جدوى . لقد فقد سلمه الفني الذي يمثل ذاكرته الحضارية والجمعية والشخصية ، واصبح لزاما عليه ان يضطجع في ظلام مرهف كحد الموسى ، باحثا عن سلم جديد بين مئات السلالم الفنية ، القصيرة القامات والتي يخفق كل منها في ايصاله الى القامة العملاقة للادب المعاصر .

ان السؤال الوحيد تقريبا ، والذي يطرح اليوم على مسرح الرواية العربية الشابة ، سؤال يتصل بالمنطلق قبل كل شيء :

- هل نبدأ من اسفل السلم بعد ان فقدنا ذاكرتنا الحضارية والبديعية ، ام نكتفي بتقديم الواقع كما اتفق .. وبآلة موسيقية واحدة ، ام نقف في اعلى السلم الفني دون المرور بمراحل التطور المختلفة ؟

ولكن في طرح السؤال على هذا النحو مغالطة جسيمة دون ريب . فمعنى التطور في الفنون ما يزال قيد الدفع والجذب .. ولم تفلح المحاولات بعد في بلورة قانون يومىء الى اتجاه متواصل او عملية معينة (٨) ترسم خطا تطوريا للتاريخ الفني لكل ثقافة على حدة . وهكذا فثمة خطر ظهور سوء تفاهم مفاده ان التقدم المتراكم في الفن : « انما يقتصر في معناه على ان كل فنان يمكنه الاستفادة من اكتشافات سابقيه دون ان يكونمضطرا لانجازها مرة اخرى » (٩) .

اذن فحرية التعبير الفني بمعناها البديعي ، ما تزال تجد حلها الجزافي في المنطلق الثقافي للكاتب العربي . وبالتالي فان الانفصام بين الحقيقة الذاتية والحقيقة الموضوعية ، بين الحقيقة السيكولوجية والحقيقة الاجتماعية ، يتوطد هنا الى الحد الذي يجعل من الالتزام الزاما ، عملية اقحام من الخارج ، وليس رؤيا ذاتية باهرة تصلح ان تغدو بدورها رؤيا شاملة للمجتمع باسره .

ولكن الادب الذي يحد على نحو مصطنع من امداد ارتباطه الانساني ، لا بد على حد تعبير الناقد الانكليزي رايموند ويليامز (١٠) من ان يؤدي في بحثه عن الافراد ، الى الاعتراض على الافراد (ويسمى هذا الاعتراض اعتراضا على السوسيولوجيا او السياسة) .

وتبقى صورة المصالحة بين الحقيقة الذاتية ، والحقيقة الموضوعية ، هي في البحث عن معنى اخر للالتزام ، مغاير لذلك الذي شاع في اوروبا واميركا خلال فترة الثلاثينات ، ونهض على قاعدة من التصلب الدغمائي . السياسي الذي يصلح لان يكون القطب المعاكس لفكرة الفن للفن .

ان فكرة الفن للفن شكل من اشكال نزعة المغالاة في الاستطيقية ، هذه النزعة التي تبدو بالنسبة لعلم الجمال اشبه بما تبدو عليه الايديولوجيا الدوغمائية بالنسبة للفلسفة السياسية : اسوأ صورها الكاريكاتورية .

وعلى ذلك فالكاتب العربي المعاصر ، الذي ما يزال في طور التشكل الفني قمين بان يقصر آفاق التزامه على استفوار طريقةمعينةفي النظر الى العالم . وقد قال الناقد (تشارلز موراس) متسائلا :

« ما الذي يستمتع به العقل من قراءة الكتب ؟.. انه الاسلوب او لا شيء .

قد يقول احدهم : وماذا عن الفكر ؟.. الفكر هو الاسلوب ايضا » .

وربما رأينا في تعريف (ابن خلدون) للاسلوب (١١) بانه :

---

(٤) Litterature & Psychology F. L. Lucas ص (١٠٠) .

(٥) اتجاهي الجديد ومستقبل الرواية الكاتب (فبراير - ١٩٦٤) ص ١٨ .

(٦) ديوان الشعر العربي (الكتاب الاول) ص ١٠ .

(٧) الترجمة الانكليزية John T. Goldthwait ص ١٠٩ .

(٨) انظر Evolution in the Arts لتوماس مونرو (المقدمة)

(٩) Act of Creation لآرثر كوستلر ص ٣٩٧ .

(١٠) من محاضرة بعنوان Commitment القيت في مهرجان الرواية في ادنبره (١٩٦٢) ونشرت في وثائق المهرجان ص ٤١ .

(١١) المقدمة ، ص ٥٢٣ .

« المنوال الذي ينسج فيه التراكيب او القالب الذي تفرغ فيه » نزعة شكلية تماثل تعريف الجرجاني له بانه « الضرب من النظم والطريقة فيه » (١٢) .

غير ان المهم هو الالحاح على الفكرة القائلة ان الاسلوب نفسه نشاط عقلي يومىء الى حد من النزوع نحو تحقيق شكل من اشكال الحرية التعبيرية . ولقد الح « بنفيلد » الى انه في حال اصابة شخص ما بحادث يفقد من جرائه ذراعه اليمنى ، فانه قد يتعلم الكتابة باليسرى ، ويعود شكل توقيعه الى حالته الاولى ، اي الى الشكل نفسه الذي كان يوقع به بواسطة يده اليمنى ، بحيث انكاتبا في المصرف لن يكتشف حدوث اي تبديل . ويخلص بنفيلد من ذلك الى القول :

« ان شكل التوقيع وطريقة الكتابة كامنان في الدماغ وليس في اليد التي تكتب .. وهذا ينطبق حتى على اسلوب الكتابة . اذ يمكن تمييز همنغواي وبروست بعد قراءة عدة اسطر منهما .. » (١٣) .

ان هذا يعود بنا القهقرى الى الفكرة القائلة ان الاسلوب يصبح في الفترات الانتقالية وسيلة لاكتشاف الذات . ويجب الا تغزعنا هذه الكلمة ما دامت مشروطة بشرطها الفني الذي يجمع بين رقابة الناقد ، وحساسية القارىء ، وماضي الكاتب وقيم العصر ، غير ان الخطر يكمن في ان يكتسب الالتزام معنى سياسيا صارما يدفع بالحساسية الجمالية لدى الكاتب العربي الى درجة من التوتر المشحون ، تتفاقم طردا مع ازدياد حدة القهر الاجتماعي والسياسي . لقد اعتاد الناقد الامبسوني (١٤) « كنيث بيرك » ان يقول ان شعار المخيلة هو :

ـ عندما تكون في روما افعل كما يفعل الاغريق (١٥) وفي هذا كان يلح على دور الفنان باعتباره مولدا للقيم على قيم الامر الواقع .

ولا ريب ان الحساسية الجمالية لدى الاديب العربي ، كانت في اعقاب نكبات العرب القومية ، تقترب بتوترها وولعها بالمغامرة والتجريب ، الى درجة اكثف من التعبير الفني الذي كثيرا ما وصل الى حد الاختناق الشكلي (المغم بالابهام وليس الغموض) ، على حد ما نلاحظ في نماذج كثيرة من القصص والقصائد التي يكتبها الادباء الشبان . والامثلة على ذلك جمة لا تحصى . وهي تكشف بما لا يقبل المحاجة عن رفض مضمر للحقيقة الواقعية ، كما تقدمها اجهزة الاتصال الجماهيري .

وقد كانت هذه الحساسية الجمالية هي التي احتفلت بالفكرة القائلة ان الادب ينطوي على حقيقة رؤوية خاصة تعبر عن تجربة مركزة على مستوى مختلف من الوعي .

وحتى في الحالات التي كان فيها الكاتب العربي يلوح منكفئا على نفسه ، فانه كان في حقيقة الامر يحاول شحذ الوسائل التي يمكنه بواسطتها ايصال الحقيقة الفنية ، دون ان يعني ذلك ، الفرار من مواجهة الحقيقة الواقعية في اشرس مظاهرها ، ويجب التاكيد هنا على ان هذا الارتداد الى الذات قد استهدف الحفاظ على القدرة على الحكم ، ولم يصل في تطرفه الى حد تتويج شعار جامح مفاده ان الادب (يعين) ولا (يشير) ... اي انه يكتفي بتعيين حقيقة من صنعه ، ولا يشير الى حقيقة موضوعية خارجة عنه .

فخصوصية العمل الادبي نابعة من كونه يصدر عن كاتب فرد وحسب.، وعموميته تتحقق في انه يتوجه الى الجمهور .

ذلكم جانب من صورة الحرية الفنية من خلال شرطها الفني المحلي . وهي صورة تفتقد الى خصيصتين جوهريتين هما : (التثبيت) و (الاستمرار) .

فالتجارب ما تزال توحي بعدم الاستقرار ما دامت لم تدخل مرحلة التثبيت والاعتراف . وفقدان نقطة انطلاق متجانسة لمغامرة الحرية الابداعية في وقت نمارس فيه وعيا مستخذيا بالحضارة ، يؤكد على عزلنا عن عملية خوض غمارها .

واذا كانت الحضارة تصبح اسيرة لانجازاتها ، والفنان يتمزق في محاولته التخلص من الاسلوب الذي تشرنق به ، فان هذه الحضارة المعاصرة التي تتاثر بها معزولة عن مهادها التاريخي والاجتماعي ، تنمي في الكاتب العربي طاقة الخبرة الناجزة على حساب طاقات الخلق الابداعي .

وهذا ما يدفع بهذا الكاتب الى ما سادعوه ب « مرحلة الطفولة المكتهلة » :

انه طفل مستحوذ تماما على المخيلة المنطلقة ، بالاضافة الى انه خبير مكتهل حذق القالب الفني الذي تعرف عليه ولم يصنعه ، استوعبه ولم يكتشفه ، زرق فيه من حيويته السائبة ولم يمارس اكتشاف حريته من خلال تجربته البديعية في تشكيله .. انه يرزح تحت وطاة « طغيان الصيغة » على الرغم من انه لم يمتلك بعد مفاتيح هذه الصيغة وطرائق السيطرة عليها .

وهكذا ينفصم معنى حرية التعبير لديه ، عن معنى الحرية الفنية من حيث هي نشاط عفوي . لقد قال « شيشرون » مرة :

« اننا عبيد القانون من اجل ان نكون احرارا » . غير انه لم يكن يومىء في عبارته الفذة هذه الى القانون الذي يصنعه الآخرون . ويخيل لي ان في طليعة العناصر الانفجارية التي تسهم في تأزيم مشكلة التعبير الفني لدينا ان القوانين التقنية التي تتميز بها الثقافة المعاصرةليست من صنعنا او حتى من صياغتنا . وهذا الوضع يذكرني بساعة الفيلسوف « كيركفارد » التي اشار اليها في مقالته « العصر الحاضر » (١٦) . ان كيركفارد يروي قصة ساعة حائط قديمة طرا عليها خلل مفاجىء لم يتسبب في عطل في نابضها او عقربيها . لا بل ان الساعة استمرت تقرع على نحو غريب .. فهي لا تقرع اثنتي عشرة مرة في الساعة الثانية عشرة ومرة واحدة في الساعة الواحدة ، وانما تقرع مرة واحدة خلال اليوم ، وفق فترات زمنية منتظمة . ولقد مضت الساعة تقرع على هذا النحو دون ان تعطي وقتا محددا .

وهذا هو حال التقنية او فن الكتابة بمعناه المعاصر . اذا كانت الساعة في قصة (كيركفارد) تمثل جهازا فقد وظيفته وان لم يفقد دلالته ، فان علاقة التجربة التعبيرية لدينا بالتقنية التي هيجماع الشكل والاسلوب ، كثيرا ما تنحدر الى مستوى العلاقة بجهاز اضاع جزءا من وظيفته بالنسبة لنا ، وان لم يفقد دلالته بعد ، والتقنية توحي بالبرودة المنطقية حتى لتكاد تبدو القطب المعاكس لعملية الالهام الفني . ولذا فان خطورتها تكمن في انها : « توحي بان كتابة الشعر مسالة حيل وصرعات » .. على حد تعبير الناقد « جيمس ريفز » (١٧) .

وهنا تبرز مجددا مسالة تاثرنا بالاشكال والاساليب الوافدة والمجردة من رحمها الثقافي وربما مهادها التاريخي . وليس من

---

(١٢) اسس النقد الادبي عند العرب ، للدكتور احمد احمد بدوي ، ص ٤٥١ .

(١٣) ارثر كوستلر Act of Creation ص ٦٤٧ .

(١٤) نسبة الى الناقد (وليم امبسون) صاحب كتاب « سبعة انماط من الغموض » .

(١٥) هذا الشعار يعكس المثل القائل : عندما تكون في روما افعل كما يفعل الرومان .

(١٦) the Present Age ترجمه الى الانكليزية Alexander Dru ص ٤٦ .

(١٧) Understanding Poetry ص ١١٩ .

الصعب ان نلتمس لذلك مثالا في قصيدة « المومس العمياء » لبدر شاكر السياب الذي كان من ابرز الشعراء العرب المعاصرين الذين استمدوا من التقنية الاليوتية .. فنحن « نحن – حتى من خلال التجربة – بجفاف الشاعر وشدة بروز الصور وتجسدها ، مما يعطي للتجربة اهمية ثانوية . ونلاحظ ايضا منتهى الحاح الشاعر على الموضوع الى درجة ان الانفعالات تتحول الى منطق ذهني » (١٨) .

وقبل سنوات ادلى نجيب محفوظ بحديث اعلن فيه انه معجب غاية الاعجاب بفن هنري جيمس الروائي وانه قد تأثر به . وذكر في ذلك الحديث – الذي استعيده من الذاكرة – رواية « دورة اللولب » لجيمس كنموذج للرواية التي تركت في نفسه اثرا عظيما .

وجيمس روائي ينتمي الى مدرسة الواقعية الانطباعية في الادب.. لا بل انه احد طلائعها . فهو يحاول – مثله في ذلك مثل سائر الكتاب الانطباعيين من امثال (كونراد) و (كاترين مانسفيلد) – تسجيل انطباعاته سواء أكانت تتناول منظرا او شخصية او حادثة . والسرد والعقدة خاضعان لمزاجه .. فالشيء الهام والذي ينبغي ان يتوفر قبل كل شيء ، هو التأثير . وكما قال الناقدان (هيبارد) و (فرانز) فان جيمس « روائي واقعي بملابس السهرة » .. اي انه يتناول حياة النخبة الثرية .. واشخاصه ينتمون الى البورجوازية الاميركية العليا ، والمنخلعة عن ارضيتها ، والضائعة في ارضية اوروبية . ولهذا فان تأثر نجيب محفوظ بهنري جيمس – اذا تحقق ذلك بالبرهان النقدي – فيه قليل من المفارقة .. اذ ان نجيب محفوظ يظل الروائي الذي يعبر عن الطبقات الاقرب الى البورجوازية الصغيرة ، بينما يستمد اداته الفنية من روائي واقعي بملابس السهرة .

وبهذه المفارقة تتوطد الفكرة القائلة ان رصد الجانب البديعي في اية مرحلة من مراحل مغامرة الحرية التعبيرية ، انما يتكشف وئيدا عن مشكلات كثيرة ، ملغزة ومتعاقبة ومتداخلة . ذلك ان الهدف النهائي من رحلة الادب – على الصعيد العملي وليس النظري – يبدو مراوغا ومغلفا بأستار الغموض باستمرار : فنحن عاجزون عن تلمس حصيلة الرحلة لاننا مستغرقون فيها . اذ ان « الشيء الجوهري بالنسبة للكاتب او الفنان هو فعل الخلق الابداعي » (١٩) ومن الافضل السعي للكشف عن نقطة البداية بدلا من الاستمتاع بوهم القدرة على الرجم بالغيب . فبعيدا عن مدار البحث في آثار الادب من خلال المفاهيم الاستطيقية المجردة ، يبدو لي ان المغامرة الفنية العربية – شأنها في ذلك شأن التجارب العالمية – كانت تتردد دائما بين ثلاثة محاور تتمثل في الاهداف المتخيلة التالية للعمل الفني :

– المحاكاة – الاقناع – الامتاع .

واذا كنا نعثر على نماذج محلية تنطبق على كل من هذه المحاور ، فان هذا ليؤدي الى حكم جازم لا منجاة منه ، ومفاده ان اول ملامح مغامرة التعبير الفني هو (رؤيتها) للحرية من خلال التجربة الثقافية اكثر من (تحديقها) بها من خلال الحقيقة الواقعية . لقد تبلورت منذ مطلع هذا القرن ثلاثة تيارات رئيسية (٢٠) في مجال الفن القصصي في سورية :

١ – تيار محافظ يستمد اشكاله واساليبه القصصية من التراث العربي الذي نظر اليه نظرة تقليدية غير انتقادية .

٢ – تيار منفتح على النماذج التي ترجمت الى العربية في اواخر القرن الماضي وفي مطلع هذا القرن . ولكن هذا التيار ظلت ادواته قاصرة عن بلوغ تطلعاته . لا بل ان كثيرين من اعلامه اخفقوا في تمثل واستيعاب ما اطلعوا عليه من النماذج القصصية المعربة .

٣ – تيار انتقادي انتقائي منفتح على التجارب القصصية في العالم ومنفتح ايضا على الاشكال والمعاني القصصية في التراث العربي ، من خلال واعية نقدية نامية .

ولا يتسع المجال لتناول التيارين الاول والثاني ، وانما يبدو التيار الثالث اجدر بالدراسة من سواه ، باعتبار ان نماذجه القصصية هي الاقرب الى الفن القصصي المعاصر من حيث كمالها الفني ، وبالتالي فهي اشد تعبيرا عن الوعي بامكانات حرية التعبير.

وما دمنا نبحث عن نقطة البداية ، فان فؤاد الشايب قد رسم شرطه الفني من خلال تحقيقه العناصر التالية :

١ – التعبير المقنن ورواية قصة واحدة في القصة القصيرة .

٢ – الوضوح والبساطة والاقتصاد والعرض المنطقي وفق وحدة زمنية محددة .

٣ – الابتعاد النسبي عن الحكم على الشخصيات على نحو اخلاقي مباشر .

٤ – اختفاء ما يسمى بـ « العدالة الشاعرية » اي اختتام القصة بمصرع الشر وانتصار الخير ، مقابل ظهور النزعة التشاؤمية التي تميز بها كل من غوركي وزولا وموباسان ، وسواهم من الكتاب الذين ينتمون الى تيار الواقعية الطبيعية .

٥ – الاهتمام بالفرد النمط وليس الفرد الذي يتسم بخصائص تمنحه خصوصيته واستقلاله النفسي والفيزيولوجي .

ومقابل هذه البداية يمكن ان نرصد الحد الاقصى لمغامرة التعبير الفني ، كما تتمثل في قصص زكريا تامر التي تنحو منحى « التعبيرية » التي تتميز بالواقعية في تقديم مادتها ، وبالرومانتيكية في موقفها ازاء عالم الحقيقة الخارجية . ومن خلال محاولة العثور على لغته الخاصة ، يحقق زكريا تامر تجربة استفوار الجوهر المضمر للواقع . انه لا يعبأ بالحقيقة الخارجية وانما يسبر الواقع بحدس مركز تتحرك فيه الصور من الداخل الى الخارج . وهو في استخدامه للرموز التاريخية في نقد المشهد المعاصر ، يرسم صورة متميزة للعلاقة بين الحداثة والمعاصرة كما يفهمها الشاعر والناقد « ستيفن سبندر » (٢١) .

ان الكاتب الذي يتميز بالحداثة يمتلك وعيا شديدا بالمشهد المعاصر . الا انه يرفض قيمه ... وهكذا فهو يحاول صنع جسر بين الماضي والحاضر . وهو في حساسيته الجمالية ملتزم بالحاضر ، اما في فكره فهو ملتزم بنقد ذلك الحاضر عن طريق تطبيق ادراكه للماضي .

ولعل قصة « الذي احرق السفن » (٢٢) التي تعتمد قصة (طارق بن زياد) وخطبته الشهيرة اساسا ضابطا لها ، تصلح كنموذج يمكن من خلاله استبصار العلاقة بين الحداثة والمعاصرة . ان زكريا تامر يستخدم صورة الماضي في الحاضر من اجل الكشف عن بربرية الحاضر . وقد لجأ جويس الى هذه التقنية على نطاق واسع وشامل في روايته (يوليسيس) عندما استعار ملحمة (هوميروس) للتعبير عن الحياة المعاصرة . كما لجأ بيكاسو الى تنفيذ تقنية معاكسة في لوحته الشهيرة « الغويرنيكا » التي ترجم

---

(١٨) الرموز عند بدر شاكر السياب (محيي الدين محمد) مجلة « المجلة » يوليو (تموز) ١٩٦٣ ، ص ٨٨ .

(١٩) من محاضرة للدكتور (اوزفالدو دورتيكوس تورادو) الرئيس الكوبي ، في ختام الندوة التمهيدية لمؤتمر هافانا الثقافي (كراس بالانكليزية – ص ٥٥) .

(٢٠) انظر مقالي « في الفكر الفني » الطليعة ، العدد ٢٤٦ .

(٢١) انظر كتاب The Struggle of the Modern لستيفن سبندر .

(٢٢) نشرت في مجموعة « الرعد » .

فيها رعب غارة جوية الى صور من التراجيديا الكلاسيكيــــة لدى الافريق .

وعن طريق ايجاد وشيجة تربط الماضـــي بالحاضر ، يستخـدم زكريا تامر التراث من اجل استكشاف الحاضر ونقده . واذا كـانت (الغويرنيكا) تتكون من صـــــورة الثور الاضحية ، والسيف ، والمصباح ... فان « الذي احرق السفن » التي تنتمي بعورها الـى التيار التعبيري، تتألف منخمسة مقاطع هي : الاعتقال، والاستجواب، ومشروع خطبته ، والاعدام ، ومن مواطن مثالي ... وتتباين هــذه المقاطع في اساليبها ، وفي طريقة توزيع الاضاءة القصصية ، وفـرز المعلومات ، بحيث تشبه رسما تبسيطيا لفيلم من افلام الموجــة الجديدة . فالقارىء (كالمشاهد) يشترك عن طريق الربط بيـــن مقاطع القصة ، في عملية تركيب للمعنى ، عملية ادراك للمعنـــى الشامل الذي تستهدف القصة ابرازه .

لا بل ان فرز فرضيات القصة وتصنيفها للمادة القصصيـــة ، يجعلان دور القارىء اشبه بدور العقل الاليكتروني الذي يقوم بمطابقة المعلومات ورسم صورة نهائية يستخلصها في نهاية المطاف .

غير ان هذه التقنية الحديثة قد اسيء استخدامها كثيرا فـي عدد غير قليل مـن المحاولات القصصية التجريبيـة التـي ظهرت فـي القطر خلال العامين الاخيرين . وبوسع الدارس ان يدرك ذلك مــن خلال سيطرة روح الابهام على معظم تجارب القصة لدى الادبـــاء الشبان (واذا امكن تجاوز الابهام في الشعر ، فيقيننا ان القصـــة القصيرة قد لا تحتمل حتى الغموض) .

ومن اجل استكمال الصورة التطبيقية لمفهوم الحداثة بوجهــه الشكلي ، فاننا سننطلق من فكرة مفادها ان الفن الواقعي والطبيعي يستخدم الفن لتغطية الفن .. اما الفن الحديث فهو يستخدم الفن لكي يلفت الانظار الى الفن .

وهذا يعني من وجهة نظر القارىء ان الفن الطبيعي يتميز بانـه يمتلك الموضوع الذي يجعل المرء ينسى الفن . اما الفن الحــديث فهو يدعو المرء الى (قراءة) الفن اولا ومن ثم الموضوع .

ومفهوم الحداثة هذا يتحقق ـ على نحو ما ـ في قصة عــادل او شنب « احلام ساعة الصفر » (٢٣) التي يلعب فيها الشكـــل السردي (النافر) دوره في لفت الانظار الى عملية الخلق نفسهــا . فكان القصة تحاول ان تبدأ من (الادب) لتصــل الى الحياة وليس العكس .. ولا شك ان هذا يشكل احد المظاهر البارزة ذات الدلالــة على مدى تأثر الادب بالفنون الاخرى .

وتنزع الحرية في بعض نماذج القصة السورية المعاصرة نزوعــا تجريديا (بقدر ما يحتمل الادب من تجريد) . ففي قصة (وليـــد اخلاصي) المسماة « حروف الجر » (٢٤) محاولة لتخيل طول للحياة يمتد بين حرفي جر فقط لا غير . فالفاصل بين الحياة والموت اصبح يقاس بالرمز اللغوي .. بحيث يتمثـــل في المسافة بين حرفي جر اثنيـــن :

« كانت الحديقة مهملة والظلمة تتساقط كرذاذ الخريف ... تزداد لحظة بعد لحظة . تحت شجرة حقيقية وهرمة جلست افكـــر كفيلسوف . ولكنني ما لبثت ان اهملت الحياة والموت وبت افكـر بحرفي الجر : الـ « من » والـ « الى » ... » .

ان هذه الرحلة في الرحم الوجودي للغة ، في حوار يستحيل فيه التطامن تلقاء الحياة الى تتويج لحرفي الجر اللذين يستحيـــلان بدورهما حشرتين مضيئتين تسعيان ببطء تذكرنا برحلة (بيكيت) في روايته (اللامسمى) حيث تصيب الضمائر في المخبر الوجودي للغة سلسلة من التحولات : فتنحل (الانا) في (الانت) .. والـ (هم) في الـ (نحن) وهكذا .

غير ان وليد اخلاصي يقدم في « حروف الجر » تجربة تنحـل فيها اللغة الى جمل موسيقية يقوم بناؤها الشعري باحتواء البعــد الوجودي ، وتغدو مسالة التأمل الخارجي في المعنى مجرد ملاحظة خارجية لحركة حشرتين مضيئتين .

ان التميز ، والتفرد ، وحرية التعبير الفني ، كل هذه قيم تحتفي بها التجربة المعاصرة احتفاء وصل بها الى الحد الانفجاري . بيد ان ما يقرره (اندربه مالرو) من ان « الفنان يخلق سجينــــا لاسلوبه »(٢٥) ، انما يعكس الصورة السلبيــة للمشهـد المعــاصر . فمن الطبيعي ان يمتلك الفنانون العظام تقنيات باهرة .. الا ان المرء ليتساءل عما اذا لم تكن المبالغة في النزعة الشكلية بالنسبة للكتاب الاقل موهبة ، انما يعني في الحساب الاخير ، التضييق من آفـاق الرؤية الفنية لديهم . ان معنى ان يكون المرء فنانا ـ على حد تعبير الروائي المعاصر جون فاولز (٢٦) ـ هو اكتشاف الذات اولا ، ثم تقديم الذات من خلال صيغة تختارها .

فالحرية كامنة في افضل الفنون والعلوم .. وكل منهما انمـا يهدم في جوهره طغيان الفكرة المتحجرة ، ويحطم الشرط الحديدي.. وقد يعارض الفنان اولا لان لديه قوة التعبير عن المعارضة .. ثـم لا تلبث معارضته المعبر عنها ان تعبر عنه .. ان القصيدة التي اكتبها اليوم تكتبني غدا ، انني اجد القانون العلمي ومن ثم يجــــدني القانـــــون .

بيد ان مغامرة الحرية التعبيرية تظل بالنسبة للكاتب العربـي المعاصر محدودة بالشرط الثقافي اكثر من الشرط الوجودي اليـوم ، وربما أقل غدا . فالبحث عن اساس فني ضابط ، بعيدا عن المفهوم الكلوستروفومي القائل ان قدرا كبيرا من التغيرات الاسلوبية ينبـع من مسببات داخلية بحتة لا تتصل بالظروف الاجتماعية ، ما يـزال التحدي الاساسي الذي يبهظ الوجدان البديعي للكاتب العربي في كل فعل خلق ابداعي يسعى الى تحقيقه .

ان تجربته مع التقنيات والاشكال والاساليب الوافدة ، فـي صبوته لايجاد مواقع انطلاق لمغامرته التعبيرية ، ليختنق بقوامهـــا الثقافي التراكمي . انه يدنو في بعض نماذجه من مرحلة الطفـــولة الكتهلة ، فيما يستلقي على سرير (بروكرست) ، تشده المخيـــلة المنطلقة في اتجاه ، وتجذبه الخبرة المكتسبة والمشتهاة في اتجــاه آخر ...

ولكن كما قال (ييتس) :

« قد يخدع البليغ جيرانه ..

وقد يخدع العاطفي نفسه ..

اما الفن فيظل رؤيا للحقيقة الواقعية » .

« مجموعة القصائد » ـ ماكميلان ١٩٥٢ ـ ص ١٨٢

دمشق

خلدون الشمعة

(٢٣) نشرت في « المعرفة » (عدد خاص عن القصة المعاصرة في سورية) شباط ١٩٧١ .

(٢٤) من مجموعة « الدهشة في العيون القاسية » التـــي ستصدر قريبا عن وزارة الثقافة .

(٢٥) اصوات الصمت (بالانكليزية) ص ٣١٦ .

(٢٦) انظر كتابه : The Aristos

الطوفان

(الرحلة التي كان يحلم بها جدي)

من اين يجي ء الحزن الي وانت معي
من أين يجيء ؟
قنديل مختنق الانفاس يضيء
يبكي وسط متاهات الليل ،
يتسلق قامته ظل رجراج
يتمدد ، يكبر ، يفترش الصحراء
.. يدب الدود الزاحف تحت عباءته
السوداء
.. يعشعش في احداق المصلوبين
على احلام التاج
ايقونات حمراء بلون الدم
ولها رائحة الدم
يتمدد ظل الموت
..على صدر القنديل الراقص بالوجع
لكن لا يلبث ان يهوي ،
يتقلص مثل الزئبق، يسّاقط كالوهم .
الدود الزاحف مذعور ،
.. يتفارر ، يبحث عن جحر يؤويه
من الجزع
والمصلوبون على احلام التاج
ماجوا أفواج
ومشوا قامات من سخط وهياج
(من منا يوما لم يصلب ؟
من منا لم يجع ؟)
من اين يجيء الحزن الي اذن ..
من اين يجيء وانت معي ؟
كتل من لحم وعذاب
.. تتقاذف حولي كالامواج :
زلزلة الاقدام المجنونة ،
.. طوفان النظرات المسنونة
.. بركان الحقد المكبوت

احزان الاوجه راكضة
تتلفت في ذعر ، في جوع، في شوق،
في ...
لا وقت لرصد ملامحها
كل الاشياء تمر كلمح البرق، كلفح
النار بنافذتي
وعيوني غارقـة
.. في نهر الضوء — الحلم الدافق
ملء دمي
عبقا .. وهـاج
وقطار الحزن ،قطار الجوعى والفقراء
.. يخض ضلوع الارض ،
ويسبق احلام الشعراء
جوعى .. فقراء ، وقرص الشمس
رغيف
والموت رصيف
والسكة شريـان ..
يمتد من القلب المذبوح
.. الى الشفق الاحمر
هاتوا ياكل المنتظرين على أرصفـة
الموت اياديكم
هاتوا يا الجوعى امتعة الرحلة
هاتوا يا الفقراء
هاتوا الاحزان الحمراء
هاتوا معكم بحر الغيظ المضمر
وتعالوا يا شهقة صحراء الجوع
انهارا من عرى ، من سخط ، مـن
حزن ودموع
فالرحلـة تبتدىء الليلة
عفوا .. الموت سيبتدىء الليلة
والسكة شريان ..

يمتد من القلب المذبوح
.. الى الشفق الاحمر .
من اين يجيء الحزن الي وانت معي؟
يا طيرا يخفق في قلبي
ويرف على هدبي
يا ساهرة كالشمس على شباك غدي
يا طالعة كالحلم على جفني ويدي
يا سكرى .. يا ولعي
من أين يجيء الحزن وانت معي؟
الليل .. الصمت .. صفير مبحوح
.. عجلات قطار
والدنيا حولي مقبرة ..
مظلمة خرساء مخيفة
يفترش الليل حناياها
أشباح تتراكض فيها .. تزبن فـي
كل زواياها
ديدان تنخر في جيفه
وكلاب تفقأ احداق الموتى
(ما ضر الشاة المذبوحة سلخ مـن
بعد الموت كما يروى ..
لكن ان يسلخ انسان ؟ حيا ؟!)
ويسود الليل .. الصمت .. صفير
مبحوح ..عجلات قطار
الظلمة دائرة ما زالت تتسع وتكبر
والاوجه عاصفة من نار
تركض..
والنظرة في المقل المسنونة كالخنجر
تثقب صمت الليل الاصداء
تتفارر في ذعر زمر الديدان
وكلاب « القنص » الليلي الحمراء
تصعق ، تجبن حتى مـن ان تنبح..
تنبس

فالرحلة قد بدأت ..
والسكة شريان ..
يمتد من القلب المذبوح
.. الى الشفق الاحمر

نشيد رقم ١

كانت عيناك على جدران البيت
نافذتي ضوء وبشاره
كان ضياؤهما في قنديل الليل الناعس
.. قطـرة زيت
كانت عيناك تواريخ الاحزان بصدر ابي
كانت عيناك اغانيه .. فمه .. دمه ..
داره
كانت عيناك على صدر الليل المعتوه
بقريتنـا
.. الف منارة
لهما كتب الاشعار ابي
وانا غنيت
وانا صليت
وانا ارضعتهما وجعي
وزرعت بظلهما اوجاع ابي
. . اشواق صباه الفواره
من اين يجيء الحزن الي اذن
من اين يجيء وانت معي ؟

ـ (من بين قصاصات جدي القديمـة لم تزل تضيء ذاكرتي هذه القصاصة) : موال كـان ابي يردده في آخر الليـل ،ثم يظل مدة طويلة منتصبا امام النافذة المفتوحة) ..

« نيران غدرِ الدهر توكد بكلبي بحرْ
وعلىّ سلّنْ سيوفِ الماضياتِ وبحر
الناس في ظلهْم وربعي في شمس وبحر
من حيث اهلِ الوفا ما عادْ فيهم وصُل
انكص حبل الرجا منهم فلا له وصُل
لا شك بالسيفْ اقطع روسِ الاعادي
وصُل
لكنني في جزيرة ودار ما داري بحَر

(واظل اسمع سعاله المتقطع وتنهداته تمزق رداء السكـون من حين لآخر)

حملت نسمات الليل صدى موال ابي
وتناقله الاطفال بقريتنا
غنوه كثيرا اثناء اللعب
كبروا واحبوه ..
سألوا عن بعض معانيه
عما بث ابي من حزن فيه
فبكوا حين احترقت اطراف اصابعهم
في مجمرة اللهب
لكن ما زال الكل يردده .. ويغنيه

(اصحو من غفوتي مع الذكريات على صوت عجلات القطار ، فأجد نفسي في عنف الرحلة التي كان يحلم بها جدي . احدق برهة في عينيك، ثم اعود لاكتب هذه المذكرة التـي تمنيت لو يقرأها جدي وابي : الى ابـي الحبيب ، والى جدي العملاق قبله ، كـل بذار الحلم الذي دفنتماه فـي عذاب الارض وضمير التراب . كل لهاث الاغاني والمواويل التي رويتما بها عطش الصخر والنخيل .كلها تتحول اليـوم في مدن الجوع والرفض ، الى قامـات سيوف تطلع من رئة التراب ،وترحل معنـا فـي قطار الجنون . ابي .. جدي، لا تعجبا وانتمـا تقرءان في هذه المذكرة انه امام طوفـان اقدامنـا العارية ، اخذت فعلا تتهاوى معاقل الاصنام وحصون الآلة الورقية .. وتنـدك)

تك .. تك .. تك .. تك
من اين يجيء الحزن الي وانت معي؟
ابصر في عينيك الاكفان المصبوغـة
بالدم
تتفتق زهرا وحشيا ..
وجيادا نافرة الاعناق تخب الارض،
.. وترقص فوق حبال الهم
قومي نرقص فالحلبة خالية ..
والموسيقى عالية النبرة تدعونا للرقص
.. ولحن الموت ينادينا ،مبحـوح
الصوت
يزفر في اضلعنا صخبه
والارجل كاد يميت البرد مفاصلها ..
والشوق القاتل فيها للرقص المبهم
هاتي كفيك الى الحلبة
القاك هناك ، نهز الخطو على ايقاع
الموت
كف في كف .. عاصفة من شوق
ملتهبة
وفم في فم
هاتي كفيـك ،
.. فبعد قليل يأخذنا القطر المجنون
الى الجلبه
وسنرقص .. نرقص حتى الموت
من أين يجيء الحزن وانت معي؟

نشيد رقم ٢

(من جوف القطار وعبر نوافذه المفتوحـة في كل الجهات ، كان يتفجر هذا النشيد):

نحن لهاث الارض الحبلى
نحن انين الصخر المطشان
نحن الرايات .. الشهداء .. القتلى
نحن العرى ونحن الاحزان
اين تجيل الطرف ترأنا ..
فغدا نأتيك مع الطوفان
(جاءوا ، فالاعين جمر محترق
والنقمة اسنان تصطك)
تك تك .. تك تك .. تك تك .. تك تك

نشيد رقم ٣

(على رصيف المحطة القادمة ، وعلى لوحة كبيرة كتب هـذا التنبيه) :

طلعت سنبلة الموت سيوفا ..
في تضاريس الوجوه المستطيرة
وغدا الجوع رغيفا احمرا يضحك في
عز الظهيره
آه يا جرح بلادي ..
يا عذاب المرجل الراقص فوق النار
.. يا شوق انظاري
آه يا شارة طوفان الجزيرة
زرع الشوك بايدينا ومـا ...
اتعب الشوق امانينا وما ...
آه ياليل بلادي قرح المسهد اغانينا
.. ومـا شب الحريق

البحريـن **علوي الهاشمي**

الأداء والتعبير الفني في معركة المصير

بقلم البشير بن سلامة

كان دور الادب والادباء والمصلحين والمفكرين في النهضة الاولى وما تبعها من نهضات ، سواء بالمشرق العربي او المغرب العربي ، دورا عظيما وكانت في الواقع يقظة تحسس فيها العالم العربي وجوده تجاه العالم الاوروبي ، وحاول ان يجابه تحدياته ويقف على قدميه خوفا من التداعي والسقوط . لذلك لم ينشا عن هذه النهضة ما اكسب الشعوب العربية المناعة والقوة بواسطة القدرة على الخلق في ميادين الحياة كلها بل كانت خاتمة المطاف افلاس النهضة من جهة ووعي خطير بالمصير من جهة اخرى .

نحن في الجولة الثانية من يقظة الامة العربية ، وفي الفترة التي تضاعفت فيها تحديات العصر لنا وقد تجسمت في غزو اراضينا وتوطينها واكتساح مقوماتنا الاصلية نسفا وتشتيتا . وان وعينا بهذا الخطر لفي ازدياد ومجابهتنا لمتطلبات المعركة تشتد كلما تبصرنا الى مواطن ضعفنا واهتدينا الى مدى ما يتهددنا من آفات في جميع مجالات الحياة .

وان الاخطاء التي وقعنا فيها في نهضتنا الاولى ، او على الاصح يقظتنا ، ماثلة اليوم ايضا ، وافدح هذه الاخطاء اتكالنا على الكلمة واعطاؤها القوة السحرية التي تنكب على مشاكلنا فتحلها وتنقض على الاخطاء فتبددها . ولقد نتج عن هذا ان حل الاديب محل السياسي والشاعر محل المصلح والصحفي وتفاقم امر الادب لتتضاءل امامه خلايا الحياة الاخرى ، امام العلم امام الصناعة وغير ذلك من الوان النشاط .

لقد آن الاوان اذن في عالمنا العصري ان يقوم كل بوظيفته وان يركز الاديب والكاتب والشاعر وبالاحرى كل خلاق للكلمة وكل فنان جهوده على نوعية عمله فلا يتعداه ولا ينحرف به من كنهه وماهيته ، وهو في الواقع مضطر الى ذلك اشد الاضطرار لما انضم اليه من وسائل اخرى للابلاغ والاداء كالاذاعة والسينما والتلفزة والصحافة .

ولعل موضوعنا الاداء والتعبير الفني في معركة المصير يدفعنا الى التكفير مليا في نوعية الخلق الفني وطبيعته وبحثنا على ضبط دوره ، من حيث الاداء والابلاغ في مجتمع يخوض معركة مصيرية تتهدده فيها اخطار تتمثل في الغزو والمسخ .

وكان التقاء الاقانيم الثلاثة : الاداء والتعبير الفني فمعركة المصير، فيه ما فيه من تضارب ومن اشعار باشتعال نار عنترية عصرية او انطلاق جولة دونكيشوتية معاصرة اساسهما الكلمة وسلاحهما القلم العصري طبعا ! وكأن ما طوق عبارة التعبير الفني من سلاسل ـ معدنها الاداء وطوقها معركة المصير ـ ينبىء برعونة الكلمة وجموحها ويؤكد ضرورة رياضتها وسياستها والحد من غلوائها بين الجد واللعب ، ويذكر بما قاله الشاعر العربي عن الصعلكة والصعاليك الروح الفنية وانموذج الفنان في المجتمع العربي القديم حين قال :

« ومسائلة اين الرحيل ؟ وسائل ومن يسأل الصعلوك : اين مذاهبه
مذاهبه ان الفجاج عريضة اذا ضن عنه بالفعال اقاربه »

لذلك يتعين ان تضبط قبل كل شيء معنى الاقنوم الثاني اي التعبير الفني ونستشف طبيعته وكنهه ونستدرجه وقد فككنا عنه السلاسل والاطواق واطمان الينا واطماننا اليه .

ان التعبير الفني في الواقع اوسع من ان نقصره على الادب والكتابة اذ هو ينفتح لميادين اخرى من الفن هي اسمى من ان تحصى وهي تتناول الوانا من الرسم وضروبا من النحت واشتاتا من فن العمارة والسينما والتلفزة وغيرها ، ولكننا ونحن في مجال الادب وبين رحابه مدفوعون الى الاقتصار على الكلمة في اشرف وانبل وجه منها الا وهو ميدان الخلق الادبي.

واذا كان الخلق الادبي او الكتابة عندما تشرف بالفن ، ميدانا يتبارى فيه الشعر قديمه وحديثه ، حره ومعتقه ، وتجول فيه القصة بجم فروعها طاغية على فنون الادب باكملها ابتداء من الخبر الى القصيدة ، ويتخبط فيه المسرح بين الواقعية واللامعقول ، ويجهد فيه النقد والمقالة ان يشارفا الكتابة فان الذي يمكن ان يتفق عليه كل العارفين هو اجتماع ضروب الخلق الادبي في نمط من التعبير وهو التعبير الفني .

واذا كان التعبير الفني يتغير في لغته بحسب تغير الكتاب ويتلون بضروب من الاشكال راجعة الى كنه اداة الابلاغ .. واذا كانت اساليبه تختلف باختلاف اصحابه فانه يبقى ذاك النمط من اللغة الذي يعتمد التاثير على العقول والحواس فيعلق بالاذهان وينفذ الى شغاف القلوب بقطع النظر عن الفكرة التي اعتمدها والصورة التي

ارتضاها والخيال الذي ركبه .

وانه لمن المجازفة ان يتصدى الباحث الى تصنيف مختلف الوان التعبير الفني لانه بذلك يقحم نفسه في مغامرة تؤدي به الى استعراض انماط اللغة التي سنها كل الخلاقين في الادب العربي ، وهو عمل لا يمكن ان تقوم به الجماعة بله الفرد ، رغم الدراسات والبحوث العديدة التي تناولت افذاذ امتنا منذ انبثاق النهضة الاولى .

ذلك ان التعبير الفني ـ اذا استقام لخلاق وصح جوهره ـ واحد اوحد بالنسبة اليه لا يشبهه تعبير اخر ، اللهم الا اذا انفسح المجال للمقلدين والسالطين الغاصبين والجاثلين في املاك الغير . وبطبيعة الحال فان درجة الخلق تتفاوت عند الناحيتين للكلمة بتفاوت قوة شخصيتهم الفنية فيطبع العبقري الفذ بطابع لا ينازعه فيه احد ، وتشعر بانه ملك عليك نفسك ومنعك من ان تذكر غيره وانساك كل الخلق الاه . وانك لترتاح كذلك للكاتب القدير والشاعر الحاذق ولكنك ، وان سلمت بفضل من الشخصية عندهما لا تمنع نفسك من التفكير في غيرهما من الكتاب والشعراء . وسبب ذلك هو التفاوت في القدرة على التعبير علاوة على اختلاف المشارب .

ولو كنت من ذوي الاختصاص في العلوم الصحيحة ، وحبذا لو خضعت آثارنا الادبية الى المقاييس العلمية في المخابر وحلقات التجربة ، لمضيت استنطق الخطوط البيانية واوثق الكتاب واثارهم والشعراء وقصائدهم على الواح عمودية وافقية حسب اختلاف المشارب والقدرة الفنية ، ولكنني اشفق على نفسي وعليهم في هذا الاتهم ، ومغلول موضوعيتهم .

آلاتهم ، موغلول موضوعيتهم .

غير ان الذي يمكن ان يتفق عليه الجميع ولا يختلف فيه اثنان هو ان التعبير ، اذا شارف الفن وما اليه تحدى الزمان والمكان. اذ الزمان هو الغربال النصوح والناخل الصادق الذي لا يظلم احدا ولا يتجنى على احد ، والزمان هذا الذي ياكل الاخضر واليابس ويفني القوى والضعيف ويقف صامدا امام الموت ، لا يستنكف من ان يصرح بالواقع والحقيقة عندما تسكن العواصف وتزول الاهواء . هذا الزمان الذي يتحول لكل الخلاقين بعد رحيلهم حاضرا واحدا لا يتبدل ولا يتغير حاضرا رواقيا ، اذ كان الرواقيون يقولون : « وليس لنا الا الحاضر نتحمله . فلا الماضي ولا المستقبل يمكن ان يرهقانا لان الماضي غير موجود والمستقبل لم يوجد بعد » .

وحبذا لو ان الخلاقين كانوا مثل الاباطرة الصينيين القدامى الذين ينظمون امر المكان والزمان فيحفلات مشهودة . فيسطرون للعالم المقبل ويوهمون شعبهم بقدرتهم على التحكم لافى الرقاب والمساحات فقط ، بل في اعظم قوة تغلت من بين اصابع البشر : الزمان . وقديما قال المتنبي في سيف الدولة :

ان كان قد ملك القلوب فانه ملك الزمان بارضه وسمائه

والزمان هو ابو الهول المتتبع لسقطات الخلق وهناتهم وهو كما قال فيه شوقي :

ابا الهول انت نديم الزمان نجيّ الاوان سمير العصر

لذلك فانه ليس اعظم ناقد ومقيم للتعبير الفني من الزمان، ومن تخطاه من الكتاب والشعراء وقدر على ان يثبت امام تحدياته فان ذكره خالد باق على مر الدهور .

ولكن الزمان وحده لا يكفي ، وخاصة في عصرنا هذا الذي تقاربت فيه الامم واختصرت المسافات ورضيت فيه البشرية بتباينها واختلافها اذ تخطى المكان اصبح شرطا اساسيا في الخلود وعنصرا من عناصر البقاء وهو لربما يكون ايسر منالا من الزمان لانه لا يدعو الى الانتظار ولا يمر من غربال الدهر ويكفي ان تستسيغ الاثر الفني امة من حضارة اخرى في لغة متغايرة ليكون الخلود.

وهكذا يكون التعبير الفني بهذه الصورة عزيز المنال يخرج عن المتداول عن الكلام ويصح فيه ما قاله ابن الاثير في الفاظ الكتاب وهو يعني في الواقع اللغة التي ارتضاها الكاتب قال :

« من الاركان التي لا بد من ابداعها في كل كتاب بلاغي ان تكون الفاظه غير مخلوقة بكثرة الاستعمال ولا اريد ان تكون بذلك الفاظا غريبة ، فان ذلك عيب فاحش بل اريد ان تكون الالفاظ المستعملة مسبوكة سبكا غريبا يظن السامع انها غير ما في ايدي الناس وهي مما في ايدى الناس ... وهذا الموضوع بعيد المنال كثير الاشكال يحتاج الى لطف ذوق وشهامة خاطر وهو شبيه بالشيء الذي يقال انه لا داخل العالم ولا خارج العالم فلفظه هو الذي يستعمل وليس بالذي يستعمل : اي ان مفردات الفاظه هي المستعملة المالوفة ، ولكن سبكه وتركيبه هو الغريب العجيب »

وانه ليس من المجازفة في شيء ان يشبه التعبير الفني بالذهب في المعادن الذي يثبت امام تحديات الزمان وينفق في كل مكان لا تذهب بريقه وحدته كثرة الاستعمال وهو في حصنة تامة من تنوع الانطباعات وتقلب الافكار .

و لكنلقائل ان يقول ما هي طبيعة التعبير الفني وما هي نوعيته التي تخول له هذه القدرة وتمكنه من ان نثبت امام اقوى التحديات ؟ هل هي المعاني التي يحملها للغة والصور التي يخرجها والخيال الذي يستنبطه لها ام هو سر من الاسرار يجعل هذا التعبير فنيا صادرا عن روح خلاقة وذاك التعبير الاخر كلاما عاديا متداولا بين الناس ؟ نعم هو ما اسميه بالايقاع اي هذا التوتر الذي يبثه الخلاق في لغته فيرى فيها كالكهرباء ويشيع في جنباتها حياة لا كالحيوات ويفرض عليها نبرات جديدة تكون مثل الاكسير فيصناعة الكيمياء تحول الالفاظ المستعملة والتراكيب الشائعة الى« الوانمختلفة من جوهر وذهب » على حد تعبير ابن الاثير . هذا الايقاع الذي لا يبرح يلازم الاثر حتى في الترجمة وهو الذي يجعل المعنى الواحد مقبولا من اديب وغير مقبول من اخر ، ويضفي على صورة الاول روعة لا نجدها في نفس الصورة بالنسبة للثاني ، هذا الايقاع او الاكسير هو الاصل في سن نمط جديد من اللغة يتجاوز ما درج عليه الكتاب والشعراء قبل ذلك وهو ما سميته اللغة التجاوز (*) وهو دفق الحياة المنبثق من الخلاق المتكون من تيارين اثنين : احدهما ينبع من الرصيد المشترك الذي يشد الخلاق الى شعبه والى امته ويؤصله فيها بما يرثه من مقومات يهضمها ويكيفها لتصبح ملكا له والثاني هو اناه المرتبط بشخصه ومزاجه وطبعه وهو ما عرف بالاسلوب .

واذا كان الاسلوب هو الذي ينم عن شخصية الخلاق ويعرف به فليس هو في الواقع الذي يضفي على الاثر الادبي الروعة ويجعله مستساغا مفهوما من القراء ، متجاوبا مع مشاعرهم واحاسيسهم واهتماماتهم لانه لو كان الاسلوب وحده هو الطاغي لكان الانفلاق والفردية المطلقة . وان في الادب العربي قديمه وحديثه ضروريا من الكتابات التى ليس فيها الا الاسلوب وهي تعتمد انماطا من اللغة الفنية الحق مثل لغة القرآن التي استند اليها فحول من عباقرة العربية وطعوها باسلوبهم ولكنهم لم يأتوا بشيء جديد ، وكذلك لغة المقامة التي سنها بديع الزمان الهمذاني واخذها عنه الحريري فاضفى عليها اسلوبه ولكنها ، وان عرفناه من خلالها ،لم تستقم له مثلما استقامت لخالقها .

(*) راجع الفصل الثالث من الباب الثاني من كتاب لي بعنوان « اللغة العربية ومشاكل الكتابة » من ص ١١٩ ـ ١٢٣ الدار التونسية للنشر .

وان طغيان الاسلوب في معظم الادب العربي شعرا ونثرا ، قديمه وحديثه ، ان طغيان الانا هو الذي كان سببا في تدهور الادب والفن وفي حصر الكتابة في نوع من البرعاجية القيتة ، وهو الذي نزع عن كثير من الاثار الادبية مسحة الفن . وهنا اؤكد ان التعبير لا يكون فنيا باتم معنى الكلمة الا اذا استند علاوة على الاسلوب الى الوجه الاول النابع من الرصيد المشترك والا بقي مجردا معلقا بين السماء والارض . وليس من باب الصدفة ان ننسب هذا النوع من التعبير في ميدان الخلق الى الفن لان طبيعة الفن تقتضي اولا وبالذات الارتباط بالواقع وقديما قال سقراط : « ان الفن هو تقليد لمخلوقات الطبيعة » وبعده قال ارسطو « عندما يرسم الفنانون الصور منفصلة عن اصلها فانهم يخلقون شبها لصيقا بالحياة ولكنه شبه اجمل مما هي عليه » . وحتى في ايامنا هذه فانك لن تجد اي فنان يرفض ان ينطلق من الواقع ليرى الدنيا وما فيها بمنظاره الخاص ويعبر عنها مازجا ما رآه بما استنبطه .

وخلاصة القول ، فان هنالك جدلية متشعبة فيما ينتجه الفنان بين الجانب الشخصي البحت وبين ما يربطه بالمجتمع والعالم ، وان ما قاله « فلوبار » في رسالة من رسائله ليعبر عن هذه الجدلية التي تفضي الى نوع من الغموض في العمل الفني قال : « تسالني لمن كتبت هذه الاسطر ؟ لم اكتبها لشخص معين شاني في كل ما كتبته . واني قد مانعت نفسي من ان اضمن تاليفي شيئا من نفسي غير اني قد ضمنتها الشيء الكثير . وقد حاولت الا احقر الفن لارضاء شخص بمفرده فكتبت صفحات رقيقة بلا حب وصفحات صاخبة من دون حماس، وتخيلت وتذكرت والفت » *

وليس من السهل اذن ان نتحدث عن حرية الخلاق اذا كان هو بالذات يجد نفسه مضطرا بحكم طبيعة الفن الى الحد من حريته وتجاوز انانيته وربط نفسه بواقعه القريب او البعيد ، قصد ذلك ام لم يقصد . وانه من الانسب ان نتحدث عن مسؤولية الفنان ونؤكد هذا المعنى اذ هو اقرب الى واقع الاشياء ، كما ان النظر الى عنصر الجمال والجمالية يفرض نفسه عند التحرر الى الفن ولكن المقام لا يدعو الى التوسع في هذين الفرضين .

واذا كان الفن على هذه الصلة بالمجتمع وكان التعبير الفني مربوطا اشد الارتباط في عنصر من عناصره بالواقع ، فانه ليس من شك في ان يكون تلقائيا مشدودا الى الاقنوم الاول الا وهو الاداء ، وهذا امر طبيعي اذ بدونه لا يتاتى للاثر الفني ان يرى الوجود بين الناس . لانه لا فائدة في خلقه اذا هو لم يخلق من جديد ، يخلقه القراء بتجاوبهم معه ونقدهم له او اعراضهم عنه . لهذا فان عنصر الابلاغ كامن في التعبير الفني الاصيل بدونه لا يكون الخلاق الحق ولا الكتابة الفذة .

بهذا ينتفي ذلك الخوف الذي يساور كثيرا من المثقفين من ان الادب يمكن ان ينفصل عن الحياة ، وهو خوف لا تبرره طبيعة الخلق الادبي اذ الادب مع الحياة وفي صلب الحياة او لا يكون .

غير ان هناك قضية اخرى تتعلق بالاداء وهو صعوبة التعبير الفني في ان يؤدي رسالته بين الناس . ذلك ان لغة الخلق تتطلب مستوى من الثقافة تتعلق بفهم النصوص وتذوقها وتصور الاشياء وربطها بالحضارة المعاصرة وهذا بطبيعة الحال يستدعي ان تكون الجماهير قد بلغت حدا ادنى من المستوى وهذا ليس عسير المنال اذا تضافرت وسائل اخرى للابلاغ والاداء لتبسيط العلوم والاداب وعمت بين الناس القراءة والكتابة .

وليس من الانصاف في شيء ان نطلب من التعبير الفني ان يتحول عن ماهيته وينحرف الى ابواب اخرى من الابلاغ اعدت لها وسائل بعيدة عن هذا النوع من التعبير ، غير انه يمكن للفنان ان يستعملها ويسخرها ليبلغ رسالته ويعممها ويقهر صعوبة الاداء . على ان هذه الصعوبة يجب الا تكون ناشئة عن غرابة في الالفاظ ولا تعقد في التركيب لان ذلك ليس من طبيعة الفن بل تتاتى من مفاهيم لا يمكن ان يتصورها من لم يقرا ومن لم يكتب ومن لم تخالج نفسه اهتمامات المجتمع المثقف . لهذا فانه كتب على الخلق الادبي ان يقتصر على الطبقة القارئة ذات المستوى المرضي ، وليس لنا من امل بالنسبة لشعوبنا التي ما زال جزء منها غارقا في الامية الا ان يعم فيها التعليم وترفع بها الجهالة وتشيع الثقافة . ولكن ذلك لن يكون منقذ المصير المكتوب في عصر الوسائل السمعية البصرية اذ نحن نشاهد بلدانا بلغت مستوى من الحضارة والثقافة كبيرا تشكو من قلة القراء نظرا الى ظروف احاطت بعصرنا الحاضر ليس هذا مجال التبسط فيها رغم سهولة قراءة المكتوب عندهم وصعوبته عندنا لفقدانه الشكل. وعلى كل فان صعوبة الاداء في التعبير الفني تتفاوت بين الخلاقين حسب طبائعهم ونمط تكوينهم وهدفهم من الكتابة .

غير ان الذي ييسر من مهمة الاداء بالنسبة للتعبير الفني هو ما ذكرناه من وجوب ارتباط الخلق الادبي بواقع المجتمع ، وهذا يفرض على الخلاق ان تكون اغراضه منبثقة من مشاغل امته نابعة منها وهو امر لا يمكن ان يحيد عنه الخلاق الحق لذا فانه من واجبه رفع التحديات والخروج بمعركة المصير الى النصر الكامل .

وانه ليس من المبالغة في شيء اذا قلنا ان كل قصاص وشاعر وكاتب مسرحية وناقد قد وعى الخطر الاكبر الذي يتهدد العالم العربي من اقصاه الى ادناه . واذا كان هذا الخطر قد تجسم ، اواخر القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين ، في استعمار لم تكن له من الوسائل الا القوة الغاشمة والحضور الفعلي فان استعمار النصف الثاني من هذا القرن اشد حيلة لانه يعمل بدهاء ومكر على طمس شخصيتها وصهرنا في حضارة اجنبية عنا لو انسقنا الى تقليدها كالببغاوات لمسخت معالم ذاتيتنا وذبنا فيها ذوبانا .

وان هذا ليبرز في ظاهرتين اثنتين :

الظاهرة الاولى تتمثل في تحد استعماري من ابشع التحديات وهو وجود اسرائيل الصهيونية واغتصابها لاراضينا وكان التوطين الغربي الذي حكم عليه العصر بالزوال قد تجمع في فلسطين الجريمة ليمنع كل نهضة حقيقية بالعالم العربي ، ولكن ذلك قد حفز امتنا على ان تتجه نحو النهضة الحق فبدات تتصدى لهذا التحدي بما يماثله .

والظاهرة الثانية هي اكثر تسترا واخطر لانها برزت في قالب تحديات العصر لنا ، هذا العصر الذي استولت عليه حضارة غير حضارتنا وفرضت علينا ان نعيش وتتصور العالم بمنظارها لما اكتسبته من قوة اساسها العلم والتقنية والتكنولوجيا . ولئن شعرنا بانه لا مناص من ان ناخذ من اسباب هذه القوة المادية بنصيبنا فان شعورنا اعظم بوجوب تمسكنا بشخصيتنا واصالتنا لننظر الى هذا العالم بمنظارها ونتصوره مقومات حضارتنا .

لذا فان فرس الرهان في هذه الحلبة هو ان نكون نحن فلا ناخذ العلم لنقلد ولا نستعير اسباب الحضارة لتكون طلاء براقا ولا نقبل

---

* غوستاف فلوبير ، مجموع آثاره (بالفرنسية) طبعة ، س. ف ، فروت ، باريس ١٩٢٦ ج ١ ص ٢٥٤

قيم الغير لنلبسها للزينة والبهرج بل من واجبنا ان نهتم بحضارة العصور ولنقدم للعالم غذاء انسانيا بفضله يقدر قيمة حضارتنا ويسمع كلمتنا ولا يستهين بنا .

معركة المصير اذن هي بالنسبة للخلاق منا وعي بهذا كله : وعي بشرف الكلمة التي لا يرضى لها أن تنحط الى مستوى الدعاية السخيفة ووعي بمسؤوليته في امة تكافح من أجل مصير افضل ، ووعي بأن يكون انتاجه الفني انسانيا آخذا باسباب العصر نافذا بايقاعه الى قلوب وعقول اهل حضارة اليوم . ولكنه في كل هذا يعبر عن الروح الاسلامية اي عن حضارتنا في مختلف اوجهها بصورة يكون محببا مفهومها لا بالنسبة لنا فقط بل لاجزاء اخرى من العالم .

واننا – في تونس العربية المسلمة القريبة جغرافيا قربا كبيرا من العالم العربي ، والتي ناءت طيلة سبعين سنة تحت كلكل استعمار توطيني محطم وعرفت الغربة اللغوية في ابشع اطوارها – لشاعرون حاد الشعور بهذا المنعرج الخطير .

وعينا هذا كله وكشفنا عن الاخطار التي تهددنا من تفسخ ومسخ وطمس للذات الامينة ، فتصدينا الى رواسب الاستعمار نستاصلها والى تحديات العصر نجابهها ، وذلك بالتمسك باصالتنا ومقوماتنا الاساسية وبالانصهار في حضارة العصر حتى نخرج من طور الاخذ الى طور العطاء ونقدر على المساهمة في صلب العالم العربي على اثراء الانسانية بنوعية الخلق فينا وطرافة الابداع الكامنة في نفوسنا .

وان المتتبع لانتاجنا الادبي والفكري في تونس ، ليلمس هذا العزم على التمسك باصالتنا ومعانقة العصر والامتزاج به وذلك في كل فنون الادب وفي مختلف الاتجاهات قديمها وحديثها ، رائدنا هو الابقاء على شرف الكلمة وسموها والحرص على الرفع من شأن امتنا في معركتها المظفرة من اجل ان نكون نحن : « طرافة وخلقا وقوة ومناعة » .

لهذا فان الاقانيم الثلاثة التي ظهرت لنا في اول هذا العمل متنافرة شيئا ما محفوفة بالمخاطر من حيث تلاؤمها وتجانسها اصبحت لا تحتاج الى اي تخوف ما دام التعبير الفني اصيلا والاديب شاعرا بمسؤوليته ازاء امته في معركة المصير وانه ليس افضل من ان اختم هذه الكلمة بمثل ما بدأتها بأبيات لعروة بن الورد لا تمثل الاصالة العربية فقط بل تترجم عن كنه ما نخوض فيه في الواقع وهي رسالة الفنان في امته اذ قال :

« وسائلة اين الرحيل ؟ وسائل ... ومن يسال الصعلوك اين مذاهبه
مذاهبه ان الفجاج عريضة ... اذا ضن عنه بالفعال اقاربه
فلا اترك الاخوان ما عشت للردى ... كما انه لا يترك الماء شاربه »

البشير بن سلامه
(تونس)

الأداء والتعبير الفني في معركة المصير

بقلم محمد مبارك

يحتل الادب ، باعتباره اعمق اشكال الوعي الاجتماعي واغنى نشاطات الانسان الحية موقعا متقدما من حركة المجتمع البشري . اذ به استطاع الانسان ان يستكشف ابعاد ماضيه وحاضره .. ويستشرف آفاق غده ، فيصير من كل اولئك الى امتلاك ضرورات تحركه وصيرورته في مختلف مراحل مسيرته التطورية . والحقيقة ان الادب كان وما يزال يقوم مقام المدفعية الثقيلة في معارك الانسان الحاسمة . فكما ان هذه تمهد السبيل امام القوى المتقدمة في الحرب ، كذلك يمهد الادب الطريق امام التغيرات الكبرى والنقلات النوعية البارزة في تاريخ الانسان ، ولعل مثال الثورة الفرنسية الاولى عام ١٧٨٩ .. والثورة الاشتراكية الكبرى في روسيا عام ١٩١٧ ، ما ينفك يحتفظ لنا بكامل حيويته وطاقته في هذا الشان . فلقد ولدت هاتان الثورتان حلما ووعيا في الآثار الادبية التي سبقتها قبل ان يتوفر للوعي والتحرك السياسي ان ينقلهما من حقل الضرورة التاريخية المحضة الى مجال الفعل والتحقق العياني الملموس .

وكذلك هو الامر بالنسبة للادب اليوناني القديم ، اذ استطاع بما خلق وابدع من آثار في الملحمة والشعر والمسرحية ، ان يصادر على ضرورات التحول العظيم في بنية المجتمع الاغريقي بل وان يتقدم انطلاقة فكره الرائعة ، فكان بذلك سبب ذلك التحول واساس تلك الانطلاقة . وفي ذهني .. ان ادبنا العربي قبل الاسلام هو الآخر قد صار بما جاء به من قيم روحية ومعايير في بناء القصيدة واساليب التعبير واللغة التي تمثل ابعاد الثورة الاجتماعية الكبرى التي عاشتها مجتمعنا العربي في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي . ذلك ان انصهارالمجتمعات القبلية المحتربةفيوحدة قومية شاملة،وامتلاكناصية الحضارة واسباب التمدين والقوة ، ما كان للمجتمع العربي ان يبلغها يومذاك ، لولا ان بسط الادب امامها السبيل فيما حقق من وحدة اللغة وتماثل المشاعر والاحاسيس الفنية .. وتقارب الافكار والاهداف بين ابناء الامة الواحدة .

ويوم كانت الضرورة تقضي بانتقالة المجتمع العربي الى مرحلة جديدة من التنظيم الاجتماعي واساليب التفكير والفهم ، كان الادب هو السباق الى الارهاص بمتطلبات تلك الضرورة ورسم الطريق امامها في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين .

على انه اذا كان للادب ان يتمثل الثورة قيما ويرهص بها ضرورة وقدرا ، فيسبق بذلك حركات التحول الاجتماعي ويمهد لها ، فانه ليستجيب الى دواعي الثورة فيما يتبع من اساليب ويبتدع من اشكال التعبير والبقاء الفني . ومن ثم وجدت لكل مرحلة تاريخية اشكالها الابداعية الخاصة وانماطها التعبيرية التي تنفرد بها دون غيرهما . ولعل تعاقب الاصناف الادبية وتطور صيغ الابداع يبرر الذي ذهبنا اليه فمن الغناء الى الملحمة .. ومنها الى المسرحية . ولم تولد الرواية الا في عصر متاخر نسبيا ، وان سبقت بما يحسب عليها مما جاءت به عصور متاخرة ايضا كالرومانس والبكارسك . ولا نحسب ان حدود موضوعنا تتسع لنا هنا فنتبسط في الحديث عن اسباب هذا التعاقب وضرورات ذلك التدرج في ولادة الاصناف الادبية المتعددة بله تطور صيغ التعبير التي يشتمل عليها كل صنف او نمط . وانما قصارانا ان نقرر انه بدون خلق انماط ادبية جديدة وادخال تجديدات شكلية على الانماط الموجودة بالفعل ، لا يمكن للادب ـ على ما يرى الشاعر والكاتب المسرحي الالماني البارز برتولف بريخت ـ « ان يقدم موضوعات جديدة او وجهات نظر جديدة الى الفئات الجديدة من الجمهور » .

ومن هنا .. كان غير ممكن منطقيا وتاريخيا لابي نواس اوالمتنبي مثلا ، ان يكتبا بذات الاسلوب الذي خلص اليه امرؤ القيس او النابغة، كما انه غير ممكن منطقيا وتاريخيا ان ينبري احدنا اليوم ليعيد علينا اصوات الغابرين من اسلافنا فيحقل الابداع الادبي بل ان ذلك ليستحيل على من يحاوله . فما لوعينا الاجتماعي ولا لمظاهر نشاطنا المتعددة ان تستوعبها ، اليوم صيغ الماضي واشكاله الابداعية محال . فاسلوب المقامة الذي طلع علينا في مرحلة متقدمة من مراحل تطورنا الحضاري ليكون من بين اكثر وسائل الاستيعاب الجمالية قدرة على التصوير او التعبير الفني ، لا يمكن لكاتب القصة القصيرة المعاصر ان ينسج الرواية المسرحية من اساليب الماضي وقوالبه وصيغه وانماطه.

بيد ان هذا لا يمنع ان تتصل مدارس الابداع وانماط التعبير الفني .. فتعبر بآثارها ومعاييرها وقيمها القرون والاحقاب . وانما الذي توخيناه من موضوعاتنا آنفة الذكر ، ان نقرر استحالة جمود الصيغ وتكلس الاساليب حتى ضمن النمط الادبي الواحد . فاذا كان للغناء ان يتصل في عطائنا الشعري .. فباشكال متجددة واساليب متطورة تباعد ما بين شوقي والجواهري وابي ريشة مثلا ، وبين ما ورثناه من آثار طرفة وابي تمام والمتنبي ، على حميم الصلة ووثوق الرابطة الروحية بين هؤلاء وهؤلاء .

ولعل ظاهرة الشعر الحديث وما انتهى اليه من انجازات في شكل القصيدة العربية افضل ما يؤكد ويحقق لنا مضمون المعطاة القائلة بضرورة ملاءمة الاساليبوالاشكال التعبيريةلمتطلبات كل مرحلة تاريخية.

الا صار بلغة الشعر الى ما يجمع بين مقتضيات التوحد العربي وحاجة الانسان الاعتيادي في الشارع ، والحقل ، والمصنع الى واسطة في الاتصال والفهم لا ترتفع عن موجوده من المفردات والتراكيب اللغوية المتداولة .. فتمثل بذلك البعد الجماهيري للثورة العربية المعاصرة .

وصادر على ضرورة تكريس كل اسباب التماثل والوحدة التي تشد المجتمعات العربية الى بعضها وترسم آفاق تطورها . وليس هذا فقط.. وانما استطاع ، بما انتهى اليه من ثورة في عروض الشعر العربي ــ حيث انتقل بموسيقاه من رتابة الايقاع الى غنى التعدد النغمي وحيويته محققا بذلك ما يسمى بلغة الموسيقى بالهارموني ، وبما صار اليه في مجال التصوير والايحاء والرمز ، وتعدد الاصوات داخل القصيدة ، وخلق المناخات الذهنية والحسية ، استطاع بكل هذا وذاك ان يستجيب لمتطلبات العصر وما وفق اليه من غنى وتعقيد وتداخل وتركيب في وسائل انتاجه واساليب تطوره التكنولوجي .

ومهمما يكن .. فلقد كان لعصرنا ، شأن غيره ، اساليبه الخاصة في التعبير وانماطه المحددة في الابداع الفني والادبي ، كما كانت له بلاغته ولغته ومنطقه الخاص في بناء القول وتصوير الظاهرة ورصد الحدث .

فالى اي مدى استطاع ادبنا العربي المعاصر ان يتمثل كل هذه الخصوصيات ؟ وهل استطاع فيما تمثل منها ان يرصد ما تمتاز به الثورة الاجتماعية التي نعيشها فيستكشف ابعادها ويستشرف افق تطورها .؟

للاجابة على ذلك ، ارى ان نتلمس بعض ابعاد الثورة العربية المعاصرة ونقف على جانب من موجود وضرورات تحركها وصيرورتها العامة .

ان ما نعيشه من ثورتنا مجتمعا ناميا وامة ناهضة، لا ينحصر في اطارحل التناقضات القائمة بين تطلعات قوانا الانتاجية وطموحات جماهيرنا في التقدم والبناء وبين العلاقات شبه الاقطاعية ــ شبه الرأسمالية التي جاء بها الاستعمار الاجنبي لتثقل خطانا وتمنع انطلاقتنا الحرة ، وانما يجوز ذلك الى مهام بالغة التعقيد والتداخل فمن جهة نجد ان كل قطر يقف على ابواب تحرره السياسي ملزم بتحرير قواه الانتاجية مما تفرضه عليه تلك العلاقات المتخلفة من قيود ، ثم ان يتابع عملية تحرير قواه هذه ليصل بها الى حيث يقيم علاقات انتاج متقدمة تتجاوز به مرحلة الانتاج الرأسمالي الى الاشتراكية من حيث ان امكانات التطور غير المقنن لا تقبل ، لها بما تتطلبه ضرورات التنمية والبناء المادي من مهام جسيمة واعباء ثقيلة في ظل علاقات سوقه غير الانتاجية بحركة الراسمال الاحتكاري العالمي .

ومن جهة اخرى .. نرى ان عملية متابعة هذا الخط في التطور لا يمكن لها ان ترضي مصالح قطاع واسع من وجود الرأسمال الوطني في الداخل . اذ يفوت عليه هذا المنهج في التطور فرصا واسعة للربح ــ اضافة الى ما قد يجره عليه ذلك من متاعب في حالة تحرير قوة العمل ، واقامة الجماعية في المدينة والريف مما قد يقود الى تصفيته ضرورة واثارا في عملية الانتاج الاجتماعي .. هذا الى ما قد يستثيره ذلك من اسباب المقاومة والعنف لدى فصائل عديدة من اصحاب الرساميل المرتبطة بملاك الارض من جانب وبتحركات الاحتكارات الدولية ومخططاتها من جانب اخر ، بله قوى هذه الاحتكارات التي ظلت على امتداد عقود طويلة تحتفظ بسيطرتها الاقتصادية والسياسية على حركة السوق الداخلية .

ثم ان هذا يستلزم فرزا حادا للقوى الطبقية في المجتمع واعادة لترتيب اصطفاف هذه القوى على اسس جديدة ، وتحديد جديد لمفهوم الشعب قد لا يتسع لغير قوة العمل ومن يظاهرهم وينتصر لقضاياهم من فلاحين وحرفيين ومثقفين ثوريين . من هنا يأتي البعد الجماهيري للثورة العربية المعاصرة ، حيث ليس لغير جماهير العمل وحلفائهم ان ينهضوا بها قضية ومسيرا .

هذا الى ان وحدة التراب العربي وتكافل القوى والطاقات العربية واقعا وقضية يلزمنا هو الاخر بضرورة العمل على خلق كل ما من شأنه ان يؤكد وحدة هذه الامة التي شاء لها اعداؤها ان تكون اقطارا متباعدة ، والا فلن نحصل على غير عبث باطل مما قد نحشده من قوى وطاقات في بناء هذا القطر العربي او ذاك .

وهنا .. لا بد من ملاحظة ان وجود البترول في الارض العربية ، بهذه الغزارة وتلك الاهمية الاستثنائية التي تفرد له في حساب الاستراتيجية العالمية ، لم يضاعف من جموح الاحتكارات الدولية وتشبثها بالاحتفاظ بالارض العربية في محيط استثمارها ومخططاتها التوسعية فقط ، وانما اكسب ابعاد الثورة العربية في مختلف مناحي تحركها وتموضعها عمقا وحدة لم تألفها ثورة معاصرة ومن ثم ، فلا ندحة لمن يعرض لرصد قضايا الثورة العربية من ان ياخذ باعتباره وجود البترول، والا فقد يشط شططا بعيدا في رصده وتقديره في هذه الارض على مختلف الاصعدة .

ان قيام قاعدة الامبريالية العالمية والصهيونية ــ اسرائيل ، في قلب الوطن العربي مثلا ، ان هو الا بعض نتائج وجود البترول في هذا الوطن المبتلى بل ان تجزئة هذا الوطن الى دويلات متنابذة ومتناحرة، واقتطاع اجزاء عديدة منه من قبل الانظمة الرجعية في المنطقة ، هي الاخرى يمكن ان تكون بعض مردود توفر البترول في هذه الارض.

ولذلك .. فيتعين علينا ان نشحذ يقظتنا ونزيد من حاسة شمنا، لنستدل على مواضع البترول من هويات العديد من النزوات الغريبة والمعادية للانسان التي يعج بها وطننا العربي هذه الايام ، سواء في السياسة ام في الادب ذلك ان اجهزة الاحتكارات وعملاءها في الثقافة والفكر لا يمكن ان يكونوا بعيدين عما يجري في ارضنا العربية من صرعات او دعوات ادبية او سياسية .

وبعد .. فهذه هي ابرز معالم الثورة العربية المعاصرة . فاين يقع منها ادبنا العربي المعاصر ؟ والى اي مدى استطاعت وسائله واساليبه في الاداء او التعبير الفني ان تستوعبها قضية وتطرحها قيمة ؟

اعتقد ان ادبنا العربي المعاصر ، اذا اسقطنا من حسابنا الاصوات الدخيلة والتيارات الرجعية التي تحاول ان تجد لها متسربا في ساحة استطاع الى هذا الحد او ذاك ، ان يتمثل الثورة هدفا وينتظم صفوفها قوة ووعيا . وان تكون اداتها الفاعلة في اكثر من موقف او حقل. على انه في ذلك لم يشأ ان يقتصر على الاستجابة لها مضامين وافكارا ومواقف ، وانما جاز ذلك الى استيعابها فيما طرح من اشكال وصيغ ادبية . فكان النموذج الاساسي الذي يدور حوله هو البطل الايجابي الذي يرى خلاف البطل الوجودي ، في الاخرين مددا له .. واستمرارا لقضيته ودوره في الحياة ..

تبسم الهواة المجنواة	تكشف عن فمها الفاغر
لان الحياة رمت نحوه	صدى سابح خلفه ماخر

.. او هو المقاتل في سبيل المبدأ ، الذاب عن حوض الامة ، الجواب الافاق الذي لا يفتأ يبحث عن الحقيقة وبرود المجهول ويتعشق كل ما هو خير وعادل وجميل . واذا كان لمثل هذا البطل ان يمزق اهابة القلق او الاشفاق ، فازاء قضية يدفع عنها او مهمة يحرص على ادائها . واذا كان له ان تمتلكه مشاعر الغربة ، فازاء واقع يرفضه ويسعى الى تصفيته . هذا ما درج عليه الشعر بفنونه المتعددة ... ونقدمت به ضروب الادب الاخرى من القصة القصيرة حتى الرواية والمسرحية العربية .

ولم يقف الامر عند طرح النموذج الايجابي ، وانما فات ذلك الى معالجة وتطوير وسيلة الادب الرئيسية ، فاقترب بها ــ على ما قدمنا ــ من لغة رجل الشارع والمصنع ، والحقل ، دون ان ينتهي بها

الى مـا يكـرس واقع التجزئة .. ويبرر نزعات الانفصال والتأقلم الضيقـة ، متمثلا في ذلك بعدي الثورة العربية المعاصرة : البعـد الجماهيري الذي يشكل جوهرها وقوة الدفع الذاتي فيهـا والبعـد القومي الذي يحدد الاطار الذي تتحرك داخله والافق الذي تسعى اليه.

ولعل تعدد الانماط الادبية وظهور اشكال فنية جديدة ، هي ابـرز ما وفق اليه ادبنا العربي المعاصر في استجابته لدواعي الثورة العربيـة المعـاصرة ومطالبهـا التاريخيـة المرسومة فلاول مرة يخرج ادبنا العربي عن آفاقه الغنائية الثرية الى حيث فنون الادب الموضوعي التي لم نألفها بالامس كالروايـة والمسرحية ، والقصة القصيرة ، بل ان المسرحيـة اليوم ، لتكـاد تزحم الشعـر ميدانـا واثـرا في اكثر مـن ساحـة عربية . وكذلك هو شأن القصة القصيرة ،والى حد ما الروايـة .

ودونمـا ريب ان هذا التعدد وذلك التنوع في اشكال التعبيـر، انما هو من مستلزمـات الثورة المعاصرة ، حيث لم يعـد الشعر وحـده ـ بما يتسم به من ذاتية في الرؤيـا والتعبير ، قادرا علـى تمثـل ابعادهـا واستيعاب مضامينها المعقدة بروح موضوعية خلاقة . ومن ثـم وجدنـا حتى الغنائيـة في الشعـر تكتسب ابعادا درامية او روائيـة عند عدد من افضـل شعرائنـا الجدد .

ان عصر الصناعة والتكنولوجيا الرهيبة ، يتطلب انماطا فيالتفكير واساليب في تمثل الحقيقـة والتعبيـر عنها ، لا يمكـن للصيغ القديمة في التأمل الذاتي المنعزل والتصور السكوني او الثابت : ان تنسجممعها بحال . ولذلك جنحت وسائل التعبير وصيغ الاداء الفني والذهني الى الموضوعية في الرصد والتركيب في استبطان الظاهرة او الحدث وهو نام تحرك فاعل في محيط علاقاته المتعددة وارتباطاته غير المحدودة .

فاذا كان الاخذ باسباب الصناعـةوالبناء التكنولوجي والعلم ،هو مـا يلزمنـا المظهـور على كل عواملالتخلف والضعف والتبعية والتجزئة اذ ليس ثمـة من سبيل غير ذلك في حدود امكانات عصرنا التطوريـة، فـان اتساع ساحـة الادب العربي لفنـون الادب الموضوعي والانتقـال بالشعـر الى حيث غلبة الطابع الدرامي او الروائي ، لا يقتصر علـى استيعاب ضرورات التحول الثوري ومطالبه في حقل الابداع الفنـي والادبي وانمـا يجوز ذلـك الى النهوض بمهمـة اعداد الانسان العربي لما تقتضيـه الثورة من موضوعية في الرصد وتركيب في الرؤيا وعمـق في الفهـم .

من هنا كان اسهام ادبنا العربي المعاصر في المعركـة المصيرية التي نخوضهـا ضد قوى العدوان والغزو الامبريالي ـ الصهيوني ، فباغناء وعي الانسان العربيوحمله على الرؤيا التركيبية والرصد الموضوعـي والاستيعاب الحي للحقائق والاحداث اليومية ، يقوم الادب بتهيئـة انساننا العربي المعاصر لمعركـة المصير وهو في هذا يسبق الوقائـع والتحولات الماديـة في الارض العربية ، متمثلا فيذلـك روح العصر ومطالب التمديـن الحديث .

وقد يجدر بنا ـ ونحن بصدد الحديث عن الادب ووسائلهالتعبيرية في معركـة المصير ، ان نعرض لمـا تعج به الارض العربيـة اليوم مـن تيارات ادبيـة متضاربة ، هي في مجملها اصداء متفاوتة بما جرى ويجري في اوروبا في اعقاب الحربين العالميتين المنصرمتين .

ولئن كان مـن غير الطبيعي او المنطقي ان نحول دون انتقال الافكار وتلاقح الثقافات والتجاريب ، فانه من غير المنطقي ايضا ان نترك الحبل على الغارب ازاء ما يستجد ويشيع من مواقف الفكر والادب ، فلا نرقب ما يجري فيهذه الارض المبتلاة بتآمر اعداء الانسان من مزادات محمومة لقتل روح هذه الامة وتشويه فكرها وتراثها ، بقصد اشاعـة روحالتواكل واليأس بين صفوفها واغتيال كل بادرة واعدة او احتوائها ،ليسهل بذلك احكـام القبضة على مقدراتهـا وامتلاك ازمة قيادها .

ذلك ان هذه التيارات ـ على فرض حسن النية ـ تتوزع بينعدمية لا تؤمن بشيء او تقـر بقيمة ، ونهلستية تكفر بكل شيء ولا تقف عنـد حـد في رفضهـا وجموحهـا الفوضوي ، وميكانيكيـة تنحط بالانسان ووعيه الى درك سحيق من جبرية عمياء يقع منهـا الانسان موقع الظاهرة الفيزيقيـة من قوانينها حيث تتصرف به وبوعيه قوانين التداعي بشكـل موغل في العبث واللانظام الى غيـر هذه وتلـك من الدعوات الشكليـة التي تنفي الانسان وتلغي وعيه وتنكر عليه قدرته على الفهم وطاقته فـي الاختيار او ممارسـة الحرية التي كتب عليه ان يكونهـا في كل مـا يقوم به او يصدر عنـه .

وتلتقي كل هذه التيارات والدعوات ، بالاضافة الـى مواقف التشكيك بقدرات الامة والكفر بتراثها وانسانها العظيم على تأليه الشكل وانكار مـا للمضمون من قيمة في بناء الاثر الادبي او الفني ، حتى لقد ذهب احدهم الى الزعم بان مهمـة الشاعـر هي ان يفجر الثورة داخـل اللغـة لا في المجتمع اذ ان هذه مهمة السياسي لا الشاعر .

والحقيقة ان الدعوة الى فصل الشكل عـن المضمـون في الادب والفن ، ليست بالجديدة وانمـا تمتد بعيدا في رحم الماضي لتصلالى الفيلسوف الالماني عمانويل كانت (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) حيث ذهب اواخر القـرن الثامـن عشر متساوقـا مـع فلسفته في الوجود في ذاتهولذاته ـ الى اسقاط المضمـون قيمة في العمل ، واقتصر على الشكل زاعمـا ان الخلق او التجديد في الفن والادب انما يقوم عليه ، وليسللمضمون ايمـا علاقـة في ذلك ولقـد اخذت عنه هذا الزعم كل المدارسالشكلية Formalism التي زخرت بها اوروبا اواخر القرن التاسع عشر ، وقبيل الحرب الكونية الاولى ،ثم في اعقاب الحرب الكونية الثانية .

بيد انه اذا اتسعت سوق اوروبا لمثل هذه الدعوات ، فلانها كانت تعكس جانبا منحياتها القائمة وتدفعهن قواها المغرقة في العدوانوالنهب الاستعماري . ذلك ان الدعوة الى تأليه الشكل وفصله عن المضمون ،انما تستهدف اساسا اسقاط المضمون ،ومن ثم اسقاط الفن والادب باعتبارهما احدى اخطـر واقدر وسائل الانسان للاتصال بالواقع وامتلاك ضرورات تحركه وصيرورتهفهي اذن ـ محاولة لانتزاع ابعد اسلحة الانسان والثورة آثارا واوفرهـا في معارك الانسان الفاصلـة .

اما بالنسبة لنا .. فليس لمثل هذه الدعوات ان تنسجم ومطالـب المعركـة القاسيـة التي تخوضها جماهيرنا ضد قوى العدوان والغـزو في مختلف اقطار العروبة ، وخاصة في فلسطيـن المحتلـة حيث تقف طلائع الثورة الفلسطينية المقدامة وجها لوجه امـام اعتـى واشرس استعمار استيطاني عرفه تاريخ الانسان الحديث ذلك ان محاولة تعطيـل الادب ، وهو طاقـة عظيمة في معركتي التحرير والبناء لا يمكـن لهـا الا ان تخدم اعداء الامة ، والا ان تقـود الى تكريس كل اسباب التخلف والضعف .

من هنا كان حقا لنا ان نقف من هذه الدعوات موقف المرتابالحذر بل والرافض كذلك . بيد ان هذا لا يعني ان ننتصر لقوى الردة الادبية والمدارس التي تحاول ان تحجر الزمن فتقف الفنون والادابعند قيـم الماضي واساليبه . اذ بهذا سنكـون كمـن انتقل بمواقفه من اليمين الى اليمين . في حيـن اننا ملزمـون بان نتلمس مواقعنـا حيث يكـون الخلق والتجديد الاصيـل في الادب والفن ، والا فمالنا ان نزعم القدرة باعتبارنـا ادباء وفنانين ،على اعادة صياغـة الانسان العربي المعاصر .. وترسيخ علاقته بالمجتمع والطبيعـة على اسس جديدة من الفهمو الاكتمال الذاتـي والوحـدة .

ان معركة المصير تقتضينا ان نوقظ في الانسان العربي كل عناصر القوة ونوازع التحدي الهادف والرفض الثوري ، وان نرتفع برصدنـا واستيعابنا للظاهرة او الحدث الى مستوى التعقيد الذي صارت اليـه الآلة الحديثة والفهم التركيبي الذي انتهى اليـه العلم ، وان نعيـد بنـاء علاقـة الفرد بمجتمعه على اسس جديدة راسخة من الفهـم

والمشاركة الايجابية والحب ، وان تفجر اللغة اليومية ينابيع العطاء الفني والادبي الفني دون ان يقودنا ذلك الى تكريس واقع التجزئة باعتماد اللهجات المحلية لاغراض آنية ومطالب عابرة .

ان احتدام الصراع بين جماهيرنا الكادحة واعدائها من امبرياليين وصهاينة وعملاء يتطلب منا ان ندخل بالكلمة المبدعةميادين المعركة فنقاتل بها كما يقاتل الجندي ببندقيته ،والا فليس لما نكتب ونقول ان يكون غير بطر عابث وترف لا مبرر له .

واذا كان للانسان ان يتشكل بهذه الصورة او تلك من خلال وعبر شبكة علاقاته وارتباطاته بما ينتظمه ويحيط به من ظروف واحوال مادية وروحية ، فان انساننا العربي هو اليوم من موجوده الاجتماعي وملابسات ثورته السياسية ومطالب صيرورته اليوم وغدا ، لا يمكن له الا ان يكون ايجابيا صلبا في مواقفه منفتحا على الاخرين غير منغلق على نفسه فيما يأتيه من فكر او حس ، والا فماله ان يتمثل جوهره الفاعل ويتميز عما حوله من موجودات . ومن ثم .. فما يعيشه العربي من مشاعر الاغتراب والتوحد ليس لها ان تفضي الى انغلاقه على نفسه وانحباسه في شرنقة ذاته الضيقة وهمومه الخاصة ، وانما لا بد لها ان تكون اساسا ثابتا ومنطلقا مكينا لرفضه وتمرده وثورته بكل ما يمنعه ان يمتلك انسانيته .

واذا كان للادب ان يكون حقا وفعلا قوة مغيرة في حياة الانسان والمجتمع فانه ملزم بان يستوعب ذلك يتقدم بنماذج وقيم ومعايير تكرس كل ما من شأنه ان يرتفع بوجود الانسان العربي اتفرد التي سمت الثورة ... ويتخذ من معطيات محيطه وبيئته المتفجرة مادة حية لما يبدع من آثار تحتاج اليها الارض العربية في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخها النضالي العنيد .

على ان هذه المهمة ان توفر للادب الثوري ان ينهض بها ، فان يتوفر للمدارس الشكلية ان تصير منها الى شيء اللهم الا ان سهم اسهاما فعليا في تعتيم الرؤيا وتأصيل كل مسفح زائل او عار مريض. ذلك ان ليس لهذه المدارس التي تحط بالانسان الى حضيض الظاهرة الفيزيقية غير الحية ولا الواعية ، ان تعبر عن واقع الاغتراب الذي يعيشه العربي من محيطه ومجتمعه مثلا بما ينفيه ويجتث مسبباته . ذلك ان هذه المدارس انما درجت منذ ان كانت ـ على اعتماد الاغتراب وما تتركه في الفرد من احاسيس حادة . وهواجس مضطربة اداةفي تشويه الفرد وقتل نوازع المقاومة والفصل لديه وذلك عن طريق تأجيج كل مشاعر النفرة والحقد والبغضاء واللامبالاة .. وبوضع الفرد، بوجوده من كل اولئك ، مقابل المجتمع وعلى الضد منه ، وبالوصول بحالات التمرد والرفض الى ضرب من المشاكسة العابثةوالعدميةالمحضة.

ومهما يكن .. فانه قد يطول بنا الحديث في هذا الشأن ..وقد يضطرنا ذلك الى ان نضرب بعيدا في العديد من ملابساته وقضاياه ولا احسب ان المقام يسمح بذلك . ولذلك رأيت ان نقف عند هذا الحد من الرصد ، تاركين لفرصة اخرى ان يتسع لنا فيها مقام فنقول الذي نراه في موضوع استيتكي يتشعب فيه الاجتهاد ويتعدد الرأي حتى ان المرء لا يكاد يقف في ذلك على رأي واحد . على ان الثورة العربية المعاصرة ـ على ما قدمنا ـ استطاعت ، شأن كل الثورات ان تفرض النمط والصيغة التي تراها لادبها .. فتاتي في كل مرحلة بما يلائمها من الادب اداء ومضمونا . ومن ثم كان هذا التنوع في الاصناف الادبية واساليب التعبير الفنية التي تزخر بها ساحة الادب عندنا اليوم .

من حضارة الشعر... الى حضارة العلم !

بقلم الدكتور
أبو القاسم سعد الله

اثر نكبة جوان (يونيو) ١٩٦٧ ظهرت في المجال العربي عدة افكار انتقد اصحابها الاوضاع العربية الفكرية والسياسية والاجتماعية، ودعوا الى خلق جو جديد يتلاءم مع متطلبات العصر . لان المعركة ، في نظر هؤلاء قد كشفت عن ضعف خطير في الحياة العربية المعاصرة بالمقارنة الى حياة اعدائنا . وقد كانت هذه الانتقادات مفيدة مثيرة ولكنها لم تذهب الى ابعد الحدود ، فتدعو الى القيام بثورة ثقافية عربية شاملة قوامها القلم الصادق والتواضع الخلاق ، والجدية البناءة .

حقا ان تلك الانتقادات للاوضاع العربية الراهنة التي كشفت عنها حوادث جوان قد فتحت المجال امام النقد الذاتي . ولكننا كنا ننتظر منها ان تواصل نفس الطريقة باسلوب اكثر فعالية ودعوة اكثر صراحة ، واذا كنا نعترف بان بعض النظم العربية لم ترحب بهذه الانتقادات ، بل لقد ذهب بعض هذه النظم الى كبتها وخنقها ، فان ذلك لا يعفي الكتاب العرب ، وهم طليعة هذه الامه ، من مسؤولية خطيرة يتحملونها امام الشعب الذي ينتظر منهم الكثير ...

ولا بد قبل المضي من وقفة قصيرة لنعرف مفهوم الثورة الثقافية العربية ، ولعلنا لا نحتاج الى كثير من التعريفات القاموسية وحتى الايديولوجية في هذا المجال ، ويكفي ان نلجأ الى تعريف للثورة هو التغيير والتطوير والتحول ، وقد يعرفها البعض بالانقلابية وخلق اوضاع جديدة مغايرة للاوضاع الراهنة . والثورة الثقافية كما تكون حمراء ، مصحوبة بضجيج وعنف وارهاب او بقليل من ذلك مع رفق وتسامح وتوجيه حكيم ، وليس من الضروري ان تكون الثورة الثقافية مرتبطة بالانقلابية السياسية والارهاب العسكري اذ الثورة تعني قبل كل شيء ، نقد الاوضاع والمفاهيم الحضارية الراهنة والدعوة الى خلق مفاهيم جديدة . وقد يصحب هذه الدعوة صراع حاد لا بين القديم والجديد كما قد يتخيل البعض ولكن بين نوعين من الحياة واسلوبين من المعيشة .

اما الثقافة فنعني بها المعنى العلمي القائم على التفكير الواعي المشارك الخلاق ، واما الثقافة بمعنى الفنون والاداب الراقية فهو مفهوم ضيق خاص نود ان لا يشمله هذا التعريف ، والثقافة التي ندعو اليها تؤمن ايمانا قويا بالتحول الجذري على مستوى الاداب والفنون ايضا ، وتدعو الى الارتفاق بها الى العملية والايجابية والتخلص من الروح الطبقية الضيقة .

وهنا نصل الى النقطة الثالثة من هذه التعاريف وهي «العربية» ان الامة العربية تعيش في ظروف خاصة لا تعيشها مثلا.امة الصين ولا امة روسيا ولا امة امريكا . ومن الواجب علينا العناية بدراسة اوضاعنا الخاصة في نطاق حاجات امتناالى مواجهة تحديات العصر والعيش في امن وعزة وسلام . لذلك وجب ان ينطلق مفهوم « الثورة الثقافية » من نقطة ارتكاز عربية بالدرجة الاولى ، ولكن هذا لا يعني الانعزالية والانغلاق على ما يجري في العالم من هزات فكرية لا بد ان تؤثر فينا ولو كرهنا .

وانطلاقا من هذه التعاريف التي قلنا بانها ليست قاموسية ولا ايديولوجية بل وليست علمية دقيقة ، يمكن ان ندخل في صميم الموضوع ، ونتناول ما نريد من الثورة الثقافية العربية . ويمكننا ان نقسم هذا الموضوع الى قسمين : قسم يعرض وينقد بعض اوضاعنا الحضارية المعاصرة ، وقسم يقدم بعض الاقتراحات التي نظن ان هذه الثورة يجب ان تنطلق منها ونبدأ بها .

ان اهم ما يميز حياتنا العربية المعاصرة هو السلبية . اننا نشاهد ونعيش احداثا كبيرة تجري من حولنا دون ان نحس بها او نتدخل فيها . فعلى الصعيد العربي نجد اوضاعا سياسية واجتماعية واقتصادية تطرأ على مجتمعنا من وقت لآخر دون ان يكون لنا فيها كلمة او رأي . وما زال اكثرنا يعيش في انعزالية تامة عن هذه الامور كأنها لا تعنيه او لا تقرر مصيره . وعلى الصعيد العالمي كذلك تتجدد كل يوم الصراعات على مناطق النفوذ ونشر الايديولوجيات وتقدم العلوم ، ونحن لا نزال في قدرية صامتة امام هذه الامور التي يمكن ان نسميها بتحديات العصر .

وتحديات العصر هذه كثيرة متنوعة ، ولعل من اهمها التقدم العلمي والتحول التقني الذي يغير حياة الانسان المعاصر واعل من اهمها ايضا هذا الغزو الصهيوني الامبريالي لبلادنا . ان البعض لا يزال يغط في التقاليد فيرى التقدم العلمي جناية على « الروح الشرقية » الهادئة « وحضارة الشعر » العريقة ، وكفرانا بالطبيعة والانسان ، ويرى في الغزو الصهيوني الامبريالي درسا وامتحانا « لابد » ان يزولا وان يد الله التي ازاحت كل الصليبيين عن الشرق منذ قرون قادرة ايضا على ازاحة الوحش الصهيوني عنه في القرن العشرين . ان هذه الروح السلبية التواكلية ، او ما نسميه بروح حضارة الشعر والروح الشرقية ، هي شر لا بد من محاربته ، وهي مرض لا بد من التخلص منه .

وقد تكون ظاهرة التخلف المتولدة عن قرون من الجمود الفكري والسياسي والاضطهاد الاستعماري اكثر ظواهرنا المعاصرة خطورة على مستقبلنا ومصيرنا . والتخلف الذي نعنيه يتجاوز انخفاض مستوى المعيشة والهبوط الفكري لدى المثقفين والحكم المطلق في السياسة . ان هذه الامية متفشية الى أقصى حدود التفشي لدى جماهيرنا العربية . واذا استثنينا القليل من الجهود التي تبذلها بعض المصالح العربية ، فان الامية في مجتمعنا قد بلغت حدا مخيفا يجعل اي نوع من انواع المشاركة الفعالة لهذه الجماهير في معركة المصير غير مأمونة العواقب ، وغير ذات اهمية . ومن الجناية على هذه الجماهير ان ثرواتها الطبيعية ومصادر دخلها الاساسية تصرف في شتى انواع البذخ والترفيه على أقلية محظوظة وطبقة ممتازة في عصر نحن في اشد الحاجة فيه الى الثقافة الشعبية ونشر الوعي وازالة الحواجز الطبقية وتكوين مجتمع « الصالح العام » .

ولا بد من الالحاح على هذه الطبقية الثقافية التي تميز واقعنا العربي . وليس بخاف ان قرون الجمود وسنوات الاستعمار المظلمة قد مكنت لطائفة من الشعب العربي ان تسمن فكريا كما سمنت اقتصاديا . وبذلك تكونت « نخبة » ممتازة في ميدان الفكر والثقافة كما تكونت « اقطاعيات » ممتازة في ميدان الاقتصاد والاجتماع . واذا كانت هذه الاقتصاديات قد بدأت تتساقط كأوراق الخريف في الوطن العربي ، فان النخبة الثقافية ما تزال تمد جذورها وتبسط نفوذها ، وسوء التوازن بين التقدم الاجتماعي والاقتصادي الذي احرزت عليه بعض المناطق العربية وبين النخبة راجع الى هذه الظاهرة . ان هذه النخبة العربية ما تزال تجد مصالحها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالاستعمار ومع القوى المعادية للثورة العربية ، لكونها في الواقع مدينة له بوجودها وامتيازاتها وتوجيهها .

ويتصل بهذا الارتباط بين النخبة الثقافية وبين الاستعمار هروب او هجرة المثقفين من الوطن العربي الى الخارج . نحن لا ننكر ان هناك مثقفين شرفاء حاولوا التعايش مع اوضاع بلادهم السياسية والاقتصادية فلم يفلحوا ، فلم يسعهم الا الهجرة لما لديهم من فكر وما حصلوا عليه من ثقافة علمية نادرة . ولكن يجب الاعتراف بان كثيرا من هؤلاء المثقفين الممتازين تصلح فيهم كلمة « هروب » اكثر من كلمة « هجرة » فهم لعدم التزامهم بمصير امتهم ولشعورهم بانهم طبقة ممتازة وسط جماهير متخلفة فضلوا العيش حيث يجدون الراحة والثروة والامكانيات وحرمان شعبهم الذي تثقفوا على حسابه من مواهبهم ومساهمتهم في انقاذه من براثن التخلف . وعلى اية حال فان هذا لا يعني اطلاقا تبرير موقف بعض النظم العربية في محاربة هذه النخبة وسد الطريق في وجهها على المستوى المحلي .

واذا اردنا الصراحة في هذا المجال نجد ان روح التقليد تغلب على المثقفين اكثر من غيرهم من طبقات الشعب . وهذه نقطة خطر . فالتقليد لدى الجماهير لا خطورة فيه اذا قورن بالتقليد لدى المثقفين . ولعل اهم ما يميز ما وصفناه « بحضارة الشعر » هو الرتابة والتكرار والحشو والخيلاء والنفاق . والرتابة في بحور الشعر واجترار الابل انعكست عندنا على طريقة تفكيرنا وحكمنا على الاشياء . ولو احصينا انتاجنا من المدائح والاهاجي والمفاخر ، وهي انواع من الكذب والنفاق والتكبر الفارغ ، لوجدناه يزيد على ثلثي انتاجنا الشعري عامة . اما نثرنا فان اساسه وعموده الشروح الدينية والتلفيقات الصوفية ، ونسبة الانواع الاخرى فيه ضئيلة جدا .

وتنسحب روح التقليد والرتابة والاجترار على انتاجنا الجامعي ايضا . فالمفروض اننا في عصر البحث العلمي ، والدراسات الجامعية المعمقة الرصينة تكون قد تجاوزنا عهد « حضارة الشعر » الى عصر « حضارة العلم » ، ولكن كل الدلائل تدل على ان ابحاثنا الجامعية ما تزال تتخبط في التقليد ، وما زلنا ندرس الشعر والنثر الفني على طريقة ابن رشيق والجرجاني ، والتاريخ والجغرافية على طريقة ابن الاثير وياقوت الحموي ، والاقتصاد على طريقة « اليوم خمر وغدا امر » والنحو على طريقة سيبويه ، وهلم جرا .

وما زلنا نحكم على جودة العمل الجامعي بما يحتوى عليه من عدد الصفحات لا بما فيه من افكار جديدة .

ومع ذلك نحن متمذهبون متحمسون لهذا المذهب او ذاك ، نتراشق من اجله بالكلمات ونتخاصم على اساسه ، ونقيم من أجل ذلك احزابا وشيعا وطوائف ، وقد يزداد الامر خطورة فنقيم من اجله متاريس على الحدود أو ندخل في حرب ساخنة . ان الانتماء الايديولوجي بالمفهوم الصراعي الدولي خطر يهددنا من الداخل . وفي اعتقادنا ان الامة العربية لها من امكانياتها الفكرية ما يمكنها به ان تشق طريقها مستقلة عن الانتماءات الايديولوجية الحادة ، ولا سيما في المرحلة الراهنة من تطورها .

ولكن القارىء قد يتساءل : اذن ما العمل ؟

ان الجواب على ذلك بسيط وصعب في نفس الوقت . انه بسيط لاننا تعودنا ان نتساهل في اصدار القرارات والتوصيات العامة التي تخرج من الشفاه لا من القلوب ، وتعودنا كذلك ان نعبر عن سعادتنا واغتباطنا بلقاءاتنا في ذاتها ، دون تقدير لعواقبها . كما تعودنا ان نورد عبارة « المصير العربي » و« معركة المصير » و« القضايا المصيرية » ونحو ذلك من الالفاظ والتعابير التي اوشكت ان تفقد قيمتها وتصبح مبتذلة ، رغم انها حقا خطيرة المدلول لو اعطيت حقها من العناية والجدية ، ولكن هذا ، على كل حال ، هو جزء من مواقفنا السلبية وميزاتنا اللفظية ، اي انه جزء من « حضارة الشعر » .

والجواب على ذلك صعب ايضا لانه يفرض علينا ان نغير من سلوكنا وان نفكر بطريقة جديدة . وهنا نعود الى اصداء نكسة ١٩٦٧ في النقد الذاتي والدعوة الى العلمية . ان ذلك هو صميم الموضوع . انه يمكن ان نختلف في قيمة النصر او الهزيمة ولكن لا يمكن ان نختلف في معناهما ، ومع ذلك فالعقل العربي المعاصر ، العقل الشعري اذا صح التعبير ، قادر على ان يختلف حتى في معنى النصر او الهزيمة وان يعكس المفاهيم فيجعل تشرق الشمس من المغرب وتغرب من المشرق ، كل ذلك تحت تأثير « حضارة الشعر » و« حداء العيس » .

واذا كنا لا نؤمن بالخوارق في اشياء كثيرة فاننا نؤمن اشد الايمان بان العقل الانساني قادر على صنع المعجزات . وآيات العلم تبهرنا كل يوم بمعجزاتها وخوارقها فنصدق خاشعين خاضعين مكبرين ومحوقلين . فالله الذي شاء ان يكون عبقر وعكاظ هو الذي شاء ان تكون سفن وصواريخ الفضاء وقنابل الذرة والهيدروجين .

وفي هذا الاطار يمكننا ان نتساءل : الا يمكن القيام بثورة ثقافية عربية ؟ لماذا لا يكون منطلق هذا المؤتمر تحديد معالم هذه الثورة ورسم اهدافها والشروع في تنفيذها ؟

هل نظل هكذا نصدر التوصيات والقرارات التي ينسي بعضها بعضا وينسخ احيانا بعضها بعضا ؟ أليس بامكان العقل العربي المعاصر ان يتخلى عن تقاليد حضارة الشعر الى آفاق حضارة العلم ؟ بلى ، اننا نعتقد ان ذلك ممكن ، بل واجب . كما نعتقد ان في امكان الكتاب العرب ان ينقضوا على العهد بان يدخلوا فعلا في معركة ضد التخلف ، واللفظية ، والامية ، والامبريالية والصهيونية والتبعية . وهذه بعينها هي ابجديات الثورة الثقافية والخروج من حضارة الشعر .

ويجب ان يكون واضحا اننا لا نرفع الثورة الثقافية كشعار . ان

ذلك أبعد ما يكون عن هدفنا . ان الثورة الثقافية عندنا هي قبل كل شيء ايمان بضرورة التحول الجذري في المجتمع العربي ، وهي ثانية عمل دائب صامت متواضع نراه في نتائجه ولا نسمع ضجيجه . والثورة الثقافية على هذا الاساس لا يتبناها ويتحمس لانجازها الا مثقفون ثائرون . وقد يقول قائل انك تبني على الرمل وتسبح في الهواء لانه لا وجود لمثقفين ثوريين في الوطن العربي الا ما شذ . والجواب على ذلك انني حذرت منذ البداية من الفكرة الطبقية في الثقافة لانها خطر لا يقل حدة عن الرجعية في السياسة والردة في العقائد. وعلى الجيل الصاعد من المثقفين ان يعلنوا الحرب على«الاجتراريين» في الثقافة كما اعلنوا الحرب على المترددين في السياسة ، و« المنحرفين » في العقائد .

والواقع ان تحقيق الثورة الثقافية اصعب واشق من تحقيق الثورة السياسية . ولاضرب مثلا على ذلك بالجزائر . فالجميع يعلم مدى قسوة الثورة التحريرية وطولها وضحاياها من البشر والمدن والثروات الطبيعية والمصالح الحيوية . ومع ذلك فالجزائريون اليوم قد يشعرون بأن ذلك كان اخف وطاة واهون مسؤولية من الصراع من اجل اعادة المكانة للغة العربية وللشخصية القومية . لذلك اصبح تحقيق التعريب الشامل في جميع مستويات التعليم ، والقضاء والادارة مطلبا حيويا وشرطا اساسيا لتحقيق الثورة الثقافية التي هي قضية الساعة هناك .

ويتبع ذلك العمل الدائم على استعادة الشخصية الوطنية وبعث التراث ، كل ذلك بعقلية متفتحة لا تنسى ابدا التزاماتها نحو التقدم الانساني العام والاستفادة من انجازات العقل البشري في مختلف العصور .

فما الذي يمنع ان يقوم العرب ، وعلى راسهم ادباء الطليعة، بثورة ثقافية على مستوى الوطن العربي ؟ اننا نعتقد ان ذلك ممكن ومحتم .

ويمكننا ان نلخص اهداف هذه الثورة فيما يلي :

١ ـ خلق ادب جماهيري متحرر من الارتباطات التقليدية والطبقية ويجب ان يكون واضحا اننا لا ندعو هنا الى ادب سوقي وضيع.

ان الجماهيرية في الادب لا تعني اكثر من ان يكون انتاج الاديب في خدمة اكبر عدد ممكن من افراد المجتمع .

٢ ـ ولكي تكون السمة البارزة لهذا الانتاج هي الروح العلمية المتفتحة ، فان على ادباء الثورة الثقافية ان يرفضوا الخرافيات والقدريات وان لا يقبلوا الانغلاق على ثقافة ضيقة يتوقعون فيها اصدارا وايرادا . ان مستقبل الامة العربية مستقبل عالمي انساني ، لذلك وجب على ادباء هذه المرحلة ان يبشروا بهذا المستقبل الشامل الواعي المنفتح .

٣ ـ ولتحقيق ذلك لا بد من تكريس جميع جهود الامة العربية الفكرية وحشد طاقاتها المعنوية .

وهذا يستلزم العمل على استعادة النخبة المهاجرة وافساح المجالات امامها لكي تنتج على المستوى القومي بدلا من ان تظل مشردة تعمل لحساب امة اخرى قد تكون عدوة للامة العربية .

وافساح المجالات يعني توفير الحرية الضرورية للانتاج وتوفير شروط العيش الضرورية .

٤ ـ وعندما يتحقق ذلك يكون باستطاعة الثورة الثقافية ان ان تشق طريقها باعصاب قوية مدعمة بالعلم . ومن هنا يتحتم على هذه الثورة ان تنبذ كل ما هو شعري او انشائي في التفكير . فالروح العربية الجديدة يجب ان تكون قائمة على الايمان بالانسان وعلى الانسان وان تتيح المجال لثورة العقل لا العاطفة . ومن هنا كان علينا ان نتخلى عن الروح الشعرية الى الروح العقلية اذا صح التعبير.

٥ ـ ولا تستطيع الامة العربية ان تشق هذا الطريق الصعب الا بالقضاء على الامية ومحاربتها . ومن المسلم به انه لا يمكن للامة ان تفاخر وتنتصر اذا كان ثمانون او تسعون بالمائة منها اميين ، وعلى هذا الاساس يكون مبدأ الثورة الثقافية الذي لا يقبل المناقشة العمل على نشر التعليم على اوسع نطاق والارتفاع بهذا التعليم الى مستوى العقل الرياضي لا الروح التقليدية ، اي ان يكون علميا جماهيريا حيا هادفا وليس مجرد خلق قراء او اتباع يسافون بالكلمات الجوفاء والعبارات الساحرة .

٦ ـ ولا بد من سلاح حاد اخر تشق به الثورة الثقافية طريقها ، وهو البحث العلمي المجرد .

ان انتاج الرسائل الجامعية يجب ان لا يقاس بكثرته بل بمفعوله ونوعيته وجدته ، والرسالة الجامعية ليست غاية في ذاتها بل هي بداية في طريق صعب وهو طريق الاكتشاف والبحث المتواصل . ويجب ان تخرج رسائلنا من طريقة التراجم الشخصية وجمع المعلومات العامة وتحقيق ما انتجه القدماء ، وان تتجه الى الابداع والعمل الذاتي والاكتشاف الذي لا يكون الا بعد معاناة وتجربة عميقة مرة.

فالبحث العلمي في الحقيقة هو اساس الثورة الثقافية وسلاحها الى المستقبل .

٧ ـ ومن اهم وسائل تحقيق الثورة الثقافية وفي نفس الوقت من اهم وسائل البحث العلمي اجادة اللغات الاجنبية والاستفادة منها تدعيما للغة العربية ودفعا للعقل العربي . وهذا لا يعني الغض من قيمة اللغة القومية .

ان العمل على ان تكون العربية لغة علم معاصر هو من اؤكد واجبات الثورة الثقافية ، ولكن هذا لا يعفينا ابدا من مهمة الاستفادة من اللغات الاخرى ولا سيما في مجال البحث والدراسة.

وهذا لا يعني ابدا اننا اتينا على كل ما يجب على الثورة الثقافية ان تقوم عليه وان تحققه . فما يزال هناك فراغات في الوسائل والاهداف نامل ان تملاءها عن طريق المناقشات الحرة البناءة . وهدفنا من اثارة هذه القضية طرح موضوع نعتقد انه في منتهى الخطورة اذا كنا نريد لامتنا ان تتخلص من عصر الشعر والخطابية والعاطفية وان تتجه الى عصر العلم والبحث والاختراع .

وليس هذا البحث سوى مساهمة في هذا المجال . ولدينا الثقة في ان الاديب العربي ، الاديب الواعي لمسؤولياته القومية ، سيكون في طليعة الداعين الى تحقيق هذه الثورة الثقافية على مستوى الوطن العربي .

(الجزائر) ابو القاسم سعدالله

الكتاب العربي ومشكلات النشر والتوزيع

بقلم منير البعلبكي

الكلام في هذا الموضوع متسع ومتشعب .

متسع لان مجاله هو الثقافة نفسها ومشكلاته هي مشكلات الثقافة في الوطن العربي .

ومتشعب لانه ينتظم صنوفا من القضايا نادرا ما تندرج تحت موضوع مفرد او مبحث محدد .

من اجل ذلك يحسن بنا ان نسارع الى القول ان هذا البحث لا يعدو ان يكون عجالة قلم مجرد المام ببعض اطراف الموضوع ، مع توكيد على الاصول دون الفروع .

آ ـ مشكلات النشر

ونبدأ بمشكلات النشر

ـ ١ ـ

في رأس هذه المشكلات مشكلة هزال كمية المطبوع من الكتاب الواحد .

فمعدل المطبوع من الكتاب العربي اليوم يتراوح ، في احسن الحالات ، ما بين ثلاثة آلاف نسخة ، ولا يستثنى من ذلك غير بعض الكتب المدرسية والدينية والجنسية والمعاجم .

ومرد ذلك الى الامية ، في المقام الاول ، على تفاوت في ذلك بين قطر عربي وآخر . وهنا يحسن التبسط بعض الشيء .

ان عدد العرب الاحياء يبلغ نحوا من مئة مليون نسمة . وهو رقم ضخم خليق به ان يحتل ، في ايما جرد شامل لاعداد المواطنين في بلدان المعمور منزلة عالية جدا . فقليلة هي الامم التي يبلغ عدد ابنائها مئة مليون او يزيد .

وهذه الامم هي على التوالي : الامة الصينية (٧٥٩ مليونا) ، فالامة الهندية (٥٥٠ مليونا) ، فالامة الروسية (٢٤٢ مليونا) ، فالامة الاميركية (٢٠٥ ملايين) ، فالامة الاندونيسية (١٢١ مليونا) ، فالامة الباكستانية (١١٤ مليونا) فالامة اليابانية (١٠٣ ملايين) * . أي ان الامة العربية تجيء ، من حيث تعداد المواطنين ، في المنزلة الثامنة بين امم الارض ...

هذا من ناحية . ومن ناحية ثانية فان عدد العرب الاحياء يبلغ ضعف عدد سكان فرنسا (٥٠ مليونا) ، وضعف عدد سكان ايطاليا (٥٢ مليونا) ، وقرابة من ضعف عدد سكان بريطانيا (٥٥ مليونا) ، والمانيا الغربية (٥٩ مليونا) .

ومحصل هذا كله اننا لا نشكو ، والحمد لله ، قلة في الانفس . ولكن انتشار الامية بنسبة ثمانين في المئة بين العرب المعاصرين يهبط بجمهور الكتاب العربي ، من وجهة نظر نظرية طبعا ، الى عشرين مليون قارىء آي الى قريب من عدد سكان رومانيا او اثيوبيا .

فاذا اعتبرنا توزع اهتمامات هذا الجمهور ، الصغير نسبيا ، على مختلف موضوعات المعرفة ، واضفنا الى هذا الواقع نوعا من الامية هو امية المثقفين ـ هذه الامية التي تجعل متخرجي الكليات والجامعات ينقطعون عن المطالعة بعد نيلهم الشهادة الجامعية ـ اقول اذا اعتبرنا هذا كله لم يبق مجال للعجب من هبوط معدل المطبوع من الكتاب العربي الواحد الى المستوى الذي ذكرنا .

والحق اننا لا نزال حتى في الثلث الاخير من القرن العشرين امة امية ، وفي احسن الحالات ، امة لا تقرأ . وان قراءنا في الاعم الاغلب طلاب المدارس الابتدائية والثانوية وطلاب الجامعات . ومن أسف ان قطاعا كبيرا من هؤلاء لا يكادون يتقنون واحدة او اكثر من اللغات الاجنبية حتى ينصرفوا عن مطالعة الكتب العربية الى مطالعة الكتب الانكليزية أو الفرنسية ، وبذلك نفقد جزءا جديدا من جمهور القراء المفترض ، من حيث خيل الينا اننا كسبناه . ولعل مرد ذلك الى فقدان الثقة بالكلمة العربية المطبوعة ، سواء أكان الكتاب مؤلفا او مترجما ولعل لهؤلاء المتحولين الى التثقيف على الكتاب الاجنبي عذرهم لان مؤلفينا ومترجمينا لم يعرفوا كيف يحتفظون بحسن ظنهم .

ولسنا في حاجة الى القول ان هزال كمية المطبوع من الكتاب العربي الواحد يؤدي الى رفع كلفة انتاجه ، وبالتالي الى غلاء ثمنه ، والى تدني ارباح الناشرين وزهدهم في النشر الا اذا ضمنوا رواج الكتاب ـ كأن يكون كتابا مدرسيا او جامعيا مقررا او مفروضا على الطلاب ـ كما يؤدي من ناحية ثانية الى هزال فاضح في عائدات الكتاب ، وبالتالي الى زهدهم في التأليف والترجمة .

وخير علاج لهذه المشكلة الاولى ، من مشكلات النشر ، مكافحة الامية في جدية صارمة حتى لا يبقى في العرب انسان واحد يجهل القراءة والكتابة ، وتنشئة الجيل الطالع على حب المطالعة ، وانما يكون ذلك بتخصيص ساعة او ساعتين من ساعات التدريس للمطالعة ـ وهي طريقة اتبعتها بنفسي يوم كنت مدرسا للغة والادب فآتت احسن النتائج ـ وبتعديل البرامج على نحو يخفف من نزعة الطلاب الى الاعتماد

* الارقام مستقاة من كتاب العام الديموغرافي الذي تصدره الامم المتحدة .

على الحفظ من غير فهم ، في اكثر الاحيان ، ويؤكد على الثقافة الصحيحة التي هي حصيلة المطالعة في المحل الاول . ولعل من المفيد هنا ان نقترح ادراج مادة جديدة في الامتحانات الرسمية هي مادة الثقافة العامة يكون الفوز فيها ثمرة من ثمرات المطالعة الحرة .

ولا يفوتنا هنا النص على ضرورة تعزيز الكتبات المدرسية بضروب الكتب المثقفة ، وباهداء المتفوقين من الطلاب مكتبات صغيرة تكون نوى لمكتبات منزلية محترمة . وقد قرات في العدد الاخير من مجلة « العربي » ان حكومة الكويت درجت منذ فترة على اهداء هؤلاء المتفوقين خزائن للكتب تفريهم في نهاية المطاف بتزويدها بما يروق لهم من نتاج الفكر ، وهو تقليد صالح ا٠نى ان تاخذ به وزارات التربية في اقطار العروبة كلها .

ليس هذا فحسب ، بل اني أرى كحل جزئي لهذه المشكلة ، ان تعنى هذه الوزارات بانشاء مكتبة هامة في كل مدينة او بلدة او قرية عربية ، وبانشاء المكتبات المتجولة التي تتيح للمواطنين مزيدا من امكانات القراءة والاطلاع على النتاج الحديث . وان ترصد كل وزارة من وزارات التربية العربية اعتمادات سنوية لشراء عدد لا يقل عن المئتين من كل كتاب عربي جيد تصدره دور النشر ، وبذلك يتعود العربي المطالعة ، وتنتعش صناعة الكتاب وتتعاظم عائدات الكتاب والمؤلفين .

— ٢ —

المشكلة الثانية من مشكلات النشر هي غياب النقد الصحيح . وهي ظاهرة مستجدة ، بمعنى انها لم تكن قائمة او لم تكن على مثل هذه الحدة ، قبل ثلث قرن ، يوم كان النقد يحيا عصره الذهبي مع العقاد والمازني وطه حسين وامين الريحاني ومارون عبود ، ويوم كانت المقالة النقدية قادرة على ان ترفع كاتبا وتخفض كاتبا .

كل ما عندنا اليوم لا يعدو ان يكون تقريظا مجاملا ، او تجريحا متحاملا ، او مجرد تعريف مبني على ضرب من التلخيص المخل لمادة الكتاب ، او الاستعراض المجاف لفهرسته او الاستشهاد الخفيف بفقرات من مقدمته .

وهكذا يفتقد جمهور قرائنا المحدود من يدله على الكتاب الجيد فهو اشبه بالسابح الغر يتخبط في خضم متلاطم الامواج من الكتب التي تقذفها اليه المطامع اسبوعا بعد اسبوع ان لم نقل يوما بعد يوم ، ويفتقد الناشرون من يقدم نتاجهم الى الجمهور فهم يضطرون ، في كثير من الاحيان ، الى ان يكتبوا المقالات عن منشوراتهم باسماء مستعارة لتدرج في المجلات الادبية والثقافية لان هيئة التحرير في كل منها لا تضم ناقدا بصيرا قادرا على تقييم الانتاج ، او لان ميزانية كل منها تعجز عن تكليف ناقد ما ، لقاء اجر معين ، بوضع دراسة عن اثر من الآثار الفكرية . ومن هنا تضيع المقاييس ويستوي الغث والسمين تحت باب « الكتب التي وصلت الى المجلة اخيرا » ... في حين تخصص الصحف والمجلات في البلدان السهمة في العمل الحضاري صفحات بكاملها لدراسة ثمرات الفكر وتقييمها بموازين موضوعية تهدي الجمهور الى الكتب القيمة الجديرة بان ينفق عليها القارىء ماله ووقته . وقد بلغت ثقة الناس برأي الناقد ، في تلك البلدان ، حدا اصبح معه مجرد التنويه بكتاب ما ، في الصفحة الادبية من جريدة ، او في باب النقد من مجلة ، شبه تكريس لذلك الكتاب ، وآية على جدارته باهتمام الناس . ولن يستقيم امر النشر عندنا الا حين تاخذ صحافتنا نفسها بالعناية بالنقد الموضوعي الصحيح وتجند له ابرع الاقلام واعمقها ثقافة . وعندئذ فقط يستيقن الناشر انه ان طالع الناس بكتاب بعيد الاثر في حياة الجيل لم يمر هذا الكتاب مر السحاب من غير ان يشعر به أحد ، وهو ما يحدث اليوم كل يوم تقريبا .

— ٣ —

هذا الكلام المقتضب على غياب النقد يسلمنا الى المشكلة الثالثة ، من مشكلات النشر ، أعني مشكلة الحرية . لكأن الكتاب العربي لا يكفيه ضيق مجاله الحيوي – بسبب من أمية الاميين وأمية المثقفين – ولا يكفيه غياب الاقلام المثقفة القادرة على تقييمه وتقديمه الى جمهور القراء حتى يصطدم بجدار غليظ من الرقابة حيث يبقى في الادراج اسابيع ريثما يفرغ له الرقيب ، وحيث يحكم عليه بالاعدام ، في بعض الاحوال ، من غير ان تتاح له فرصة الدفاع عن النفس .

فكم من كتاب منع في هذا البلد العربي او ذاك بدعوى الثورية حينا ، وبدعوى الرجعية حينا ، وبدعوى المحافظة على الاخلاق او التعرض للنظام القائم احيانا اخرى ، او لمجرد ان الرقيب لم يفهم حقيقة مراميه أو اساء فهم مراميه . وكثيرا ما يتردد الرقيب في اصدار الحكم على كتاب ليعمد آخر الامر الى وضع العلامة الحمراء عليه ايثارا للعافية . ذلك بان احدا من رؤساء الرقيب لن يناقشه اذا منع ، في حين قد يفقد هذا الرقيب نفسه منصبه اذا تجرا فاجاز .

انا أعلم ان لكل بلد عربي وضعه الخاص وضروراته الخاصة ، وان بعض الكتب التي تصدر عن المطابع العربية ينطوي على ما يفسد الخلق او يسيء الى قضية النضال الوطني ، ولكن الخطر يكمن دائما في المغالاة في استخدام هذا السلاح او في استخدامه لادنى شبهة . ولعل افضل علاج لهذه المشكلة ان يعهد بأمر الرقابة على الكتب الى اتحاد الكتاب في كل بلد عربي فذلك ادعى الى الانصاف ، وادنى الى الاصابة في الحكم . وقد كان من دواعي سروري ان اعلم ان بعض البلدان العربية تفكر جديا في القيام بهذه التجربة الرائدة .

— ٤ —

فاذا سلم الكتاب العربي من آثار امية الاميين ، وامية المثقفين ، وامية بعض المسؤولين عن شؤون الرقابة وتمت له بذلك اسباب النجاح كلها لم يسلم من آفة مستحدثة ناشئة عن نجاحه بالذات ، هي آفة التزوير . وتلك هي مشكلة النشر الرابعة ، ولعلها أدهى تلك المشكلات واشدها مضاضة على النفس ، ومردها هذه المرة الى ضرب آخر من الامية هو امية الناشرين انفسهم .

وتفصيل الامر ان في عالم النشر اليوم فئة من الدخلاء ليس لها هم الا ان ترصد الكتب الصادرة عن دور النشر والطباعة ، فلا تكاد تتسامع بان كتابا بعينه قد حظي ببعض الرواج حتى تعمد الى اصداره في طبعة تجارية شائهة تطرد الطبعة الاصيلة من السوق كما تطرد العملة الرديئة العملة الجيدة .

وهذه الآفة تتخذ اشكالا متعددة . فاذا كان الكاتب الناجح مترجما عمد المزور الى شراء نسخة منه واجرى على بعض كلماتها وفقراتها تعديلات يحاول فيها ان يوهم الناس بأن صنيعه ذاك مجرد ترجمة جديدة يدفع بها الى الاسواق بنصف ثمن النسخة الاصلية او أقل ... واذا كان الكتاب نسخة محققة عن اثر قديم ادخل على الحواشي والشرح تعديلات غبية تدمغ الكتاب بدمغة الرخص المعنوي والمادي .

حتى اذا ناقشته في ما صنع أجابك بقوله ان الكتاب المترجم ليس ملكا شخصيا لك ولكنه جزء من التراث الانساني ، وان النسخة المسوخة عن الطبعة المحققة هي قطعة من التراث العربي او الاسلامي الذي لا يجوز ان يكون حكرا لاحد – هذا اذا لم يلبس مسوح سدنة الثقافة الناذرين انفسهم لخدمتها فيزعم ان كل همه ان ييسر على الناس اقتناء الكتاب باضفاء الصفة الشعبية عليه ...

وهكذا تضيع جهود المترجمين الحقيقيين والمحققين الثقات ، وتمتلىء الاسواق بما اصطلح على تسميته بكتب « الستوك » التي تحمل على العربات لتباع بسعر الكلفة تقريبا . وقد كان لهذا اثر بعيد في تزهيد المترجمين بالترجمة ، والمحققين بالتحقيق ، والناشرين بالنشر ، وتلك نكسة اصيبت بها صناعة الكتاب في السنوات الاخيرة

الماضية على نحو لم يعرف له مثيل من قبل .

ولكن البلاء الاعظم يكون عندما يحلو لقرصان النشر هؤلاء كتاب من تاليفك او تحقيقك حظي برواج كبير أو متوسط فيسارعون الى اقتناء نسخة منه ويدفعونها الى مطابع الاوفست لتخرجها طبق الاصل حاملة اسمك نفسه ، واسم دار النشر التي اخرجت كتابك ، وحتى تاريخ الطبع ايضا ، في محاولة الى اخفاء الجريمة من طريق التقليد الكامل على طريقة مزوري الطوابع أو العملة .

وعندي ان هؤلاء القرصان اخطر على المجتمع من اللصوص العاديين فاللص العادي قد يقدم على السرقة سدا لحاجة ، او تفريجا لضيق مالي، اما هؤلاء فانما يقترفون مايقترفون طمعا في مال حرام يجنونه من عرق المؤلفين — وقد لا يكون لهؤلاء المؤلفين موارد مالية غير مؤلفاتهم — او يختلسونه من نصيب الايتام الذين لم يخلف لهم آباؤهم غير هذه التركة الهزيلة يستعينون بها على العيش . والامثلة على ذلك كثيرة ، فقد زوروا كتب المنفلوطي ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم ، وعبد الرزاق السنهوري ، ووصل بهم الامر اخيرا الى تزوير قاموس المنجد ومراجع اخرى عربية واجنبية ، والبقية على الطريق .

والذي اراه ، علاجا لهذه المشكلة ، ان يصار الى وضع تشريع خاص يحدد فيه مفهوم التزوير تحديدا واضحا ويعتبر فيه التزوير جريمة تستحق اقصى العقوبات ويقع تحت طائلتها لا المزور وحده بل الكتاب المزور وبائعه على حد سواء . وان تعمد اتحادات الناشرين في البلاد العربية الى التشهير بكل من تسول له نفسه السطو على افكار الاخرين او على حقوقهم الادبية على هذا الشكل القبيح ، وطرده من عضويتها — ان كان عضوا فيها — والى مقاطعة كل صاحب مكتبة يشتري او يروج ايما كتاب مزور او يتعامل مع المزورين باي شكل من اشكال التعامل .

وقد درجت وزارة الاعلام السورية حديثا على خطة حميدة في هذا الباب تقضي بعدم السماح بدخول اية شحنة من الكتب الى الاراضي السورية ما لم تكن مرفقة بفاتورة رسمية من الناشر الشرعي، وبمصادرة كل شحنة يشتبه بانها صادرة عن « مصانع القرصنة » التي اتسع نشاطها في الآونة الاخيرة اتساعا يهدد مستقبل النشر كله ، في العالم العربي ، باعظم الاخطار .

— ٥ —

بقيت اخيرا مشكلة فوضى الترجمة واحياء التراث .

اننا نعيش اليوم في عصر نستطيع ان ندعوه عصر الترجمة . ونحن في هذا العصر محتاجون الى ترجمة روائع التراث الانساني شرقيا كان هذا التراث ام غربيا . وبدلا من ان تنظم حركة الترجمة وفقا لسلم قائم على اساس الاولويات نجد الناشرين يسارعون الى ترجمة كل كتاب يعتقدون انه جدير بان يعود عليهم بالربح العاجل ، ويتسابقون الى ترجمة الكتاب الواحد احيانا فتصدر منه طبعتان او ثلاث طبعات او اكثر ، على حين ان ترجمة واحدة جيدة تكفي ، وعلى حين ان خزائن التراث العالمي حافلة بالكتب التي لم يخطر لاحد حتى الان ان ينقلها الى العربية .

ولعل من ابرز اسباب هذه الفوضى ان بعض الناشرين يعمدون الى ترجمة الكتب من غير ان يستأذنوا اصحابها في ذلك او من غير ان يدفعوا اليهم بدل الترخيص بالترجمة . ولا شك في ان البلية تكون ادهى وامر حين يشتري ناشر حق الترجمة ثم يفاجأ باكثر من ترجمة غير شرعية للكتاب نفسه ، فتكسد طبعته في الاسواق ، ويضطر الى اللجوء الى القضاء ، وقد يلجئه ذلك من بعد الى اختصار الطريق فيصدر كتبه المترجمة من غير اذن او ترخيص .

ومما يساعد على استشراء هذا الداء ان بعض البلدان العربية لم تلتزم حتى لان باتفاقية برن ، في حين ان بعضها الآخر التزم بتلك الاتفاقية ، مما يضيع على ناشر الترجمة الشرعية فرصة استعادة ما دفعه ، ويؤدي الى نشوء منافسة غير متكافئة بين ناشري بلد عربي وناشري بلد عربي آخر .

ومن حقنا ان نتمنى على البلدان العربية التي لم تلتزم حتى الان باتفاقية برن ان تبادر الى توقيع هذه الاتفاقية ، وعندئذ يصبح كل نشر لايما ترجمة غير مرخص بها عملا يقع تحت طائلة العقاب .

هذا من ناحية . ومن ناحية ثانية فاننا نعيش اليوم ايضا عصر احياء التراث العربي والاسلامي . واذا كان هذا الاحياء لا يحتاج الى ترخيص من احد فانه يحتاج على الاقل الى تنظيم . فالآثار العربية الجديرة بالنشر تعد بالآلاف ان لم نقل بعشراتها ، ومع ذلك فاننا نجد ان بعضها لم يحظ من الناشرين بأي اهتمام ، في حين ان بعضها الآخر ، كالاغاني والعقد الفريد ونهج البلاغة وامثالها ، قد نشر غير مرة ، وفي ذلك مضيعة للجهد والوقت والمال .

وفي امكان دور النشر ان تتعاون على التخفيف من حدة هذه المشكلة عن طريق تبادل المعلومات عن الآثار التي تعتزم احياءها وبذلك تتجنب التورط في اصدار طبعات مكررة للاثر الواحد وتنصرف الهمم الى بعث ما لم يسبق الى نشره من تراثنا العظيم . وانا اقترح ان تعمد الدائرة الثقافية بالجامعة العربية ، او اتحادات الكتاب في مختلف البلدان العربية ، الى تنظيم جداول بكتب التراث التي نشرت وبتلك الجديرة بالنشر والتي لم تر النور من قبل ، ليستهدي بها المشتغلون في هذا الجانب من جوانب العمل النشري .

تلك هي ، بايجاز كلي ، ابرز المشكلات التي يعيشها الناشرون يوميا . فلنتقدم الآن الى الكلام على القسم الثاني من البحث وهو مشكلات التوزيع . ونظرا لضيق المجال نجتزىء بالاشارة الى ثلاث من هذه المشكلات يخيل الينا انها اكثرها الحاحا واجدرها بالمعالجة في هذه العجالة .

٢ — مشكلات التوزيع

— ١ —

ونبدأ بمشكلة القيود المفروضة على اخراج العملة ، وهي مشكلة يومية يكتوي بنارها جميع الناشرين والموزعين بلا استثناء .

هذه القيود نوعان : جزئي وكلي . فاما القيود الجزئية فهي تلك التي تحدد اخراج العملة مجرد تحديد من غير ان تحظره مرة واحدة . وانما يتم ذلك من طريق منح الموزع اجازة سنوية او شهرية بمبلغ معين يحق له اخراجه من عملة البلاد شرط ان يثبت بما يقدمه من فواتير الاستيراد استخدامه هذا المبلغ في شراء الكتب من مصادرها المختلفة . ومتى ذكرنا ان هذه « الكوتا » غالبا ما تكون هزيلة بحيث لا تغني من جوع ادركنا ان مثل هذا التقييد خليق به ان يؤدي في نهاية المطاف الى الحد من نشاط الموزع ، والى اكراهه على الاكتفاء بتغطية جانب ضئيل من حاجة السوق المحلية الى الكتب ، وبذلك تصاب الحركة الثقافية في البلاد العربية بمثل الشلل النصفي ، ويحرم المثقفون كثيرا من المراجع التي لا غنية لهم عنها في عملهم اليومي .

واما القيود الكلية فهي تلك التي تحظر اخراج العملة من بلد الى آخر كلما اتصل الامر بالكتاب والناشرين تحظيرا كاملا . فانت تستطيع ان تسوق منشوراتك في بعض الاقطار العربية ولكنك لا تستطيع اخراج حصيلة مبيعاتك من تلك الاقطار . وليس عليك اذا رغبت في الاستمرار في التوزيع الا البحث عن وسيلة للافادة من تلك الحصيلة داخل حدود القطر نفسه ، او السعي الى اخراجها بطرق ملتوية لا يرتاح اليها ذوو الضمائر الحية .

وتكون النتيجة الحتمية لهذا الوضع توزيع اقل نسبة ممكنة من الكتاب الجيد المهيأة له كل مؤهلات الانتشار ، او التعرض لشتى الاغراءات الى اخراج العملة بطرق يعاقب عليها القانون .

ولست ارى من حل لهذه المشكلة غير رفع القيود ، بصورة استثنائية ، عن اخراج العملة بحيث يتمكن الموزعون في اي بلد عربي من طلب كل ما يحتاجون اليه من الكتب الصادرة في أي بلد عربي

آخر ، وبحيث يتمكن الناشرون من الحصول على ناتج مبيعاتهم في مختلف اقطار العروبة . حتى اذا ثبت للسلطات المحلية ان ناشرا معينا او موزعا معينا اساء استخدام هذه الحرية فعندئذ يكون من حقها ان تعمد الى الى انذاره اولا ، ثم الى تطبيق احكام القانون عليه بعد ذلك .

— ٢ —

ولننتقل الآن الى المشكلة الثانية من مشكلات التوزيع . انها مشكلة حصر الاستيراد في بعض الاقطار العربية بمؤسسة واحدة او شركة قومية واحدة . ويقتضينا الانصاف ان نشير ، بادىء ذي بدء ، الى ان هذه التجربة قد ساعدت على تنظيم العلاقة بين قطاعي النشر والتوزيع فحصرت التعامل بجهة واحدة يستطيع الناشرون الاطمئنان الى قدرتها على الوفاء بالتزاماتها المالية تجاههم ، فهم غير مضطرين ، بعد ، الى الطيران مرة كل فصل او مرة كل سنة ، الى هذا القطر العربي او ذاك ، لقبض حصيلة مبيعاتهم او للتهديد باتخاذ الاجراءات القانونية لقبضها .

بيد ان لحصر الاستيراد بمؤسسة او شركة قومية واحدة محاذيره التي تحجب هذه الحسنة التي قدمنا بها للكلام على هذه المشكلة . ذلك بأن في الحصر ، اولا ، تقييدا لحرية الكتاب ، وتمكينا لفئة لا تكاد تزيد على اصابع اليد الواحدة من التحكم في مصائر الثقافة في قطر بكامله . فكم من كتاب جليل لم يصل الى بعض البلدان الآخذة بهذا النظام لمجرد ان المسؤول عن المؤسسة المعنية ارتأى انه غير نافع ، او غير ضروري ، او غير مؤهل للرواج ... ولا نقول لانه ظن به شرا او خشي منه عاقبة .

وبذلك يوصد الباب نهائيا في وجه الكتاب ، ويحرم قطاع كبير من القراء من الاطلاع على اثر فكري جديد كان خليقا بهم ان يفيدوا منه لو قدر لهم ان يتعرفوا اليه .

ومن محاذير هذا النظام ان المسؤولين في المؤسسات المعنية كثيرا ما ينفردون في تقرير العدد الذي ينبغي استيراده من كتاب ما ، بصرف النظر عن قانون العرض والطلب ، وبذلك يتحكمون في مصير ذلك الكتاب ويحدّون من امكانات رواجه وتسويقه .

ولعل اخطر محاذير هذا النظام انه يحكم « مزاج » المسؤولين عن المؤسسة المعنية لا بمصائر كتب بعينها ، بل بمصائر دور نشر بكاملها . فقد يغضب هؤلاء المسؤولون — لسبب او لآخر — على دار من دور النشر فيحجمون عن التعامل معها احجاما كاملا الى اهمالها على سبيل العقاب او التأديب ، والمرء — وبخاصة اذا كان في مركز المسؤولية — قادر على ان يضر وينفع !!

انها تجربة جديدة ، وربما فريدة ، في العالم العربي . ولقد نجحت في بعض الاقطار ، واخفقت في بعض الاقطار . وكلامنا عليها لا يستهدف التجريح بأي من المؤسسات المنبثقة عنها — كما لا نحتاج الى القول — خاصة وانها تبذل غاية الجهد لاجتناب هذه المزالق .

— ٣ —

بقيت المشكلة الاخيرة وهي فقدان شركات التوزيع .

صحيح ان في العالم العربي عددا من الشركات المتخصصة لتوزيع المطبوعات ، ولكن هذه الشركات تقصر نشاطها ، او تكاد ، على توزيع الصحف والمجلات الدورية ، وقد كانت لبعضها تجربة سالفة في حقل توزيع الكتاب ، ولكنها سرعان ما اغلقت هذا الباب مكتفية من الغنيمة بالاياب .

ومن هنا ان كل دار من دور النشر تجد نفسها مضطرة اليوم الى توزيع كتبها بوسائلها الخاصة ، مستعينة على ذلك بوكيل او اكثر في هذا القطر العربي او ذاك . وما اكثر الاقطار العربية التي لم يصل اليها بعد نتاج كثير من دور النشر بسبب من هذا الوضع العجيب .

والواقع اننا في امس الحاجة الى قيام الشركات المتخصصة بتوزيع الكتاب على نطاق الوطن العربي كله بحيث يصل الى يدي القراءفيجميع المدن وجميع القرى . من الخليج الى المحيط ، كما تصل الصحيفة او المجلة سواء بسواء . ولسنا نشك في ان ذلك خليق به ، اذا تم ، ان يدفع عجلة النشر والتوزيع اشواطا الى الامام .

ليس هذا فحسب . بل اننا في امس الحاجة الى قيام شركات قادرة على توزيع الكتاب العربي على نطاق عالمي ، بحيث يتوافر في اميركا وافريقيا واسيا ، وفي كل مكان ، وبخاصة في البلدان الاسلامية التي تعتبر سوقا اساسية من اسواق الكتاب العربي ، ولكنها سوق لا تزال حتى هذه اللحظة مجهولة او مهملة .

ولا ريب في ان توزيع الكتاب العربي على مثل هذا النطاق العالمي لن يؤدي الى تحسين اوضاع الناشرين والمؤلفين فحسب ، بل انه سوف يؤدي — وهذا اهم — الى نشر الثقافة العربية، قديمها وحديثها، في الدنيا كلها ، وهو مطمح ينبغي ان يكون هما من هموم الدائرة الثقافية الاعلامية في جامعة الدول العربية .

بقي ان نتقدم ، كحل لهذه المشكلة ، باقتراح يقضي بأن تتعاون كبريات دور النشر العربية ، في مختلف اقطار الوطن العربي ، على انشاء شركة توزيع عربية برأسمال ضخم تسهم فيه كل دار بما تستطيع، وعندئذ يصبح في الامكان ايصال الكتاب العربي الى ارجاء الدنيا الواسعة ، ويصبح في الامكان ايضا تبادل الانتاج من ايسر السبل فلا يعود التسويق قاصرا على الكتاب المصري والكتاب اللبناني دون غيرهما، بل ينتظم كامل الانتاج الثقافي العربي ايا كان موطن نشره . فكم منكتاب قيم ظل مجهولا ، وكم من كتاب كبير ظل مغمورا — على النطاق القومي العريض — لمجرد انه مطبوع او مولود في تونس او العراق او ليبيا ، او غيرها من ديار العرب ، وليس في مصر او لبنان .

وحبذا لو درست اتحادات الناشرين في البلاد العربية هذا الاقتراح المتواضع وعملت على تحقيقه بطريقة او باخرى ، فهي اعرف الناس بخطره ، واقدر الناس على تحقيقه .

منير البعلبكي
(اتحاد الكتاب اللبنانيين)



مطالب الأديب العربي المهنية وقضية الحرية

بقلم محمد الجزائري

اذا كانت الحرية هي فهم الضرورة ، فاننا هنا لا ننظر اليها بمعزل عن قوانين الطبيعة ، بل في ضوء معرفة هذه القوانين وامكانية استخدامها في النشاط العملي . واذا كانت الحرية ، هي المطلب الاساس ، منذ زمن بعيد ، وعلى صعيد انظمة حكم وقوانين واجيال وثورات .. فهي لما تزل تشكل مطلب المطالب . وهي لما تزل النقطةالاولى في جدول اعمال الساعة المعاصر . وبدونها ، لا يمكن ان ينظر الاديب العربي الى بقية المطالب ، مهنية كانت ، ام سياسية ، ام اقتصادية، نظرة واضحة وعميقة .

ان الضرورة قوانين الطبيعة موجودة قبل ارادة الانسان ووعيه . وقد ظل الانسان قبل ان يدرس الضرورة يخبط خبط عشواء ، الا انه حالما ادركها استطاع ان يستخدمها في صالح المجتمع وعلى هذه الصورة .. فحرية النشاط الانساني ــ ومنه النشاط الادبي ــ ممكنة في حالة فهم الضرورة ، ويمكن القول ان الحرية هي الضرورة الموحاة. وقد خضع الانسان في العصور الاولى من تطور المجتمع لعبودية اجتماعية الى جانب خضوعه للطبيعة ومع تطور الملكية الخاصة وقيام المجتمع الطبقي اصبح الناس عبيدا لعلاقاتهم الاجتماعية الخاصة .

لذا فان الاديب العربي ، الذي يطمح ان يجد المجتمع العربي جديدا ، معافى ومتكاملا ، يناضل في سبيل خلق هذا المجتمع بكل الوسائل جنبا الى جنب القوى الطليعية في المجتمع ، وهو بهذا لا يفصل حركة الاشياء والظواهر عندما يمتلك وعيا ثوريا جدليا تتحكم فيه نظرية علمية اشتراكية .

اذ ان تطلعات الاديب العربي يجب ان تتخطى الواقع الحالي ، الى الواقع المطلوب عبر فهم الممكن من الامور ، الى تحقيق الضروري.

من هنا فالاشتراكيون السلميون يصرحون بانه في ظل الاشتراكية تكف العلاقات الاجتماعية من السيطرة على الانسان ، على ان هذا لا يعني ــ من وجهة نظرهم ــ بأن القوانين الموضوعية تختفي في زمن الاشتراكية ، وانما الذي يحدث هو انالناس يستطيعون ان يستخدموا هذه القوانين في بناء حياتهم الجديدة . وهذه النظرة تجد صداها عند الاديب العربي الذي يطمح لبناء مجتمع عربي اشتراكي وانسان عربي جديد .

لذا فالضرورة ــ حسب مفهومنا ــ كل ما له اساس في جوهر الظواهر والعمليات نفسها ــ كل ما ينبع من العلاقات والصلات الداخلية بين الاشياء ، لا بد ان يتحقق اثناء توفر ظروف معينة ، عكس المصادفة فهي « كل ما له اساس في غيره . اي انه لا ينبع من العلاقات الداخلية بين الاشياء ، بل ومن اسباب عرضية ، فيمكن ان يقع ويمكن ان لا يقع » .

لذا فليس مصادفة ، اولا ، ان يكون اختيار موضوع « مطالب الاديب العربي المهنية من حصة العراق ، وليس مصادفة ، ثانيا ، بل بحكم الضرورة ، ان ترتبط المطالب المهنية بوضع الاديب العربي في معركة المصير .

فماذا يريد الاديب العربي في معركة المصير اهم من الحرية اولا ، وآخرا ؟ والحرية ، كما قلنا ، هي فهم الضرورة .. اذن . فموضوعنا لا يمكن فصله مطلقا عن الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي تمر به الامة العربية بشكل خاص والعالم بشكل عام .. حيث تنطوي الحرية على افق اوسع من قضايا الوطن العربي، وهي لا تتجزأ في قضاياها وفي ابعادها وفي ساحة تحرك الناس من اجلها ، هنا في ارضنا العربية ، او في اي مكان آخر من ارجاء المعمورة ..

اذن فالحديث عن « المطالب المهنية » فقط يدفع الى السقوط في « التبسيطية » ــ بمعنى رؤية السطح الخارجي للظواهر الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية التي تتعلق بالبحث دون الغوص في اعماقها لاكتشاف العوامل المحركة الداخلية في كل ظاهرة ، والتاثيرات التي تتبادلها مع العوامل المحركة في الظواهر الاخرى ــ بكل تعقيداتها ــ وأي مفكر جدلي يؤمن بالاشتراكية العلمية يرفض منطق التبسيطية هذا ، في أي بحث يتناول لمشكلات الاديب العربي ومطالبه المهنية . اذ ان فهم البنية الطبقية لواقع المجتمع العربي (الذي لما يزل في اكثر من بقعة من وطننا ، مجتمعا وسيطا للامبريالية) بعيدا عن المنهجية التجزيئية والتي تؤدي ــ حتما ــ الى « تركيب ميكانيكي » ــ أي جمع حسابي للظاهرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ــ هذا الفهم التجزيئي سيبعدنا ، حقا ، عن وضع اليد على جرح القضية . وهو فهم تتبناه البورجوازية الصغيرة المتذبذبة ، التي تحاول ان تسقط قيمها على الواقع ، فتبتعد ــ بالتشخيص ــ عن الامراض الحقيقية لهذا الواقع والتي

تنجم عنها الثغرات الكبيرة التي تحول دون انسجام واتساق فكر الاديب العربي الثوري ، مع العديد من أنظمة الحكم وعقلياتها مما يسبب هذه الغربة القسرية التي يعاني منها الاديب العربي ، ويحس ان الحل في مطالبه المهنية دون تلبية مطالبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية عموما . مع الاخذ بنظر الاعتبار ان مطالب الاديب الكاملة لا تتوفر الا في المجتمع الاشتراكي ، غير ان هذا لا يمنع من النضال من اجل تحقيق ما يمكن تحقيقه في ضوء الانظمة القائمة .

لذا فان فهم الطبيعة الطبقية لانظمة الحكم العربية (التي تمتلك صياغة التشريعات وتمتلك القوى التنفيذية لها ..) ، وان فهم الطبيعة الاقتصادية لكل بلد عربي وما ينجم عنها من تحرك سياسي واجتماعي وثقافي ، يجب حصره ازاء ((معركة المصير)) واقعا وتحركا، ستراتيجية وتكتيكات ... تدفع ـ بالضرورة ـ الى فهم طبيعة العلاقة الانتاجية والثقافية بين الاديب العربي ، وكل هذه التشريعات والانظمة، التي سببت ـ مع مرور الزمن ـ ازدياد مشاكله بحيث نجم عنها ذلك الاحساس بالمطالبة (المهنية) كجزء من المطالب العامة على جميع الاصعدة .

اذن ستبقى ((الحرية)) ، وستبقى ((الديمقراطية)) ، وستبقى طموحات الاديب العربي في تغيير بنية المجتمع العربي وتثوير الارض العربية كلها ، في سبيل خلق البديل الاروع ، الذي يحقق انظمة حكم ديمقراطية وجبهات نضال عريضة ، ووحدة مواقف ، واهداف ، وتنظيمات وتحركات ، لردم الهوة العميقة التي تتسع منذ ٥ حزيران ٦٧ ـ والى الان ، بين الجماهير وبعض انظمة الحكم العربية ، بحيث اصبحت قضية انتصارنا في ((معركة المصير)) حلما ، في الذهن والذاكرة .. ازاء هذا المد اليميني المتسع والعداء المستشري للديمقراطية والتقدميين في الوطن العربي عموما .

اذن فحرية النشر والتاليف والتعبير والتنظيم ، والتحرك من ثم ضمان حقوق الاديب في العمل والعيش والتفرغ ، وضمان مستقبله (تقاعد او ضمان اجتماعي) ، واشراك ممثلي الادباء في تشريع القوانين ذات العلاقة بشؤون الادب والثقافة وحل مشاكل النشر والتوزيع وازاحة العوائق (من رقابة وصعوبات مالية وتشريعية) لا تبدو مشاكل ومطالب منفصلة عن القضية الاساس : الحرية .

ان مبدأ الصلة ـ غير المنفصلة ـ التي تربط بين طموحات الاديب في الحرية وفي الانتصار بمعركة المصير ، والتي تربط ما بين البناء الثقافي وآفاق بناء المجتمع العربي المتطور والجديد ، تدفع الى ادراك كون ان الاديب العربي الثوري ـ خاصة ـ لا يواجه مطالبه المهنية كشيء منعزل ((خارج الزمان والمكان)) بل يعتبر الثقافة والادب وما ينجم عنهما من مطالب مهنية ((غير قابلة قط للانفصال عن سائر وجوه الحياة)) والمجتمع والعصر .

ففي السابق لم يكن الفكر الانساني كله ، وعبقرية الانسان كلها ، ليخلقا الا ليعطيا للبعض كل خيرات التكنيك والثقافة ، ويحرما الآخرين من الضروري الذي لا غنى عنه من التعلم والتقدم .. اما الان ، فان انتصار الاشتراكية في العالم ، وبعد اتساع حركات التحرر الوطني ، والنهوض الجماهيري الجبار داخل العالم الثالث ، وازاء هذا الوعي المتصاعد بضرورة تحرير الارض والانسان من كل تبعات التخلف والاستعمار والعبودية والاستغلال والسعي بالانسان وبالمجتمع للارتقاء الى الافضل ، فان المهمة الاساس التي تطرح نفسها على ذهن الاديب العربي هي ألا تتحول معطيات الفكر الانساني وعبقرية الانسان ابدا ، الى ((وسائل للعنف والاستغلال)) .. وهذه مهمة تأريخية تواجه كل الادباء التقدميين ، ليس في الوطن العربي وازاء معركة المصير وحسب ، بل وفي العالم اجمع .. ((لانهم يحملون بداخلهم الطاقات الخفية العظمى للثورة والنهوض والتجدد ..)) .

ان هذه الموضوعة تحدد بوضوح الفارق الجذري بين فهمنا للثقافة وللمثقف العربي ، والاديب كواحد من المقاتلين على جبهات العدو ، من اجل انتصار امتنا العربية في معركة المصير ، وبين فهم الثقافة البورجوازية ، التي تسعى لتجزئة الاشياء وحصر السياسة للسياسيين او فيهم ، لذا تبعد ، المطالب المهنية ، عن مجموعة الظواهر والاشياء التي أوجدتها .

ان التأكيد على انسانية الثقافة الاشتراكية التي نسعى على تعميمها في الوطن العربي ، والمعارضة لكل استغلال وعسف ، هو أول مطالبنا السياسية والثقافية ، والتي تتفرع منه كل مطالبنا المهنية .. بل اننا نعتقد بان اية مطالب مهنية لا توفر الخبز والكرامة والحرية للاديب العربي بحيث يتحول نتاجه الى عمل تعبوي وثوري في الحركة ، لا تتحقق ما لم يتوفر مناخ الديمقراطية المتشبعة بحرية الاديب في اطار الالتزام ، لكي يعمق العلاقة والتواصل بينه وبين الجماهير في الاثر الادبي الفني ، محققا التلاحم التام بين فكره التقدمي وبين الثورة بمعطياتها اليومية وشمولها الانساني العام ، بحيث يتاح للاديب العربي ان يخلق الاثارة المطلوبة من خلال اللغة ، ومن خلال فهمه لغنى التراث واستعمالاته الجديدة ، ثم من خلال الاستجابات الآنية لمتطلبات العصر ، وموقع ادبنا العربي في هذا العصر ، ثم من خلال استجابات ادبنا المعاصر للتغييرات الحاصلة في العالم ، وتداخل هذه الاستجابات مع استجابات الآداب العالمية والتراث الانساني لمتطلبات المعركة التي عاشها كل مجتمع من المجتمعات، وانعكاس ذلك على حركة التجديد في ادبنا العربي منذ الحرب العالمية الثانية ، وما كان يطمح له الاديب من حقوق ومطالب تندرج ضمن نضالاته التي خاضها ولم يزل ، دون انفصال عن مجمل تلك الحركات والاستجابات والتطلعات المشروعة ...

اقول ، ان مطالبنا المهنية لتتحقق ـ حتما ـ اذا تحقق لنا هذا التعميق لانسانية ثقافتنا العربية ، والثقافة الاشتراكية التي نطمح ونريد ان تكون في ارضنا العربية ، لان الاشتراكية ـ من وجهة نظرنا ـ هي البديل الاروع والاوحد التي تحل كافة التناقضات والاشكالات التي عجزت كل انظمة الحكم البورجوازية عن حلها ..

ثم ان الاشتراكية تجد الاستجابة الكاملة من لدن جماهير شعبنا على سعة الارض العربية ، لان حل معضلات البناء الثقافي والسياسي والاقتصادي هي موضع اهتمام وتطلع مشروع وعميق ، لدى هذه الجماهير الواسعة .. التي عانت ولما تزل من العسف والاضطهاد وخنق الحريات وبقايا الاستعمار والمصالح الاحتكارية ومن المؤسسات اليمينية الرجعية ، وقواها التنظيمية والقمعية في الوطن العربي .

ولان ثقافة اي شعب ، انما تنمو على تربته الوطنية الخاصة ، باشكال متواترة مأثورة ، مع الاستيعاب المتمثل لكل غنى الالوان القومية ، وافضل التقاليد والافكار الطليعية ((فاننا)) نحب لغتنا ، ونحب وطننا ، الامر الذي نعمل من اجله اكثر ما نعمل ، والذي سيؤدي حتما الى النهوض بجماهيرنا الكادحة الى مستوى حياة واعية ، حياة ديمقراطية ، حياة اشتراكية .. آنذاك ـ اذا تحقق لجماهيرنا الواسعة كل ما تصبو اليه ـ فسوف لن تبقى للاديب العربي مطالبه الخاصة . ومن هذا المنطلق فنحن نعتقد بان حركة المجتمع والحياة والتاريخ ، سوف تضع الاديب ضمن مسارها ، وبذلك لا تتجزأ وتنفصل المطالب المهنية عن المطالب السياسية والاقتصادية والاجتماعية لاي قطاع من قطاعات الشعب .

اذن فان الاديب العربي لما يزل يعاني من جملة مشاكل خاصة ، مهنية ، وان المطالبة بحلها اصبح ـ تقليدا ـ يطرح في المناسبات، لكن الاستجابة لها تسير ببطء هنا وهناك وعلى نطاق ضيق جدا .. فالاديب العربي لم يزل يشكو من التشريعات المالية والضريبية التي

تستحصل على نتاجه الادبي بمعنى ان كل ما ينشره الاديب ــ من كتب خاصة ــ يدخل ضمن ايرادات ارباحه بعرف دوائر « ضريبة الدخل » ــ مثلا ــ .

كما ان الاديب العربي لما يزل يعاني من توزيع كتابه المطبوع الى خارج القطر ، لان العديد من الصعوبات والعوائق والجمارك والمكوس والتحويل الخارجي والرقابة ... الخ ، كل ذلك يحول دون اعتبار الكتاب رسول ثقافة ، بل يعتبر في عرف هذه التشريعات المالية والمعوقات « سلعة » . ومن هنا تظل اغلب الكتب المطبوعة داخل كل قطر ، وهذا يتعارض اساسا مع قومية الثقافة العربية ، وحركة التفاعل بين اجزاء الوطن العربي ... لذا يمكن للدولة هنا ان تتخذ جملة اجراءات في هذا الصدد شريطة عدم تحويل الاديب الى تابع لها ، واتاحة الفرصة لممثلي الادباء المشاركة في تشريع القوانين ذات العلاقة بشؤون الادب والثقافة .

والى جانب ذلك ، تظل الخسارة الناجمة عن مجازفة الاديب بطبع كتبه تلاحقه ، لعدم توفر جبهات التعضيد والدعم لمطبوعاته ، الا في نطاق معين في بعض البلدان العربية .

لم تقف مشكلة عدم توفر اتحادات للناشرين والموزعين تنسق اعمالها مع اتحادات الادباء والكتاب العرب ، تضع حقوق الاديب العربي من مطبوعه في ايدي التجار المستغلين من بعض اصحاب دور النشر والتوزيع .. كما لا يزال الاديب العربي يعاني من قيود الرقابة على الكتاب العربي ، ومن زيادة اثمان مواد صناعة الكتاب ، ومن ارتفاع اجور الطباعة واجور التوزيع .. ومن مشكلة مجانية الكتابة والنشر ، كما أنه لما يزل يعاني من احتياجه الى الضمانات المادية والمعنوية في حالة الاعتقال والسجن والنفي والمطاردة والمضايقة في الرزق والعيش ، اذ ان احترام مكانة الاديب ودوره في المجتمع يجب ان تضمنها تشريعات وقوانين ، تحقق له الحماية الكاملة ، وتوفر له الحرية ، وتضمن مستقبله ، وتوفر له الضمانات الاجتماعية (كالتقاعد وغيرها) . اذن ماذا عملت اتحادات الادباء في الاقطار العربية التي انتهكت بها الحرية ، واعتقل الادباء وسجنوا وشردوا ، او الذين تعرضوا للفصل من وظائفهم ، او الذين تعرضوا للاعتقال او التعذيب او القتل ، او الصاق التهم بهم جزافا ، او محاكمتهم بشكل غير عادل ؟

ان الاديب العربي لما يزل في مرحلة الدفاع عن النفس ، وهو يعاني من هذه الحالة المزمنة ، فكيف يتوفر له المناخ للدفاع عن الآخرين دون ان يكون الشاهد والمدان في بلده .

وان الاديب العربي لما يزل يركض وراء الخبز والحرية ، فمتى ينجو من هذا اللهاث المزمن ليتفرغ لمعركة المصير ؟

ان نظام التفرغ لم يتوفر بعد للاديب العربي ، فتمنحه الدولة راتبا لهذا الغرض مقابل انجاز عمل معين ، ضمن فكرة معينة .. الى جانب شكوى الاديب العربي ومعاناته من امور عديدة كالسكن والعمل والدراسة والضمانات الصحية والبحوث العلمية وحقوق التاليف ، وضمان المستقبل من العوز والكبر بتشريع قانون لتقاعد الادباء .. الى غير ذلك من مشاكل تخلق بالقابل ، وبالضرورة ، مطالب مهنية ، يحول دون الاستجابة لها واقع عدم الاهتمام ــ المقصود ــ من قبل بعض البلدان العربية ، باتحادات الادباء والكتاب ، وبتوفير الرعاية الكاملة لمنتسبيها ... الى جانب كون الحكومات التي لم تؤمن بالحرية والديمقراطية منهجا واسلوب عمل وحياة .. تقرب هذا الاديب وتبعد ذاك ، لمجرد اختلافها معه بوجهات النظر او المعتقد او الموقف . وان لم يتوفر للاديب العربي الظرف الملائم للتعاون المثمر بينه وبين ممثلي الحكم والعلم والعمل ، اي بين ممثلي السلطة وبين جماهير الشغيلة وابناء الشعب وبين رجال العلم والثقافة والتكنولوجيا ، فسوف لن يستطيع احد القضاء على البؤس والامية والامراض التي زرعها الاستعمار والتخلف في جسد الامة العربية منذ حقب طويلة من الزمن ، ولما تزل تنخر في هذا الجسد لحد الآن ..

لذا ، فان « وحدة ممثلي العلم والشغيلة والتكنيك » سوف تحقق المعجزات . وفي مرحلة بناء المجتمع العربي الجديد لا يمكن استثناء دور الاديب التقدمي وطاقاته الخلاقة .. واذا استمر استغلال الوضع العام في الوطن العربي لغير صالح الاديب فسوف لن يتحقق أي عطاء فعال يخدم بناء المجتمع العربي الجديد والانسان العربي الجديد .

« ان حرية الكاتب والمصور والفنان البورجوازيين ، الذين يتمتعون بنفوذ كبير » في ارضنا العربية » ليست سوى نوع مقنع من التبعية لكيس الدراهم ، تبعية للافساد وشراء الذمم والضمائر» .

وامام نتاجهم البورجوازي ، يقف « الادب الحر » الذي ينشأ حرا لان منابع قواه المتجددة دائما ليست الوصولية ولا التكالب على الربح بل الفكر الاشتراكي ، والطموح الحقيقي لانتصار الامة العربية على العدو الرئيسي : الامبريالية والصهيونية والرجعية ومؤسساتها التنظيمية المختلفة ، لذا فقد عجلت الثورة العلمية والتكنولوجية بفرز المثقفين وتصنيفهم و « حولت قسما منهم الى شغيلة اجراء ، يقتربون من حيث مصالحهم ومواقفهم من الطبقة العاملة نظرا لانهم ضحايا استثمار ماكر » كما تندمج فئات جديدة من الادباء الشباب في العملية الثورية ، لذا تبدي هذه الشبيبة الادبية رد فعل حادا تجاه الازدراء بها وفقدان افق وضعها الاجتماعي ، لذا فهي « تهب بنشاط اكثر فاكثر للنضال ضد الانظمة التي لم تتحرر بعد تحررا كاملا ، اقتصاديا وثقافيا وسياسيا » والتي اسهمت وتسهم في صنع نكسات امتنا العربية ، والتي تشارك بفعالية ، يوما بعد يوم ، في تنفيذ المخطط الامبريالي لاجهاض حركة التحرر الوطني والثورة ونضال فصائل المقاومة الفلسطينية الباسلة والقوى التقدمية ، وتظل هذه الانظمة تسهم في طرح حلول تصفوية وتساهم في عمليات ابادة المقاومة والقوى التقدمية ، لتكريس واقع اسرائيل كقاعدة استعمارية وكوجود غير شرعي ، شوفيني وتوسيعي واستيطاني ، على ارضنا العربية .

لذا فاننا نؤكد هنا ان المطالب التي يطرحها الاديب العربي الشاب ومن ثم حركة الشباب التي تهب بنشاط اكثر فاكثر للنضال من اجل استعادة الارض العربية المحتلة ، سوف تناضل ــ مهنيا وسياسيا واقتصاديا وفكريا ــ بقدرات اكثر عمقا وصدقا واصالة ، من الادباء العرب الذين لا يتوانون عن خدمة كل الانظمة رغم طبيعتها المتفاوتة والذين يرتدون لكل مناسبة لبوسها ..

اقول ان الادباء العرب الشباب ، فكرا وطاقة ، سيقع عليهم عبء النضال الاعم والاشمل من اجل انجاز المهمات الوطنية والقومية ، الى جانب مهماتهم الادبية والفنية ، في تلاحمهم الفعلي والواعي مع الطلائع الثورية في الوطن العربي ، وتحالفهم العميق مع الشغيلة والفلاحين واوسع قطاعات الشعب الوطنية ، من اجل دحر انظمة الحكم المهترئة ، وفي سبيل التقدم الاجتماعي والاشتراكية .

ومن هنا فان اشتراكهم الفعال في النضال اليومي والعام وتحركهم الواعي في الساحة العربية والعالمية ، من خلال نشاطاتهم المتنوعة ، ومنها نشاطهم الادبي والفكري ، لا يمنعهم قطعا من النضال الدائب في سبيل تحقيق مطالب الاديب العربي المهنية لخدمة المعركة ، والتي لا ينظرون اليها بمعزل عن نضالهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي العام .

فانه « حين تتوفر الظروف الموضوعية لازمة سياسية عميقة ، فان أتفه النزاعات والتي تبدو الاكثر بعدا عن مركز الثورة ، يمكن ان تتخذ اهمية كبيرة ، وان تكون زيتا يصب على النار ، وان تكون قطرة الماء التي تجعل الكأس بطفح » ..

من هنا فان عدم توفير الحرية للاديب في اطار الالتزام وعدم احترام مكانته ودوره في المجتمع ، وعدم حل مشاكله المهنية ، سيزيد هذه المشاكل تعقيدا ...

ومن هنا فان حل مشكلات الاديب العربي تظل مهمة عاجلة تواجه اتحاداتنا الادبية وحكوماتنا ، والا فلربما تشكل هذه المطالب وغيرها ناقوس الخطر ، الذي يعلن بدء التحرك لاسقاط كل المعوقات ومن يقف وراءها ــ التي تقف بوجه الاديب العربي من اجل خدمة معركة المصير ..

بغداد **محمد الجزائري**

البلاد العربية وحقوق التأليف

بقلم مصطفى الفارسي

اتيحت لي طيلة الاثنتي عشرة سنة الاخيرة اكثر من فرصة للدفاع عن حقوق المؤلفين على الصعيدين القومي والدولي ، وكان لي شرف المشاركة في اعداد القانون التونسي لرعاية حقوق المؤلفين وبعث جمعية المؤلفين والملحنين التونسيين . كما كان لي شرف ان اتقدم الى الجلسة العامة لمنظمة اليونسكو في دورتها الرابعة عشرة في اكتوبر ١٩٦٦ بلائحة خاصة برعاية حقوق التأليف في البلاد النامية طالبت فيها بمراجعة سياسة الدول المتقدمة في هذا الميدان الحيوي الذي يتوقف عليه التبادل الثقافي بين الدول والتفاهم المنشود بين البشر على اختلاف اجناسهم واوطانهم ولغاتهم ومذاهبهم السياسية واساليبهم التربوية . كانت اللائحة عدد ١٢٢ه٥ هذه تدعو الى توحيد الانظمة الدولية الخاصة برعاية حقوق المؤلفين وتهدف بالذات الى مراجعة اتفاقيتي « اتحاد بارن » و « الوثيقة العالمية » التي تشرف عليها منظمة اليونسكو . وصادقت الجلسة العامة على اللائحة بالاجماع وكلفت المدير العام للمنظمة بالسعي لتحقيق محتواها في اقرب الآجال .

وعلى اثر هذا الحدث الهام دعي الى جنيف مقر « اتحاد بارن » في ندوة استشارية مجموعة من الخبراء الاوروبيين والافارقة والآسيويين للنظر في امكانية اعداد مشروع لمراجعة وثيقة « اتحاد بارن » وحضر الندوة مندوبون عن المغرب الاقصى ولبنان وتونس . وسمع الاوروبيون صوت العرب بخصوص هذه القضية وتم الاتفاق على ضبط خطوط « بروتوكول » صادقت عليه الدول المنضوية تحت لواء « اتفاقية بارن » في مؤتمر ستوكهولم الذي تمت اثناءه مراجعة هذه الاتفاقية والمصادقة على « البروتوكول » الذي الحق بها لصالح الدول النامية وتيسير التعاون بينها وبين الدول المتقدمة المصدرة للآثار الفكرية .

وما زالت الندوات والاجتماعات تتوالى حول هذا الموضوع على الصعيد الدولي وآخرها اجتماع عقد بباريس في شهر جويلية المنصرم ١٩٧١ ، وكان موضوعه الدعوة الى مراجعة الوثيقتين الدوليتين مراجعة اخرى على ضوء مداولات مؤتمر ستوكهولم ١٩٦٧ الذي لم يكتب لقراراته ان تدخل حيز التنفيذ ، وترمي مراجعة الوثيقتين الى تمكين اكثر عدد من البلاد النامية من التمتع بالآثار الفكرية العالمية على اوسع نطاق وبايسر السبيل وباقل التكاليف الاقتصادية ، خاصة فيما يتعلق بحاجة هذه البلاد النامية الملحة والمتزايدة الى نقل هذه الآثار الى لغاتها القومية والى جلب اكثر عدد ممكن من نسخ هذه الآثار الفكرية الى اوطانها بما في ذلك الاسطوانات والتسجيلات والاشرطة السينمائية ذات الصبغة التربوية.

ومعلوم ان الترجمة والاستنساخ كانت ولم تزل موردا لا يستهان به من العملة الصعبة التي تتحملها الدولة النامية رغم ضيق ذات اليد للحصول على الرصيد الثقافي الذي تستعمله في برامجها التربوية والتثقيفية ان عن طريق الكتاب المطبوع او عن طريق الصوت المسجل او عن طريق الشاشة التلفزية او السينمائية .

حاجتنا الى التفتح على الثقافات الاجنبية تدفعنا الى الدخول في حوار مع الدول المتقدمة صناعيا واقتصاديا لنطالب اكثر فاكثر بالتخفيض من معلوم النقل والترجمة والاستنساخ دون المس بحقوق المؤلفين المشروعة ودون حيف او تنطع او تجاهل لمسائل يعتبرها غيرنا في الدول المتقدمة جوهرية حيوية ، وما زال البعض منا ـ مع الاسف الشديد ـ لا يقيم لها وزنا اما عن جهل او تعنت او تكبر او عدم اكتراث .

١ ـ دور الكاتب في المجتمع :

العمل الفكري ينطلق من مجهود فردي ليتصل مباشرة بالمجتمع ويخدم الصالح العام . فهو تجاوز للفردية . ولهذا السبب كان للمؤلف دور . وان دور المؤلف في مختلف شعب الثقافة والعلم والمعرفة دور روحاني ، سواء بالنسبة الى قومه ومنطقته الجغرافية ودائرته الحضارية او بالنسبة الى ما وراء حدود وطنه وما وراء حدود عصره . فالثقافة تجاوز للزمان والمكان .. وعمل المؤلف في اي شعب واي زمان مساهمة الفكر البشري في تطور المجموعة الانسانية قاطبة .

ولخطورة هذا الدور ولايجابيته وفعاليته اصبح واجب الدولة ان تضمن للمؤلف العيش الكريم وان ترعى حقوقه الشرعية على الاثر الفكري الذي هو قطعة من ذاته .

لكن كثيرا ما نتحدث عن واجب المؤلف وعن مسؤوليته في المجتمع ، وكثيرا ما نطالبه بخدمة قضايا شعبه والقضايا العادلة بصورة اعم . ولكننا لا نتحدث في نفس الوقت عن حقوق المؤلف .. فما هذه الحقوق ؟

٢ ــ حقوق الكاتب المشروعة :

١ ــ من حقوق المؤلف ان تتوفر لديه حرية التعبير وحرية الخلق الفكري ، ولا يتوفر له ذلك الا اذا كان الاعلام حرا بموجب حق افراد الامة جميعهم في العلم والمعرفة . وحرية الخلق والتعبير تعني اولا بالذات حرية المؤلف المطلقة في البحث والاستقصاء والاستنباط ، وبالتالي في ترويج نتائج عمله والاتصال بالجمهور وبث افكاره فيه واحاطة الناس علما بما يختلج في صدره من مشاعر واحاسيس وما حصل له من معرفة عن طريق التجربة والخبرة والتطلع والاستكشاف .

فللمؤلف الحق المطلق في نشر مصنفاته الفكرية وتوزيعها واذاعتها وترويجها على اوسع نطاق .

٢ ــ ومن حقوق المؤلف تنمية شخصيته الفنية والفكرية في حرية ليس للدولة ان تخنقها او تحد منها باسم الردع او الزجر بعنوان الدفاع عن كيان وشعارات هو في طليعة من يحرسونها ويذودون عنها اذا كانت في خدمة العدل والسلام . فالمؤلف مسؤول .

٣ ــ يتعين التمييز بين امرين : الاول وهو مبدأ رعاية المصالح العامة بنقل الاخبار ونشر الثقافة وتوزيع الافكار على افراد الشعب، والثاني وهو يتمثل في الدعوة الى رعاية مصالح رجال الصناعة والتجارة وبصورة اعم من يستغلون المصنفات الفكرية على حساب اصحابها المؤلفين .

فمن صالح المؤلف ان تذاع افكاره وتروج آثاره .. لكن على ان لا يكون ذلك على حسابه او بالرغم منه او بتشويه تلك الاثار او بتوجيهها وجهة لم يقصد اليها صاحبها .

ولا يمكن لاي شعب ان يتثقف ويتطور الا اذا وجد ارباب الفكر فيه كل التشجيع وكل الرعاية وكامل الاعتبار من قبل الدوائر المسؤولة . فللمؤلف حق في الحياة الكريمة .

٤ ــ لا حق للمؤسسات الموكل اليها نشرالاثار الفكرية وترويجها ان تتدخل في شؤون الخلق المتصلة بالمؤلف اتصالا عضويا . وما هذه المؤسسات الا وسائل اعلام . ويمكنها ان تحمي نظمها وقوانينها وترتيباتها كما ترضيه لكن شريطة الا تمس هذه النصوص التنظيمية حقوق المؤلف الشرعية .

فللمؤلف وحده حق ممارسة سلطانه المطلق على اثره الفكري في جميع وجوه استعماله من قبل مؤسسات الترويج وفي شتى مراحل الاستهلاك .

٣ ــ طبيعة حقوق التاليف وفحوى هذه الحقوق :

٥ ــ يتصل حق المؤلف بعملية الخلق الفكري ذاتها ، فهو متصل الجذور بطبيعة الاشياء لانه يتمثل في فعل الخلق ولان اساسه ومبرره ذات المؤلف كشخص مادي .

لذلك لا يجوز لاي شخص معنوي مهما تكن مكانته ومنزلته في الدولة ان يتعين ان ندحض الدعاوى الرامية الى اعتبار المؤلف مجرد عامل اجير تستخدمه مؤسسة صناعية او تجارية لاغراضها ومصالحها وتستغل الاثار الفكرية حسبهواها كما تفعل بأي بضاعة مادية معروضة في سوق البيع والشراء .

فالاثر الفكري اسمى من ان يكون بضاعة مادية .

٦ ــ الاثر الفكري تعبير صادر عن ذات المؤلف . وهو في نفس الوقت مورد مادي لا استغناء للمؤلف عنه ، لذلك لا يجوز ان ينتقل حق التاليف من مصدره الى مستعمله الا في حالة موت المؤلف فينتقل الحق من المصدر الى فرعه عن طريق الميراث وبحكمه . فلا فرق هنا بين الاثر الفكري وبين ما يدخره الانسان في دهره من مال او متاع يعود بعد وفاته الى اصل بيته وذوي القربى ارثا طيبا حلالا .

فالمؤلف بنشره اثاره الفكرية مدة حياته يشرك الناس لا فيملكيته بل في التمتع بالثمار التي تجود بها تلك الملكية ، فنفع الاثر الفكري وحده هو الذي يصبح شيعة بين الناس اي المحتوى المعنوي فحسب . اما الاثر ذاته فيبقى على ملك صاحبه لا حق لاحد عليه سواه .

ولذلك فان استعمال الاثار الفكرية لصالح المجتمع وتوعيته وتثقيفه من شأنه ان يخضع للشروط التي يضبطها المؤلف بصفته المالك الاوحد لافكاره والمسؤول الاوحد عنها . عن طواعية وبالمختار . فلا اكراه في ميدان الفكر .

ولا يحق ــ والحالة هذه ــ لاي مجتمع من المجتمعات ان يفرض على المؤلف سلطانه بالرغم منه ، باسم الصالح العام او اي شعار من هذا القبيل بقطع النظر عن قيمة الشعار وعدله وتساميه وانسانيته ، بحيث لا يجوز استعمال الاثر الفكري لاي غرض من الاغراض دون الترخيص الصريح من مؤلفه وموافقته المكتوبة التي يمكن ان تقوم حجة عليه عند الاقتضاء وفي حالات النزاع بالخصوص، وبهذه النظرة تختلف الاثار الفكرية عن المخترعات الصناعية ، فالاثار الفكرية تتابع في الزمان ، وهي استنباط اشكال تتكامل ولا يمحو لاحقها سابقها او يحل مكانه بأية حال . اما الاختراعات الصناعية فعبارة عن مجموعة من درجات في سلم التقدم التقني .. كل درجة تعوض الدرجة التي سبقتها وتحل محلها الى ان تاتي درجة لاحقة فتنسيها .

فالتطور الفكري والتطور التقني لا يخضعان للمقاييس نفسها .

٤ ــ ممارسة حق التأليف ومدى حمايته :

٧ ــ وانطلاقا من هذا الاعتبار يتعين التمييز بين الاثر الفكري وبين البضاعة المادية ، فذاك لا يباع ولا يشترى ، وانما هو يستعار ويعاد الى صاحبه ، وتلك اذا بيعت سقط حق بائعها واتصل بذات المشتري بمجرد انتقالها من حوزة الاول الى حوزة الثاني . ولذلك فحقوق المؤلف على اثره الفكري مختلفة عديدة لانها متصلة باستعمالات مختلفة عديدة منها النقل بالطباعة والصورة والاسطوانة والشريط بنوعيه السمعي والمرئي . ومنها الاقتباس والتمثيل والعزف والاخراج والاذاعة والتلفزة والعرض على الجمهور بصورة أعم . وكل استعمال من هذه الاستعمالات وجه من وجوه الاستهلاك مقيد بموافقة المؤلف موقوف على ترخيص صريح صادر عنه دون اي احد سواه .

فالمؤلف هو صاحب الامتياز في كل عملية من هذه العمليات ، وهو شريك في نجاح الاثر الفكري لرجال الصناعة والمستغلين لاثره بصورة اعم . ويجب ان تعود اثاره عليه بالنفع المادي الناتج عن ذلك الاستغلال في صورة نسب مئوية تحسم من المداخيل الحاصلة من العرض على الجمهور على اختلاف العروض وانواعها . ولذلك يتعين ان يقرأ لكل استعمال حساب . فلكل عمل اجر يناسبه ، وقد تتفاوت مقادير الاجر لكن بعد اتفاق الطرفين : المؤلف ومن يستغل اثره الفكري .

٨ ــ على انه يمكن استعمال الاثار الفكرية دون ترخيص من مؤلفها في حالات معينة يضبطها القانون ، منها استعمال تلك الاثار من قبل الخواص وفي نطاقهم المحدود ، ومنها استعمال الاثار الفكرية لاغراض اخبارية او لاسباب تربوية او تثقيفية محض لا تعود بالنفع المادي على من يستغلها ولا تلحق ضررا بالاستهلاك التجاري الذي هو من حق المؤلف وحده بصفته مالك الاثر ، لذلك لا يجوز للخواص ان يستنسخوا الاثر الفكري لغايات تجارية فيبيعوا ما ليس لهم حق عليه ويغمطوا حق المؤلف المشروع .

وينبغي ان تأخذ الدول كل هذه الاحوال بعين الاعتبار فتشرع للاستعمال وتضبط حدوده وان تقر قبل كل شيء مبدأ رعاية حقوق المؤلفين الذين هم في كفالتها حتى لا يبيح التجار لانفسهم حقا راجعا لغيرهم . فلا فرق بين سارق الفكر وسارق المال ... ولكل سرقة

عقـــاب .

٩ – وحق المؤلف قد ينتقل عند وفاته الى خلفه او ذوي القربى من اهله . لذلك يتعين ان تشرع الدولة لحقوق ورثة المؤلفين الذيـن هم في كفالتها ليمكنهم ممارسة حقهم والتمتع بموارد الاثار الفكريـة بعد وفاة اصحابها او تكليف من يستخلصها باسمهم ولصالحهم مـن مستغليها .

ومعلوم ان حق التاليف يسقط عن اصحابه بعد مرور سنـوات معدودات على وفاة صاحب الاثر الفكري . وقد تختلف آماد الاستحقاق من قطر الى قطر ومن تشريع الى تشريع . لكن الاثر لا يصبح ملـك المجموعة الا بعد مرور سنوات على وفاة صاحبه على كل حال . وفـي اقرار هذا المبدأ في كل التشريعات احترام المجموعة البشرية لـروح المؤلف ورعاية لاهله من بعده وان في زمن محدود (من خمس الـى خمسين سنة) .

وما مبدأ اسقاط الحق المادي مع ابقاء الحدود المعنوية بعـد وفاة المؤلف الا بدافع تعميم الفائدة وتمليك العامة حقا من ورائـه خدمة الثقافة واشعاع الفكر ورواج الاثار الفنية والادبية والعلميـة والفكرية على اوسع نطاق واشمله .

٥ – مؤسسات رعاية حقوق المؤلفين ومشمولاتها :

١٠ – ولتعقيد المسائل المتصلة بحقوق التاليف ولتشعبهـا وتنوعها وجب على الدول ان تتولى التشريع لها وضبط القوانيـن لرعاية من تعود عليه بالنفع ماديا ومعنويا . والى جانب هذه القوانين والتشريعات وجب ايضا بعث مؤسسات خاصة موكول اليها السهـر على هذه المصالح المشروعة ، وليست هذه المؤسسات او الجمعيات او الشركات ذات صبغة تجارية وليس من غاياتها الاثراء على حساب اصحاب الحقوق ، بل ان دورها يقتصر على استخلاص المحاصيـل الراجعة الى المؤلفين وتوزيعها عليهم توزيعا عادلا يضمن لهم العيش الكريم ويرعى ابناءهم واهليهم من بعدهم الى حين .

١١ – ويتعين على الدول ان تمد لهذه المؤسسات ذات الصبغة الانسانية يد المساعدة لتمكنها من القيام بواجبها على الوجه الاكمل . وتتمثـل هذه المساعدة في اعفاء هــذه المؤسسات من الضرائب والاداءات في نطاق قانون يحمي حقوق المؤلفين ويضبط ما لهم وما عليهم من الحقوق والواجبات وينظم العلاقات بينهم وبين من يستغلون اثارهم الفكرية .

ومن مشمولات مؤسسات الدفاع عن حقوق المؤلفين تمثيـل هؤلاء امام السلطات القضائية في حالات النزاع ، كما ان من واجبها الاسهام في اعداد القوانين الوطنية لرعاية حقوق التاليف والمشاركة في اعداد القوانين الدولية التي تدعم هذه الرعاية وتقرها كمبـدأ يجب احترامه والدفاع عنه على اوسع نطاق تيسيرا للتبادل الثقافي بين الدول وتعميما للثقافة وخدمة للفكر والتفاهم البشري .

١٢ – وان ايجاد قوانين تضمن حقوق المثلين في الـدول العربية وبعث مؤسسات يوكل اليها الدفاع عن هذه الحقوق قـد اصبح اليوم امرا ضروريا يحتمه العصر وتمليه علينا جميعـا سنة التطـور .

٦ – رعاية حقوق المؤلفين على الصعيد الدولي :

ونحن في عصر قربت فيه الاقاصي وقصرت المسافات ، وقـد دخل التبادل الثقافي في طبيعة البشر فاصبحنا نشاطر الناس فـي ثقافتهم ونشاركهم في افراحهم واتراحهم من خلال الشاشة الكبيـرة والصغيرة وعن طريق السلكي واللاسلكي وكل الوسائل السمعيـة والبصرية المتنقلة على البسيطة او السائرة مع الافلاك في الفضـاء الفسيـح .

ثم اننا لم نزل نستورد من الشرق والغرب الاثار الفكرية التـي تثري رصيدنا الثقافي وتطعمه وتطوره وتنميه ، فتلك حقيقة لا يجدر بنا ان نطمسها او ان نتجاهلها فنكون كالنعامة .

كنا في عهود النهضة من المصدرين للفكر والثقافة والعـلم ، واعترف لنا الاجانب بذلك وما زالوا يعترفون ، ولكننـا اليـوم فـي حاجة الى توريد الاثار الفكرية اللازمة لنهضتنا التربوية والثقافيـة ولثورتنا التقنية والعملية والفنية .. نحن في حاجة الى نقل الاثار الفكرية الاوروبية والاميركية الى لغتنا والى الاستنساخ والاقتباس والاستيحاء والمحاذاة ، فان نحن لم نرع حقوق الغير فمن يرعى حقوق مواطنينا على قلتهم ؟

لذلك يتعين ان نبدأ برعاية حقوق مؤلفينا في مرحلة اولـى ثم ندخل في حوار مع الغير على قدم المساواة وعن طواعية وبالمختار فنشاركهم في نهضتهم لا من خلال ثقب مفتاح بل من باب مفتـوح المصراعين ينعد منه الهواء والنور ذهابا وايابا فينعشنا وينعش غيرنا في طلاقة وحرية .. وهذه مرحلة ثانية واجبة هي ايضا ، وهي تحتم علينا الانضمام الى المنظمات الدولية الساهرة على رعاية حقـوق المـؤلفين على الصعيد الكوني .

ونعلم ان المؤسسات الوطنية لا بد لها ان تتعامل مع مثيلاتهـا وان تكون هكذا حلقة من سلسلة حلقات تقوم بواجبها في صـالح المجموعة ، في صالح المؤلفين قبل كل شيء .. وفي صالح المستغلين لآثارهم أيضا . ذلك انه كثيرا ما يتعذر على مستغلي الاثار الفكريـة الاتصال المباشر بصاحب الاثر وبالتالي بصاحب الحق المادي والادبي ، فيعسر لذلك السبب الحصول على الترخيص من المؤلف قبل استعمال اثره الفكري كما يعسر ايصال المكافأة العادلة لمستحقيها ، فيضيـع هكذا حق المؤلف عن قصد او عن غير قصد ، وتكثر المظالم والسرقات الادبية واختلاس افكار الغير .

فبهذه النظرية يتحتم علينا اذا اردنا ان نفتح لمؤلفينا افاقـا جديدة ان نعمل على رعايتهم على الصعيدين : الصعيد الوطنـي بسن قوانين كفيلة بحماية حقوقهم في اوطانهم ، والصعيد الدولـي بالانضمام الى احدى الاتفاقيتين « اتحاد بارن » و « الوثيقة العالمية » او اليهما معا : كما هو الحال بالنسبة الى لبنان وتونس .

ونعلم ان البلاد العربية التي سنت قوانين وطنية تحمي حقوق المؤلفين لا يتجاوز عددها الان الستة وهي : المغرب وتونس والجزائر (وان كانت الجزائر ما تزال تعتمد القانون الفرنسي في هذا الباب وليبيا ومصر ولبنان .

كما نعلم أن من بين هذه الدول دولتين عضوين في اتفاقيـة « اتحاد بارن » هما المغرب وتونس ، ودولتين انضمتا الى « الاتفاقية العالمية » التابعة لليونسكو وهما لبنان وتونس .

اما الدول الاخرى فقد احجمت عن الانتماء لاي وثيقة مـن الوثائق الدولية الخاصة برعاية حقوق التاليف لاسباب نعرفهـا او لاسباب نجهلها .

اما ما نعرف من هذه الاسباب فيتلخص فيما يلي :

١ – ترى بعض الدول انه يكفي الاقتصار على سن قانون وطني يرعى حقوق مؤلفيها دون سواهم ، تحاشيا لما قد ينجم عن انضمامها للاتفاقيات الدولية من تصدير العملة الصعبة .

٢ – وترى بعض الدول انه لا حاجة لها قطعا بسن قانون وطني لضمان حقوق المؤلفين ، اذ يكفيها ان تشتري الاثار الفكرية مـن اصحابها وتستعملها ما طاب لها الاستعمال .

٣ – وترى بعض الدول ان المؤلف مسخر لخـدمة المجموعة ،

مجند ابدا وانه اذا اراد ان يعيش مكرما فما عليه الا ان يتوظف ويعيش براتبه .

٤ ــ اما الصنف الرابع من الدول العربية فلا تعير القضية اي اهتمام ، فهي لا تعترف رسميا بضرورة سن قانون رعي حقوق المؤلفين بدعوى ان الجاحظ في عصره لم يتمتع باية رعاية ولم يكن يخطر بباله انه صاحب حق .

ويمكننا ان ندحض هذه المزاعم بما اوردنا من الحجج في مستهل هذا البحث مع اضافة النقاط التالية :

١ ــ مسألة رعاية حقوق المؤلفين متصلة بالاخلاق ، فلكل مالك الحق ان يتصرف بملكه خاصة وان المؤلف من صنف الملاك الذين لا يستغلون عرق جبين غيرهم .

٢ ــ لكل دولة من الدول الحق في سن قانون وطني يرعى حقوق مواطنيها اكثر من غيرهم . ولها ان تحد من تصدير العملة الصعبة بوضع الموارد الذاتية من حقوق التاليف الراجعة للاجانب على ذمة هؤلاء على ان تصرف هذه المبالغ داخل حدودها الجغرافية .

٣ ــ الاثار الفكرية لا تباع ولا تشترى .. وانما تستعار بمقابل وليس من الاخلاق الكريمة ان يغتصب من المؤلف حقه عن طريق الاكراه .

٤ ــ المؤلف مسخر لخدمة المجموعة حتما ... لكنه في حاجة الى الخبزة ، فمن اشبع مطيته لم يخش في وسط الطريق ، وشعوبنا في حاجة الى من يدافع عن قضاياها باستمرار وطول نفس وتفان واخلاص . ولا تكون المثابرة بفراغ البطون . اما الوظيف فمرتبه لا يكون الا في مقابل عمل اداري .. وكثيرا ما يقعد هذا العمل المؤلفين عن الخلق . وان هو لم يقعدهم فكثيرا ما يطبعهم بطابع الازدواجية وهو مرض عضال يصيب الكثير من ارباب الفكر عندنا عندما يشعرون انهم في نفس الوقت « الحاكم » والمحكوم عليه « لسان الدفاع و (نائب الحق العام) . وقد كتب « كورتلين » من المسرحيات المرحة ــ المرة في هذا المرض ما يشفي الغليل .

٥ ــ وبم نرد على من لا يعير القضية اي اهتمام ؟ من نسيته تغافل عنك ومن لم يلبس عصره ظل على اطلال ماضيه يبكي ويستبكي .. اما البكاء فمن حقه ، واما الباكون الذين يستجيبون لندائه في عصرنا فقد تقلصت ظلالهم عن البكاء الطموح لتحقيق الغد الافضل .. ونحن في عصر احتل فيه الحوار محل النواح والندم على ملفات .

وخلاصة القول ان التعاون الدولي ولقاح الثقافات ووجوب الاتصال والتفتح على الافاق الجديدة واجب علينا يخرجنا من الانكماش على انفسنا والانزواء والعزلة ويبوئنا في الدنيا المكانة التي نستحق ومنا من هو جدير بهذه المكانة .. لكن عراقيل كثيرة تحول دونهم وما يستحقون . ومن هذه العراقيل تجاهل الدول المتقدمة لثقافتنا وحضارتنا ولغتنا ولكل قضايانا بصورة اعم .. هذا صحيح . لكن ماذا فعلنا لنعرف بانفسنا ونفرض وجودنا في عالم متحجر لا يعترف الا بمن يسطع نجمه في ميادين الصناعة والتقنية والعلم ؟ هل يجدر بنا ان نتجاهل او هل يتعين علينا ان ندخل في حوار مع الغير لنسمع صوتنا في مرحلة اولى لنشعر بوجودنا ثم نرغم الغير على الاعتراف لنا بما نستحق .. ثم نشوقه الى معرفة المزيد عنا ثم نفرض وجودنا عليه فيعترف لنا بالمساواة ويبادلنا الاحترام والتقدير .

على هذا الاساس يقوم التعاون الدولي البناء .. بتبادل الاثار الفكرية واشعاع الثقافات وتظافرها وتماسكها في خدمة الانسان .

٧ ــ توحيد الجهود العربية بازاء حقوق التأليف :

١ ــ يجب ان نقر اولا بمبدأ ضرورة ايجاد تشريع وطني يضمن حق المؤلف على اثره الفكري في كل دولة عربية على حدة .

٢ ــ ان نحن اقررنا بهذه الضرورة وجب تنسيق اعمالنا لتكون هذه النصوص مستوحاة من واقعنا معتمدة تجارب السابقين منا في هذا الميدان ، مستمدة روحها من مبدأ الاعتراف بالفضل لذويه .

٣ ــ ان يقع هذا التنسيق عن طريق الجامعة العربية (ولست ادري لماذا لم تقدم عليه الجامعة حتى اليوم) ــ او اي هيئة عربية يوكل اليها النظر في اعداد مشروع قانون مثالي تتفق عليه الدول العربية بعد المناقشة والتمحيص والاستقصاء واعتبار كل الظروف والملابسات الخاصة بكل بلد على حدة .

٤ ــ يمكن لاي دولة عربية لا تشمل قوانينها الان رعاية حقوق المؤلفين ان تستعين بدولة عربية اخرى لها تلك القوانين ولها مؤسسات خاصة برعاية حقوق المؤلفين . بصورة ثنائية .. واعتقد ان لا دولة تبخل على شقيقتها بالوثائق او الخبراء في هذا الميدان الحيوي الذي يتعلق بحاضر الانسان العربي ومستقبله .

٥ ــ ان ننقدم في صف موحد الى المنظمات العالمية الموكل اليها ضمان حقوق المؤلفين ،وان نطالب بمراجعة النصوص الدولية على ضوء ما اتفقنا عليه . وعندها فقط تسمع كلمتنا ويخشى خطرنا . ونعلم ان لنا في العالم الثالث انصارا يعيشون محنتنا ولا ينتظرون منا الا جمع الكلمة معهم للوقوف صفا موحدا ضد كل تعسف او تجاهل او سيطرة من الدول المتقدمة تقنيا .

يجب ان نثبت للعالم ان تخلفنا ليس تخلف فكر وذهنية وليس من عدم قدرتنا اليوم على التفاعل مع الثقافات الاخرى وهضم ما طاب لنا منها وطبع ما تقبل منها الطابع العربي .. تخلفنا ليس من احجامنا على الاخذ والعطاء وليس من انكماش وليس من العدو وانما هو من ضيق ذات اليد .. تخلف مادي لا دخل للمعنويات فيه ، وهو تخلف تتحمل الدول المتقدمة قسطا وافرا من المسؤولية فيه . لقد كنا ولم يزل البعض منا نهبا للمستعمرين وعرضة للامبريالية العالمية وللصهيونية البغيضة وللتمييز العنصري وكل الساحقات والماحقات ولم تزل قوى الشر تعرقل مسيرتنا الثقافية وتحول دوننا ودون نور المعرفة الساطع الشامل . وخير حجة لنا على ذلك ان الدول المتقدمة تبدي كل الاستعداد لمدنا بالسلاح لكنها تتحجر كلما طالبناها بحقنا المشروع في العلم والمعرفة والثقافة فلا تسمع اصواتنا ولا تسعى الى حل مشاكلنا التربوية لانها تستصغرنا جاهلين وتخشانا عارفين .

وقد لاحظنا هذا التحجر منذ اول جلسة طرحت فيها قضايا حقوق التاليف على الصعيد الافريقي في برازافيل (من ٥ الى ١٠ اوت سنة ١٩٦٣) وشارك فيها نواب عن البلاد الاوروبية . فكان موقف هؤلاء متسما بالابوة والعطف ونوع من التفهم المتصنع لكن اقناعهم بضرورة ادخال تحويرات جوهرية على تشريعاتهم القديمة لتلائم هذه النصوص اوضاع العالم الثالث كان امرا عسيرا ولولا تدخل منظمة اليونسكو وتبنيها لمقترحات البلاد النامية هو الذي ارغم المتحجرين على قبول مبدأ مراجعة القوانين الدولية على اساس العدل والمساواة) .

واختم هذه الدراسة ــ التي لا يمكن ان تكون الا سطحية تغلب عليها العموميات لما للموضوع من منعرجات لا يسمح بالتعرض لها جميعها ضيق المجال ــ اختم هذه الخواطر اذن باقتراح :

يتعين الا نخرج من هذا المؤتمر الا بتوصية صريحة ندعو فيها دولنا الى تعيين من يمثلها في ندوة علينا ان نحدد موعدها من الان . وتكون هذه الندوة بمثابة الاجتماع الاخباري يتبادل خلاله ذوو الاختصاص منا او على الاقل من يهمهم امر رعاية حقوق التاليف وجهات النظر ويطلعون على آخر ملفات هذا الموضوع الشائك ليكون عملنا بعد ذلك مركزا لا مجازفة فيه ولا ارتجال . لان الموضوع دقيق وعليه يتوقف في نظرنا اشعاع الثقافة العربية ورواج اللغة العربية والآثار الفكرية العربية .

تونس — **مصطفى الفارسي**

وقائع المؤتمر الثامن للأدباء العرب

عقد في دمشق ، من ١١ الى ١٥ كانون الاول ١٩٧١ ، المؤتمر الثامن للادباء العرب ومهرجان الشعر العاشر ، برعاية رئيس الجمهورية السورية الفريق حافظ الاسد .

وقد شارك في المؤتمر عدد كبير من الادباء نورد اسماءهم فيما يلي :

١ ـ عن الامانة العامة لاتحاد الادباء العرب : يوسف السباعي ، خيري حماد ، سهيل ادريس .

٢ ـ عن جامعة الدول العربية : محمد التهامي ، طلعت الرفاعي .

٣ ـ عن البحرين : محمد الماجد ، علوي الهاشمي .

٤ ـ عن تونس : محمد العروس المطوي ، ابو القاسم محمد كرو ، مصطفى الفارسي ، البشير بن سلامة ، الحبيب الجنحاني ، نور الدين صمود ، جعفر ماجد ، احمد اللغماني .

٥ ـ عن الجزائر : صالح خرفي ، حنفي بن عيسى ، ابو القاسم سعد الله .

٦ ـ عن السودان : محمد صالح ، صلاح احمد ، عوض المالك (وقد تغيبوا) .

٧ ـ عن العراق : شاذل طاقة ، مصطفى جمال الدين ، سعيد حميد ، الفريد سمعان ، جميل شلش ، حسين مردان ، سامي مهدي ، محمد مهدي الجواهري (ووفد اعلامي كبير) .

٨ ـ عن فلسطين : خيري حماد ، عودة بطرس ، نادرة السراج ، هارون هاشم رشيد ، معين بسيسو ، محمود درويش ، علي رشيد ، كامل السوافيري ، عبدالله حوراني ، محمد رمضان ، غسان كنفاني ، محمد الحوت ، الياس سحاب ، مي صايغ ، محمد زهدي النشاشيبي ، عصام حماد .

٩ ـ عن الكويت : احمد السقاف ، خالد سعود الزيد ، عبد الرزاق بصير ، سليمان الشطي ، خليفة الوقيان ، خالد الهلالي .

١٠ ـ عن لبنان : سهيل ادريس ، منير البعلبكي ، احمد ابو سعد ، فؤاد الخشن ، ادوار امين البستاني ، ميشال عاصي ، جورج غانم ، ليلى بعلبكي ، اميلي نصر الله ، عائدة ادريس ، نور سلمان ، ميشال سليمان ، محمد دكروب ، احمد سويد ، حبيب صادق .

١١ ـ عن ليبيا : علي مصطفى المصراتي ، احمد الفقيه ، نجم الدين الكيب ، محمد مناع ، د. عبد المولى بغدادي .

١٢ ـ عن مصر : يوسف السباعي ، سهير القلماوي ، محمود حسن اسماعيل ، ثروت اباظة ، صالح جودت ، عبد الرحمن الشرقاوي ، ابراهيم الورداني ، الفريد فرج ، عبد العزيز الدسوقي ، لطيفة الزيات ، عبد العاطي جلال ، عادل الغضبان ، عبد التواب يوسف ، انور احمد ، غالي شكري ، ملك عبد العزيز ، روحية القليني ، محمد صدقي .

١٣ ـ عن المغرب : عبدالكريم غلاب ، عباس جراري .

١٤ ـ عن اليمن : وكيل وزارة الاعلام ، وكيل مصلحة الآثار .

١٥ ـ عن اليمن الديمقراطية : عمر الجاوي ، محمد احمد عبد الولي ، عبد الله عبد الكريم الملاحي ، محمد سعيد جراده ، عبد الله البردوني .

١٦ ـ عن المكتب الدائم للكتاب الافريقيين والاسيويين : عبدالعزيز صادق ، ادوار الخراط .

١٧ ـ عن السكرتارية : عصام الجيني ، زكي غنيم ، صلاح عبد المتجلي ، حسين رزق ، عثمان خليل .

١٨ ـ عن سورية : جورج صدقني ، صدقي اسماعيل ، غسان الرفاعي ، اديب اللجمي ، زكريا تامر ، جلال فاروق الشريف ، سليمان العيسى ، انطون مقدسي ، خليل هنداوي ، عمر الدقاق ، جورج سالم ، شكري هلال ، ممدوح سكاف ، ابراهيم كيلاني ، احمد سليمان الاحمد ، الفة الادلبي ، جورج طرابيشي ، اديب نحوي ، جبرائيل سعادة ، حسام الخطيب ، حسيب الكيالي ، حنا مينه ، خلدون الشمعة ، سعد الله ونوس ، علي كنعان ، عبد المعين الملوحي ، محمد الحريري ، مراد السباعي ، محيي الدين صبحي ، محمد عمران ، محمد الماغوط ، وليد اخلاصي ، وصفي البني ، عزيزة هارون ، ممدوح عدوان . (بالاضافة الى :) مصطفى الحلاج ، فوزي الكيالي ، محمد سليمان الاحمد ، عمر ابو ريشة ، نزار قباني ، شفيق جبري ، عبد الله عبد الدايم ، وجيه البارودي ، احمد الجندي ، نديم محمد ، سعيد الجزائري ، شاكر مصطفى ، غادة السمان ، عبد السلام العجيلي ، كوليت خوري ، عبد الله يوركي حلاق .

كلمة الرئيس حافظ الاسد

والقى الفريق حافظ الاسد رئيس الجمهورية السورية الكلمة التالية :

أيها السادة اعضاء المؤتمر .

أيها الضيوف الاعزاء .

انها لمناسبة هامة ان ينعقد مؤتمر لادباء الوطن العربي ، بمثل هذا الشمول ، في دمشق العريقة الخالدة ، التي كانت عبر التاريخ قلعة الصمود العربي مثلما كانت موطنا اصيلا للادب العربي والثقافة العربية ، ومصدرا للاشعاع الفكري .

من هنا كان حرصي ألا تمر مناسبة اول مؤتمر للادباء العرب ينعقد في دمشق ، دون ان التقي بكم في مكان اجتماعكم لارحب بالاخوة ادباء الاقطار الشقيقة ، وبضيوفنا الادباء القادمين من البلدان الصديقة ، وأنقل لكم تحية الشعب والحزب والثورة وترحيبهم برجال

الفكر والقلم في وطنهم وبين اهلهم .

ولئن كان انعقاد هذا المؤتمر يشكل بحد ذاته مناسبة هامة ، فالاهم من ذلك انعقاده في مرحلة دقيقة وحرجة من مراحل النضال العربي ، هذه المرحلة التي نعيشها الآن ، والتي لا مثيل لها في تاريخنا ، لانها مرحلة المواجهة المصيرية ومرحلة المعركة التي يتوقف على نتيجتها وجودنا او عدم وجودنا كامة عربية . فلم يسبق في التاريخ العربي ان كان وجود الامة مهددا بمثل هذا التهديد الذي يتعرض له الآن ، من عدو تسنده قوى الامبريالية العالمية ويهدف الى احتلال الارض وتشريد السكان بغية الاستيطان والتوسع .

ولان هذه المعركة التي يتحتم علينا ان نخوض غمارها ، هي بمثل هذه الخطورة ومثل هذا الخطر ، فهي بالتأكيد معركة الامة العربية بكل قواها وطاقاتها وامكاناتها ، وينبغي لنا ان نستعد لها على مختلف الاصعدة وان نخوض غمارها في مختلف المجالات ، لانها معركة اقتصادية وسياسية وثقافية وعلمية بقدر ما هي معركة عسكرية . ولكي ننتصر فيها ونسترد ارضنا وكرامتنا ، يتحتم علينا ان نعمل ونناضل لتحقيق محصلة التفوق على عدونا في هذه المجالات . ويتحتم علينا ايضا ان نزج بكل امكانياتنا وطاقاتنا في صميم المعركة، وان نضعها في خدمة هدف التحرر الوطني المتمثل الآن في تحرير الارض العربية المحتلة واسترداد حقوق الشعب العربي الفلسطيني .

وايضا لخطورة المعركة وخطرها ، وضمانا لانتصارنا فيها ، ينبغي لنا ان نعد لها ونعمل من اجلها بهدوء واخلاص ، والا نسمح لبريق الاحداث ان يخطف ابصارنا ويبهرها ، والا نسمح لتسارع الاحداث ان يشيع الاضطراب في نفوسنا بحيث ننزلق الى ما لا نريد او نجر اليه دون ان ندري . ان العمل الهادىء والمخلص المستند الى الارادة والتصميم على الكفاح واحراز النصر هو الذي يحفظ لنا وضوح الرؤية ويبقي زمام امرنا في ايدينا ، ويوصلنا الى النصر .

أيها الاخوة اعضاء المؤتمر .

اذا اردنا ان نعدد القوى والامكانات التي يزخر بها الوطن العربي نجدها وافرة وقادرة على التأثير ، ولكننا نجد ان الانسان العربي ، الفرد العربي ، هو أهم هذه القوى والامكانات . بل هو اخطرها وابلغها اثرا وتأثيرا ، وسيبقى الفرد بما يعنيه من طاقة فكرية وجسدية ومعنوية الاساس الاهم والقوة الرئيسية في كل معارك الشعوب، رغم كل ما حققته الآلة ، وخاصة آلة الحرب ، من تطور وتقدم كبيرين بفضل التقدم العلمي .

لذا نجد قوى الامبريالية المستغلة للشعوب ، والتي تحاول الاحتفاظ بسيطرتها عليها ، تخرج على العالم بآراء ودراسات تحاول من ورائها ان تقلل من شأن الفرد وأهميته ، وما يمثله من ارادة وطاقة وروح معنوية ، وان تفرض قناعات مزيفة لتدخل في روع الشعوب انها مغلولة الايدي عاجزة امام الآلة وتعقيداتها . هذه المحاولات المدروسة هي جزء من الحرب النفسية ، وهي تخدم مصالح قوى الاستغلال لانها وسيلة من وسائلها لاضعاف قدرة الشعوب المناضلة من اجل تقدمها وحريتها واستقلالها ، باعتبار ان طاقة الفرد التي يمثلها ابناء هذه الشعوب هي رصيدها الاساسي .

والواقع انه كان من اهداف عدوان حزيران الرئيسية اضعاف روح الانسان العربي المعنوية وفرض روح الاستسلام والهزيمة عليه ، بفرض تلك القناعات المزيفة حول الفرد وشأنه وقيمته . ولقد شهدنا في السنوات التي اعقبت العدوان حملة معادية مركزة خططت لها الصهيونية العالمية وشاركت في اخراجها وتنفيذها قوى الامبريالية العالمية ، لقتل ثقة الانسان العربي بنفسه وبقدراته وبأمته ، بيد ان صلابة جماهيرنا وتصميمها وثقتها بنفسها احبطت اهداف هذه الحرب النفسية العاتية ، وحالت دون نتائجها المدمرة .

فاذا قررنا ان الفرد هو العامل الحاسم في معركة الشعوب وان هذا الفرد هو اولا وقبل كل شيء طاقة معنوية ، ادركنا الاهمية الكبرى للادب والاديب والكلمة والكاتب ، هذه الاهمية التي تنبع من التفاعل الايجابي الخلاق بين الادب من جهة ، وبين قدرة الفرد ، وبالتالي الجماهير ، وما تمثله من طاقة وارادة وروح معنوية من جهة اخرى .

ولست أبغي بهذا ان ادلكم على ما انتم اهل لمعرفته في مضماره، او اقنعكم بما هو شاغلكم اليومي وبما ناديتم من اجله الى هذا المؤتمر . فانتم حملة سلاح الكلمة خير من يعرف ما كان للكلمة المكتوبة والملفوظة على امتداد التاريخ العربي من صدى واثر يتحولان الى فعل وعمل ونتائج باهرة لم تنحصر في نطاق اقليمي بل كانت شاملة معبرة ابلغ تعبير عن وحدة امتنا ووحدة وطننا .

واذا كانت الشعوب المتقدمة عامة تؤكد على احياء تراثها الفكري، وخاصة في اوقات الخطر ، فاننا الآن أحوج ما نكون الى احياء تراثنا ، وجل ما فيه مجيد ومشرف ، نظرا للصلات والوشائج المتينة بين تراث الامة الفكري وبين قدرتها الآنية على صنع النصر .

ولقد هدف العدوان الغادر في حزيران عام ١٩٦٧ الى زعزعة صلة الامة بماضيها المجيد ، ومسخ تاريخها عبر اثارة الريبة في جدارة الانسان العربي وقدرته على مواجهة متطلبات العصر وتحدياته .

ولا بد ان يكون ردنا على ذلك مزيدا من تعميق الصلة بتراثنا القومي واحيائه ، وتأكيد قدرتنا على المواجهة والنجاح وتبوء المكانة اللائقة بامتنا حيث تسهم بكامل قدرتها في اغناء حضارة الانسان .

وقد يكون من المفيد ان نذكر في هذا الصدد ان الصهيونية عمدت الى نبش ميت التاريخ واللغة لتتخذ منهما مصدرا من مصادر الالهام في الاعداد لقضية الباطل وتنفيذ مخططها ، واستخدمت سلاح الادب والفكر الى اقصى الحدود وعلى اوسع نطاق عالمي ضد امتنا العربية . ذلكم أمر تعرفونه ، ولا ريب في انكم تخططون لوسائل مجابهته والرد عليه .

ان هذا العدو الذي زيف التاريخ واعتمد اساليب التضليل في كل مجال وعلى كل صعيد ، يحاول الآن بهذه الاساليب كافة ان يجعل من نكستنا في حزيران عام ١٩٦٧ سببا لوقف تقدمنا ، وبالتالي اساسا لهزيمتنا . على ان عبر التاريخ ودروسه تؤكد ان الانتكاسات لا تمنع تقدم الشعوب ، بل على العكس تشكل حافزا لتمرد الشعوب على النكسة ونتائجها ودافعا الى رفض الواقع الذي يراد فرضه على الشعوب ، فتبادر فورا الى تجنيد امكاناتها وتعبئة طاقاتها ، وتباشر ممارسة كل اشكال النضال لتجاوز واقع النكسة والانتقال الى المستوى الذي يتناسب وطموح هذه الشعوب .

وليس في تاريخ امتنا العربية الا ما يؤكد رفضها الرضوخ للمصاعب وتمردها على النكسات ، ولقد تميز الشعب العربي بروح التمرد على كل واقع يتنافى وعزته وكرامته ويتعارض مع مطامع ابنائه المشروعة ، ولذلك نقول وبكل تصميم ان شعبنا يرفض الواقع الذي يريد الاعداء فرضه علينا ، نرفضه لانه يتنافض وكرامة شعبنا وعزته ، يتناقض والعدالة التي يؤمن بها شعبنا ويتمسك ، يتناقض والحق الذي يقدسه شعبنا ، يتناقض والحرية التي يناضل شعبنا في سبيلها ويريد ان يمارسها .

في هذه الظروف ولهذه الاسباب ، نؤمن بأن الكتاب والادباء يشكلون طليعة من طلائع الشعب ، وبأن دور الاديب العربي الملتزم بقضايا جماهير شعبه وقضايا الانسان الكبرى في عصره ، دور عظيم عظمة المبادىء التي يلتزم بها ويدافع عنها ، وعظمة القضية التي نذر نفسه لها ، وعظمة الجهد الذي يبذله في سبيل هذه القضية وتلك المبادىء . ونعتقد بأن التزام الكاتب الطليعي انما ينبثق من ايمانه بأن مصلحته الحقيقية وحريته الحقيقية مرتبطتان بتأدية رسالته الفكرية ، وايمانه بأنهما جزء من مصلحة الوطن وحريته . كما نعتقد

بأن الكاتب والاديب يفرض نفسه ودوره في المجتمع بالانتاج الجيد والالتزام بقضايا الشعب واقامة اوسع اتصال مع الجماهير .

ايها السادة .

اذا كانت قد مرت اوقات احس خلالها كتاب قطرنا بالضياع ونزع بعضهم الى السلبية بسبب ضياع الحقيقة وبسبب الحواجز التي كانت تفصل بين القطاعات والمؤسسات المختلفة في هذا القطر ، فقد عملنا الآن وسنعمل على هدم كل هذه الحواجز ، وازالة ما يمكن ان يضعف دور الكاتب والاديب ، ودور أي مواطن ، في المجتمع عامة، وفي معركة المصير خاصة .

واستكمالا لذلك فقد اتخذنا وسنتخذ كل الاجراءات الممكنة التي تيسر لرجال الفكر في هذا البلد ان يضعوا طاقاتهم كلها فيما يخدم مصلحة الامة العربية ، وسنعمل على ان نوفر لهم المناخ الحر الملائم كي يمارسوا الكتابة والتأليف مطمئنين الى حاضرهم ومستقبلهم ولا رقابة عليهم سوى رقابة الضمير وما يفرضه الالتزام بمبادىء امتنا وقضاياها الكبرى . وبذلك يبذل الكاتب والاديب كل الجهود لبعث امجاد امته واغناء حضارتها المعاصرة والدفاع عن قضاياها والقضايا الانسانية الكبرى .

ان في جدول اعمالكم ايها السادة ، موضوعات ما فتئت موضع نقاش وجدل في الاوساط الادبية والفكرية . اتمنى ان تصلوا في معالجتكم لها الى النتيجة التي تؤكد دور الاديب العربي وتعلي اهمية هذا الدور وتعزز مشاركة الاديب الايجابية والفعالة في بناء مستقبل امته .

ويقيني ان تبادل الآراء وتفاعلها في مؤتمركم سيقودان الى هذه النتيجة .

أتمنى لكم النجاح والتوفيق وأرجو ان تحققوا الآمال المعقودة على مؤتمركم .

والسلام عليكم .

كلمة رئيس المؤتمر

والقى الاستاذ جورج صدقني رئيس مؤتمر الادباء العرب الثامن ، رئيس الوفد العربي السوري ، الكلمة التالية :

سيادة رئيس الجمهورية .

أيها الحفل الكريم .

الزميلات والزملاء اعضاء مؤتمر الادباء العرب الثامن .

أشكر لكم ثقتكم التي طوقتم بها عنقي باختياري رئيسا لهذا المؤتمر وآمل أن اوفق في ان اكون عند حسن ظنكم فنتعاون جميعا على تحقيق اهداف مؤتمرنا ونجاحه .

ان جماهير شعبنا في كل قطر من اقطار وطننا العربي تولي انعقاد مؤتمرنا اهتماما خاصا ولا سيما في هذه الظروف المصيرية التي تحيط بالامة العربية ، فالاعداء يتربصون بها والعدوان مستمر على ارضها . ولذلك فان كل مواطن عربي ينتظر من مؤتمرنا ان يحدد للكلمة الحرة المسؤولة دورها الذي ينبغي ان تقوم به في معركة المصير . فلنصب جهودنا جميعا في سبيل تحقيق هذا الهدف .

أيها السيدات والسادة .

اسمحوا لي ان اشكر باسمكم سيادة الفريق حافظ الاسد رئيس الجمهورية العربية السورية على كريم الرعاية التي احاط بها هذا المؤتمر وعلى تفضله بحضور هذا الحفل الافتتاحي . وما هذه اللفتة الكريمة من سيادته الا استمرارا للنهج الذي انتهجه في رعاية الفكر والثقافة وتوفير المناخ الملائم لنموهما وازدهارهما ، فقبل ايام قليلة اصدر توجيهاته الكريمة برصد اعانة سنوية لاتحاد الكتاب العرب في القطر العربي السوري في ميزانية وزارة الثقافة وتخصيص قطعة أرض مناسبة لاقامة بناء للاتحاد بدمشق ورصد مبلغ مناسب فيميزانية الدولة للمباشرة في دراسات انشاء البناء ، وقد قدم سيادته مبلغ مئة الف ليرة سورية للاسهام في انشاء جمعية سكنية لاعضاء الاتحاد كما أحال على مجلس الشعب مشروع تفرغ الكتاب وربط اجازة نشر المطبوعات الادبية باتحاد الكتاب العرب ، وقد بلغني قبل قليل ان مجلس الشعب قد أقر مشروع القانون في جلسته التي عقدها بعد ظهر اليوم .

كلمة الامين العام

والقى الاستاذ يوسف السباعي الامين العام للاتحاد العام للادباء العرب الكلمة التالية :

السيد رئيس الجمهورية ..

أيها الاخوة ..

باسم الاتحاد العام للادباء العرب أتوجه بالشكر العميق والتحية الخالصة الى الجمهورية العربية السورية حكومة وشعبا على دعوتها الكريمة لعقد مؤتمر الادباء العرب الثامن ومهرجان الشعر العاشر في رحاب دمشق الفيحاء ذات الماضي العريق في تكريم الادب والادباء . وأخص الشكر الرفيق القائد الفريق حافظ الاسد الامين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي ورئيس الجمهورية العربية السورية على تفضله بالرعاية التي شمل بها المؤتمر والمهرجان . كما اعبر عن شكري وتقديري لما لقيناه ونلقاه من حسن وفادة وكرم ضيافة وترحيب وتعاون في كل مجال من جانب المسؤولين والرفاق في حزب البعث العربي الاشتراكي والحكومة واتحاد الكتاب العرب السوري وكل ابناء الشعب العربي السوري .

ان الوطن العربي يمر اليوم بمرحلة تاريخية حاسمة تمتحن فيها كرامته وصلابته ويعيش فترة من فترات الحسم التي تختبر فيها قوة الايمان وثبات اليقين .. معنى عبر عنه الرئيس انور السادات حين قال : اننا اصبحنا الآن امام امتحان من امتحانات القدر .. هل نكون او لا نكون ..

وانتم ايها الادباء عصب هذه الامة الحساس ولسانها الناطق وقلبها النابض ، ومن هنا تجيء أهمية دوركم وعظم التبعة الملقاة على عاتقكم في المعركة المصيرية التي عقدنا العزم على خوضها لازالة الوجود العدواني في الارض العربية ضد قوى الصهيونية المدعمة بالامبريالية العالمية المتواطئة معها ، تلك القوى التي تغتصب الارض العربية والحقوق العربية كما تعتدي على القيم الروحية والحضارية العربية التي هي جزء ثمين لا ينفصل عن القيم الحضارية الانسانية جمعاء . هذا هو العدو الغادر الذي يرفض غرورا وصلفا الاستجابة لنداء الحق وتحدي اجماع شعوب العالم المحبة للسلام ، ويستهين بالاعراف والقوانين الدولية وينتهك قرارات المحافل الدولية معتمدا في ذلك على رأس الامبريالية العالمية الولايات المتحدة الاميركية وحلفائها وعملائها ، اذ تقدم لهم كل عون وتأييد دعما لوجوده العدواني في قلب الوطن العربي ليكون نقطة ارتكاز وقاعدة عدوانية تهدد أمن البلاد العربية وتستنزف جهودها في سبيل التقدم والبناء . وتعرقل انطلاقها الثوري من اجل تحقيق آمال شعوبها في الوحدة واعادة البناء والسلام والرخاء . ومع اننا صبرنا وصابرنا حفاظا على السلام العالمي الا ان الحلول السياسية كانت تصطدم دائما بمراوغة الولايات المتحدة الاميركية وتعنت اسرائيل . بحيث لم يعد امامنا لتحرير الارض واستعادة الحق سوى خوض المعركة من اجل المصير العربي ومن اجل الوجود العربي .

وأنتم يا أصحاب الكلمة الخلاقة .. من غيركم أولى بتصدر صفوف المجاهدين الابطال بالكلمة المعبرة عن الحقيقة العربية بكل أبعادها وبالدعوة الى وحدة الكلمة وضم الصفوف وحشد القوى العربية لمجابهة العدو والكشف عن زيف دعايته وأباطيله .

أيها الاخوة ..

اننا اذ نخوض المعركة المصيرية التي نواجهها اليوم انما نقاتل

العدو بكل ما يرتكز عليه من دعوة لاستعلاء العنصرية وكل ما يقترفه من جرائم انتفرقة العنصرية وكل ما يستند اليه وجوده من اتجاهات توسعية وعدوانية ، بل نقاتل ايضا الامبريالية والاستعمار الجديد وقوى الحرب العدوانية والاستغلال وامتهان الكرامة الانسانية ، وهي في مجموعها قوى اعداء الانسان واعداء حضارة الانسان .

وانما لنلتقي اليوم في دمشق ـ قلب العروبة النابض ـ بعد تكوين دولة اتحاد الجمهوريات العربية لحشد طاقات الشعب العربي من اجل معركة المصير ولتكون منطلقا لوحدة اشمل تجمع شمل العرب من اجل البناء والتقدم ومن اجل تحقيق امل الشعب العربي في وطنه الكبير وفي مستقبل مشرق بالحرية والرخاء والعدالة والسلام .

ايها الزملاء .

لا شك انكم تدركون أهمية الموضوع الرئيسي المقدم بفروعه الثلاثة للمناقشة في هذا المؤتمر ، ذلك ان قراراتكم وتوصياتكم ستكون مرآةللدور الخطير الذي يضطلع به ادباء العروبة في هذه المرحلة من مراحل الكفاح العربي لتحرير الارض العربية واستعادة حق الشعب الفلسطيني المشروع في ارضه وفي وطنه .

هذا ويشرفني ان اقدم للمؤتمر فيما يلي تقرير الامانة العامة عما اتخذته من خطوات لتنفيذ قرارات المؤتمر السابق وتوصياته .

■ التوصيات بصفة عامة ..

قامت الامانة العامة للاتحاد العام للادباء العرب بابلاغ جميع التوصيات الى الجهات المعنية من اتحادات ووزارات ثقافية وجامعات وهيئات حكومية اخرى ، ويرى ان تعمل هذه الهيئات بعد مواصلة الاتصال بها على تنفيذ هذه التوصيات .

■ توصيات خاصة بمكافحة الصهيونية والاستعمار ..

مطالبة الامانة العامة لاتحاد الادباء وكافة الجهات والاتحادات المعنية في جميع الاقطار العربية بتشكيل لجان خاصة تتولى مهمة توعية الجماهير العربية ودعم الثورة الفلسطينية .

شاركت الامانة العامة قدر طاقتها في جميع النشاطات المتعلقة بالقضية لجنة الدفاع عن المقاومة الفلسطينية التي انعقدت في جمهورية مصر العربية كما اسهمت في لجنة الاعلام والدعوة للقضية الفلسطينية التي الفتها الجامعة العربية للاشراف على الاسبوع العالمي لقضية فلسطين في شهر مايو . وأسهمت ايضا في الندوة التي اقامها الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية في شهر مارس من عام ١٩٧٠ عن العنصرية في اسرائيل وغير ذلك من اوجه النشاط الاخرى .

ضرورة الاهتمام بالطلاب العرب في الخارج وتنظيم الاتصال بهم وتزويدهم بالنشرات والكتب باللغات الاجنبية ليمكن بذلك الاستفادة منهم في المعركة والعمل على توفير الامكانات اللازمة لترجمة وطبع الكتب والنشرات وسائر وسائل الدعاية والاعلام والثقافة .

قامت الامانة العامة بالطلب من الاتحادات الاعضاء تنفيذ هذه التوصية والعمل على الاتصال بالاتحادات الطلابية العربية في اماكن وجودها في شتى انحاء العالم ، ونظرا لامكانات الاتحاد العالمية القليلة لم تتمكن الامانة العامة من تنفيذ الجزء الاخير من التوصية وان كانت قد عملت مجلة الاتحاد التي اصدرتها على الدعوة للقضية الفلسطينية وافردت عددين من اعدادها الاربعة التي اصدرتها حتى الآن عن المقاومة الفلسطينية فضلا عما نشر عن هذا الموضوع في الاعداد الاخرى .

اقامة ندوة عالمية في احدى العواصم الاوروبية او العربية يشترك فيها الادباء والكتاب ورجال الفكر في العالم لمناقشة القضيةالفلسطينية وتوضيح ابعادها ..

بذلت الامانة العامة اقصى جهودها في تحقيق هذه التوصية بالاسهام مع بعض الادباء الفلسطينيين المرموقين في المشاركة في المؤتمرات الدولية المختلفة والتي يشارك فيها الكتاب العالميون ولا سيما كتاب اسيا وافريقيا ، واستطاعت ان تحقق اكبر قدر من الدعوة للقضية الفلسطينية وفضح حقيقة اسرائيل العدوانية وشجبها كقاعدة استعمارية ومنطلق للاستعمار الجديد تهدد الامن في المنطقة بل في العالم كله .

■ توصية خاصة بتوثيق الارتباط بالتراث العربي ..

عقد مؤتمرات دورية للمتخصصين بالتراث العربي القديم ..

في ضوء هذه التوصية كانت وزارة الثقافة العراقية قد عرضت اثناء انعقاد المؤتمر السابع في بغداد عقد الندوة الاولى للدراسة موضوع التراث العربي في بغداد في اواخر عام ١٩٦٩ ، وقد رحبت الامانة العامة بهذا الاقتراح وابلغت ترحيبها الى وزارة الثقافة العراقية ثم استمرت الاتصالات في هذا الموضوع ، ونامل ان يتحقق تنظيم هذه الندوة في اقرب فرصة .

■ مجلة الاتحاد العام للادباء العرب ..

تنفيذا للتوصية التي اصدرها المؤتمر السادس للادباء العرب باصدار مجلة للاتحاد قامت الامانة العامة باصدار العدد الاول من المجلة في شهر يناير . وقد صدر منها حتى الآن اربعة اعداد خصص عدد منها عن المقاومة وخصص عدد آخر عن مناسبة انتقال الزعيم الخالد جمال عبد الناصر الى رحاب الله .

هذا ما استطاعت الامانة العامة بالمشاركة مع بقية الاتحادات ان تحققه من التوصيات التي صدرت عن المؤتمر السابق بما لديها من امكانات .

ايها الاخوة .. ارجو لهذا المؤتمر النجاح فيما عقد لاجله وانيوفق اعضاؤه الى ما فيه خير هذه الامة وان ينعقد مؤتمرنا القادم في القريب العاجل وقد تحقق لنا النصر المؤزر باذن الله وعونه .

كلمات رؤساء الوفود

ثم القى رؤساء الوفود العربية كلماتهم ، فتحدث الاستاذ محمد التهامي عن دور الجامعة العربية في خدمة العمل العربي الجماعي واعلن عن استعدادها للتعاون مع المؤتمرين في سبيل تمكين الكلمة العربية الواعية الصادقة من اداء رسالتها في معركة المصير .

وتبعه الاستاذ محمد الماجد رئيس وفد البحرين ، فألقى كلمة قال فيها ان انعقاد المؤتمر في هذه المرحلة بالذات يعني فيما يعنيه ان الكلمة الطيبة ما زالت تصلح لان تكون سلاحا في معركة المصير وان وحدة الامة العربية ليست خرافة كما يصورها الاستعماريون .

والقى الاستاذ محمد العروسي المطوي رئيس الوفد التونسي الكلمة التالية :

كلمة رئيس الوفد التونسي

ايها الاخوة .

اذا كان المؤتمر الثامن للادباء العرب ينعقد تحت عنوان « الاديب العربي في معركة المصير » فانه من حسن طالعه ان ينعقد بمدينة دمشق ، دمشق المناضلة في سبيل الاصالة العربية وصمودها ، وفي سبيل مصير عربي مشرق حفاظا على تلك الاصالة وتركيزا لعزتنا القومية ، هذه العزة التي لا تكتفي باصالة التراث ، وقدسية الماضي، بل هي تتطلع وتعمل ، وتناضل وتكدح من اجل وجود عربي اصيل ياخذ باسباب التطور الحديث دون ذوبان او تفسخ ، ويتمسك بالتراث الاصيل دون جمود او تحجر . وان اي مصير لا يعتمد تلك الاسس يكون مصيرا ابتر ، مقطوع الصلة ، مهلهل النسيج ، متآكل الجذور، لا يجد في نفسه الحصانة التي تحول بينه وبين شخصيته المتميزة ومقوماتها الذاتية الاصيلة .

وان الاصالة الحضارية لا تتمثل في التراث الذهني والوجداني ،

ولا في محفوظ الخزائن والمعالم فقط ، بل تتمثل كذلك في الارض التي كانت قاعدة للانتاج وميدانا للاخصاب . ومن ثمة فان معركة المصير توجب على الاديب العربي ان يناضل في سبيل تلك الارض حتى تبقى بأيدي ورثة ذلك التراث وتلك الاصالة . وهكذا تتمثل مساهمة الاديب العربي في المعركة على اوسع ميدان ، لانه بجانب معركة التربة والارض توجد معركة الذهن والوجدان . وهي اشد خطرا وأصعب مراسا .

ومن هذا وذاك تتضح المسؤولية الكبرى التي نتحملها ــ نحن حملة الاقلام وبناة الكلمة ــ في الواقع العربي المعاصر . اذ بقدر وعينا للموقف ، وصدق تعبيرنا فيه ، وبعدنا عن الانحراف به يكون تحملنا لرسالتنا بحق ، وفي مستوى المسؤولية التاريخية المناطة بعهدتنا ، ما دام انتاجنا يتصل مباشرة بعقول وعواطف امتنا العربية ، وبالتكوين الذهني والوجداني للاجيال الصاعدة ، هذه الاجيال التي تتطلب منا ان نهيىء لها مناخا فكريا ونفسيا وترابيا يدعوها الى الابداع ويدفع بها الى الابتكار مع توفير العزة وضمان الكرامة ، لانه لا شرف لحياة بدونهما . وهذا كله يتطلب منا المزيد من التعاون والتساند حتى تتضافر الجهود وتتجمع الطاقات للخلق والابداع على صورة اشمل واساس امتن .

وعزما على تحقيق كل ذلك انبعث اتحاد الكتاب التونسيين سنة ١٩٧٠ ، وكان انبعاثه استجابة حتمية لمطامح الكتاب التونسيين انفسهم ، وتلاقيا مع توصيات المؤتمر السادس للادباء العرب ، وتنفيذا لما دعا اليه المؤتمر الاول لادباء المغرب العربي الذي انعقد بمدينة طرابلس سنة ١٩٦٩ . وقد بادر اتحاد الكتاب التونسيين اثر تكوينه مباشرة ، بمكاتبة الامانة العامة لمؤتمر الادباء العرب ، وبكافة الاتحادات الموجودة في البلاد العربية . وانه ليسعده اليوم ان يكون ممثلا في اول مؤتمر للادباء العرب ينعقد بعد انبعاثه .

وان الوفد التونسي ليحدوه الامل الاكيد والعزم الصادق على التعاون والتساند مع كافة الادباء العرب في سبيل مصير افضل ، يجمع الشمل ، ويوحد القوى ، ويحقق الوحدة متى استطعنا التحكم في اسباب النجاح وطرق الوصول حسب مقتضيات العالم المعاصر ، والظرف الحاسم الذي نعيشه .

وانه ليسره بهذه المناسبة ان يكون انعقاد المؤتمر التاسع للادباء العرب في تونس . وهو ــ اذ يعلمكم بشوق كافة الادباء التونسيين الى اللقاء بكم والتحاور معكم ــ لموقن بان نفس الشوق يحدوكم الى الاستجابة وتحقيق الرجاء .

والوفد التونسي ــ في ختام كلمته ــ لا يسعه الا ان يتقدم بالشكر الى حكومة الجمهورية العربية السورية على دعوتها الضيافة ، وعلى الجهود والاعمال التي بذلتها في سبيل عقد هذا المؤتمر وانجاحه .

كلمة رئيس الوفد الجزائري

والقى الدكتور ابو القاسم سعد الله رئيس الوفد الجزائري الكلمة التالية :

باسم الوفد الجزائري للمؤتمر الثامن لاتحاد الكتاب العرب ، اسمحوا لي ان اتوجه بالشكر الجزيل والثناء الوافر لسورية الشقيقة ، حكومة وشعبا ، على ما وجدناه من حفاوة واكرام منذ حللنا بهذا البلد الكريم .

لقد جئنا الى هذا المؤتمر تحدونا الثقة الكبيرة في انه سيكون في مستوى الاحداث التي تعيشها الامة العربية . اننا جميعا ندرك اهمية هذه المرحلة . فبالاضافة الى فلسطين التي يمثل تحريرها في نظرنا معركة المصير ، هناك اجزاء اخرى من الوطن العربي ما زالت ترزح تحت الاحتلال الامبريالي ، آخرها الجزر العربية في الخليج . وهناك ايضا قضايا اخرى عالمية لا بد ان يكون للاديب العربي كلمة فيها ، كلمة تمثل اتجاهنا الواضح في مقاومة المس بحرية الشعوب ووحدة التراث الوطني واتخاذ الغزو وسيلة للتوسع الامبريالي .

والجزائر التي ضحت باعز ما تملك لكسب معركة التحرير ، هي التي تخوض اليوم معركة لعلها اشد قسوة واخطر عاقبة وهي المعركة ضد التخلف بجميع اشكاله . وايمانا من الجزائر بان الانتصار العربي الحقيقي مرهون بدخول العرب عصر الصناعة ، كرست كل امكانياتها الطبيعية والبشرية للقيام بثورة ذات ثلاث ركائز صناعية وزراعية وثقافية . ويهمنا هنا بالدرجة الاولى ان نقول بان الثورة الثقافية في الجزائر تعني في هذه المرحلة تحقيق التعريب على مختلف المستويات، وبفضل المساعدات العربية ، وسورية خاصة ، استطاعت الجزائر ان تقطع اشواطا كبيرة في تعريب التعليم بالذات ، يتلوه تعريب القضاء والادارة .

ورغم المحاولات الاستعمارية قوية المفعول طويلة المدى لمحو الشخصية العربية ــ الاسلامية للجزائر ، فان الثورة الثقافية التي اشرنا اليها تعمل الآن جاهدة على استعادة الشخصية القومية للجزائر بنشر التراث والاعتزاز باللغة العربية ، وازالة الحواجز الثقافية مع المشرق العربي . وان الجزائر التي عاهدتكم ، ووفت ، على كسب معركة التحرير ، تعاهدكم اليوم ، وستفي ، على الانتصار في معركة البناء ايضا .

واسمحوا لي أن اغتنم الفرصة لاقول بانه لشرف للجزائر ان توجه الدعوة رسميا الى الادباء العرب ليعقدوا مؤتمرهم المقبل على ارضها . كما اغتنم هذه الفرصة لاكرر شكري لجميع القائمين على انجاح هذا المؤتمر .

عاشت القومية العربية ، والسلام عليكم .

كلمة رئيس الوفد العراقي

والقى الاستاذ شاذل طاقة رئيس الوفد العراقي الكلمة التالية :

من حيث الارض التي تمتد بين الماء والنخل .. ومن على بعد مرمى رصاصة من فلسطين الجديدة في وطننا الذي يقف في مواجهة السكين كل يوم .. من بغداد .. جئناك يا دمشق .. يا دمشق بردى والغوطة والهضاب .. يا دمشق صلاح الدين ويوسف العظمة .. يا حبة عين الشعب العربي .. ويا ملهمة الشعراء والكتاب كلماتهم العربية الخصب ..

جئناك من حيث الشوارع التي تزخر بالغضب ، وهي تشهد القوى السوداء الشريرة تحاول قهر الامة العربية واذلالها باقدامها على استباحة تراب عربي جديد.. وماء عربي آخر في خليجنا العربي.. ممارسة ذات الوسيلة التي استباحت بها فلسطين من قبل ، حين راحت تهجّر الغرباء الى هذه الارض ، وما هي الا غفلة وركون الى الهجوع والخوف ، وما هو الا تشتت وتشرذم بين هذي الحدود المفتعلة وتلك ، واذا الغرباء يغرزون احديتهم في هذا التراب .. ويمدون اظافرهم لينهشوا لحوم ابنائه العرب .. او ليهجّروهم في البلاد ..!!

واذ لم يكن غير قطرنا الثائر لينهض بالعبء وليعلن ان اما المجابهة واما الذل .. فانه اذ اعلن ذاك لم يجد من غيره الا اللهو عما يقول.. حتى اذا ازف الوقت .. لم يكن غير ان وطىء الغزاة ارضنا العربية مرة اخرى .. وداسوا على دمنا العربي .. الذي بذله ستة من الرجال الرجال .. عربا عاشوا .. وعربا ماتوا .. وانفرز نصل جديد في الضمير العربي .. ولكأن بصيرة شاعرنا العربي امتدت عبر الف عام ونيف لتقول :

محضتهم نصحي بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح الا ضحى الغد !

يا اخوتي .. يا اهل ودي .. يا كتاب العرب وشعراءهم ..
الا فلنقل كلمتنا بوجه القوى الشريرة السوداء التي تريد لنا الموت .. بلى .. فلنقلها نحن وحسب .. ان لم يقلها غيرنا .. وان كنا لا نستطيع ان نفعل اكثر من ذلك ..

لقد مرت الاعوام على حزيران الاسود .. وشهدنا في هذه الاعوام كثيرا من الاحداث الجسام .. وعبر كل ما تلا حزيران من تآمر على قضية شعبنا في فلسطين .. ومن احتلال عساكر الشاه الجزر الثلاث في الخليج العربي .. كان الضمير العربي يهتز .. والقيم السائدة تتساقط .. والمقاييس تنهار .. وانها لايام الارهاص.. تنبىء بولادة جديدة للانسان العربي الجديد .. انسانا عربيا معاصرا وتقدميا .. ونحن الادباء مطالبون بحكم كل مكوناتنا ان تكون في الطليعة والريادة من هذه الولادة الواعدة .. وطليعة العابرين على جسور القلق والضياع الى حيث المجابهة العظيمة والرائدة مع النفس .. ومع الآخرين .. والى حيث الحسم الثوري الذي يخلق انساننا الجديد عبر المعاناة الجادة الواعية .. وان علينا من خلال ذلك ان نقف حيث نستطيع ان نحقق الرؤية الواضحة للتواصل بين تراثنا .. وبين ادب العصر الذي نعايشه .. وادب المستقبل الذي نستشرفه .. ان علينا ان نكتشف جوهر وجودنا القومي التقدمي وطاقات عطائه الحضاري ومن خلال اجتياح جوهر العظمة من تراثنا ومن خلال الارتفاع الى مستوى شموخه ..

والى جانب ذلك نحن مطالبون ايضا وضمن مهامنا ان نجد لادبنا وشعرنابلاغة عربية جديدة .. تمتاح من التراث .. وتتفاعل مع تجارب الآخرين .. وتكون لها شخصيتها العربية المتميزة معاصرة واصالة وارتفاعا ، لا ان نقف ونحن نمثل دور الشاهد لعصرنا .. موقف التعبير الجامد بالصورة الفوتوغرافية .. والكلائش الجاهزة .. والاساليب الشائخة الميتة .. او الغريبة المشبوهة الشائهة ..

ايها الاخوة الاحبة ..

لقد تركنا العراق في هذه الايام وهو يمارس جانبا من هذه المهمة حيث يجري الاحتفال بابي تمام .. وحيث تستقبل الموصل ذات الربيعين عددا غفيرا من ادباء العروبة الذين لم تكن ليهون علينا ان لا نشاركهم ذلك الاحتفال .. لولا حرصنا واصرارنا على ان نشارك في هذا المؤتمر القومي الكبير .. وانه ليجدر بنا ونحن نتحدث عن ابي تمام ان نقول انه الشاعر الذي نطمح ان نرى مثله دائما وفي كل عصر .. فهو الذي جمع بين استكناه التراث واستيعاب ثقافة عصره.. وشق لنفسه نهجا اصيلا .. منحه صفة الابداع وخلد عطاءه ..

ايها الاخوة الادباء ..

انه ليسرنا ان نثبت هنا .. ان قطر العراق استطاع خلال سنتين ونيف منذ ان انعقد مؤتمركم السابع في بغداد ، ان ينجز وينفذ كل التوصيات والقرارات التي اقرها ذلك المؤتمر وكان عليه ان ينجزها .. وكان من ابرز ما انجز .. اقامة اتحاد الادباء في العراق الذي ياخذ دوره الآن كاملا في الحركة الادبية ويزاول بفعالية عالية نشاطه الادبي والثقافي .. ومن خلال هذا الدور وتلك الفعالية استطاع ان يستقطب كل العناصر التقدمية في الحركة الادبية كما استطاع ان يستقطب ويحتضن ادباء القطر المغتربين .. ويشارك في وضعهم في مصافهم الحقيقية .. ولعل من اهم ما سمح لاتحادنا وساعده على ان يفعل ذلك .. تلك الصيغة المتقدمة التي تم انشاؤه وفقا لها .. فلقد مثل شكلا رائدا من اشكال الائتلاف التقدمي بين ادباء القطر على اختلاف انتماءاتهم الحزبية والعقائدية .. وعلى اختلاف وجهات نظرهم ضمن الاطار التقدمي .. وبذلك قدم مثقفونا وادباؤنا فى الاتحاد مثلا رائعا فى الانسجام والتحالف ونموذجا سليما وصيغة رائدة للعمل الجبهوي يمكن ان تستمد منه القياداتالسياسية تصورها لاشكال التحالف الوطنى . وحين طرحت القيادة القطرية لحزبنا .. حزب البعث العربي الاشتراكي ميثاق العمل الوطني في العراق الذي يمثل مشروعا للجبهة الوطنية في القطر ، كان ادباؤنا قد انجزوا هذه المهمة من قبل وقدموها تجربة حية ناجحة في هذا المجال .. ونحن نرى ان هذا الدور يمكن ان يقوم به الادباء العرب في كل اقطارهم فيضربوا مثلا في انجاز التحالف بين ادباء شعبنا العربي .

يا اخوتنا .. يا اهل الحرف الاخضر .. والكلمة المعطاء ..

لقد اجتمعنا في بغداد قبل سنتين ونيف .. والدم العربي لما يزل اخضر على رمل سيناء والضفة والجولان .. ونجتمع اليوم .. وذاك الدم يوشك ان ييبس من دون غسل .. وينز اليوم دم عربيجديد فوق صخور ورمال جزرنا العربية الثلاث في الخليج ..

افئن نحن اجتمعنا بعد حين .. والدم لم يغسل .. وقد يكون جف .. وقد يطفح دم جديد على تربة ارض عربية اخرى .. افترانا حريين عندئذ بأن نجتمع ونقرر من جديد ؟..

الا فلنقل ان الدم لا يغسله الا الدم .. الا .. وان لم نستطع ان نفعل شيئا من اجل هذا .. فليكن ايها المؤتمرون ان نقرر حينذاك قرار واحدا اوحد .. وليكن اول قراراتنا وآخرها .. قرار من كلمة واحدة .. هي الصمت .. الصمت .. ولا شيء غير الصمت !

وكل مؤتمر وانتم بخير ..

كلمة رئيس وفد فلسطين

والقى الاستاذ خيري حماد الامين العام للاتحاد العام لكتاب فلسطين ورئيس وفد الاتحاد الكلمة التالية :

في مثل هذه الايام المشحونة بالآمال والالام ، وفي خضم هذه الاحداث التي تتوالى مبشرة ومنذرة ، وفي غمرة هذه التطلعات الى استعادة وطن سليب ومستباح ، وهذه النكبات التي تفقد فيها أراض عربية جديدة في جزر الخليج ، حيث النذر تشير الى فلسطينالثانية الجديدة ، يعقد مؤتمرنا الثامن هذا في رحاب دمشق العربية الخالدة العريقة بتاريخها ، والعريقة بقوميتها ، والعزيزة باهلها وشعبها ، والمعتزة باهدافها القومية ...

وتتجه أنظار الجماهير العربية من كل حدب وصوب ، وفي ربوع الوطن العربي الكبير ، من محيطه الى خليجه ، الى هذا المؤتمر العتيد ، يعقد في العاصمة العربية التليدة ، وتتفتح الآذان لتسمع صوت الكلمة العربية الحرة ، الكلمة العربية الصادقة النابعة من الالتزام باهداف الامة العربية ومصيرها ، انها تنتظر ان يقول ارباب الكلمة الحرة الواعية ، رأيهم ، ملتزمين قبل كل شيء بالمعركة المصيرية التي تواجه وطنهم ، وان يطلقوها صرخة مدوية ، مجلجلة ، تخترق الحجب والاستار ، تنير الطريق ، وترفع راية الهدى ، وتحدد السبيل ، وتضع صاحب الفكر الى جانب الانسان المقاتل في صف واحد ، هو صف تعبئة كل طاقة في خدمة المعركة .

وليست احداث الخليج الاخيرة ايها الاخوة ، حيث بادر الاستعمار متجسدا في صورته الايرانية الجديدة ، الا حلقة اخرى من حلقات التآمر الاستعماري الامبريالي على الامة العربية ووطنها الكبير . فهي ، بالاضافة الى ما تتوخاه من اهداف استراتيجية واستغلالية قريبة ، وبعيدة ، انما تستهدف اول ما تستهدف اشغال الامة العربية ايضا ، وصرفها عن اهتمامها بالمعركة الوجودية والمصيرية مع الاستعمار المجسد في الصهيونية الباغية الطاغية ، ووليدتها اسرائيل في قلب وطننا العربي .

ونحن كتاب فلسطين وشعراءها ، من اعضاء وفد الاتحاد العام لكتاب فلسطين ، بالرغم من تركيزنا في اهتمامنا على قضية وطننا الذي كان الضحية الاولى للتآمر الاستعماري الامبريالي ، وعلى الالتفاف حول ثورتنا ، نؤمن بقومية المعركة ايمانا قاطعا جازما ، ونربط بين ما يتعرض له اي شبر من الارض العربية من سلب

استعماري ، وبين ما تعرض له وطننا من غزو ، عصف بكياننا ووجودنا احرارا على ارضنا ، لان العدو واحد ، ولان الوطن العربي الكبير واحد ايضا . فالعدو هو الاستعمار ، وان اتخذ صورة اسرائيل حينا ، والغزو الايراني حينا ثانيا ، والمؤامرات حينا ثالثا ، والتواطؤ الرجعي حينا رابعا . والوطن العربي كله واحد ، هو هدف هذا العدو وبغيته ، وهو غايته وطلابه .

وسنوالي في كل ما نكتب ونقول ، اتجاهنا القومي هذا ، في التحذير من الاخطار التي يتعرض لها وطننا العربي ككل ، بالاضافة الى تجنيد اقلامنا وافكارنا وآرائنا في خدمة الثورة الفلسطينية التي نؤمن بها ، ونؤمن بوحدتها ، وضرورة تصعيدها ، بمختلف السبل والوسائل ، لنصل الى هدفنا الذي لا نرضى عنه بديلا ، وهو التحرير الشامل والكامل للارض العربية السليبة ، عن طريق الكفاح المسلح واقامة المجتمع الديمقراطي ، الذي يقضي على العنصرية ويمحو النزعات التعصبية ويشيد البناء الصحيح على اسس سليمة ضمن اطار الاهداف القومية في الحرية والوحدة والاشتراكية .

ومن هذا المنطلق وحده ، ولا منطلق سواه ، يتقدم وفدنا بالبحوث التي اعدها الى مؤتمركم هذا ، وهي التي ستكون موضع البحث والنقاش في اللجان .

ومن هذا المنطلق ايضا ، وضع الاتحاد نفسه ، ايمانا منه بالثورة الفلسطينية وبمبادئها ، وبالميثاق الوطني الفلسطيني ، في خدمة النضال من اجل التحرير والنصر ، في خدمة الثورة والكفاح ، في كل شبر من ارض فلسطين .

فالكلمة الفلسطينية الحرة والحقة ، قيلت ، وستقال دائما في الدفاع عن الثورة ، ودعمها ، وتعزيزها ، لانها جزء لا يتجزأ من هذه الثورة .

فلقد كانت الثورة وستظل طليعة نضالية للكفاح العربي في معركتنا الطويلة والشاقة والمريرة ، مع الامبريالية العالمية وركيزتها اسرائيل في قلب الوطن العربي الكبير .

واذا كانت هذه الركيزة قد قامت على انقاض وطننا الذبيح في فلسطين ، فان اطماعها واهدافها ، ومن ورائها العدو الاساسي الاول وهو الاستعمار العالمي ، تتعدى حدود هذا الوطن ، وقد ثبت هذا فعلا في عدوان عام ١٩٦٧ . ومن هنا تعدى الواجب المفروض ، حدود شعبنا الذي اعلن ثورته ، واصبح واجبا تلقى اعباؤه على الجماهير العربية في كل ارض عربية ، بل وعلى دعاة الحق والحرية والنضال والسلام في العالم كله . ونحن في كفاحنا ، نحارب عدوتنا الباغية المثلة في اسرائيل العنصرية العدوانية ، ونحارب الاستعمار العالمي الذي انبثقت عنه هذه الصنيعة ، وساندها ودعمها ورعاها ، ونحارب الخونة والمارقين من اعوان الاستعمار من ممثلي الرجعية العربية الذين اعملوا يد التقتيل والتنكيل في شعبنا الصابر المكافح .

ايها الاخوة . ان الشعب العربي الفلسطيني وحركته الوطنية يتعرضان لهجوم مركز وشرس من قبل القوى الاستعمارية والرجعية ، مستهدفا ضرب الحركة الوطنية الفلسطينية وتصفية حقوق الشعب العربي الفلسطيني .

وللاسف نقول ان ردود الفعل لم تكن في المستوى اللازم لمواجهة هذه الحملة والتصدي لها ، بل وظهرت على المسرح على العكس ، ابواق تتنكر لنضال شعبنا وتعمل على تفريق وحدته الوطنية . واننا هنا لنطالب بتحديد يوم للتضامن مع الشعب العربي الفلسطيني وحركته الوطنية ، وربما كان ذلك في السادس عشر من ايلول (ديسمبر) من كل عام ، بغية فضح الجرائم التي ارتكبت بحق شعبنا العربي الفلسطيني وثورته ، ومن اجل الدفاع عن حركتنا الوطنية وحقنا الطبيعي في استمرار ثورتنا المسلحة .

واننا اذ نلتقي اليوم في دمشق ، العاصمة العربية الخالدة والعريقة ، لنستمد العزيمة من تاريخنا ، والالهام من تراثنا ، وروح الكفاح من ايماننا بالغد المنشود ، وتطلعاتنا الى الحرية والوحدة والتقدم .

وفي رحاب دمشق الكريمة المضيافة ، العزيزة بشعبها وقادتها ، نحس اننا بين اهلنا واخوتنا ، فالارض ارضنا ، والوطن وطننا ، والسماء سماؤنا ، والنسمات نسمات بلادنا ... وكلنا امل وتطلع ، أمل بالغد ، وتطلع الى المعركة ...

عاش النضال العربي ... وعاش الجنود البواسل على خطوط النار ... وعاشت الثورة الفلسطينية ... وعاش كفاح جماهيرنا في قطاع غزة والارض الفلسطينية كلها . والخلود لشهدائنا الابرار .

كلمة رئيس وفد لبنان

والقى الدكتور سهيل ادريس رئيس وفد لبنان الكلمة التالية :

يؤخذ على مؤتمرات الادباء العرب التي نعقد اليوم الدورة الثامنة فيها انها عاجزة عن ان تكون حدثا هاما على صعيد الفكر العربي .

والذين يوردون هذا المأخذ يذكرون بأن المؤتمر لا يفعل الا ان يجمع الادباء والشعراء طوال اسبوع لا يكاد ينقضي حتى يتفرق الجميع وتنسى الموضوعات المطروحة ، وهي غالبا ما تكون مكرورة بين مؤتمر ومؤتمر ، وتظل معظم التوصيات ، ان لم تكن كلها ، حبرا على ورق ، ولا تلقى من المسؤولين في السلطة العناية اللازمة والكافية لوضعها موضع التنفيذ .

وقد يكون في هذا جانب كبير من الحق والصدق ، وقد يكون فيه بعض المبالغة ، ولكن الذي لا شك فيه هو ان مؤتمرات ادباء العرب لم تستطع حتى اليوم ان تنفذ الوصية الهامة التي لا بد من تنفيذها ليكون لكل مؤتمر ادبي شأنه وقيمته في حياتنا الثقافية العربية .

لقد نصت جميع توصيات المؤتمرات السابقة كلها على ضرورة توفير حرية التعبير للاديب العربي ليتمكن من القيام برسالته في معركة المصير التي تقودها أمته منذ عقدين من السنين .

والحق ان الاديب العربي يشكو منذ فترة طويلة ، وفي معظم البلدان العربية ، ان لم نقل فيها كلها ، من ان هذه الحرية غير متوفرة له ، لان هناك دائما سيفا مصلتا عليه ، يتخذ مرة صورة الارهاب ، ومرة صورة المحاكمة ، ومرة صورة الرقابة ... ويكون ذلك تارة بحجة الدفاع عن الدين ، وطورا بحجة صيانة الاخلاق ، بل حتى بحجة صيانة الثورة طورا آخر ... وما من شك في ان هذه الحجج كثيرا ما تكون وهمية ، وانها تخفي وراءها نزعة الى القمع هي نزعة السلطة اجمالا حين يوجه لها النقد . ويستوي في ذلك جميع السلطات القائمة ، ولا استثني من ذلك سلطة بلدي لبنان الذي ، على ما فيه من حريات ، لا يتورع احيانا عن سجن كاتب وارهابه اذا املى عليه اجتهاده ان ينتقد بعض رؤساء الدول .

اجل ، أيها السادة ، لا شك في ان حرية الاديب العربي مقيدة بقيود كثيرة ليس اقلها قولهم « حرية ضمن القانون » ، مهما بلغ من تعسف القانون . وحين يستشهدون بالقاعدة المأثورة « حرية الفرد تنتهي حيث تبدأ حرية الآخرين » يشوهونها كل التشويه ، اذ لا يحددون متى تنتهي حرية الفرد ، ومتى تبدأ حرية الآخرين ... وغالبا ما تبدأ حرية هؤلاء الآخرين قبل ان تبدأ حرية الفرد !

وعلى ذلك يبقى اديبنا العربي تحت شبح الارهاب والقمع ، فيؤثر في كثير من الاحيان الصمت او يلجأ الى المداورة ... وينعكس هذا الوضع على الموقف الادبي عامة ، هذا الموقف الذي يعاني الآن ازمة في الابداع لعلها اشد الازمات التي مرت بالفكر العربي منذ نصف قرن . ولسنا نريد ان نخلي الاديب نفسه من بعض هذه المسؤولية ، فانهم قلة اولئك الذين يتخذون الادب رسالة ليناضلوا بالكلمة ويدافعوا عن حقهم فيها ... ولكن يبقى مع ذلك ان سلطة

السلطة هي الاقوى . فلئن كان ثمة اديب يجرؤ على التعبير عن رأيه ويجد ناشر مجلة او كتاب يجرؤ على تقديم انتاجه ، فسيدركه سيف الرقابة والمنع ، اذا لم يدركه سيف المحاكمة والقمع .

ان معركة المصير التي تخوضها الامة العربية اليوم لا يمكن ان تتجزأ . فهي معركة ضد قوى الشر والاستعمار والصهيونية ، وهي معركة على الحدود ، وهي معركة لبناء الاشتراكية ، وهي معركة للحفاظ على عروبة الاراضي التي تغتصبها قوى البغي والعدوان، ولكنها كذلك معركة لبناء الانسان العربي من الداخل . ولا ريب في ان هذا الانسان مصاب بآفات كثيرة تنخر كيانه وضميره ، وهذه الآفات هي التي كانت مصدرا اساسيا للهزيمة التي لحقت بالامة العربية عام ١٩٦٧ ، وهي التي تحتاج ، اول ما تحتاج ، الى حرية في التعبير تمكن الاديب من ان يجعل قلمه مبضعا يشق به كل دمامل الفساد ، لا مروحة يدغدغ بها العواطف والنزوات ، ويجامل بنسيمها السلطات ... وقلم الاديب في معركة بناء الانسان المتهدم ليس اقل اهمية من بندقية الجندي في معركة استرداد الارض : كلاهما يعمل من اجل استعادة الكرامة العربية المفقودة . فاذا لم يوفر للجندي السلاح ، ولم يوفر للاديب القلم الحر ، خسرا المعركة التي يخوضانها .

ايها السادة .

ينبغي الا يكون همنا الاول ان نسعى فيهذا المؤتمر لاقرار توصيات جديدة تصطدم بعقبات في التنفيذ تذهب بكل حسن النية الكامن وراء اصدارها ، بل لعلنا نحسن صنعا اذ نعالج هذا الموضوع الرئيسي : كيف نمكن للاديب العربي ان يتمتع بحرية التعبير ليقوم بقسطه في المعركة . صحيح انه لا بد ان يكون ملتزما بالقضايا العربية ، ولكن لتترك له الحرية في هذا الالتزام حتى لا ينقلب الى الزام هو العدو القاتل لكل ابداع فني .

لنتدارس قضية الرقابة ، ولننظر في امر الغائها او تقليصها او نقلها الى اتحادات الكتاب ، ولنتح للافكار ان تتصارع وتتحاور ، ولنرفع عن فكر الكاتب كابوس الخوف ليجد الطمانينة التي تتيح له الانطلاق في سماء الابداع والخلق .

ولكن لا بد لنا ، ونحن نطالب بذلك السلطات ، من ان نتعهد بان نناضل من اجل امتنا ، ونكافح من اجل شرف الكلمة .

كلمة ليبيا ومصر

ثم القى كلمة ليبيا الاستاذ علي مصطفى المصراتي رئيس الوفد الليبي حيا فيها دمشق العربية واشاد بامجادها العريقة في النضال والثورة .

واكد ان الادب والفكر في العصر الحاضر لم يعد شيئا هامشيا انما اصبح رسالة اجتماعية ورسالة فداء وتضحية في سبيل الشعب وان مسؤولية الاديب العربي تزداد يوما بعد يوم لان امتنا العربية تعيش الآن مرحلة خطيرة . واضاف يقول : ليس المهم ان نعقد المؤتمرات وانما العبرة بما نستطيع ان نحققه من اهداف لشعبنا وامتنا في كل المجالات .

وتحدثت الدكتورة سهير القلماوي رئيسة وفد جمهورية مصر العربية فقالت : ان الاحداث التي تمر بها امتنا العربية تدفع الاديب العربي الى مزيد من الجهاد والعمل المستمر الجاد ، بل انها لتدعوه الى تغيير جذري في نوعية انتاجه وخاصة من حيث طبيعة اتصاله بالجماهير والعلاقات المتغيرة بينه وبين رفقاء النضال وبين جماهير الشعب العريضة .

واضافت تقول : ان الاخ الفدائي امتحن اقسى امتحان وخرج اكثر اصرارا ، والجندي العربي على خط النار لم ييأس بل ازداد اصرارا وجاد بتضحيات اسطورية .

واكدت بانه ليس امامنا معركة واحدة بل انها جملة معارك طويلة شرسة مراوغة تحتاج الى اكثر من جيل احتياجها الى الثورة المتجددة على كل صعيد داخلي وخارجي .

وأعربت عن املها في ان يخرج المؤتمر بما هو اهم من القرارات والتوصيات ، ان يخرج بعزيمة اعمق وامضى لوضع هذه القرارات موضع التنفيذ السريع حتى يستطيع الاديب العربي اداء دوره في معركة المصير .

كلمة الوفد المغربي

والقى الاستاذ عبد الكريم غلاب كلمة الوفد المغربي وهذا نصها :

يسعدني ان انقل اليكم تحيات اتحاد كتاب المغرب وتمنيات كل المثقفين في الجزء الغربي من الوطن العربي لنجاح هذا المؤتمر .

ولعله من المستحسن ان لا نسميه مؤتمرا . فقد اخذت المؤتمرات صبغة الدفاع عن مصالح خاصة بدولة او مجموعة دول ، كما اخذت صبغة الدفاع عن برنامج عملي لحزب او نقابة مثلا . اما حينما يعقد الكتاب العرب اجتماعا لهم فلعله لا يستهدف الدفاع عن برنامج عمل ، بمقدار ما يستهدف تبادل الراي في وضع الثقافة العربية ، وفي موقف المثقف العربي من قضايا الثقافة ، وفي مقدمة اهتمامات الثقافة وقضاياها قضية الانسان العربي ومصيره .

الثقافة لا تراد لذاتها في عالمنا المتخلف ، واجترار الفكرة الفلسفية او الصورة الادبية او رسم النموذج البشري او تحليل الخلفية التاريخية او توقع الحل المستقبلي لا يراد لذاته في عالم كل ما فيه يتوقف على فكر الفيلسوف وتحليل الاديب وتصوير الشاعر والفنان والقصصي ، وانما يراد منه بعث الحياة الهادفة نحو مستقبل ثوري متمرد على الماضي المتخلف وعلى كل ما يشدنا الى الماضي المتخلف .

المثقفون في الوطن العربي اذن يحملون رسالة ليست في حاجة الى تاكيد ، ولا هي في حاجة الى المناقشة في مبدأ الرسالة ، ولكن المناقشة يجب ان تتجه الى الاهداف التي تستهدفها الرسالة والى النقد الذاتي للعمل الذي قام به المثقفون لاداء هذه الرسالة ، والى الاتفاق على الاستمرار في حمل الرسالة وتوسيع دائرة فاعليتها للمساهمة في انقاذ الانسان العربي من التخلف .

ونحن لا نعني التخلف الاقتصادي فحسب ، حتى لا تكون مغالطين لشعبنا العربي في المنطقة الواسعة التي يعيش فيها هذا الشعب ، فقد تكون بعض اجزاء هذه المنطقة غير متخلفة اقتصاديا ، على الاقل بمنطق الاقتصاديين ، ولذلك فالتخلف الاقتصادي ليس الا مظهرا من مظاهر التخلف ، ولكنا نعني الى جانب هذا المظهر التخلف الفكري والعلمي والاجتماعي ، اي تخلف الانسان العربي عن مسايرة العصر ، وذلك هو المنطلق لكل مظاهر التخلف التي رمت بشعب من شعوبنا خارج وطنه يعيش في الخيام ، واكرهت حكومة من حكومات المنطقة على ان تمول وتحمل السلاح لقتل الفئة المناضلة في سبيل استعادة الكرامة ، وجعلت معظم شعوب المنطقة تعيش خلف المسؤولية لا تفكر لنفسها ولا تساهم في التوجيه او التنفيذ او المراقبة او النقد ، وانما تساق كما تساق الانعام ، او كما كانت تساق الانعام في الماضي .

رسالة الكتاب العرب التي تستهدف مسؤولية تصحيح الوضع اكبر مسؤولية تحملتها مجموعة طليعية في امة من الامم . ولذلك لا تستسيغ هذه الطليعة ان تجد من بين المثقفين العرب من يخون هذه الرسالة ، اما بالانحراف عن الهدف او بالتضليل او باللجوء الى البرج العاجي لاجترار الافكار المجردة التي لا تتصل بالمعركة التي يخوضها شعبنا العربي ، سواء على المستوى الاقليمي او علىالمستوى الجماعي .

المعركة لا تخاض في بعد عنها والقاء النصائح في استعلاء ،

فقد انقضى عهد النصيحة ، ولكن خوض المعركة يكون بالمساهمة العملية في تصحيح الاوضاع المتخلفة . ولست في حاجة الى القول بان ميدانها ليس الميدان الخارجي اي مجابهة العدو فحسب ، ولكنه الميدان الداخلي ايضا ، اي مجابهة الانحرافات الداخلية كذلك .

هناك ضمانات يجب ان نحققها للكاتب العربي اذا اردنا ان يقوم بهذه الرسالة . في مقدمتها حرية التفكير والتعبير والعمل . وهذه الحرية لا تمنح كما لا احتاج ان اقول ، وبالتالي لا تؤخذ عن طريق المفاوضة والمساومة ، ولكنها حرية يجب ان ياخذها الكاتب بالمغالبة والممارسة العملية . ولهذا فالكاتب العربي مدعو ان يقف مع حرية الرأي والتعبير ، ولو في وجه المذهب او العقيدة أو الحكومة ، اذا ما اعترضت احداها حريته في القيام برسالته . واتحادات الكتاب في الوطن العربي مدعوة الا تقبل الوصاية الرسمية مهما كانت وصاية صالحة ، لان مبدأ الحرية هو الذي يجب ان يسود ، سواء على النطاق الفردي او على النطاق التنظيمي . واتحاد الادباء العرب مدعو ان يناضل في سبيل هذه الحرية حتى لا يظل منظمة فوقية ، بل يجب ان يساهم مع الاتحادات الاقليمية في الدفاع عن حرية الكاتب في القيام برسالته ويرعى هذه الحرية ويناضل لاستعادتها ، واذا هي مست بالنسبة لكاتب او كتاب او هيئة فكرية ثقافية .

وفي مقدمة الضمانات التي يجب ان نحققها كسر الطوق الاقليمي الذي يحيط بالاديب العربي . فكثير من الكتاب والادباء لا يقراون في غير قطرهم الصغير . واذا لم يكن باستطاعة اتحاد الادباء العرب ان يحمل رسالة الاديب المغربي مثلا الى الاديب المشرقي ففي استطاعته ان يناضل في كسر هذا الطوق حتى لا يعمل كل منا في عزلة عن الآخر .

ونرجو ان تكون مؤتمراتنا هذه سبيلا للخروج من الاقليمية الضيقة التي ما تزال تفرض نفسها على الادب والادباء ، لاسباب مادية تنظيمية ستعالج بعضها احدى لجان المؤتمر ، ولاسباب عميقة موضوعية ارى انها تدخل في الحرية والتحرر التي نطالب بها للاديب العربي لان منطلق الحرية يجب ان يكون هو التحرر من رواسب الماضي ومن تفاهات الحاضر التي تعرقل المستقبل .

ومن الضمانات التي يجب ان نحققها للاديب العربي حتى يؤدي رسالته في معركة المصير الخروج من النطاق العربي الضيق الى النطاق العالمي . سبيل ذلك الاداء باللغات الاجنبية الحية التي يتقنها الكثيرون من ادباء الوطن العربي ، والترجمة الى اللغات الاجنبية ، وهذا لا يقوم به في مرحلتنا الحاضرة الا الادباء العرب انفسهم الذين يجب ان يعرفوا بقضيتهم المصيرية عن طريق القلم . ومن حسن الحظ ان بعض قضايانا المعاصرة تعرف عليها الفكر الاجنبي عن طريق ادبائنا مثل ما حصل بالنسبة للقضية الجزائرية . ومن المؤسف الا يكون بيننا في هذا المؤتمر ادباء من الذين يكتبون بالفرنسية او الانكليزية مثلا ، ومن المؤسف ان يكون اتصالهم باتحاد الادباء العرب محدودا . وهذا ما يجب ان يسعى اليه اتحادنا حتى لا يظل ادباؤنا يغنون في حيهم ، ولو انهم يطربون حينما يغنون ...

لا احب ان يكون اعتزازنا بلغتنا العربية — وما نزال نناضل لتكون سيدة في وطنها وخاصة في الجناح الغربي لوطننا العربي — مبعث عقدة ازاء الاداء باللغات الحية والترجمة لها ، خاصة وان الادباء الذين تجاوزوا الاداء باللغة العربية — لاسباب قد لا يكون لهم يد فيها — مقروؤون في اللغات التي انتجوا بها ، بل كسبوا احتراما في العالم الخارجي هو موضوع اعتزاز عندنا . ومعركة المصير ليست معركة داخلية فحسب ، ولكنها معركة خارجية كذلك . وكم يسعدنا ان نكسب المعركة في الخارج كما نعمل لكسبها في الداخل .

اعود فاكرر تمنيات اتحاد كتاب المغرب للمؤتمر ، وشكر الاتحاد لشعب وقيادة الجمهورية العربية السورية واتحاد كتابها على الجهود التي بذلوها في تنظيم هذا المؤتمر وتقديم كل الضمانات لنجاحه .

كلمة الجمهورية العربية اليمنية

وكان آخر المتكلمين السيد عبد الله الجاوي رئيس وفد الجمهورية العربية اليمنية ، فحيا اعضاء المؤتمر وتمنى لهم التوفيق .

ثم اشار الى نكسة حزيران وقال انه لا بد من ان تجعل هذه الهزيمة من الاديب العربي مناضلا شريفا ، وأكد ان التفاؤل هو السبيل الوحيد نحو النصر . ثم تحدث عن نضال الشعب اليمني ضد الرجعية العربية والاستعمار والامبريالية العالمية .

وقال في ختام كلمته ان شعار المؤتمر يجب ان يتحول الى نشاط ثوري فعلي .

جلسة لرؤساء الوفود

هذا وقد عقد رؤساء الوفود العربية المشتركة في مؤتمر الادباء جلسة بمقر المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية بدمشق .

وقد القى السيد يوسف السباعي الامين العام لاتحاد الادباء العرب ، رئيس وفد جمهورية مصر العربية للمؤتمر ، كلمة في بداية الجلسة شكر فيها حكومة الجمهورية العربية السورية لما ابدته من اهتمام بالمؤتمر ورعاية بالمؤتمرين .

ثم اوضح في كلمته طريقة سير المؤتمر اثناء انعقاد جلساته ، بما في ذلك مهرجان الشعر العاشر .

وقد جرت في الاجتماع مناقشة جدول الاعمال المقرر للمؤتمر ولمهرجان الشعر العاشر ، وتم الاتفاق على اختيار رؤساء لجلسات المؤتمر بالتناوب وكذلك نواب الرؤساء والمقررين .

ثم استمع رؤساء الوفود الى تقرير عن اعمال الامانة العامة لاتحاد الادباء العرب القاه السيد الامين العام للاتحاد وقد تناول فيه ما انجز من هذه الاعمال وما يتعلق بشؤون مجلة الادباء العرب التي يصدرها الاتحاد ..

وبعد مناقشة التقرير تم التوصل الى صيغة تحدد سبل دعم ميزانية الامانة العامة للاتحاد وتمكين المجلة من شق طريقها في الاوساط الادبية في اقطار الوطن العربي .

ثم انتقل المجتمعون الى مناقشة التعديل المقترح على الفقرة ١٢ من قانون انشاء المكتب الدائم لاتحاد الادباء العرب والخاص باضافة منصب خامس لامانة الاتحاد ، فاقر بالاجماع .

وبعد ذلك جرى انتخاب اعضاء مكتب الامانة العامة الجديد للسنوات الاربع القادمة ، وبالنتيجة جدد المجتمعون للسيد يوسف السباعي بالاجماع انتخابه امينا عاما للاتحاد ، كما جدد انتخاب كل من الاستاذ خيري حماد والدكتور سهيل ادريس لمنصب الامين العام المساعد ، وكذلك تم انتخاب كل من الرفيق جورج صدقني وشاذل طاقة رئيس وفد العراق الى المؤتمر بالاجماع امينين عامين مساعدين ايضا ، وسمت وفود ادباء المغرب العربي عبد الكريم غلاب لمنصب الامانة العامة الخامس الجديد ..

اعمال المؤتمر

هذا وقد عقد المؤتمر عدة جلسات القيت فيها بحوث مختلفة في ثلاثة موضوعات كانت مطروحة للبحث هي « الاديب العربي بين الحرية والالتزام في معركة المصير » ، و « الاديب العربي بين التراث والمعاصرة في معركة المصير » و « الاداء والتعبير الفني في معركة المصير » ، كما عولجت موضوعات المشاكل العملية والتنظيمية حول

« مشاكل النشر والتوزيع » و « مطالب الاديب العربي المهنيـــة » ، ودرست احدى اللجان الخاصة موضوع الدفاع عن الادباء العرب في الارض المحتلة » .

وقد نشرنا في هذا العدد من « الآداب » أهم الابحاث والتقارير.

وأقيم مهرجان الشعر في ايام ١٢ و ١٣ و ١٤ كانون الاول (ديسمبر) في مدرج جامعة دمشق ، وشارك فيه زهاء سبعين شاعرا من الاقطار العربية ، وقد نشرنا في هذا العدد ايضا بعض القصائد التي القيت في المهرجان مما لم يسبق نشره .

مناقشات المؤتمر

وقد نوقشت في الجلسة الاولى للمؤتمر الابحاث المتعلقة بالموضوع الاول والتي القى ملخصا لها كل من الدكتورة سهير القلماوي والاستاذ عودة بطرس عودة والاستاذ صدقي اسماعيل، فاشار الاستاذ محيي الدين صبحي الى ان مطالبة الاديب بالتعاون مع الاعلام وعدم الترفع عما يمكن ان يسمى بالادب المباشر تحوي مغالطة من حيث تطبيقها على الواقع ، فالامر هو ان اجهزة الاعلام لا تسمح بالتعامل في حقولها الا لمن هم في السلطة او من ترسلهم السلطة او على طريقة الشلل والتجمعات .

وحول اشارة الدكتورة القلماوي الى تراث عربي متفاعل مع الايديولوجيات العالمية للخروج بايديولوجية عربية يضعها المفكرون والادباء ، قال الدكتور الحبيب الجنحاني ان هذا الامر غير صحيح ، فيجب ان تظهر الايديولوجية من واقع المجتمع العربي ، لا من فوق ، حتى لا تفشل . وقال : ان موضوع الالتزام شائك وليس عليه اتفاق ، حيث ان هناك انقسامات في الاتجاهات داخل النخبة بما فيهم الادباء ، ثم اردف ان النخبة مرتبطة كل حسب اتجاهه الفكري بفئة معينة ، ولا بد من تحديد ما هي هذه النخبة وما هو موقفهم بالنسبة للنظم العربية .

وقالت الدكتورة لطيفة الزيات ان اثارة موضوع الايديولوجية لا يمكن ان يكون الا من خلال تفاعل الادباء مع الفكر والجمهور ... ثم لا بد من الاتفاق على اوليات تواجهنا ، ثم هناك اوليات الوطن العربي ككل وفي كل قطر عربي على حدة . اننا نلتقي ونفترق ونحن على اختلاف ، وهذه الفترة لا تسمح بمثل هذه الامور. وأود ان اقول: كلما ازداد المد الثوري كلما جذب الكتاب الثوريين ، ونحن علينا ان نساعد المد الثوري على بلوغ مداه . كما ان علينا اعادة الثقة الى الشخصية العربية لاننا عشنا في مرحلة تعذيب النفس واذلالها. ولا بد من اعادة صورة الامة العربية في مرحلة عزتها الى الاذهان لتعود تبعا لذلك الثقة والطمأنينة .

وقال الاستاذ عبد العزيز الدسوقي : تطالب الدكتورة لطيفة بايجاد ايديولوجية عربية نتيجة تفاعل الفكر مع الواقع وتطالب بالاتفاق على اوليات ، الا اننا يجب ان نسأل من هو الذي يحددها .. ثم بعد تحديدها يظهر لنا تناقض جوهري . كيف يكون هناك تفاعل اذا نحن جمدنا هذه الاوليات .. ان التفاعل يأتي بالدرجة الاولى من التناقض القائم ...

وناقش بعد ذلك الاستاذ العروسي المطوي فقال : ان فكرة الادب المباشر او تبسيط الادب للالتزام بالجماهير ستخلق لنا مشكلة جديدة وهي هل يكون هذا الالتزام بالتبسيط ضمن اللهجات العامية ،ام ترى تتفق على اسلوب خاص ؟ ثم عقب على الدكتورة الزيات بقوله : ان الشخصية العربية قبل مرحلة الاذلال « بعد حرب حزيران » لم تكن بشكل يدفعنا الى اعادتها اليه لان واقع التخلف كان قبل ذلك بكثير .

وتحدث الاستاذ عمر الجاوي (اليمن) فطالب بتوضيح وتحديد نوعية الالتزام في معركة المصير ، وليس علينا ان نتقرب من الجماهير بل علينا معايشتها . وقال ان في الادب مدفعية ثقيلة ايضا ، ومثل على ذلك بالحرب النازية والادب الفرنسي والسوفياتي في تلك المرحلة، وقال ان علينا ان نصل الى تلك المدفعية .. عن طريق الاعلام الادبي ..

وردت الدكتورة سهير قلماوي بقولها : لا اقصد بالترفع عن الاعلام تلك العلاقة المباشرة مع اجهزته او عدمها ، ولكن الكاتب يسعى الى نتاج عالي مغفلا ضرورة العمل الادبي الاعلامي ، خشية من النقاد.. واذا كان اراغون قد اعطى خصبا فنيا ضمن ظروف معركة فانه يجب لفت النظر الى جمهور اراغون المختلف عن جمهورنا .. وحتى نحصل على جمهور مماثل ماذا نفعل ؟.. يجب ألا ننسى ايضا ان عندنا نسبة كبيرة من الامية . ثم قالت : ان التفاعل بين الواقع والفكر سيولد الايديولوجية ، والانسان اذا لم يملك القدرة على التغيير لا بد ان يثور . وتلك الانقسامات التي تحدث عنها المناقشون امر طبيعي لا بين الفئات فقط بل وحتى لدى الاديب نفسه ضمن حالات نفسية خاصة.. على انني لا اؤيد اي انقسام انما اقصد ذاك الذي يبقى في اطار عام واحد . ولا بد من الاتفاق على اوليات كما طرحت الدكتورة الزيات .

واضافت : ان معركة المصير جزء من سلسلة معارك ، فالصراع مستمر والتحديات طويلة .. والمعركة معركة اجيال .. وفي معرض ردها على الاستاذ العروسي المطوي قالت : لا بد من الالتزام بقدر من الفصحى حتى لا نضطر الى اللهجات ، ولكن التبسيط هو تبسيط الفصحى نفسها .

ثم تحدث الاستاذ انور احمد فقال مناقشا فكرة الحرية والالتزام : انه لا بد من بلورة للحرية والالتزام . اذ لا تناقض بين حرية الاديب والتزامه من حيث يلتزم بقضايا امته ، ولكنه حر في اتخاذ الموقف والشكل التعبيري . ثم ايد الدكتورة الزيات في ضرورة الاتفاق على اوليات ، فهناك بديهيات لا يمكن الاختلاف عليها ... كما انه لا يمكن للاديب ان يكون حرا اذا لم يتحرر من جميع الضغوط التي تقيد قلمه ، وقال ان المؤتمر مدعو الى اتخاذ توصيات تحفظ الاديب من السلطة ، وطالب ان تشمل التوصيات وضع اجهزة الاعلام للاتصال بالاديب لا ان يسعى الاديب اليها حفظا لكرامته .

وتكلم الاستاذ احمد ابراهيم الفقي فقال : يجب ان يكون الكاتب في الخط المعارض وحريات الاديب تؤخذ عنوة ، يجب ان لا نحني رؤوسنا وان نحرص على فعالياتنا وكرامتنا . وقال : ان هناك ضرورة لانتزاع هذه الحرية .

وتكلم محمد الماجد فقال : ان السلطة تجبرنا ان نقول كليشيهات موضوعة مسبقا ولا نستطيع ان نناقش في بلادنا المواضيع بالشكل الذي نريده . يجب على المؤتمر ان يوصي بما يستطيع الاديب من خلاله ان يتحدث بما يريد ان يقوله هو .

حول العامية والفصحى

وفي موضوع « حرية الاداء والتعبير الفني » طالب الاستاذ مصطفى القارسي باستعمال اللهجات المحلية العامية العربية في النتاج الادبي العربي ، فرد عليه الاستاذ عبد الامير معله بقوله :

تتميز اللهجات الدارجة في المغرب ، حتى الآن ، بأنها عاصرت التطور العلمي وسيادة التكنولوجيا هناك ، وتطورت معها ، بحيث انها خلال مواكبتها لذلك التطور ، استطاعت ان تستوعب معطياته ، وتخضع لها ، مثلما حصل بالنسبة للغات القومية السائدة في الغرب عموما . ولذلك فان استعمال تلك اللهجات من قبل الكتاب الغربيين لا يعتبر غريبا ، بل هو بذلك يمكن ان يكون عنصرا مساعدا ـ ان لم يكن في بعض الحالات اساسيا ـ في بناء النتاجات الادبية . على ان ذلك لا يبرر بحال من الاحوال استعمال هذه اللهجات في تكوينات النصوص

الفنية العربية . اذ الامر يختلف تمام الاختلاف . ذلك انه في الوقت الذي واكبت فيه اللهجات المحلية الدارجة في بلدان الغرب عصر التطور الحضاري ، التكنولوجي بالدرجة الاولى في هذا العصر ، فان اللهجات المحلية العربية ، كانت تمثل بالضبط لغة عصر الانحطاط لدى العرب ، والذي تميز بأنه عصر شبه الاقطاع والعلاقات الاجتماعية القبلية ، حيث رث لدينا العلم وتأخرت عملية التقدم الطبيعي الذي كان يجري بوسائل سريعة قبل ذلك .

وقد تأصلت تلك اللهجات في ذلك العصر ، وازداد تأصلها اكثر خلال عملية التجزئة التي كانت حصيلة طبيعية للانحطاط الذي ساد الوطن العربي . اذ ان التخلف ادى الى تغلغل النفوذ الاستعماري القديم الذي أدرك تمام الادراك ان نهوض العرب في العصر الحديث لا يمكن ان يسمح له بالاستقرار ولذلك سعى لتأصيل التجزئة ، وسخر لها الكثير من الوسائل الجاهزة ، ومن بينها الانحطاط والتجزؤ اللغوي .

ومع بداية عصر النهضة العربية ، لم يكن لرواد النهضة الا العودة الى احدى المقومات الاساسية لتوحيد وتأصيل التفاهم الفكري لدى العرب ، وذلك بالعودة الى اللغة الفصحى . وينبغي التأكيد هنا على ان وحدة لغة العرب ، تمثل اساسا من اسس وحدتهم في شتى مجالات الحياة ، تلك الوحدة التي تمثل عملية مجابهة التجزئة وليدة التخلف والاستعمار .

وبالرغم من ان العرب ، حين احتاجوا منذ بداية عصر النهضة الى اللغة الواحدة ورجعوا اليها ، وجدوها منفصلة عن التطور الحضاري في العالم ، غير انه مما ساعد على احيائها المرونة العالية التي تميزت بها في قبول واستيعاب التطور الحضاري ، باعتبارها لغة عصر حضاري سابق ، استطاعت خلاله ان تخضع لتطورات الحضارة العربية .

ان علينا ان نؤكد هنا انه بقدر ما تعتبر الفصحى لغة الوحدة القومية ، فانها في ذات الوقت تعتبر لغة الجماهير العربية ، او هكذا ينبغي ان تكون . وذلك لان الوحدة القومية انما تهم الجماهير العربية بالدرجة الاولى لا الطبقات الرجعية في الوطن العربي ، بحكم ارتباط عملية التحرر والتقدم الاجتماعي والحضاري بالوحدة العربية . وعلى هذا تتخذ الفصحى ميزتها القومية والطبقية ، وتقف في مواجهة العامية التي تمثل سمة من سمات التخلف والانحطاط .

بعد ذلك ينبغي ان نلاحظ ظاهرة اساسية تمثل حيوية الفصحى وقدرتها على البقاء والتطور ، تلك هي انه بقدر ما تمرنت على استيعاب عصرنا بكل معطياته ، فان اللهجات العامية ارتفعت ، وما تزال ، الى مستوى الفصحى ، دون ان تجر الفصحى ذاتها اليها ، وهذا يعلن وشوك اندثار تلك اللهجات ، كما يشير الى ان تقدم الجماهير العربية فرض طور اندثار العامية ، ونمو الفصحى باعتبار ان الاولى لغة التخلف والثانية لغة التقدم الذي تحتاجه وتحققه الجماهير ذاتها .

ان تلك الامور تتطلب من المثقفين ان ينبذوا استعمال اللهجة المحلية في عطائهم الادبي واعتماد الفصحى استجابة لضرورات التطور العربي الحديث .

حول الرمز ...

وتعليقا على ما قيل حول لجوء كتابنا وشعرائنا الى الرمز بعد هزيمة ٥ حزيران ، قال الاستاذ جورج طرابيشي :

ان الظاهرة الاساسية التي تسترعي الانتباه في اشكال التعبير واساليب الاداء الفني هي التقدم الملموس الذي تحرزه النزعة الرمزية في ادبنا المعاصر ، ولا سيما بعد هزيمة الخامس من حزيران . ولهذا ، فيما اعتقد ، علتان : فنية واجتماعية ـ سياسية .

فعلى الصعيد الفني يمكن ان نرجع تقدم لغة الرمز الى افلاس وسائل التعبير التقليدي ، على اعتبار ان هزيمة حزيران قد صنعتها فيما صنعتها الكلمة ، وهذا بقدر ما يصح وصف العرب بأنهم أمة كلام لا آمة افعال . وبالرغم من ان هذا الوصف فيه من التعميم ومن البسيكولوجيا الميتافيزيقية الشيء الكثير ، ولكنه يجد تبريره في الانفصام بين اللفظ ومدلوله وفي الطلاق بين الكلمة والفعل في سوق الدعارة الكلامية التي ندر ان عرفت من الرواج بين الامم الاخرى ما عرفته عندنا .

اما على الصعيد الاجتماعي ـ السياسي فان تقدم لغة الرمز لا يجد تفسيره الا في ازمة الحرية السياسية ، تلك الازمة التي تتخذ من حين الى آخر ، هنا وهناك ، شكل ارهاب سافر تارة ومقنع طورا .

ان لغة الرمز هي لغة من لا يريد او من لا يجرؤ او من يعجز عن قول الحقيقة كاملة . وبديهي أنه ليس هناك من يطالب الاديب العربي بأن يكون شهيدا ، كما اننا لا نريده ان يصمت . واذا لم يكن هناك من خيار الا بين الشهادة او الصمت ، فاننا نفهم ان يؤثر الكاتب لغة الرمز ليقول من الحقيقة نصفها او حتى ربعها .

ولكن الرمز له ضريبته الباهظة : انكماش الجمهور الذي يتوجه اليه الكاتب وتقلصه عدديا . والحال ان « ادب النخبة » قد ولى زمانه . وقد يحاول اديبنا ان يعزي نفسه بأن الاجيال القادمة هي التي ستفهمه . ولكن مثل هذا العزاء ضرب من الرهان ، ورقة يانصيب . ونحن نعلم مدى قلة الاوراق الرابحة من اليانصيب .

البيان العام

هذا وقد صدر عن المؤتمر الثامن للادباء العرب البيان العام التالي نصه :

ان معركة المصير التي تخوض غمارها الامة العربية جمعاء ، ويقف في طلائعها الاديب العربي ، تشكل تحديا حضاريا شاملا لا سبيل للامة العربية الا ان تنتصر فيه ، على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والثقافي وعلى صعيد المعركة السياسية والعسكرية جميعا .

وبالرغم من الكارثة التي حلت بوطننا العربي السليب في فلسطين قبل اكثر من عشرين عاما ، وبالرغم من مرور سبع سنوات ونصف على العدوان الصهيوني الامبريالي الذي شنته في الخامس من حزيران ١٩٦٧ قوى التوسع والاغتصاب والفاشية المتمثلة في اسرائيل والامبريالية العالمية ، فانه ما يزال على الادباء والمفكرين العرب ان يواصلوا دورهم التاريخي ، مع الطلائع العربية ، في حمل مسؤوليتهم الكبيرة وحشد طاقاتهم وامكاناتهم ومواهبهم من اجل تحقيق النصر في معركة المصير .

وتحت شعار « الاديب العربي في معركة المصير » انعقد مؤتمر الادباء العرب الثامن ، في الفترة بين ١١ ـ ١٢ ـ ١٩٧١ و ١٥ ـ ١٢ ـ ١٩٧١ ، وشاركت في المؤتمر وفود من ١٢ بلدا عربيا هي : البحرين ـ تونس ـ الجزائر ـ سورية ـ العراق ـ فلسطين ـ الكويت ـ لبنان ـ ليبيا ـ مصر ـ المغرب ـ اليمن ـ جامعة الدول العربية . وشهدته وفود مراقبة من بعض المنظمات والبلاد الصديقة .

ان الادباء العرب يدركون ان معركة المصير تتمثل في مقاومة قوى الامبريالية والصهيونية والاستعمار والعنصرية لارساء قواعد الحرية والتقدم والبناء الاشتراكي والسلام والعدالة الاجتماعية والازدهار الروحي والثقافي والحضاري للانسان .

ويدرك الادباء العرب ادراكا تاما ان اسهام الشعب العربي في نضال هذه الجبهة المعادية للامبريالية والاستعمار يدعم القضية العربية والقضية الفلسطينية كما يدعم نضال الشعوب في فيتنام والهند الصينية ، وفي افريقيا الجنوبية ، وفي تشاد وفي المستعمرات

البرتغالية في انجولا وموزامبيق وغينيا بيساو ، وفي كل موقع تحتدم فيه المعركة ضد العدو المشترك .

ويؤكد الادباء العرب في مؤتمرهم الثامن ، مساندتهم للثورات التحريرية وحركات التحرر الوطني في كل المناطق التي ما تزال تحت وطأة الحكم الاستعماري ، كما يدين التفرقة العنصرية في فلسطين المحتلة وافريقيا الجنوبية وزمباووي وافريقيا الجنوبية الغربية وفي كل مكان تمتهن فيه الكرامة الانسانية ، ويؤيدون الحقوق المشروعة للشعوب في تقرير مصيرها بحرية وخاصة في اريتريا واثيوبيا والمناطق المحتلة من الصومال وغيرها ، ويؤكدون ان سلاح الكلمة المناضلة في هذا السبيل لا يقل خطرا واثرا عن سائر اسلحة النضال .

ويدرك الادباء العرب ان المعركة المصيرية التي يقاتل الشعب العربي من اجل النصر فيها انما ترتبط بازالة الوجود الامبريالي من الارض العربية ، وان الاغتصاب الصهيوني الذي يستهدف الارض العربية ، كما يستهدف الروح العربية رهن بالعدوان الامبريالي واستغلال الاحتكارات الراسمالية للثروات المادية والبشرية العربية . وان الكفاح المسلح الذي يخوضه شعب فلسطين والامة العربية باسرها، وبخاصة على خطوط المواجهة مع العدو ، هذا الكفاح يسهم اسهاما فعالا في هذا النضال المترابط من اجل تحرير الارض العربية المحتلة ، واستعادة حق الشعب العربي الفلسطيني في وطنه ، وتحطيم حواجز التجزئة المصطنعة التي خلفها الاستعمار في الوطن العربي واجتياز هوة التخلف الحضاري وتحقيق مستقبل مشرق بالحرية والامن والعدالة والرخاء .

ويلتزم الادباء العرب بمساندة الكفاح الفلسطيني المسلح وتوكيد الدور الذي تنهض به الثورة الفلسطينية ، والوقوف وقفة حازمة ضد مؤامرات التصفية التي تدبرها وتنفذها الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية . ويدعمون نضال شعب المغرب من اجل تحرير الصحراء التي تحتلها اسبانيا وكذلك نضال شعب المغرب لتحرير مدينتي سبتة ومليلية والجزر الملحقة بهما في الشمال ، كما يدعمون النضال المسلح الذي يخوضه الشعب في الخليج العربي بقيادة الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي ويدينون الاحتلال الايراني لعربستان . كذلك يلتزم الادباء العرب بالدفاع عن عروبة الخليج العربي ، فما احتلال ايران لجزره الثلاث الا جزء خطر من المخطط الامبريالي الذي يستهدف الاستيلاء المباشر على منابع الثروة العربية ومواقعها الاستراتيجية ، واقتطاع اراضيها ، وخلق جبهات جديدة لاستنزاف قوى العرب وابقائهم على حال التخلف ، حتى يسهل القضاء على الكيان العربي كله .

ويؤكد الادباء العرب اعتزازهم بالاصل الحي من تراثهم وقيمهم الروحية والحضارية وعيا منهم باهمية مواكبة التطور السريع في ميدان الانجازات الحضارية ، وادراكا منهم بان اسهامهم في الابداع المعاصر من عوامل النضال الايجابي لكسر جدار العزلة التي اقامها الاستعمار والامبريالية حولنا .

ويؤمن الادباء العرب ايمانا عميقا ان الحرية النابعة عن المسؤولية عامل من اقوى العوامل اثرا في هذا النضال ، وان التزام الاديب بقضايا شعبه وهمومه ونضاله انما يعمق حريته ويدعمها .

ويدرك الادباء العرب ان حرية التعبير والاداء الفني ضرورة لا غنى عنها للخلق والابداع الادبي ، ولذلك فانه من الضروري في هذا المجال توفير المناخ للحرية في التعبير بما يصدر عن القيم الحية في التراث ، وما يتسق مع الواقع الراهن وما يستشرف آفاق المستقبل .

ويؤكد الادباء العرب ، في مؤتمرهم الثامن ، ان التوصيات والقرارات التي انتهت اليها لجانه واجتماعاته ينبغي ان تؤخذ في الاعتبار من جانب الحكومات والهيئات المختصة في البلاد العربية ، وان توضع موضع التنفيذ ، ويعهد الى الامانة العامة لاتحاد الادباء العرب بمتابعة تنفيذ وتحقيق هذه التوصيات ، وخاصة بالتنسيق مع جامعة الدول العربية واتحادات الكتاب في البلاد العربية والهيئات العربية للعلوم والفنون والآداب .

ويعرب المؤتمر عن تقديره واعتزازه للدور الفعال الذي تنهض به الجمهورية العربية السورية في النضال من اجل النصر في معركة المصير ، كما يعرب عن شكره وامتنانه للسيد رئيس الجمهورية العربية السورية على رعايته الكريمة للمؤتمر وتفضله بافتتاح اعماله ، وللجهود الكبيرة التي بذلها اتحاد الادباء العرب واتحاد الكتاب العرب في سورية في سبيل الاعداد للمؤتمر وتوفير النجاح له ، ولما لقيته

الوفرد جميعا من كرم وحسن وفادة .

توصيات المؤتمر

كما اصدر المؤتمر التوصيات التالية :

الموضوع الاول : « الاديب العربي بين الحرية والالتزام في معركة المصير » .

١ ـ توفير حرية التعرف على الفكر العالمي مع الاحتفاظ بمعطيات التراث القومي .

٢ ـ اشراك الجماهير في تقييم ادب المعركة المصيرية عن طريق التنسيق بين اتحادات الكتاب وبين اجهزة الاعلام للتوعية الجماهيرية.

٣ ـ حث الادباء على المشاركة في الدور التثقيفي الذي تقوم به اجهزة الاعلام .

٤ ـ الالتزام بلغة فصحى مبسطة تادية للرسالة القومية وتوخيا لربط الادب بالجماهير .

٥ ـ الالتزام بخط الثورة العربية التي هي السبيل الوحيد للوحدة القومية .

٦ ـ اقامة ندوات لعرض المفاهيم الاساسية للالتزام بمعركة المصير وتوضيحها .

الموضوع الثاني : « الاديب العربي بين التراث والمعاصرة في معركة المصير » .

يوصي المؤتمر بما يلي :

١ ـ ان تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية للتعليم العالي في الجامعات العربية .

٢ ـ ان يتبنى اتحاد ادباء العرب فكرة عقد مؤتمر للتراث العربي كل سنتين او ثلاث سنوات لمناقشة ما يجد فيه . وان يخصص كرسي لتدريس التراث العربي بالجامعات العربية في ضوء ما يجري من ابحاث مقارنة في الجامعات العالمية .

الموضوع الثالث : « الاداء والتعبير الفني في معركة المصير » .

١ ـ اعتبار ان المسالة الاساسية في موضوع دور الاداء والتعبير الفني في معركة المصير هي تحقيق اكبر قدر من الاتصال مع الجماهير.

٢ ـ اعتبار مهمة النقد الادبي الظاهرات الادبية الجديدة تتعدى مسالة تحديد « الخطأ والصواب » في هذه الظاهرات لتبلغ الاسهام الجدي في حركة التفاعل والتواصل الضروري بين الادب والجمهور .

٣ ـ تشجيع الكاتب في مقاومة الغربة وضغط الواقع المفروض بالابداع الادبي والعمل من اجل الارتباط بحركة الجماهير .

الموضوع الاول من المشاكل العملية والتنظيمية : النشر والتوزيع.

يوصي المؤتمر بما يلي :

١ ـ اهتمام الحكومات بمحو الامية وجعله مهمة عاجلة واساسية .

٢ ـ اهتمام وزارات التربية والثقافة بالتشجيع على القراءة والمطالعة بين الشباب عن طريق الدروس والجمعيات والجوائز والحوافز والبرامج الاعلامية .

٣ ـ انشاء مراكز لتبادل المعلومات بصدد الكتاب العربي في كل قطر بحيث تنظم عملية الترجمة واحياء التراث ونشره .

٤ ـ انشاء دار للنشر والتوزيع برأسمال عربي مشترك بحيث تكون تحت اشراف اتحاد الادباء العرب وبحيث تساهم في تشجيع الادباء والقضاء على عمليات التزوير .

٥ ـ اعتبار تزوير الكتاب من جرائم السرقة المعاقب عليها في القانون .

٦ توحيد موقف الدول العربية من اتفاقية برن المتعلقة بحماية الانتاج الفكري .

٧ ـ تخفيض اسعار الاعلان عن الكتاب في كل وسائل الاعلان وتخفيض اجور نقل الكتاب بوسائل النقل والبريد .

٨ ـ ايجاد حل لمشكلة تحويل العملة بين البلدان العربية فيما يتعلق بتسويق الكتاب العربي .

٩ ـ اهتمام دور النشر العربية باصدار طبعات شعبية تكون في متناول قدرة الجماهير .

١٠ ـ الاهتمام باخراج الكتاب العربي ليساير تقدم الطباعة .

١١ ـ تعميم المكتبات العامة وقصور الثقافة وحث الحكومات على ايجادها ان لم تكن موجودة وتمكينها من ان تخدم اكبر عدد ممكن من المواطنين بواسطة الكتاب والبرامج الثقافية .

١٢ ـ اهتمام الحكومات بتيسير تداول الكتاب العربي بين مختلف الاقطار العربية بشتى الوسائل وتعاون اتحادات الكتاب العربية في هذا المجال .

الموضوع الثاني من المشاكل العملية والتنظيمية : الدفاع عن الاديب العربي ومطالبه المهنية .

يوصي المؤتمر بما يلي :

١ ـ ان يقوم اتحاد الادباء العرب بتتبع الاجراءات التي قد تقوم بها السلطات ضد الكتب او المجلات او الكتاب والادباء بهدف اضطهاد الكتاب بسبب انتاجهم الادبي والقيام بالدفاع عنهم عن طريق الاتصال بالسلطات المعنية او تعيين محامين للدفاع عنهم ان عرضت القضية على القضاء .

٢ ـ ان تقوم الامانة العامة لاتحاد الادباء العرب ببذل كافة الجهود من اجل الافراج عن الادباء المسجونين بسبب انتاجهم الادبي ورفع الاضطهاد عنهم وفي مقدمتهم الاديب العربي عبدالعزيز المعمري ومن

اجل رفع الحجز عن جميع الكتب التي لم يحكم القضاء بمصادرتها .

٣ ـ ان تعفي الحكومات العربية المثقف العربي من اداء اي نوع من الضرائب المتعلقة بدخله الناتج عن آثاره الفكرية .

٤ ـ ان تقوم الحكومات العربية بسن تشريعات تمكن الاديب العربي من التفرغ النسبي او الكلي للاعمال الفكرية .

٥ ـ ان تقوم الامانة العامة ببذل كل الجهود المكنة في سبيل نشر الادب العربي على النطاق العالمي بترجمة نماذج منه في مجلة دورية وفي سبيل سلاسل كتب .

٦ ـ ان تشجع اتحادات الكتاب في الوطن العربي ادب الشباب وان تتبنى الانتاج الادبي الجيد منه .

٧ ـ ان تقوم الامانة العامة بوضع اسس موحدة كمبادىء تسير عليها دور النشر في الاتفاقات الخاصة بينها وبين الكتاب فيما تنشره لهم ضمانا لحقوقهم .

توصيات الدفاع عن ادباء الارض المحتلة

يوصي المؤتمر بما يلي :

١ ـ توجيه التحية الى ادباء فلسطين في الارض المحتلة ، لنضالهم الطليعي وحملهم رسالة الاديب الحقيقية في اذكاء روح المقاومة ضد الاحتلال الصهيوني الاستعماري وقوى الامبريالية العالمية التي تقف وراءه . واذ يحيي المؤتمر هؤلاء الادباء الطليعيين ، على حملهم راية النضال داخل الارض المحتلة ، يدعو اخوانهم العرب الى حمل نفس الراية والتفاعل معهم تفاعلا تاما في كفاحهم من اجل الحرية والتقدم .

٢ ـ تحديد يوم سنوي للتضامن المعنوي والمادي مع ادباء الارض المحتلة ، ومطالبة الاتحادات والادباء الاحرار بان يقفوا باستمرار الى جانبهم في نضالهم ، وان يعملوا على حمايتهم من حملات التجريح والتهجم التي يتعرضون لها احيانا بسبب مواقفهم النضالية النابعة من حملهم لراية النضال ضد سيطرة الاحتلال ومذهبيتهم الفكرية .

وبان يكون يوم التضامن هذا على اوسع نطاق عالمي ممكن عن طريق الاتصال بالاتحادات والكتاب الاحرار في العالم كله ، ومختلف الوسائل الاخرى .

٣ ـ حماية الحقوق الادبية والمادية لادباء الارض المحتلة ، لدى نشر انتاجهم بمختلف وسائل النشر ويرى المؤتمر ان يتولى الاتحاد العام لكتاب فلسطين النيابة عنهم في حماية هذه الحقوق وحفظها ، بالتعاون الوثيق مع الاتحادات العربية المحلية والاتحاد العام للادباء العرب . وبان يعمل الاتحاد العام للادباء العرب والاتحادات الاعضاء فيه على طباعة ونشر ادب الارض المحتلة باللغة العربية ، وترجمة هذا الادب الى اللغات العالمية بصورة تتفق ومستويات النشر العالمية .

وان يعنى الاتحاد العام والاتحادات الاعضاء بتزويد مراكز الاستشراق والمؤسسات المعنية الاخرى ، بهذه الترجمات واصولها العربية .

٤ ـ ضرورة ضمان الحرية الكاملة للاديب الفلسطيني في النضال من اجل قضيته ، ودعوة الاتحاد العام والاتحادات الاعضاء ، الى تبني هذه القضية ، والدفاع عن حرية كل اديب فلسطيني وعربي يتخذ من قلمه سلاحا للدفاع عن القضية الفلسطينية والعمل على تحقيق اهدافها

٥ ـ تعزيز دور الاذاعات العربية في خدمة القضية الفلسطينية وان تولي مزيدا من الاهتمام ببرامج فلسطين واركانها ، لتعريف الجماهير داخل الوطن العربي وخارجه بالاسس الصحيحة للقضية الفلسطينية . وان تعمل دور الاذاعات العربية على ايصال ادب الارض المحتلة الى الجماهير في الوطن العربي وخارجه ، وايصال الادب العربي التقدمي من الناحية الاخرى الى الجماهير في الارض المحتلة .

٦ ـ تحديد يوم سنوي عالمي للتضامن مع الشعب الفلسطيني في نضاله ودعوة الكتاب العالميين الاحرار الى الاسهام في هذا اليوم .

دراسة المشكلات العملية والتنظيمية لواقع ادباء العرب

يوصي المؤتمر بما يلي :

١ ـ الا يوضع اي قيد على حق المؤلف المطلق في نشر مصنفاته الفكرية والادبية وتوزيعها وترويجها على اوسع نطاق ما دام ملتزما باهداف الامة العربية .

٢ ـ على الكتاب من اي قطر عربي ان يناضلوا من اجل قيام اتحادات تضم شتاتهم وتدافع عن مصالحهم الادبية والمادية ومن اجل وضع تشريعات خاصة برعاية هذه الحقوق ، ولهم الحق في اقامة مؤسسات تعتني برعاية حقوقهم المادية .

٣ ـ التنسيق بين تشريعات البلاد العربية الخاصة بالمنظمات الادبية الموكل اليها رعاية حقوق التاليف لكي تكون مستوحاة من واقع الشعب العربي مستمدة روحها من ظروفه وملابساته ومعاونة البلاد التي ليس بها منظمات على اقامة هذه المنظمات بتقديم تشريعات نموذجية اليها .

٤ ـ تيسير تبادل الزيارات بين رجال الفكر والادب بين البلاد العربية الشقيقة لتحقيق التعارف المنشود وتوثيق الصلات بين الكتاب

٥ ـ دعوة الحكومات العربية الى المزيد من العناية بشؤون الفكر ورجاله حتى يستطيع الكاتب العربي ان يعيش من انتاجه ولانتاجه وان يقوم بدوره البناء في ظروف ملائمة للخلق والابداع لا تشغله الشواغل المادية ولا تعرقل مسيرته الحواجز .

٦ ـ دعوة المؤتمر التاسع للادباء العرب الى ادراج موضوع رعاية حقوق المؤلفين في جدول اعماله ليتمكن الكتاب من اسماع صوتهم في هذا المضمار ولمتابعة ما جاء من توصيات في هذه اللائحة بكامل الجدية والاهتمام .

تتمة الاديب العربي ومشكلات الالتزام

تابع المنشور على الصفحة ٤

صوته يصل الى الجماهير العريضة وفي الوقت نفسه لا بد ان يظل امينا لسلاحه الاستراتيجي العميق سلاح الفن الحق بالاسلوب الخالد على الزمن . معنى هذا اننا مضطرون في ظروف حياتنا وانتشار الامية بين جماهير الامة العربية من ان تحارب في جبهتين جبهة الدعاية السريعة الفعل وجبهة الفن الخالد الاثر وفي وقتواحد ان استطعنا وبنظرة واعية الى اهمية الادب الدعائي وضرورته وجلال خطره . اننا يجب ان نتقن لغة الجماهير وان نحيي ادبها وفنونها باسلوب علمي وليس بالاساليب المشوهة المبتذلة التي نتبعها الآنجاعلين كل هابط فلوكلورا وكل تافه فنا جماهيريا ان فن الجماهير فنواحد في نواح عدة علينا ان نتبينها وان نقويها وان ندرس من خلال هذا الفن تقاليد الجماهير وذوقها الذي لا بد ان يؤثر فيما يقدم له من زاد دعائي . لست في موقف الدفاع او الهجوم وانما انا فيموقف ارى ان متطلبات المعركة تفرض على الاديب اساليب كفاح.

اما الادب الحق الذي لا يستهدف البساطة وان يكن بسيطا ولا المباشرة باي حال فانه لا بد ان يغير من اسلوبه . لقد تغيرت الصلة بين الاديب ومجتمعه ولست اقول ان كان يكتب لقلة واليوم يجبان يكتب لكثرة فحسب وانما موقفه من العالم كله ومن قضايا الانسانقد تغير ، كان الفنان اذا ما طحنته متناقضات عصره يهرب الىالطبيعة ويدفن غربته في قمرها ونجومها بل في نباتها وحيوانها . واليوم اذا اراد هروبا من واقعه فلا بد له من ان يهرب الى الشعب الذي يعاني مثله والشعب الذي لا تملك حتى اليوم وسائل الهروب الى الطبيعة وهو بنظرته السليمة يهرب الى اخيه الانسان يشكو همه وبثه لواعجه وقد يهرب الى حبيبة واقعية او متخيلة يجد في دفء عاطفته نحوها عزاء عن برودة الحديد الذي يكبله ويشل ملكاته ويفقده حريته .

كان طاغور شاعر الهند الاكبر يفرمن آلام المجتمع حسباسلوب عصره الى الطبيعة من حوله كان يناجي الليل باسلوبه البارع فيقول: وقفت ليلة امس وحيدا وسط ظلمة الليل التي سقطت على الكائنات كلها ، وقفت انصت الى صوت مغنى الانغام الابدية ، ولما اغمضت جفني لانام كان هذا الخاطر يلح علي" انه حتى عندما اغيب عن وعيي ستظل رقصة الحياة مستمرة على ساحة جسدي الخرساء الصامتةفي ضربات منسجمة مع حركة النجوم سيخفق القلب ، وسيتدفق الدم صاعدا في عروقي وملايين الذرات الحية في جسدي ستظل ترتعش رعشة الحياة في اتساق وانسجام على اوتار القيثار التي تهتز بلمسة الخالق السيد . »

واليوم نريد للشاعر العربي ان يهرب من متناقضات المجتمع الى اخوانه الذين يعانون مثله ليشد من ازرهم وليقوي ارادة الثورة والتغيير فيهم ليسير بهم ومعهم الى احداث الثورة المطلوبة ثورة متجددة ثورة تجعل الكائنات وقلب الشاعر وقلب الشعب وحركات الثورة كلها سيمفونية جميلة نسمعها في الليل من قيثارة الخالق السيد الذي انصت الى انغامها طاغور او غيره من الشعراء العظماء .

ولكي نجعل ادبنا وسيلة تحريك وثورة ، لا بد من تطويراسلوبه لا بد من ان نطور الشكل واللغة والصورة والخيال نفسه لان المضمون قد تغير ولان موقف الشاعر من الحياة قد تغير فعلا وبدانا طريقا جديدا في ادراك الحياة من حولنا .

لقد فرضت التغيرات الضخمة التي فرضها عقل الانسان ومكتشفاته ان يتغير شكل المجتمع وان تتغير علاقات الناس بالاشياء وعلاقات الفرد بالجماعة وهذا التغيير الذي فرضه عقل الانسان بعد ان بشر به عقل الادباء والمفكرين لا بد من اسلوب الادب ليظل الادب ابدا وسيلة تقدم وسلاح ثورة واسلوب استكشاف للمستقبل.

ان معركة المصير التي يخوضها الشعب العربي تحتاج الىمعرفة وادراك لو تعاونت الدعاية مع الادب في سبيل ايصالها وايقاظها لدى الجماهير لادت الى تعميق دور كل منهما واتقانه ولكن ادب الاستراتيجية الثقيلة الذي يصنع المستقبل لا بد من ان يتقن اسلوب ربط الماضي بالحاضر ليخرج منهما رؤية مفتحة الافاق عميقة الغور للمستقبل الذي من اجله نعيش اليوم ، وليس الماضي ولا الحاضر الا بعضمن عناصر هذه الرؤية اما اخطر عناصرها فهي موهبة الاديبوحسه كما ان اخطر اسلحتها الاسلوب الجديد اسلوب الفن الذي يمكن ان يهز كيان الجماهير كلها .

القاهرة **سهير القلماوي**

مهرجان أبي تمّام في الموصل

كان سفر سكرتيرة تحرير هذه المجلة وحدها الى بغداد ، وسفر زوجها رئيس التحرير وحده الى دمشق مفروضا علينا كلينا ...

فمؤتمر الادباء العرب الثامن في دمشق ومهرجان الشعر في الموصل يقعان في يوم واحد : ١١ ديسمبر .. وعبثا حاول سهيل، بصفته امينا عاما مساعدا لاتحاد الادباءالعرب ، ان ينسق بين المؤتمر والمهرجان .. عبثا حاول ان يوحّد ، ولكن الانفصال هو الذي انتصر..

ووصلت الى مطار بغداد وحيدة ، حزينة .. ان واقع التجزئة والانفصال هو الذي ما زال يحكم الوطن العربي ، فينخر جسد هذه الامة التعيسة التي تتخبط في ظلمات التفرقة والتشتت ..

وهبطت من الطائرة ، فاذا المطار يعج بالناس ، وأكاليل الزهور تحيط بالطائرة . كانوا قادمين لاستقبال نعش فدائي استشهد على ارض لبنان ، وها هو ينقل الى مسقط رأسه .. وكان كثيرون يبكون، فبكيت معهم .. ولم اكن ابكي الشهيد وحده . كنت ابكي كذلك وحدتنا التي يهدر غيابها كل قوانا ويمزّق جهودنا ..

ثم كفكفت دمعي حين مشى نعش الشهيد : لا ، لم نفقد الامل كله . لن نفقده ابدا . ان دماء هؤلاء لن تلبث طويلا حتى توحّد ذرات التراب العربي كتلة متراصة تطيح بكل دعاة التفرقة حيث كانوا .

ومشيت ، يحدوني امل جديد .

ولقيت في الفندق ببغداد والمهرجان بالموصل ممثلين حقيقيين لعقيدة الوحدة على صعيد الكلمة .

كانت الالفة تربط بين اعضاء الوفود ، وبدا التفاهم عميقا وصادقا حتى بين اعضاء وفدين ينتسب كل منهما الى قطر يناصب الآخر الكره ان لم نقل العداء . كانت اللغةالتي نتكلم بها واحدة ، ومشاعرنا واحدة ، وتطلعاتنا واحدة ، ولئن كان ماضينا مشتركا ، وتراثنا مشتركا ، وحاضرنا الاليم مشتركا ، وعدونا مشتركا ، فاين الخلاف اذن ؟

كان الادباء يناقشون هذا الموضوع فيما بينهم . لم يكن ابو تمام هو ما يشغلهم . وانما كانوا يبغون ، عن طريقه ، الوصول الى نقطة تفاهم صريحة ، واضحة ، شجاعة . كانت كلماتهم ، حتى الموجهة منها الى ابي تمام ، تمر عبره الى الاحياء لتهزهم وتفتح عيونهموعقولهم. وذات لحظة ، وانا انتقل في مدينة الموصل التي ضمت رفات الشاعر، خيّل لي انني اراه ينتقل بيننا ، ويتقمص واحدا منا ، يعتلي المنبر فيمدح ما شاء له المديح ، او يهجو ما حلا له الهجاء .

التاريخ يعيد نفسه ، والشاعر ما يزال ، منذ الف سنة ينشد حلما في نفسه ما تحقق بعد . ابو تمام ، او سمه ما شئت من الاسماء الحديثة ، ما يزال ، واحدا من اولئك الذين ادركتهم حرفة الادب يقضون حياتهم في الترحال من عاصمة عربية الى اخرى لا يودعهم فيها سوى وقع خطواتهم الحزينة الغضبى لتتلقفهم عاصمة اخرى لا تبغي من احتضانهم سوى المزيد من صور نفوسهم وحلمهم الكبير . صحيح ان النغم الذي عزفه كان فريدا مميزا ولكنني ، عبر العصور، سمعتهينتظم في المعزوفة الابدية الشاملة النابعة بالحنين والاسى والشكوى والمرارة . لذلك ،بدا لي ، ابو تمام ، وجها معاصرا وخالدا. خلود صراع الفنان مع نفسه ومع العالم الذي يلفه . فهو حينا ينحني على يد اجزلت له العطاء ليقبلها ، وطورا تأخذه سورة الغضب وعنف الكرامة والكبرياء فيرفض الانحناء ليلتقط الف دينار رميت اليه تحقيرا له .

ولكنه ككل فنان ، حاول في لحظات الابداع ان يفلت ويقذفذاته خارج حدود الزمن والمكان ، ونحن حين نتعرف على تلك الذات الهائمة ونتعاطف معها ،ونفرح به « فرحة الاديب بالاديب » على حد تعبيره وهو ، انما نلقى فيه ذواتنا المشردة حينا ، والمستقرة حينا آخر .

ولقد ظهرت « فرحة الاديب بالاديب » في هذا المهرجان فكانت مناسبة سعيدة لاحتكاك الافكار والتعارف ،ولقد لقيت الكثير مناصدقاء « الآداب » وقرائها وتبادلت معهم شؤون الادب والتجديد . وكان معظمهم من الشباب وممن احتل مراكز التوجيه في الحياة الثقافية العراقية . انه جيل مثقف يعي مسؤوليته في ارساء قواعد الثقافة العربيةالحديثة لخدمة الانسان العربي الجديد .

حين اقلنا القطار من بغداد الى الموصل ، تصاعدت اصوات اكثر من مئتي اديب وشاعر وصحفي . كانوا يتكلمون جميعهم لغة واحدة ، وان كانت ذات لهجات مختلفة . وتذكرت مقالا كتبه مؤرخ ذكر فيه ان اكبر مشكلة كانت تعترض توحيد روسيا بعد الثورة كانت مشكلة تعدد اللغات . ومع ذلك ، فقد تجاوزوا تلك المشكلة واتحدوا ، وظللنا نحن ، مع لغتنا المشتركة ، متفرقين ..

* * *

وبعد ، فلقد فتح العراق ابوابه لتكريم الادباء الخالدين ، وقد اعلن انه يعتزم اقامة مهرجانات اخرى ، فليسمح لنا هنا ان نلاحظ ان الاقلام المتخصصة الاكاديمية منها وذات الاتجاهات النقدية الحديثة لم تظهر في مهرجان ابي تمام الا نادرا . وقد كنا نود لو قرانا بحثا يشير او يدرس ابا تمام من حيث معاصرته وحداثته على الرغم من انقضاء الف عام على وفاته .

وما دامت الموصل قد اصبحت مرادفة لاسم ابي تمام فيحسن ان يقام فيها متحف يعود اليه دارسو ابي تمام وعصره ويضم مكتبة تجمع نتاج الشاعر وجميع الكتبالتي صدرت عنه والدراسات التي نشرت في الصحف والمجلات .

ولقد كان المفروض ان ننشر في هذا العدد بعض الابحاث التي القيت في المهرجان ، ولكنني لم اتمكن من الحصول عليها ، فبعضها القي ارتجالا وبعضها الآخر لم يطبع ولم يوزع على الاعضاء . وحين طلبنا من المشرف الحصول على بعض مواد المهرجان او تسجيلا لها اعتذر بحجة الاحتفاظ بها للمجلات العراقية !! ..

من اجل ذلك تعذر علينا ان ننشر في هذا العدد اي بحث قدم الى المهرجان . واكتفينا بنشر قصيدتي نزار قباني والبردوني (التي نقلناها عن نشرة « المؤتمر ») كنموذجين مختلفين من الشعر الحالي . كما نشرنا بعض المقالات التي تحمل عددا من الانطباعات حول هذا المهرجان الذي كان مظاهرة رائعة للتضامن الثقافي العربي وابراز وجه العراق الذي كان ولا يزال مصدرا ثرا ومنجما لا ينضب للشعر العربي الاصيل .

عايده مطرجي ادريس

***

وقائع المهرجان

افتتح الشاعر الاستاذ شفيق الكمالي وزير الاعلام العراقي في الحادي عشر من ديسمبر مهرجان ابي تمام بمناسبة الذكرى الالفية للشاعر العربي . في قاعة الادارة المحلية في الموصل وقد حضره اعضاء الوفود العربية المشتركة وادباء العراق وشعراؤها ومثقفوها .

وقد القى السيد الكمالي كلمة نقتطف منها ما يلي :

يسرنا ان نحتفل في مدينة الموصل الخالدة ذات الماضي الحضاري العريق بذكرى الشاعر العربي الفذ حبيب بن اوس الطائي الذي انتقل بالشعر العربي الى مرحلة جديدة اكثر انسجاما وتجاوبا مع طبيعة التقدم العلمي والحضاري الذي بلغته الامة العربية يومئذ .

ان ابا تمام يمثل الشاعر العربي المجدد الذي يستوعب روح العصر دون ان يفرط بتراث الامة الثقافي وهذا ما تريده الثورة للادباء العرب وقال : ان الثقافة كما حددها الميثاق هي التي تنطلق من النظرة القومية الديمقراطية الاشتراكية المتفاعلة مع الثقافة الانسانية عامة والتقدمية خاصة ، والمنفتحة عليها وهي التي ترتبط ارتباطا حيا بالجماهير ومصالحها وقضاياها .

وقال السيد الكمالي ان الثقافة والفنون والآداب بنى فوقية لحياة امتنا العربية تتفاعل مع ما يمور ويصطرع فيها من ظواهر اجتماعية كثيرة في كل مرحلة من مراحل التاريخ .

واكد ان امتنا العربية العظيمة التي تكافح للتخلص من سيطرة الاستعمار والتجزئة والتخلف وتتحرك لاحتلال مكانها الطبيعي الذي يمكنها من الاسهام في بناء حضارة الانسانية الجديدة ، لكن كانت خطى تقدمها تحجبها مرارة الهزيمة ومآسي الغزو الصهيوني والامبريالي في فلسطين والخليج العربي وغيرها من اراضي العربية فان استمرار الكفاح وتصاعده وتعاظم الوعي القومي والتقدمي وانتشاره في كل ركن من اركان وطننا العربي وصمود الثورة في العراق وتنادي الادباء والمثقفين والمفكرين العرب للمزيد من العطاء هو التعبير الاكيد الدال على نبضات الحياة وقوتها في الامة العربية .

وقد استهل الحفل بالوقوف دقيقة واحدة حدادا على روح الشاعر والمؤرخ الموصلي الدكتور عبدالجبار الجومرد الذي عاجلته المنية في الاسبوع الماضي فيما كان يستعد للمشاركة بهذا المهرجان بجهده وفكره وادبه .

ثم القى السيد علي قاسم معاون محافظ نينوى كلمة المحافظة باسم اهالي مدينة الموصل محييا المهرجان والادباء العرب المشاركين فيه .

والقى الدكتور عبدالمنعم رشاد عميد كلية الآداب بجامعة الموصل كلمة الجامعة في الاحتفال بذكرى الشاعر وكان مما قاله .

ما اشبه الليلة بالبارحة ! فقد عبر ابو تمام الطائي عن صراع الامة مع القوى التي كانت تهدد الدولة العربية - الاسلامية فوقف مترنما بقصائده الحماسية مشيدا بانتصارات الامة ومنافحا عن حقوقها وامانيها . افلا يجدر بادبائنا ومفكرينا ان يضعوا هذا الشاعر في ذكراه الخالدة نصب اعينهم وينهجوا نهجه ويقتفوا اثره في هذه الايام المصيرية لامتنا الصابرة ؟

والقى الاديب ارشد توفيق كلمة ادباء الموصل وشعرائها ، فكان مما قاله :

ما لقاؤنا هذا في زمن الثورة الا عهد علينا ان نحيا كلماتنا ما دامت الكلمة ليست ترفا برجوازيا او نفسا في آنية ورد وانما هي شروع في ثورة بمفهومها العام ، وتعبئة لها ، وحاجة انسانية اصيلة وصورة اخرى لما يجب ان يكون ، وقد استطيع ان اقول هنا ان الشعر كضرب ادبي يمثل ذروة الواقع ، وان عنان هذا الواقع وتعميق نظرتنا اليه ، هو الكشف الاصيل الذي يرتدي قدسية الحقيقة .

نلتقي هنا وقد نتفق جميعا ان العالم لم يعد جميلا ، وان السماء ليست زرقاء وان الاغنية مطوقة ومخضبة بالدم ما دامت الكلمة ممنوعة في البلاد التي تقارع غزاتها ومحتليها .

ولاننا نكره ان نموت مرتين علينا ان نرفع كلمتنا ، صرخة او شهادة او احتجاجا او رفضا ، ان نقول اي شيء لا يلغي دورنا التاريخي في مسيرة الثورة العربية والعالمية .

لتخرج كلمتنا الى الشمس لتكن لافتة في الشارع ، خطوطا على الجدران ، مناشير في شوارع المدينة ، نشيدا في خطوط النار ، الخامدة .

ولنرفض معا ممارسة الطقوس الورقية ، ولنرفض ايضا ذلك الصمت الذهبي المسالم .

ولا بد هنا ان نشير الى دعوة رجل يؤمن بالكلمة هو الرفيق قائد ثورتنا احمد حسن البكر حين دعا الادباء والمثقفين ، الى ممارسة دورهم النضالي في اقسى مرحلة تمر بها الامة العربية لاسقاط الفكر البرجوازي . ان كل الازمان التي مر بها شعبنا المقاوم كان لنا جزء من المسؤولية فيها ، وجزء كبير .

ان فقر الوعي الثوري ، وبؤس الثقافة والانفصام التام عن الواقع نراه الان في هزيمة الامة في حزيران ، وهي الهزيمة الروحية قبل ان تكون هزيمة عسكرية ، ونراها في الواقع الذي سبب احتلال الجزر العربية في خليجنا الصميم ، وفي كل الثغرات في ارجاء وطننا العربي الواحد .

من اجل كلمة يموت الثائر ومن اجل كلمة يحيا الثائر ، وعلى حد سيف ابي تمام تقف الامة العربية اليوم . ان تبعث بكل شموخها او تموت ، ان تغتسل بالدم لتصون شرفها او تسقط .

وعلى حد سيف ابي تمام نقف نحن اليوم ، فماذا تقولون للمستسلمين للباعة في سوق السياسة ، للمخمدين خطوط النار ، لكل المتخاذلين. في الموصل ايضا للكلمة ارض واشجار . وسنلتقي بكم من هذا

المهرجان ، بكل الحب الذي نملكه ،ومن اجل كلمة تقاتل ، وفكر يقاوم لكم وللمهرجان كل خير والسلام عليكم .

والقى الدكتور محمد نجيب البهبيتي كلمة مرتجلة قيمة وتبعته السيدة سلمى الحفار الكزبري بكلمة عن ابي تمام المؤرخ العظيم والشاعر الحكيم .

وفي اليوم الرابع من المهرجان القى الدكتور عبدالكريم اليافي من جامعة دمشق محاضرة عن « ديالكتيك الشعر عند ابي تمام » وقد ناقشها الكاتب اللبناني محمد عيتاني ، ثم اعقبه الدكتور علي الزبيدي من جامعة بغداد بمحاضرة عن ديوان ابي تمام ناقشها السيدان مالك المطلبي وعبدالباري النجم . والقت الاستاذة مناهل فليح محاضرة عن بلاغة ابي تمام .

هذا وقد اقيمت في اليوم الثاني من المهرجان امسية شعرية اشترك فيها ادريس الجاي (المغرب) وجورج رجي (لبنان) وحافظ جميل (العراق) وعبدالله البردوني (اليمن ، ويجد القارىء قصيدته في مكان آخر من هذا العدد) ونزار قباني (ويجد القارىء قصيدتيه في هذا العدد) واحمد عبدالمعطي حجازي (وفي كلمة الاستاذ سامي خشبة مقتطفات من قصيدته) ومحمود حسن اسماعيل (من جمهورية مصر العربية) ومحمود الحوت (من فلسطين) .

واقيمت في اليوم الثالث من المهرجان امسية شعرية اقتصرت على شعراء الموصل ، وهم السادة ارشد توفيق ،سالم الخباز ، معد الجبوري ، عبدالوهاب شاهين ، ذنون الشهاب ، وعدالله ابراهيم، محسن عقراوي ، امجد محمد سعيد ، عبدالوهاب اسماعيل .

وفي اليوم الرابع شارك في الامسية الشعرية جميل حيدر ،خالد البرادعي ، خليل خوري ، راضي مهدي السعيد ، عبدالامير الورد ، مالك المطلبي ، المحمدان العنسي ، محمد عفيفي مطر ، هاشم حمودي الطائي .

وقد اختتم الاحتفال السيد خالص عزمي عضو الهيئة الادارية العليا لمهرجان ابي تمام .

الادباء المشاركون

هذا وقد اشترك في المهرجان الادباء السادة :

جمهورية مصر العربية ـ الدكتور حسين نصار ، الدكتور عبد المحسن طه بدر ، الدكتور احمد مرسي ، محمود حسن اسماعيل ،احمد مرسي (الفنان) ، صبري حافظ ، سامي خشبة ، محمد عفيفي مطر، احمد عبدالمعطي حجازي ، رجاء النقاش ، عزالدين اسماعيل .

اليمن ـ عبدالله البردوني ـ محمدان العنسي .

لبنان ـ عائدة مطرجي أدريس ، جبرائيل جبور ، محمود الحوت، ابراهيم الخوري ، الاب سمعان نصر ، جورج رجي ، مهيبة المالكي ، محمد عيتاني ، نجيب صالح .

سوريا ـ عبدالكريم اليافي ، سلمى الحفارالكزبري ، نزارقباني، احمد الجندي ، نادر الكزبري .

السودان ـ محمد الفيتوري

كما شارك في المهرجان عدد كبير من الادباء العراقيين المقيمين في العراق او خارجه .

قصيدة اعتذار لأبي تمام

(١)

أحبائي

اذا جئنا لنحضر حفلة للزار.. منها يضجر الضجر
اذا كانت طبول الشعر يا ساده
تفرّقنا .. وتجمعنا
وتعطينا حبوب النوم في فمنا
وتسطلنا ..
وتكسرنا ..
كما الاوراق في تشرين تنكسر
فاني سوف اعتذرْ ..

(٢)

احبائي ..
اذا كنا سنرقص دون سيقان .. كعادتنا
ونخطب دون اسنان .. كعادتنا
ونؤمن دون ايمان .. كعادتنا
ونشنق كل من جاؤوا الى القاعه
على حبل طويل من بلاغتنا
سأجمع كل اوراقي .. واعتذرُ ..

(٣)

اذا كنا سنبقى ايها الساده
ليوم الدين .. مختلفين حول كتابة الهمزه
وحول قصيدة نسبت الى عمرو بن كلثوم
اذا كنا ، سنقرأ مرة اخرى ، قصائدنا التي كنا قرأناها ..
ونمضغ مرة اخرى ..
حروف النصب والجر ، التي كنا مضغناها ..
اذا كنا سنكذب مرة اخرى ..
ونخدع مرة اخرى الجماهير التي كنا خدعناها ..
ونرعد مرة اخرى .. ولا مطرُ
سأجمع كل أوراقي .. واعتذرُ ..

(٤)

اذا كنا تلاقينا ..
لكي نتبادل الانخاب .. او نسكرْ
ونستلقي على تخت من الريحان والعنبر
اذا كنا نظن الشعر راقصة .. مع الافراح تستأجر
وفي الميلاد والتأبين تستأجر
ونتلوه كما نتلو ، كلام الزير او عنتر
اذا كانت هموم الشعر يا ساده ..
هي الترفيه عن معشوقة القيصر ..
ورشوة كل من في القصر من حرس ومن عسكر
اذا كنا سنسرق خطبة الحجاج ، والحجاج ، والمنبر
ونذبح بعضنا بعضا ..
لنعرف من بنا أشعر ..
فاكبر شاعر فينا .. هو الخنجر ...

(٥)

أبا تمّام . أين تكون ؟ أين حديثك العطر
وأين يد مفامرة تسافر في مجاهيل وتبتكر ؟
أبا تمّام . أرملة قصائدنا ..
وارملة كتابتنا
وارملة هي الالفاظ والصور
فلا ماء يسيل على دفاترنا
ولا ريح تهب على مراكبنا
ولا شمس ولا قمر .
أبا تمّام . دار الشعر دورته
وثار اللفظ ، والقاموس ، ثار البدو والحضر ..
وملّ ألبحر زرقته ..
وملّ جذوعه الشجر
ونحن هنا ، كأهل الكهف ، لا علم ولا خبر
فلا ثوارنا ثاروا ..
ولا شعراؤنا شعروا ..
أبا تمّام . لا تقرأ قصائدنا ..
فكل قصورنا ورق
وكل دموعنا حجر ..

(٦)

أبا تمّام ..
ان الشعر في اعماقه سفر
وابحار الى الآتي .. وكشف ليس ينتظر
ولكنا جعلنا منه شيئا يشبه الزفّه
وايقاعا نحاسيا .. يدق كأنه القدر ..
امير الحرف .. سامحنا
فقد خنّا جميعا مهنة الحرف ..
وارهقناه بالتشطير ، والتربيع ، والتخميس ، والوصف ..
أبا تمام .. ان النار تأكلنا ..
وما زلنا نجادل بعضنا بعضا ..
عن المصروف ، والممنوع من صرف
وجيش الغاصب المحتل ، ممنوع من الصرف ..
وما زلنا .. نطقطق عظم ارجلنا
ونقعد في بيوت الله ننتظر
بأن يأتي الامام علي . او يأتي لنا عمر
ولن يأتوا ..
ولن يأتوا ..
فلا أحد بسيف سواه ينتصر ..
لذلك ايها الساده ..
سأجمع كل اوراقي واعتذر ..

(٧)

أبا تمّام ..
ان الناس بالكلمات قد كفروا
وبالشعراء قد كفروا ..
وبالصلوات ، والدعوات ، والاموات ، والموت
وبالحرب التي تأتي .. ولا تأتي ..
فقل لي أيها الشاعر :
لماذا شعرنا العربي قد يبست مفاصله
من التكرار ، واصفرت سنابله
وقل لي أيها الشاعر :
لماذا الشعر حين يشيخ .. لا يستلّ سكينا ..
وينتحر ؟

الموصل نزار قباني

رسالة القاهرة .. من بغداد والموصل

بقلم سامح خشبة

في عام واحد زرت بغداد وزرت دمشق . حلم اللقاء بالمدن البعيدة التي اكتشف جيلنا انتماءه وذاته حينما اكتشف حقيقة جذوره فيها وجذورها فيه .. يتحقق . لم يكن اكتشافنا في قاهرة ١٩٥٦ انفعالا ، ولم يكن مجرد هزة عاطفية . لم يكن استعارة شعرية ، ولم يكن تلبية لنداء خطابي ، او ترديدا لاهازيج المظاهرات .. رغم ان طريق جيلنا الى هذا الاكتشاف في قاهرة ذروة الحركة الوطنية ذلك العام ، كان لا بد ان يمر بخطوات الاستعارات الشعرية ، والنداءات الخطابية وترديد الاهازيج .

في السادسة من مساء التاسع والعشرين من اكتوبر عام ١٩٥٦ ، كنا في القاعة رقم «٤٣» المخصصة لدراسات قسم الصحافة في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، نتلقى محاضرة الادب الانكليزي . كان عبد الناصر قد أمم القناة في يوليو ، وكنا قد نجحنا في امتحان اتمام الدراسة الثانوية . واستقبلنا عبدالناصر العائد من الاسكندرية بعد تاميم القناة ، وكنا في ميدان محطة مصر اكثر من مليوني شاب ، كلهم في سن حمل السلاح والتطلع الى التجديد والحرية ... نمسك بعيوننا حلم الحرية وهو يتحقق رغم مخاوف الآباء . وفي تلك الساعة من مساء ذلك اليوم دوت صفارة الانذار . وفزعت فتاة ، واسقطت المسند الخشبي الذي تضع عليه كتبها في المدرج ، وبدا العدوان الثلاثي على مصر . واكتشف جيلنا في مدى ثلاثة ايام عمق انتمائه العربي . أضرب عمال البترول هنا في الموصل ، حيث اكتب الآن في الواحدة والنصف من صباح الثاني عشر من ديسمبر عام ١٩٧١ . وفجر عمال درعا واللاذقية خطوط البترول . وصرخ طلبة بيروت طالبين السلاح لمساندة مصر . وكانت دمشق قد كونت حكومة جديدة وطنية وقومية لتساند مصر في المعركة المقبلة . وقذف نوري السعيد بعدة مئات من عمال بغداد وطلبتها في السجون واعلن الاحكام العرفية ، وسمح للطائرات البريطانية بضرب مصر من قواعده ، ولم يكن يعرف انه يعجل بهذا العمل من نهايته على يد شعب العراق العربي . وشدد ثوار الجزائر هجماتهم على الجيش الفرنسي ليستنزفوا اكبر قدر من طاقته فلا توجه منها فرنسا المزيد الى مصر . وفي معسكر « استاد الجامعة » في الجيزة كنا نتهيأ — نحن متطوعي الحرس الوطني الجامعي — للسفر الى المواقع المعينة لنا ، حينما شدت أسماعنا الى اهازيج لم نكن قد سمعناها من قبل :

حنا الربعة العربية ، ع الناعم والناعمتين

* * *

عبد الناصر يا جمال هات سلاح وخود رجال

* * *

جينا يا مصر جيناكي ... جيناكي نناضل وياكي
ونحقق وحدتنا معاكي ...

* * *

ووجدنا انفسنا ننجذب الى المجموعة من متطوعي العراق وسوريا والاردن ولبنان وفلسطين ، من طلبة جامعة القاهرة ، الذين كانوا ينتظرون دورهم في تسلم السلاح بترديد اهازيجهم . ما زلت اذكر بعضهم : مسلم وابو ميزر وبشار وزهير وغسان ونزار وممدوح ومحمد خير ... والعجيب انه كانت معهم بنات .. فاطمة وسعاد وليلى ومها ... شعرنا بالخجل حين اكتشفنا الفتيات . زال خجلنا حين شعرنا بجدية غنائهن . تحمسنا بعض الشيء فشاركنا بالتصفيق. بعد دقائق كنا نغني . وكان احدهم قد خرج بأول بندقية « بشحمها » وشرع يرقص بها قبل ان نبدأ معا في تنظيف السلاح . وفي السيارة بدأ النقاش .. في التاريخ !

منذ ذلك الحين ، لم نتوقف عن المسيرة التي خلقت لكل منا مصيره الفردي ، ومنحتنا جميعا روح الجيل الذي نحمل شهادة ميلاده وبصمته على الحياة .

* * *

لم تكن مهمتنا هي المناقشة وحدها . كان عملنا الاساسي هو ان نصنع بعضنا البعض ، وان يصوغ كل منا روح الآخرين الذين يصوغون روحه وعقله في نفس الوقت . هذا الجيل لم يصنع مرة واحدة ، ولم يتخلق في دفعة واحدة دون استمرار . ذلك لانه كان قد قدر له ان يشهد اكثر من انتصار وان يتذوق اكثر من هزيمة ، وهو مع ذلك لم يكمل مسيرته بعد ولم يصل الى سمتها .

من القاهرة جاء معي شاعر وفنان تشكيلي وناقد من نفس الجيل : محمد عفيفي مطر واحمد مرسي وصبري حافظ . وفي الطريق الى الموصل التقينا برجاء النقاش واحمد عبد المعطي حجازي . وكان عبد الوهاب البياتي قد سبقنا من القاهرة الى بغداد . كعادته وفي مكانه . يتقدم الجيل كله قليلا ثم ينتظره لكي يعود فيسبقه . فكأنه يشق بمفرده طريقا يصعب ان تشقه الجماعة متكاملة : من بغداد هو ولكنه ليس من العراق وحده . عاش بجسده في مصر وفي لبنان . تجول في المغرب والجزائر واقام في سوريا . هبط جنوب الجزيرة .. وها هو يعود لكي يصعد الى شمال العراق آتيا من القاهرة عن طريق بغداد .

* * *

حينما صافحت رجاء وحجازي في محطة الموصل كان لا بد ان استرجع تلك السنوات التي كتب فيها رجاء « أدب وعروبة وحرية » ، وان استعيد كل تلك اللحظة التي رأيت فيها احمد حجازي للمرة الاولى يلقي قصيدة عن سوريا ، يطوح برأسه ويشمخ كفارس : « يا ارض سورية .. يا حلم عينية .. » . كان لا بد وانا ارى هذا الجزء الحميم من قاهرة الانتماء العربي ، وكشف الذات القومية في مسيرة المعركة الوطنية الطويلة عبر مساحاتها في الوطن العربي كله ، كان لا بد وان أسترجع كل تلك السنوات بلحظاتها . نمونا في هذه الكتابات والقصائد نموا منح مصر حقها في جذورها مثلما منحها نمو الجيل الاول في القرن الماضي حقها في التجدد والعثور على مسيرتها الوطنية الخاصة . كان لا بد لهذا الجيل ان يدافع عن روح التجدد التي تخلى عنها روادها ، وان يدافع في نفس الوقت عن الجذور المكتشفة ، وان يؤكد حقه في التفكير والاعتقاد والفعل ، مدافعا بهذا عن معنى وجوده كجيل يواكب ويصنع المجرى الجديد لوجود مصر والقاهرة في المستقبل ، وهو يقوم بنفس اللحظة بازالة ركام الاكاذيب والزيف عن المجرى الحقيقي القديم . في السياسة ، وفي الايديولوجية ، في الفكر النقدي وفي النقد التطبيقي ، في

النظرة التاريخية وفي التقييم الجمالي ، في العمل اليومي وفي العمل العقلي الذي يحاول ان يتخلص من قيود الزمن ، في كل ساحة من ساحات وجوده كان على هذا الجيل ان يخترق حصار التجهيل والجذب الى الوراء والرؤى المشتتة والارهاب والدجل . كان من الطبيعي ان يبدأ من الاهازيج والرؤى الشعرية . وكان من الطبيعي ان يحدث ذلك في خضم السنوات التي تلت يوليو ١٩٥٢ ، وكان من الطبيعي ان يقف في اعوام ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ساعيا نحو « التكوين العقلي » الجديد ، مطالبا نفسه ومطالبا الواقع بالوضوح في الفكر والموقف ، بالالتزام في السياسة والعمل النضالي : مكتشفا ان تجدد الشعر مرتبط بتجدد الواقع كله وباعادة اكتشاف هويته . بان كسر قيود التخلفالذهني او تجمد القيم الفنية والجمالية انما يعني النضال ضد الرجعية السياسية والفكرية ، وضد الشوفينية والتعصب الاقليمي في وقت واحد ، وضد الاستغلال الاجنبي او المحلي وضد القهر واذلال الانسان ، مناضلا في نفس الوقت ضد مفاهيم او تصورات جغرافية او « بولى جغرافية » عن الشرق الاوسط ، او حضارة حوض البحر الابيض ، او « الحضارة » الاسيوية الافريقية .. الخ ، دون ان يتحول الى رؤية شوفينية مضادة تلغى الارتباط التاريخي والانساني بين الحضارة العربية وبين ما تبادل معها التاثير والتفاعل من حضاراتاو ثقافات ، مناضلا ايضا ضد مفهوم « الاحتراف » في العمل السياسي او الفكري او الفني ، الذي يؤدي الى وضع « المحترف » نفسه في خدمة المفاجآت او المواقف التكتيكية المؤقتة ، ويريد في نفس الوقت ان يحتل مقعد المخطط الاستراتيجي او المتحدث الاوحد بلسان هذا المخطط الوهمي .

كان على هذا الجيل ان يصنع كل هذا ، وما زال عليه ان يصنعه ، وكان عليه وما زال ان يصنع نفسه في آن واحد . وكان عليّ ان اتذكر الآلاف من اللحظات والكلمات والمواقف . وفي اول مرة انفردت فيها بحجازي سألته عن القصيدة التي سيلقيها في مهرجان ابي تمام في الموصل .

* * *

كان عنوانها : مرثية العمر الجميل .

ولكن القصيدة لم تكن ترثي عمرا جميلا فقط ، بقدر ما كانت تبشر بعمر آخر اكثر جمالا لانه اكثر وعيا وأثرى بالمعرفة واقل استعدادا للانخداع ..

هذه آخر الارض ، لم يبق الا الفراق
سأسوي هنالك قبرا
واجعل شاهده مزقة من لوائك
ثم اقول سلاما !
زمن الغزوات مضى ، والرفاق ،
ذهبوا ورجعنا يتامى .
هل سوى زهرتين أضمهما فوق قبرك
ثم امزق عن قدميّ الوثاق .
انني قد تبعتك من اول الحلم ،
من اول اليأس حتى نهايته
ووفيت الذماما
ورحلت وراءك من مستحيل ، الى مستحيل .

هكذا تبدأ قصيدة الشاعر الذي كان احد من حملوا القاهرة الى الموصل ، وحملوا معهم ملامح الجيل الذي اعطى القاهرة ملامحها، وكشف لها عن جذورها ، وحاول ان يشارك في صنع مستقبلها ... طوال عشرين عاما ... وها هو الشاعر يعلن ان حلمه ما زال كما هو .

انني أحلم الآن ، بيتي كان بغرناطة
بعت قيثارتي ، واشتريت طعاما
ورحلت الى بلد لست ادري اسمها
جعت فيها
وانضممت لطائفة الفقراء بها ،
واتخذت اماما ...

ولكنه يعرف ان هذا الحلم الذي لم يتحقق ، او لم يكتمل تحققه في عشرين عاما ، وعادت المسيرة الى حيث بدأت او تكاد ، يعرف ان هذا الحلم ما زال حلما جديرا بأن يعيشه الشاعر من جديد. يلقي سلامه على التجسيد الخائب للحلم . يفارقه . ليواصل السير :

فوداعا هنا يا اميري
آن لي ان اعود لقيثارتي
وأواصل ملحمتي وعبوري
تلك غرناطة تختفي
ويلف الضباب مآذنها
وتغطي المياه سفائنها
وتعود الى قبرك الملكي بها
واعود الى قدري ومصيري
من ترى يعرف الآن في اي ارض اموت
وفي اي ارض يكون نشوري
انني ضائع في البحار
ضائع بين تاريخي المستحيل وتاريخي المستعاد
حامل في دمي نكبتي
حامل خطاي وسقوطي
علني الآن اذكر صوتي القديم ...

انه لا يعي فقط بالحذر من المدعين الذين ضللوا المسيرة وساروا بغرناطة الى هزيمة جديدة بدلا من النصر الموعود . وانما يعي خطأه هو ، خطأ جيله الذي يتحدث باسمه : سقوطه في احابيل النشوة ذات البريق الذي يعد بتحقق الحلم دون جدارة او قوة على تحقيقه :

من ترى يحمل الآن آثام هذا الرجوع الثقيل
المغني الذي طاف يبحث للحلم عن جسد يرتديه
ام هو المدعي ان حلم المغني تجسد فيه
هل خدعت بملكك حتى حسبتك صاحبي المنتظر
أم خدعت باغنيتي
وانتظرت الذي وعدتك به ، ثم لم تنتصر
ام خدعنا معا سراب الزمان الجميل ؟

* * *

الآن تكتمل دورة في مسيرة هذا الجيل بكل ما طرا عليها من طرق جانبية . الحلم كان واحدا . وكان مدعي التجسيد واحدا وكان المغني واحدا كذلك . ولكن تفرقت السبل ، وها هي تعود الى نقطة الملتقى دون ان يرجع احد منا بغير بعض المعرفة وبعض الوعي والكثير من الاحزان ، واليقين في ضرورة استمرار المسيرة .

* * *

جزء هنا من القاهرة ، وجزء من دمشق ، وجزء من بيروت او من عدن ، وجزء من بغداد او المغرب ، وثمة اجزاء اخرى من كل مدينة في دمشق ، في نفس الايام . المهرجان في الموصل والمؤتمر في دمشق ، دون امكانية للقاء . وبعض درس « الرجوع الثقيل » يقول ، بل ان الدرس كله يقول ان بعض اسباب نكباتنا كان هو هذا الانقسام. العراق يشتعل حماسا بسبب الخليج . ونحن نفكر في سيناء . ودمشق تبحث عن منفذ الى الجولان . وشعب فلسطين ضاعت منه فلسطين كلها . وجنوب لبنان يهدده طوفان الصهيونية تهديدا فعليا . ونحن نذبح بعضنا بعضا بالنصال او الرصاص او الكلمات . لا يكسب من « المذابح » الا من يبيعون جلودنا ، والا من يشترونها منهم !

الموصل — **سامي خشبة**

مهرجانات أبي تمام.. المظاهرة والمؤتمر

بقلم أحمد عبد المعطي حجازي

هناك زاويتان في النظر الى المؤتمرات والمهرجانات الادبية التي تعقد بكثرة في هذه الايام للحكم عليها بالنجاح او بالفشل .

الزاوية الاولى هي النظر الى هـذه المؤتمرات والمهرجانات باعتبارها اسواقا ادبية وثقافية يتعارف فيها الادباء والشعراء والعلماء العرب على اختلاف اقطارهم ، كما يتعرفون على نواحي الحياة في البلد الذي يذهبون اليه ويطلعون على مجالات نشاطه وتقدمه عامة وعلى نشاطه الثقافي بوجه خاص ويقدمون خبرتهم للقائمين عليه لاكتشاف آفاته المختلفة وتدعيم ايجابياته ومعالجة سلبياته . ثم ان اجتماع المثقفين العرب على تدارس تاريخهم وتراثهم والاحتفاء بأعلامهم ومناقشة مشاكلهم هو في الحقيقة تعبير عن عمق الوحدة القومية وتأصلها في الوجدان العربي كما تدل على ذلك وحدة الثقافة العربية واتصالها عبر العصور ، وبالتالي فان اجتماع هؤلاء المثقفين في هذه المناسبات الجامعة هو تجاوز لواقع التجزئة الراهن ، واحتجاج عليه واثبات لزيفه .

ومن هذه الزاوية نستطيع ان نقول ان مهرجان ابى تمام الذي عقد في الشهر الماضي بالموصل قد نجح نجاحا كبيراً .

لقد اجتمع في هذه المناسبة بالموصل وبغداد عدد كبير من الادباء والنقاد والشعراء والباحثين العرب من اقطار عديدة ، فكان منهم المغاربة والمصريون والفلسطينيون والسوريون واللبنانيون واليمنيون الى جانب العراقيين . تبادلوا مؤلفاتهم وتناقشوا حول مسائل الادب القديم والادب المعاصر واستمع منهم الناشىء للمجرب ،كما تعرف المجرب على الناشىء ، فخرج كل من عزلته ووضع نفسه وتجربته في سياقها العام من حركة الفكر والثقافة العربية

ولقد تعرفت انا مثلا على رجل كنت اتمنى دائما ان اتعرف عليه فلم استطع الا في مهرجان ابي تمام ذلك هو الدكتور نجيب البهبيتي الذي كان اول من عرّف هذا الجيل الجديد من المثقفين العرب بأبي تمام تعريفا صحيحا وقدمه اليهم على الطريقة الجديدة التي تمكنهم من تقديره حق قدره . وكان الدكتور البهبيتي قد ترك جامعة القاهرة منذ اكثر من خمسة عشر عاما واصبح استاذاً في جامعة بغداد ، ثم اختير بعدها استاذا في جامعة الرباط فلم يتح لطلابه في الجامعة او لقرائه ان يتابعوه بعد ان سافر . ولقد وجدتني بعد ان تعرفت عليه واستمعت اليه اراجع بعض فكرتي عن تاريخ ظهور الفكرة القومية في مصر، فقد رأيت الرجل من أوائل الداعين اليها والدافعين عنها في دراساته وفي مواقفه .

واذا كان الدكتور البهبيتي ولعله الان في نهاية الحلقة السادسة من عمره ومعه الدكتور عبده عزام استاذ الادب العباسي في جامعة القاهرة ، ثم في جامعة لندن، واخيرا في الجامعة الاردنية ومعهما عدد من زملائهما العراقيين يمثلون الجيل السابق الذي بدا القاء الاضواء على شعر أبى تمام ، فان المهرجان قد ازدحم بممثلي الاجيال الجديدة . من الادباء والشعراء الدارسين الذين قدموا باجتماعهم صورة رائعة لحركة الثقافة العربية الحديثة ونضالها العظيم من اجل كسب الماضي والمستقبل معـا .

ولقد كانت هذه الغاية ــ غاية استحضار الثقافة العربية وتمثل حركة العرب في التاريخ ــ وراء اجتماع هذه الاجيال من المحدثين والمعاصرين كما كانت أيضا وراء البرنامج الذي وضع لزيارتنا في الموصل . لقد كان ابوتمام هو بداية الرحلة . لكن الرحلة استمرت بعد ذلك صعودا وهبوطا لاكتشاف الدائرة الحضارية التي كان ابو تمام نقطة فيها وذلك في زيارتنا للمتاحف والمناطق الاثرية التي تحيط بالموصل وتكشف عن حضارة أكثر من الفي عام قبل ابى تمام واكثر من الف بعده . لقد زرنا آثار الاشوريين في نينوى وخورسباد ونمرود كما زرنا الحضر ثم استطعنا في عودتنا الى بغداد ان نمضي جنوبا فنزور

النجف وكربلاء متتبعين كيف تشكلت ثمرة الصنوبر في صور عديدة ما بين آثار الاشوريين والبابليين حتى استقرت في تلك الشبابيك الفضية التي تحيط بأضرحة الشهداء العلويين .

لقد كان أبو تمام يتحول في هذه الرحلة من ديوان يحقق ويدرس ويقرأ ويحفظ الى وحدة نشاط تكررها بصيغ مختلفة . فيما ابدعه الشعب العربي من حضارات وآثار . كان ينتقل من رفوف المكتبة الى صميم شعورنا بوجودنا في التاريخ .

ثم كان ابو تمام سببا الى ما قام بيننا وبين الفنانين العراقيين غير المشتغلين بالكلمة من مصورين ونحاتين ومعماريين وموسيقيين ، بل لقد كان اكثر من ذلك سببا الى ما علمنا من صور التقدم في ميادين العمل الاجتماعي المختلفة في العراق ، فامتدت الصورة بذلك عمقا كما امتدت طولا وعرضا .

وانا لا أزعم أن كل ما رأينا ، خال من العيوب أو الاخطاء ، بل استطيع ان اقول ان هناك اخطاء اساسية فيما رأينا وعلمنا لعل اخطرها تلك الاتجاهات التي تبالغ في تصور الدلالات السياسية المباشرة للاعمال الثقافية والفنية والآثار العملية المترتبة على نشرها وتداولها . ومن واجبي هنا ان اقول ان منع كتب الشاعر أدونيس من دخول العراق ليس له ما يبرره في نظري بالرغم من اختلافي الشديد مع أدونيس حول عدة مسائل ولقد وجدت هذا الموقف بعيدا عن سياسة وزارة الاعلام العراقية في الترحيب بكافة التيارات الادبية والفنية الجادة وتمكينها من التعبير عن نفسها ، وهذا ما يشجعني على ان اناشد صديقي الاستاذ الشاعر شفيق الكمالي وزير الاعلام الذي اعرف عنه سعة أفقه اعادة دراسة موقف الوزارة من كتب أدونيس . هذا مع علمي بان بعض الاتجاهات المعادية للتقدم العربي تريد أن تجعل من مثل هذه المسألة طريقا الى هدم جهود وزارة الاعلام العراقية في تنشيط حركة الثقافة العربية ليس ايمانا بحرية الرأي ولكن محاولة للهدم والاساءة ، فمن واجبنا الا نترك في يدها هذا السلاح .

واخيرا فقد كان المهرجان مظاهرة قوية ضرورية في هذه الايام التي يكاد فيها الشعب العربي يصاب باليأس من اتفاق القادة العرب ، والتي نشطت فيها التيارات الانفصالية والاقليمية نشاطا كبيرا في محاولة سخيفة للقضاء التام على أمل الطليعة العربية في الوحدة وقطع الطريق على العمل الوحدوي . واستطيع ان أقول بصراحة تامة ان هذه التيارات موجودة في كافة الاقطار العربية دون استثناء بما فيها الاقطار التي ترفع فيها النظم السياسية القائمة شعارات الوحدة ، وقد وجدت هذه التيارات الانفصالية ان هزيمة يونيو (حزيران) مناسبة صالحة لتقوية مراكزها مدعية في كل قطر انه لا يمكن الاعتماد على الاقطار الاخرى وأن عليها وحدها ان تحقق كل شيء بما في ذلك شعار الوحدة الذي يكاد في اطار هذه السياسة الخبيثة ان يخدم الانفصاليين .

ولا شك ان مثل هذه التيارات والدعاوى تجد في جو العزلة الذي تفرضه بعض الاقطار على نفسها وعلى غيرها ايضا جوا مناسبا لبث سمومها وتقوية مراكزها .
ومن هنا تأتي أهمية هذه اللقاءات الثقافية وضرورتها .

ان المثقفين العرب باجتماعهم يقفزون على واقع التجزئة فكرا وعملا ويثبتون لامتهم وللشعب العربي كله هزال الدعوة الى الانكفاء والاكتفاء والذلة وتكريس الاقليمية ويغذون امل الوحدة وفكرة العودة الى احضان الامة .

ولقد حقق مهرجان أبي تمام شيئا كثيرا كسوق ادبي ومظاهرة قومية . فهو من هذه الزاوية قد نجح . بل لقد بالغ نوعا ما في محاولة ضمان هذا النجاح بعدم التدقيق في دعوة بعض الاشخاص الذين حضروه .

أما الزاوية الاخرى التي يقاس بها نجاح تلك المؤتمرات أو فشلها فهي النظر الى المطالب العلمية التي تحققها أو تقصر عن تحقيقها .

وما هي المطالب العلمية التي نتصور أن على المهرجان تحقيقها ؟

مطلبان في نظري : الاول هو القاء مزيد من الاضواء على أبي تمام شاعراً وانسانا . والآخر تحقيق نوع من العلاقة بين أبي تمام وبيننا نحن الذين نعيش في هذا العصر ومعرفة ماذا يمكن ان نستفيده من أبي تمام .

ولا شك ان تحقيق هذين المطلبين يحتاج الى شرط اساسي هو حسن الاعداد للمهرجان بما يضمن دعوة النخبة المتخصصة في أبي تمام وتوزيع موضوعات البحث عليهم كل بما هو مؤهل له وأن يبدأ ذلك من وقت يسمح بانجاز هذه البحوث والدراسات .

ولا شك أن من الذين حضروا المهرجان عددا من كبار المتخصصين في أبي تمام وفي الشعراء العباسيين عامة وعلى رأسهم الدكتور نجيب البهبيتي ، والدكتور عبده عزام وبعض الاساتذة والدارسين من جامعة الموصل وبغداد ودمشق .

لكن من المؤسف حقا الا يكلف هؤلاء الدارسون بعمل محدد مما بدا معه ان دعوتهم كانت للاحتفاء بهم وتكريمهم على اعمالهم السابقة اكثر مما كانت للانتفاع بهم في انشاء اعمال جديدة عن أبي تمام .

ولا شك ان بعض البحوث الهامة قد القيت وخاصة البحث الذي قدمه الدكتور اليافي الاستاذ بجامعة دمشق عن الجدلية من شعر أبي تمام ، كما القيت بحوث وكلمات اخرى حول فنون البديع والموضوعات الرئيسية في شعره لكن هذه كانت مقالات ابتدائية وسريعة ينقصها العمق والاحاطة او ينقصها المنهج .

عام جديد

هذي الليلة ، ليست مثل الليلات ..
قالوا : لا بدّ وان نختزل الحفلات
في اروع اروع ما تعرفه اللحظات ..
والعام الراحل يتوارى ..
في بحر الذكرى
يتبعه سيل من آهات .. حرّى بالهمسات ..
الليلة عيد .. للانسان ..
والاضواء تشع كعين الطفل الفرحان
لكن الاطفال نيام هذي الليلة ..
ليس العيد لهم هذي الليلة ..
وتدق الساعة لحظات الايذان ..
بوداع الاحزان ...
لكن الحزن يحاصرني ..
يعتصر النفس .. ويسحقني ..
لم تعد الساعة وهي تدق ..
تنسج في القلب ، وفي العينين ..
ما كانت تنسجه الساعة قبل سنين ..
يا ايام الحب الصافي كالزنبق ..
كنا نصنع شعرا
نلهث شعرا ..
نركض خلف الكلمة
نزرعها ، نقطفها غيمه
نهديها قربانا للنسمه ..
لكن الايام تمر .. تمر ..
والسكين .. الشفرة صارت فوق العنق ..
والساعة مازالت في القلب .. تدق .. تدق ..
تطرق بابي ..
تشحذ شريان الاعصاب ..
وهناك على مرمى خطوات
ما زالت في الاقبية المزروعة آهات ..
أعين شبان نسيت حتى الامس
نسيت شبح حزيران الفاقع
نامت في احضان الامر الواقع ..
اصبحنا من وخز السكين .
نستنشق تخدير العار ..
ندمن احلام النسيان
ونحسّ الايام ، كما كانت : ليل .. ونهار ..
وتراب وطننا .. منهوب .. مذبوح حتى الشريان !

فارس قويدر

وقد القى الدكتور البهبيتي كلمة في افتتاح المهرجان دعى الى القائها في وقتها دون اتفاق سابق ، فدلت على علمه الواسع بالموضوع وتضمنت عدة أفكار لامعة ، لكنها لم تكن دراسة يمكن الاستفادة منها في غير افتتاح المهرجان.

ولقد كنت آمل ان يكون اهم بحث في المهرجان هو الحدود الحقيقية لتجديد ابي تمام في الشعر العربي . وهو الشاعر الذي اعتقد أنه اول من ادرك الفروق الاساسية بين لغة الشعر ولغة النثر . اقصد انه الوحيد الذي كان يعي هذه الفروق وعيا نظريا جعله مذهبا أصاب في تحقيقه واخطأ ، لكن لم يتخل عنه ابدا بل أصر عليه ودافع عنه سابقا في ذلك شعراء عصره ونقاده .

ان أهم ما قدمه أبو تمام للشعر العربي في نظري هو أنه عكس ما كان يفعل السابقون ، فقد كانوا يعبرون عن الصورة الشعرية بلغة فيها كثير من منطق النثر وادواته . فجاء هو ليستخدم المنطق في عرض الفكرة ويجرد اللغة منه كما يبدو في استعاراته وتشبيهاته المشهورة التي اسقط عنها كل ادوات التشبيه فوجه بذلك ضربة اساسية للجماليات الكلاسيكية مما جعل النقاد في عصره يتهمونه بالاصالة وكسر العمود .

ولقد كان هذا الموضوع بداية صالحة لكي يناقش المهرجان بعد ذلك قضية التجديد في الشعر العربي المعاصر من احدى زواياها .

لكن هذا لم يتم للاسف .

ويبقى بعد ذلك ما القي في المهرجان من شعر كان معظمه ضعيفا ، وكان القليل جيدا ، وربما كان السبب هو وقوع مهرجان ابي تمام في الموصل ومهرجان دمشق في ذات الوقت مما وزع الشعراء هنا وهناك فضعف المستوى .

ولقد كنت اتوقع مثلا اصدار طبعة شعبية من ديوان ابي تمام وطرحها في الاسواق العربية .

وكنت اتوقع معرضا للنسخ المخطوطة والطبعات الصادرة من ديوان ابي تمام ومما كتب عنه ، على ان يكون هذا المعرض نواة لمكتبة خاصة بأبي تمام يذهب اليها القراء والدارسون .

وكنت اتوقع كذلك تقييما علميا للدراسات الاخيرة التي ظهرت عن ابي تمام وللمهرجان الذي اقيم باسمه في دمشق عام ١٩٦٠ .

ولكن هذا لم يحدث ، والعمل الوحيد المثمر في هذا المجال هو اصدار ثبت بما كتب عن ابي تمام الطائي وتوزيعه خلال ايام المهرجان .

والنتيجة ان المهرجان قصّر الى حد كبير عن تحقيق اهدافه العلمية . لكننا اذ نضع ايدينا على هذا التقصير نتمنى ان نتلافاه في المؤتمرات والمهرجانات العلمية والادبية القادمة حتى يتم لها النجاح الكامل المنشود .

القاهرة — **احمد عبد المعطي حجازي**

أبو تمام وعروبة اليوم

ما أصدق السيف ! ان لم ينضه الكذب ... واكذب السيف ان لم يصدق الغضب
بيض الصفائح اهدى حين تحملها ... أيد اذا غلبت يعلو بها الغلب
واقبح النصر نصر الاقوياء بلا ... فهم سوى فهم كم باعوا وكم كسبوا
ادهى من الجهل علم يطمئن الى ... أنصاف ناس طغوا بالعلم واغتصبوا
قالوا هم البشر الارقى وما اكلوا ... شيئا كما اكلوا الانسان او شربوا

□□

ماذا جرى يا أبا تمام تسألني ؟ ... عفوا ساروي ولا تسأل وما السبب
يدمى السؤال حياء حين نسأله ... كيف احتفت بالعدا «حيفا» او «النقب»
من ذا يلبي ؟ أما اصرار معتصم ... كلا واخزى من « الافشين » ما صلبوا
اليوم عادت علوج الروم فاتحة ... وموطن العرب المسلوب والسلب
ماذا فعلنا ؟ غضبنا كالرجال ولم ... نصدق وقد صدق التنجيم والكتب
فاطفأت شهب « الميراج » انجمنا ... وشمسنا وتحدت نارها الخطب
وقاتلت دوننا الابواق صامدة ... أما الرجال فماتوا ثم او هربوا
حكامنا ان تصدوا للحمى اقتحموا ... وان تصدى له المستعمر انسحبوا
هم يفرشون لجيش الغزو أعينهم ... ويدعون وثوبا قبل ان يثبوا
الحاكمون « وواشنطن » حكومتهم ... واللامعون وما شعوا ولا غربوا
القاتلون نبوغ الشعب ترضية ... للمعتدين وما اجدتهم القرب
لهم شموخ « المثنى » ظاهرا ولهم ... هوى الى « بابك الخرمي » ينتسب

□□

ماذا ترى يا « أبا تمام » هل كذبت ... احسابنا ؟ او تناسى عرقه الذهب
عروبة اليوم اخرى لا ينم على ... وجودها اسم ولا لون ولا لقب
تسعون الفا « لعمورية » اتقدوا ... وللمنجم قالوا اننا الشهب
قيل انتظار قطاف الكرم ما انتظروا ... نضج العناقيد لكن قبلها التهبوا
واليوم تسعون مليونا وما بلغوا ... نضجا وقد عصر الزيتون والعنب
تنسى الرؤوس العوالي نار نخوتها ... اذا امتطاها الى أسياده الذنب

□□

« حبيب » وافيت من « صنعاء » يحملني ... نسر وخلف ضلوعي يلهث العرب
ماذا أحدث عن « صنعاء » يا أبت ؟ ... مليحة عاشقاها السل والجرب
ماتت بصندوق « وضاح » بلا ثمن ... ولم يمت في حشاها العشق والطرب
كانت تراقب صبح البعث فانبعثت ... في الحلم ثم ارتمت تغفو وترتقب
لكنها رغم بخل الغيث ما برحت ... حبلى وفي بطنها «قحطان» او «كرب»
وفي أسى مقلتيها يغتلي « يمن » ... ثان لحكم الصبا ينأى ويقترب

□□

« حبيب » تسأل عن حالي وكيف انا ... شبابة في شفاه الريح تنتحب
كانت بلادك « رحلا » ظهر « ناجية » ... اما بلادي فلا ظهر ولا غبب
أرعيت كل جديب لحم راحلة ... كانت رعته وماء الروض ينسكب

ورحت من سفر مضن الى سفر
أضنى لان طريق الراحة التعب
لكن انا راحل في غير ما سفر
رحلي دمي وطريقي الجمر والحطب
اذا امتطيت ركابا للنوى فأنا
في داخلي أمتطي ناري واغترب
قبري ومأساة ميلادي على كتفي
وحولي العدم المنفوخ والصخب

□□

« حبيب » هذا صداك اليوم انشده
لكن لماذا ترى وجهي وتكتئب
ماذا أتعجب من شيبي على صغري
اني ولدت عجوزا كيف تعتجب
واليوم أذوي وطيش الفن يعزفني
والاربعون على خدّي تلتهب
كذا اذا ابيض ايناع الحياة على
وجه الاديب أضاء الفكر والادب
وانت من شبت قبل الاربعين على
نار « الحماسة » تجلوها وتنتخب
وتجتدي كل لص مترف هبة
وانت تعطيه شعرا فوق ما يهب
شرقت غربت من وال الى ملك
يحثك الفقر او يقتادك الطلب
طوفت حتى وصلت الموصل انطفأت
فيك الاماني ولم يشبع لها ارب
لكنّ موت المجيد الفذ يبدؤه
ولادة من صباها ترضع الحقب

□□

« حبيب » ما زال في عينيك اسئلة
تبدو وتنسى حكاياها فتنتقب
وما تزال بحلقي الف مبكية
من رهبة البوح تستحيي وتضطرب
يكفيك ان عدانا أهدروا دمنا
ونحن من دمنا نحسو ونحتلب
سحائب الغزو تشوينا وتحجبنا
يوما ستحبل من أرعادنا السحب ؟
الا ترى يا « ابا تمام » بارقنا
(ان السماء ترجى حين تحتجب)

عبد الله البردوني (اليمن)

على هامش مهرجان الموصل

لنستمع إلى صوت أبي تمام !

بقلم رجاء النقاش

كان مهرجان ابى تمام الذي اقيم في الموصل عملا ثقافيا ناجحا بلا شك ، فمن اجل احياء ذكرى ابى تمام اجتمع عدد كبير من الكتاب والمفكرين من ذوي الاتجاهات والمدارس المختلفة ، كما تم اعداد تمثال لابى تمام ليقام في احد الميادين العامة بالموصل .

وهذا التكريم من جانب العراق لابى تمام هو تكريم يستحق التقدير ، وهو من ناحية اخرى نوع من الدعوة الى احياء تراثنا بصورة جادة وحقيقية ... اننا نتحدث كثيرا عن التراث ، ولكننا نسعى في الواقع العملي الى تحنيط هذا التراث ووضعه في متاحف يزورها العابرون بين حين وحين ، ولكننا لا نعامل التراث معاملة سليمة بمد خيوط حية بيننا وبينه ، واختيار الباقي من هذا التراث لمزجه مزجا سليما بعصرنا ومشاكلنا وظروفنا المختلفة . اننا نجد في ميادين العواصم العربية المختلفة كثيرا من التماثيل لرجال السياسة والاقتصاد بل وبعض الشخصيات الاجنبية ولكننا لا نجد تمثالا لفنان عربي كبير قديما كان او معاصرا الا في القليل النادر . ولست بحاجة الى ان اقول ان هذا الموقف ليس الا نوعا من مرض شهير يسود الحضارات في عصور تخلفها واضطرابها ، وهو ان يمتلىء انسان تلك الحضارة بالاحتقار لنفسه واضطهادها والنظر الى كل ما يتصل بذاته نظرة استخفاف واستنكار ، بل ان انسان هذه الحضارة المضطربة المتخلفة يكون في العادة جاهلا بنفسه ، سواء ما كان يتصل بماضي هذه النفس ، او بحاضرها . ولا يستطيع احد ان ينكر ان النفسية العربية تعاني من هذا المرض نتيجة لعصور متتالية من التخلف الحضاري الذي أفقدنا الثقة في انفسنا وفي كل ما يتصل بنا من تراث حضاري . واذا حاولنا ان نقوم بدراسة بسيطة للجيل الجديد من المثقفين لوجدنا منهم انصرافا عن التراث العربي ورفضا له واستنكارا كاملا لما فيه من فكر وأدب وشخصيات بارزة . ولست اشك في ان الاجيال الادبية الجديدة في حياتنا العربية قليلة العلم بأدب ابي تمام والمتنبي وابى العلاء . وهي اكثر من ذلك تحمل في اعماقها نوعا من الرفض الكامل لاي اهتمام بمثل هؤلاء الفنانين والادباء الذين يملكون لحظات مضيئة مشرقة في تاريخنا الادبي والفكري . ولا شك ان التراث العربي فيه كثير من الصفحات المليئة بالاضطراب والارتباك والثرثرة ، وان العرب لن يخسروا شيئا اذا ما احرقوا مثل هذه الصفحات والقوا بها في البحر ... ولكن التراث العربي من جانب آخر يضم صفحات مشرقة حارة مليئة بالتجربة الانسانية العالية والعمق الفكري والاصالة ... وهذا الجانب الخصب من تراثنا هو ما يستحق البقاء والاهتمام ... وهو ما يستحق ان ننفض عنه الغبار ونخرج به الى النور والحياة ، ونربط بينه وبين واقعنا الحقيقي الذي نعيش فيه ، ولا يكفي اطلاقا بالنسبة لهذا التراث ان نجعل منه مادة للدارسين المتخصصين في الجامعات ، يدرسونه على مضض في قاعات البحث المغلقة ، فاذا اخرجوا الى الحياة العامة نفضوا ايديهم منه وتنكروا له وخجلوا منه واخفوا معرفتهم به امام الحياة العامة . ان مثل هذا الموقف خطأ في خطأ ، لاننا يجب ان نجعل من تراثنا الاصيل حياة حقيقية متصلة بحياتنا العصرية .

وليأذن لي القارىء الكريم في أن استطرد قليلا في الحديث عن موقفنا من التراث لاقول : ان الحضارة الغربية التي هي نموذج الحضارة العصرية المتقدمة تنظر الى الماضي نظرة احترام عميق ، وتهتم بكل صغيرة او كبيرة تتصل بالثقافات او الفنون القديمة ، حتى لقد اصبح معروفا عند الدارسين المعاصرين ان الحضارة الغربية المعاصرة انما تقدم على ثلاث اسس رئيسية الاولى هي الثقافة اليونانية والثانية هي المسيحية والثالثة هي العلم والاساس الاول وهو الثقافة اليونانية يمثل الاهتمام العميق بالماضي واحترامه واحياء ما فيه من فكر وفن . والاهتمام بالثقافة اليونانية يحمل معه دائما اعمق الاهتمام بالتراث القديم في الحضارة الغربية في كل المراحل والعصور ، وما الثقافة اليونانية ، الا رمز لهذا التراث القديم لانها أخصب مرحلة من مراحله وأهم أصل من اصوله .

ويخطر على بالي وأنا أكتب هذه الكلمات الاحتفال السنوي الكبير الذي تقيمه انجلترا في ذكرى شيكسبير ، حيث يتم تقديم مهرجان عظيم للفن والفكر في مسقط رأس شيكسبير ، ويتحول هذا المهرجان كل عام الى عمل مؤثر حي في ميدان الفن والفكر يشترك فيه كثير من اصحاب العقول الكبيرة في شتى انحاء العالم . ونحن

نعرف أيضا ما تبذله اسرائيل لاحياء تراثها الفكري والادبي ولقد ركزت اسرائيل في السنوات الماضية على اديبها المعروف « يوسف عجنون » ، وكان ابرز شيء في « عجنون » من وجهة النظر الاسرائيلية هو انه في كتابته مرتبط أشد الارتباط بتقاليد اللغة العبرية القديمة والفكر العبري القديم .

على ان هذه الدعوة الى احياء التراث العربي ، والجانب المشرق فيه على وجه الخصوص ، لا تعني ابدا ، ان نستسلم لهذا التراث ، ونأخذه كما اخذه القدماء ، وننظر اليه بعيونهم ، فمثل هذا الموقف لا يمكن ان يعني في نهاية الامر الا نوعا من تكرار نسيج قديم في الثقافة والحضارة ، والتكرار هو نوع من الجمود الفعلي والعبودية الفكرية .... وليس في جمود العقل او عبودية الفكر اي نوع من الجدوى على الحضارة او الانسان .

ان المطلوب هو ان ننظر بعيوننا العصرية الى تراثنا القديم حتى نستطيع بذلك ان نراه في ضوء جديد ، وحتى نستطيع ان نجد ما يفيدنا وما يضيف الينا . واعود هنا الى نموذج شيكسبير حيث يحاول المخرجون المسرحيون والسينمائيون والنقاد الانجليز ان يقدموا دائما تفسيرات عصرية جديدة لشيكسبير سواء كان ذلك عن طريق العروض المسرحية او السينمائية او عن طريق التفسير النقدي الخالص . واذكر في هذا المجال مسرحية من مسرحيات شيكسبير هي « تيمون الأثيني » ، و «تيمون» هو نموذج للانسان الذي يمد يده بالخير لجميع البشر ثم يكتشف في آخر الامر ان هؤلاء البشر مليئون بالشر فينسحب ليعيش وحيدا في غابة الطبيعة بعيدا عن غابة البشر . وبعد سنة ١٩٥٦ قدم احد المخرجين الانجليز هذه المسرحية في مهرجان شيكسبير السنوي ، ولكنه قدمها بتفسير جديد من وجهة نظره ، فقد تراءى لهذا المخرج ان « انجلترا » هي تيمون الاثيني ، وذلك بعد حرب السويس سنة ١٩٥٦ ...

فقد دخلت انجلترا حرب السويس وخرجت منها وحيدة معزولة ... كانت انجلترا تمد يدها بالخير للجميع وبعد حرب السويس تخلى عنها الجميع ... فأصبحت وحيدة منعزلة تشكو جراحها وبلواها بعيدا عن الجميع . هكذا فسر المخرج الانجليزي مسرحية « تيمون الاثيني » واعطاها معناها العصري الجديد ، وهو معنى خاطىء لا نملك الا ان نرفضه ونستنكره لاننا نعرف بكل وضوح من خلال تجربتنا السياسية والحضارية ان انجلترا لم تكن في تعاملها معنا صاحبة رسالة بقدر ما كانت قوة استغلالية ظالمة ، كما ان حرب السويس لم تكن من أجل دعوة عادلة بقدر ما كانت حربا على الحق والعدل والحقوق الانسانية السليمة ولكن الذي يهمنا هنا هو أن الغربيين يحاولون دائما ان يفسروا ادبهم القديم تفسيرا عصريا يخطئون في بعضه أحيانا ، كما اخطأ هذا المخرج الذي أراد لشيكسبير ان يكون خادما للاستعمار الانجليزي ... ولكنهم يصيبون أحيانا كثيرة في هذه المحاولة التي تضيء أدبهم القديم اضاءات عصرية وتعطيه قدرة على ان يضيف للعقل الجديد مزيدا من القوة والعمق .

وهذا هو ما نحتاج اليه في موقفنا من التراث الذي يستحق ان يعيش بيننا ويستمر ... بل انني أقول أكثر من ذلك ان « العصرية » هي المقياس الصحيح الذي يمكن ان نفرق به بين الاصيل من تراثنا والزائف من هذا التراث ، واعني بالعصرية : أن كل « تراث » يمكننا ان نحييه على ضوء فكرنا الجديد ويمكننا ان نجد فيه ما يضيفه الينا ويعلمه لنا هو تراث جيد ويستحق البقاء ، اما اذا استعصى هذا التراث على العصر الذي نعيش فيه ولم يعطنا شيئا ولم يستطع ان يفتح لنا أسراره بمفاتيحنا العصرية الجديدة ... مثل هذا التراث هو – في اعتقادي – تراث لا يستحق الحياة ولا يستحق منا أن نذرف عليه دمعة واحدة اذا احترق ، او غرق في البحر فالحقيقة – في نهاية الامر – هي ان الفنان او المفكر الكبير يخاطب كل العصور ، بنفس القوة والصدق الذي يخاطب به عصره ، ولست اشك مثلا في ان عصرنا الراهن ما زال يستمع الى صوت افلاطون وارسطو وديكارت كما يستمع الى صوت هيجل وماركس وسارتر وماركوز . ولست اشك في ان عصرنا ما زال يستمع الى صوت سوفوكليس وشيكسبير كما يستمع الى صوت تولستوي وتشيكوف وكازانتزاكس . ولست اعني بذلك اننا نوافق تلك الاصوات القديمة في كل شيء بل على العكس قد يكون استماعنا الى تلك الاصوات عن طريق الصراع معها والحوار والاختلاف ، ولكن المهم انها ما تزال أصواتا مسموعة بالنسبة لعصرنا ، وهي من أجل تراث قديم ومعاصر في نفس الوقت ، وهي من أجل ذلك ايضا ما زالت تملك القدرة على مخاطبة العصر والدخول معه في حوار عميق .

واريد ان انتقل من هذه النقطة بالذات ، واستخدم هذا المقياس بالتحديد في تسجيل بعض الملاحظات حول شخصية أبي تمام بهذه المناسبة الناجحة الممتازة ، وهي مهرجان ابي تمام الذي انعقد في الموصل في الشهر الماضي ... واعتقد اذا كانت المقدمات السابقة أكثر مما ينبغي واود ان تكون قد أبعدتنا عن أبي تمام وقضيته .

أريد ان أسأل : هل يعطي ابو تمام لعصرنا الراهن شيئا ؟ اذا كان يعطي لعصرنا شيئا فهو اذن فنان يستحق الحياة والبقاء ، وان كان لا يعطي فهو – في تقديري – يستحق النسيان والموت والاحتراق بلا حزن عليه ولا رثاء

واسارع فأجيب على هذا السؤال : ان أبا تمام يعطي لعصرنا اشياء كثيرة ، ويضع امامنا مشاكل رئيسية وحلولا لبعض المشاكل الرئيسية ومن اجل هذا فهو يستحق البقاء الى اليوم والى الغد وما بعد الغد ، ويستحق منا ان نهتم به ونحتفل بذكراه ونقيم له التماثيل ونسمي الشوارع والميادين باسمه ونكون بذلك قد أعطيناه بعض حقه .

فماذا يقول أبو تمام لعصرنا وماذا يعطي ابو تمام

لهذا العصر ؟ .. سأحاول في السطور التالية ان الخص ما ارى ان ابا تمام يعطيه لعصرنا ويقوله لهـــذا العصر ، مؤمنا بأن مثل هذا التلخيص يحتاج لمزيد من التفصيل الدقيق والبحث العميق ... وما السطور التي أحدد بها هنا علاقة ابى تمام بعصرنا الا مشروع دراسة يجب ان تكون اطول واشمل واعمق .

وأول ما أرى ان ابا تمام يقوله لعصرنا هو ما يتصل بقضية « الشعر والتجربة الانسانية » . ان أبا تمام يقدم نموذجا حيا للفنان الذي رفض العزلة عن مجتمعه واندمج في هذا المجتمع وعاش بتجاربه الواسعة وارتبط بالتيار العنيف للحياة في هذا المجتمع . لقد ولد بالشام ، وقضى عدة سنوات في مصر ، وسافر الى بغداد وغيرها مـــن مناطق الحضارة الاسلامية المختلفة ، واستقر في آخر عمره بالموصل حيث عمل فيها واليا على البريد ومـــات ودفن هناك . هذه اذن حياة غنية خصبة ، حياة لم تعرف الانطواء والعزلة والانفصال عن العالم الذي كان يعيش فيه ذلك الفنان الكبير ، وأبو تمام بمثل هذه التجربة الواسعة يمثل موقفا نظريا واضحا محددا وهي ان الشعر ينبغي ان يرتبط اعمق الارتباط بالتجربة الحية والا يقف ابدا عند التأمل الذاتي والتجريدي البعيد عن الحياة ، قد يقـــال ان مطالب العيش هي التي دفعت أبا تمام الى الرحلـــة والتجول والانتقال من مكان الى مكان ، ولكننا نجد فـــي حياة ابى تمام لحظات عاش فيها مستقرا اشد الاستقرار ولكنه مع ذلك آثر الرحيل لانه لم يكن يبحث عن الاستقرار وانما كان يبحث عن « التجربة » والمعرفة والاستيعاب والشمول . فأبو تمام قد عاش بالشام سعيدا عالـــي الصوت واسع النفوذ في مجتمع تلك البلاد ولكنه مـــع ذلك لم يستقر بالشام بل ظل يتنقل ويرحل من مكان الى مكان يقوده نوع من القلق الخصب الـــذي يدفعـــه الـــى اكتشاف المزيد من حقائق العالم الذي كان يعيش فيه . ويحدثنا الدكتور طه حسين عن ابى تمام ومكانته فـــي الشام وذلك عندما كتب عن البحتري وصلته بأبي تمام.. يقول طه حسين :

« ولد البحتري في أوائل القرن الثالث الهجـــري سنة خمس أو ست ومائتين ولما شب اتصل بأبى تمام ، وكان أبو تمام قد عرف واشتهر أمره ، وكان له مجلس في حمص حينما كان يتصل بأهل حمص ، فكان شعراء حمص يأتونه فينشدونه اشعارهم ، وكان البحتري مـــن الذين اتوه وأنشدوه ، سمع له ابو تمام واعجب به واظهر الرضا عنه ، فلما انصرف الشعراء استبقى البحتري وقال له : أنت أحسن من انشدني فحدثني عن حالك ، فشكا له البحتري فقرا وسوء حال ، فكتب له أبو تمام كتابا الى اهل معرّة النعمان ينبئهم ان هذا الرجل ،او هذا الشاب نابغة بارعة في الشعر ، ويوصيهم به خيرا ، فلما قرأوا الكتاب عنوا بالشاعر وجعلوا له مرتبا قدره أربعة الاف درهم كل عام » « طه حسين ــ من تاريخ الادب العربي ــ المجلد الثاني ــ ص ٣٥٥ ــ ٣٦٦ » .

وهكذا نجد ان ابا تمام كان قد حظي فـي الشام بمكانة كبيرة ، بحيث كان الشعراء يقصدونه ، وبحيث كان يستطيع ان يضمن بكلمه منه « مرتبا قدره اربعـــة الاف درهم كل عام » لشاعر مجهول ناشىء في ذلك الحين هو البحتري . ولكن أبا تمام مع كل هذه المكانه بالشام وكل هذه السمعة وهذا النفوذ لم يبق بالشام وانمـــا ترحل وأخذ ينتقل من مكان الى مكان طالبا ان يتعرف الى حدود العالم الذي يعيش فيه بقدر ما يستطيـــع ... فالتجربة الواسعه والمعرفة العميقه هما غايته وليس المال او الاستقرار أو البحث عن الشهرة او النعمه والهـدوء والاستقرار . وهناك أبيات ثلاثه مشهورة ومتفرقه لابى تمام يمثل فيها حنينه الدائم الى الرحله وانتماءه الـــى الى عالم واسع شاسع متنوع ولهفه الى البحث والمعرفة والاستيعاب ... وهي ابيات جميلة رائعة انقلها من كتاب الدكتور طه حسين عن الادب العربي .

البيت الاول :

بالشام اهلي وبغداد الهوى وانا
بالرقمتين وبالفسطاط اخواني

البيت الثاني :

وما اظن النوى ترضى بما فعلت
حتى تبلغني أقصى خراسان

البيت الثالث :

خليفة الخضر ، من يربع على وطن
في بلده فظهور العيش أوطاني

في هذه الابيات جميعا ترى ان الرحلة والتجربـــة الواسعه والاستيعاب للعالم الذي يحيط بالشاعر هـــي أساس حياته ، وفي البيت الاخير بالذات يقدم لنا الشاعر صورة بالغة الجمال حيث يقول انه « خليفة الخضراء » والصورة الدينية المعروفة للخضر هي التنقل الدائـــم والتجدد الدائم ، والرحلة من مكان الى مكان ومن زمان الى زمـــان ، ثم يقول الشاعر في صورته الرائعة «انظهور العيس اي الجمال ــ هي أوطانه » ... أي أن الرحلـــة المتصلة هي وطنه الدائم ، بينما الاقامة بالنسبة هـــي استثناء عارض . ونحن نلاحظ هنا ان ابا تمام في حديثه عن رحيله الدائم لا يشعر باي مرارة ولا يعبر عن احساس باليأس او الحزن بسبب اضطراره الى الرحلة الذاتيـــة مما يؤكد ان هذه الرحلة الدائمة كانت رغبة من رغبات ابى تمام وكانت هدفا من أهدافه ومطلبا من مطالبه ، وانه أن لم يكن سعيدا بذلك فهو على الاقل غير متألم أو مستنكر لهذا الاسلوب من أساليب الحياة . ومن ناحية اخـــرى فباستطاعتنا ان نلاحظ ان « الرحلة » في عصر ابى تمام « القرن الثالث الهجري » كانت مصدرا أساسيا مـــن مصادر المعرفة والثقافة ، ففي ذلك العصر لم يكن هناك وسائل اتصال ضخمة مثل الوسائل الموجودة حاليـــا كالتلفزيون والراديو والسينما والصحف ووكالات الانباء بحيث أصبح الانسان الان يستطيع ان يستوعب العالـــم ويعرف ما يدور فيه بقدر لا بأس به وهو في بيته ...

لا يتحرك ولا يسافر . ولكن الرحلة في المجتمعات القديمة كانت من أكبر وأعمق مصادر الثقافة والمعرفة الانسانية وتستحق فكرة « الرحلة كمصدر للثقافة في العصور القديمة » دراسة واسعة مستقلة ، ولعلنا نذكر في هذا المجال ان رحلات العرب قبل الاسلام الى خارج الجزيرة كانت مصدرا رئيسيا للتيارات الثقافية التي هبت على الجزيرة من خارجها . بل لقد تفتح وعي النبي العربي العظيم محمد «ص» على رحلته الى الشام في بداية حياته

وهكذا فقد أعطانا أبو تمام اجابة رائعة لمشكلة العلاقة بين « الشعر والتجربة الحية » ... وهذه الاجابة المحددة الواضحة هي الدعوة الى الربط العميق بين فن الشعر وتجربة الحياة باوسع معاني هذا الارتباط ، وهو موقف يرفض تماما ان يكون الشاعر متفرجا على الناس وان يكون الشعر ثمرة للتأمل والخواطر الذاتية والسلامة والعافية بالنسبة لتجارب الدنيا وأخطار الحياة .

القضية الثانية التي يقدم فيها ابو تمام اجابة عصرية هي قضية « الشعر والثقافة » فقد ربط أبو تمام بين الشعر والثقافة وبرباط رائع وعميق ونحن لا نجد هذا الرباط القوي لدى شاعر قديم آخر مثلما نجده عند ابي تمام . ومن بعد ذلك في المعري ، ولاشك ان موقف ابى تمام من الثقافة هو رد واضح ومحدد على دعاة الشعر الخالي من الفكر ، والذين يرون في الشعر مجرد تأملات عامة ويرون فيه نوعا من الجمال الذي ليس من الضروري ان يضيف للعقل شيئا، بل يكفي ان نحس بالمتعة الفنية فيه وحسب . ولقد كانت حياة ابى تمام تفري الفنان المتوسط بالاكتفاء بما فيها من تجارب غنية ورحلات عديدة واسعة كمصدر من مصادر الفن الشعري ... ففي حياة ابى تمام من التجارب ما يغنيه — لو كان شاعرا متوسطا — عن طلب الثقافة والمعرفة في الكتب ، وعن العكوف الطويل على هذه الكتب بعمق وأمانة واستيعاب، ولكن ابا تمام كان يبحث عن أعمق المنابع وأصفاها لكي يصل في آخر الامر الى الشعر الرفيع ، ولذلك كان قارئا نهما ، وكان يعرف ان الثقافة الكبيرة لا غنى عنها اذا اراد ان يصل الى الشعر العظيم ... يقول الدكتور طه حسين عن ثقافة أبى تمام :

« لم يكن حافظا للشعر أو راوية له ، كأبى نواس ولم يكن راوية منطلقاللرواية والانتحال كخلف ، ولكنه كان حافظا وكان كثير النظر في الشعر ، ميالا الى الاختيار منه لم يكن اذن يحفظ ويكتفي بالرواية ، وانما كان يعاشر الشعراء معاشرة متصلة ، يقرؤهم ويطيل النظر فيهم ، ويدل على قراءته لهم هذا الاختيار الذي كان يختاره في كتب يذيعها بين الناس ، ولابي تمام كتب كثيرة أظنها ستة كلها مختارات فمنها الحماسة ، واختيار من شعراء الفحول ، واختيار من شعراء القبائل ، واختيار من شعراء المحدثين .تحدثنا الاخبار ان ابا تمام قداختار كل هذه الكتب لانهاضطر للبقاء في همذان ، فقد حال الثلج بينه وبين المضي في سفره . فاضطر الى البقاء وعكف على خزانة للكتب فانفق وقته في تصنيف ما ظهر له من المختارات ، ولكن هذا غير ممكن وغير معقول ، فقد كانت اقامته رهن زوال الثلج ،وهذا لا يتجاوز الاشهر القليله ومن المستحيل ان يصدق انه قد اختار هذه الكتب في شهرين او ثلاثة » « طه حسين — من تاريخ الادب العربي ص ٣٤٣ — الجزء الثاني » .

ولقد شن النقاد القدماء حملة عنيفة على ابى تمام واتهمه البعض بانه كثير السرقة من غيره لانه كان واسع الثقافة والمعرفة بادب الاخرين . ولسنا في مجال الدفاع عنه ضد هذه التهمه ، ولكن هذه التهمة نفسها تثبت ما نقول من أن أبا تمام كان واسع الثقافة بمقاييس عصره ، فقد اهتم كثيرا بتثقيف نفسه ثقافة أدبية عاليه . ولكنني اعتقد ايضا ان ثقافته قد امتدت من الادب الى غيره من الوان المعرفة مثل الفلسفة والتاريخ وما الى ذلك ، فقد كان ابنا لعصر ازدهرت فيه الثقافة العربية وتنوعت أصولها وثمارها واتصلت في هذا العصر بثقافات عريقة ، مثل الثقافة اليونانية والثقافة الفارسية . واذا كانت مختارات ابى تمام وما اخذه عليه النقاد القدماء من سرقات يدلان على سعة الاطلاع والثقافة الادبية عنده ،فان تركيب قصائده وصوره الفنيه المعقدة الصعبة لا يمكن ان يصدر شيء منها الا عن عقل كبير صقلته ثقافهواسعه في مختلف الوان المعرفه . وهكذا نجد ان ابا تمام يؤكد لنا من خلال موقفه الفني ان ارتباط الشعر بالثقافة قضية ضرورية واساسية . وموقف ابى تمام هو رد على كل الدعاوي التي ترد الشعر الى مجرد الفطرة والبديهة التلقائيه او ترده الى مجرد التجربه الحيه فقط ، او التي تطلب من الشاعر ان يحقق مجرد الجمال الفني في قصيدته ، واذكر في هذا المجال شاعرا عربيا كبيرا ومعاصرا لنا كان يقول دائما انه لا يقرا لانه يكتفي بجذوة الالهام المشتعلة في داخله . والواقع أن هذا الشاعر يمثل في موقفه من الثقافة وارتباطها بالشعر نوعا من الرأي السائد في حياتنا الادبية وهي ان الشعر والفن عموما ليس من الضروري ان يرتبطا بثقافة واسعة وكبيرة ، وان الالهام والموهبة كافيان في هذا المجال . ولعلي لا اكون مخطئا اذا قلت ان من اكبر عيوب الشعر العربي المعاصر في كثير من الاحيان هو : ضعف الثقافة وانخفاض مستوى التجربة الثقافية عند الشعراء ، اما الشعراء المعاصرون الذين حققوا شيئا باقيا له قيمة فهم ولا شك الشعراء المثقفون ذوو الموهبة الاصيلة والعقول المستوعبة الكبيرة .

ولعلنا نستمع الى صوت ابى تمام يأتينا من وراء العصور ليؤكد لنا انه لا يمكن ان يولد شعر عظيم بدون ثقافة عظيمة .

القضية الثالثة التي يثيرها ابو تمام اذا تأملنا في شعره وشخصيته هي قضية التجديد .. فهو شاعر قد رفض الانسياق وراء القديم واراد ان يحقق لنفسه شخصية خاصة ورؤية مستقلة واسلوبا يخرج تماما على

تلك الأساليب البسيطة الساذجة المعروفة في الشعر العربي القديم ، ان صورة مليئة بالتركيب والتعقيد ، وهي صور جديدة خاصة به ، لم تكن مألوفة في عصره ، ولا قبل عصره ، ونحن نجد على سبيل المثال تلك الصورة الشهيرة عند الشاعر العربي القديم حيث كان يصور الانسان « الحكيم » بانه كالجبل الراسخ الثابت في الارض والذي لا يتأثر بالاحداث الخارجيه تاثرا سريعا ولا يهتز لها بسهولة ، ولكن ابا تمام قدم لنا صوره اخرى مختلفه تماما هي صورة الانسان الحليم الذي يشبه « البرد الرقيق الحواشي ... وهي صورة جريئة وذكية وحساسة .. يقول ابو تمام :

رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه

يكفيك ما ماريت في انه برد

هذه الصورة الجديدة يقول عنها احد النقاد القدماء كما يروي لنا الدكتور احسان عباس في كتابه الممتاز عن تاريخ النقد الادبي عند العرب « ص ١٤٨ » ... يقول هذا الناقد القديم عن بيت ابى تمام : « هذا البيت اضحك الناس منذ سمعوه الى هذا الوقت » ... اي ان جراة ابى تمام كانت تحديا للذوق العربي السائد وفتحا لرؤى شعرية جديدة على ان المسالة لا تقف عند حدود الصوره الجزئية وتجريدها ، فالنسيج الشعري كله عند أبى تمام هو نسيج جديد تماما على القصيدة العربية ، وأبرز شيء في هذا النسيج انه تخلص من التعبير السهل السريع المباشر وقدم نسيجا آخر يحتاج الى كثير من الفكر والعمق حتى يمكن فهمه وتذوقه . وبسبب هذه القصيدة الجديده الجريئه المتحدية للذوق السائد عند ابى تمام هاجمه النقاد العرب القدماء هجوما عنيفا حتى اتهمه بعضهم بأقسى ما يمكن أن يتهم به انسان في المجتمع الاسلامي القديم ... وتلك هي تهمه « الكفر » والخروج على الدين ، ويقول الناقد العربي القديم « الصولي » « عن كتاب تاريخ النقد عند العرب للدكتور احسان عباس ص ١٥١ » :

« وقد ادعى قوم على ابى تمام الكفر وجعلوا ذلك سببا للطعن على شعره ، وتقبيح حسنه » ثم يضيف ذلك الناقد القديم هذا التعليق الاصيل المنصف الذي يحتج فيه على اصحاب الاعتراضات السطحية والملفقة على الشعر والشاعر فيقول « ... وما ظننت ان كفراً ينقص من شعر ولا ان ايمانا يزيد فيه » .

ولقد وقع ابو تمام فريسة لهجوم كل النقاد المتعصبين الذين يمكن ببساطة ان نصفهم بالرجعية الفكرية والادبية الا ان الكثير منهم كانوا اهل لغة ونحو مثل «ابن الاعرابي» . ولكن ابا تمام لم يعبأ بأصواتهم غير العادلة ولا بذوقهم الفاسد . ولا شك ان الزمن قد نصر ابا تمام الفنان المبدع صاحب الخيال الجرىء المنطلق على النحاة واللغويين من دعاة الرجعية الادبية ... الجامدين المتحجرين ... هؤلاء الذين كان عجزهم احيانا عن محاربة الجديد في شعر أبى تمام يدعوهم الى أتهامه في دينه ... كما تفعل الرجعيه الادبيه المعاصره حينما تتهم الشعراء الجدد بانهم شيوعيون وما الى ذلك من التهم التي تهدف الى التضليل والشوشرة .

وهكذا استطاع ابو تمام أن يصمد امام الرجعية الادبيه ويحقق نصرا واضحا بارزا لقضية التجديد الادبي بلا تحفظ ولا خوف ولا رجعة الى الذوق القديم او الفكر القديم . وموقف ابى تمام درس لنا ولضمائرنا الادبيه المعاصره ... انه يدعونا الى مناصره الجديد الاصيل بقوة وبلا خوف او تردد ادبي . واخيرا فاود ان اقف وقفه سريعة مع ايمان ابى تمام بالعلم ، فلقد حفلت قصيدته المشهوره عن«فتح عموريه» وهي القصيدة التي اصبح مطلعها على لسان الكثيرين :

السيف أصدق انباء من الكتب

في حده الحد بين الجد واللعب

... في هذه القصيدة يشن ابو تمام حملة عنيفة على « المنجمين » ولم اقرا في الشعر العربي القديم دفاعا عن العلم وارادة الانسان مثلما قرأت في هذه القصيده عن أبي تمام ... ان كلماته هنا تمثل ثورة حقيقيه على الخرافه والاوهام وهما علتان رئيسيتان من علل الانسان العربي منذ العصور القديمه ... كما ان موقف أبى تمام في هذه القصيدة هو موقف الدفاع الاصيل عن العقل الانساني والاراده الانسانية والدفاع عن مسئولية البشر عن مواقفهم وتصرفاتهم المختلفة .

السيف اصدق انباء من الكتب

في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في

متونهن جلاء الشك والريب

والعلم في شهب الارماح لامعة

بين الخميسين لا في السبعة الشهب

ايـن الرواية بل اين النجوم وما

صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

تخرصا واحاديثا ملفقة

ليست بنبع اذا عدت ولا غذب

وبقية القصيدة تفيض بهذه الروح العميقة في الدفاع الصادق عن العقل والارادة البشرية ومسئولية الانسان ضد الخرافة والوهم والتخلي عن المسئولية والارادة البشرية ... ولعل هذا الموقف هو واحد من أصدق مواقف ابى تمام واكثرها صدقا بالنسبة للمجتمع العربي المعاصر وموقفه من الحياة

تحية لابي تمام في ذكراه .

ولعلنا مرة اخرى نسمع صوت ابى تمام ونصغي اليه بامانة وعمق .

القاهرة — رجاء النقاش

حول مهرجان أبي تمام بالموصل

بقلم
صبري حافظ

الدور الاساسي الذي تلعبه المهرجانات والمؤتمرات في حياتنا الثقافية هو ـ في اعتقادي ـ خلق جسور من التعارف والحوار بين الادباء قبل اي شيء اخر .. فمن خلال هذه الجسور وفوقها يمكن ان تنهض بقية الادوار الاخرى التي تضطلع بها المؤتمرات من اثارة لقضية او تكريس لشخصية او بلورة لمفهوم . ومن هنا يمكن ان نقيس نجاح المهرجانات والمؤتمرات وفشلها بقدر نجاحها او فشلها فيخلق هذه الجسور .. ولا يمكن ان تقوم جسور حقيقية من التعارف والحوار الا اذا توفر حد ادنى من اللغة المشتركة ، بالمعنى الاعمق والاشمل لكلمة اللغة ، بين المشاركين في المؤتمر او المهرجان .ومن هنا تجيء اهمية الاختيار وتولد معياريته . واذا اخذنا من وفد مصر لمؤتمر الادباء العرب الثامن بدمشق مثالا ، فهل يمكن انتكون هناك لغة مشتركة او حد ادنى من الحوار بين كاتب قضى زهرة شبابه في السجن لانه يؤمن بالاشتراكية ، وباشا اقطاعي سابق كان يهدي دواوينه ومسرحياته الى الملك ؟ او بين كاتبة واستاذة جامعية كانت من زعماء اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التي اقضت مضاجع الملك . وبين الشاعر الذي كان يهدهد نفس الملك ويدغدغه بكلماته الرخوة المتملقة .. ولذلك فانني كنت اقول دائما ان باستطاعتنا ان نحدس مصير مؤتمر ما بمجرد قراءة قائمة اسماء المشاركين فيه ونوعية القضايا او الموضوعات المطروحة عليهم . لانه اذا ما عرفت الاسماء تحددت امكانيات الحوار وبانت طبيعة الجسور التي ستمر فوقها بقية الحقائق والانجازات .

واذا كانت صورة المشهد العربي الراهن متحققة في كل جزئية من جزئياته ومنعكسة على كل فعل عربي له قدر منالشمول، فان المؤتمرات والمهرجانات دائما ما تكون انعكاسا زاعقا لكل تناقضات الواقع العربي ولكل تبايناته . ومن تتبع عن كثب وقائعمؤتمر الادباء بدمشق في الشهر الماضي يتاكد من هذه الحقيقة .. شاعر سقيم الذوق يذهب من مصر الى سوريا وكلا البلدين مبتهج بافراح الاتحاد ليذكر الشعب السوري بجنازة الانفصال . يتصدى له شاعر اخر من فلسطين ويذكره بتاريخه القديم ومدائحه المسهبةقبل عشرين عاما في الملك المصري المخلوع . وكأنه يقول له وانت تذكر السوريين بمرارة الانفصال الم يطف فوق سطح روحك الآسنة تاريخك المخزي القديم ؟ صورة اخرى ، رئيس وفد ليبيا الذي طلب من المؤتمر السابع للادباء في بغداد ارسال برقية تأييد للسنوسي يطلب من المؤتمر الثامن ارسال برقية تأييد للقذافي ولا يخجل .. صورة ثالثة .. الندوات المضادة التي كانت تعقد في نفس الوقت الذي تعقد فيه امسيات المؤتمر الشعرية لتسرق الجمهور او الاضواء .. او وهذا هو الاهم لتؤكد اننا ما زلنا برغم كل الشعارات امة مجتزاة ومقتطعة ومقسمة ومنقسمة على بعضها البعض .. كل هذه الصور وغيرها كثير تؤكد ان صورة المشهد العربي الراهن دائما ما تلقي بوطأتها على كل المهرجانات والمؤتمرات والمنتديات وكل ما شابه ذلك من نشاطات .

كان ضروريا ان اكتب هذه المقدمة الطويلة قبل ان ابدأ حديثي عن مهرجان ابيتمام واقول انني سعيد بنجاح مهرجان ابي تمام .. بانفلاته من الانشوطة التي تحتم علىكل مهرجان او مؤتمر ان يكون صورة مصغرة لكل تناقضات الواقع العربي وكل تبايناته .. بقدرته على اختيار وجوه شابة واصيلة استطاعت ان تخلق جسورا من الحوار مع الحركة الادبية الحية في العراق بتياراتها المتعددة ووجهها التقدمي الاصيل . فسعادتي بالمهرجان ليست وليدة نجاحه الكامل بقدر ما هي بنت الظروف الغريبة التي تولد فيها المهرجانات وتنعقد معها المؤتمرات في عالمنا العربي والتي يشكل مهرجان ابي تمام بداية التملص منها وتجاوز عثراتها المزمنة . تجاوزها منذ اللحظة الاولى للاعداد له ، منذ ان نبذ الشكل التقليدي واستعاض عنه بأسلوب جديد في اختيار المشاركين ودعوتهم . فلم يلجأ الى الجهات الرسمية يطلب منها ان ترسل « مندوبيها » الى المهرجان بل اعتمد المشرفون عليه على معرفتهم بالحركة الادبية العربية واختاروا منها مجموعة من الشخصيات الاصيلة ومن الوجوه الجديدة على المؤتمرات والمهرجانات لا على الحركة الثقافية ووجهوا اليها دعوتهم .. ولو قيض لكل من دعي الى المهرجان ان يحضره لجمع المهرجان خير الوجوه الثقافية في عالمنا العربي ، ولبلور مزايا هذا الاسلوب الجديد على اكمل وجه .

وقد وجهت وزارة الاعلام العراقية دعوتها لحضور هذا المهرجان الى عدد كبير من الكتاب والشعراء العرب للمشاركة في الاحتفال بالذكرى الالفية للشاعر العباسي الكبير حبيب بن اوسالطائي المعروف بأبي تمام ، ولم تكن تهدف من ذلك كما يقول الاستاذ عبد الجبار داود البصري في افتتاحية العدد الاول من جريدة المهرجان الى احياء الادب الكلاسيكي والاحتفاء بالاموات ، ولكنها هدفت من ورائه الى تكريم الحركات التجديدية في الفن والثقافة باعتبار ان

اباتمام كان مجددا كبيرا في تاريخ الشعر العربي . وبسبب ذلك عد خارجا على عمود الشعر . ولكي يدرك المجددون الاحياء ان الاعتراف بمكانتهم ومنزلتهم آت حتى ولو بعد حين من الدهر .
ثانيا : ان الذكرى الالفية لابي تمام ليست احتفالا بالاموات بعد ان مرت عليهم عشرات القرون ولكنه مناسبة من المناسبات التي يصطنعها الاحياء لكي ينشطوا فيها ويلتقي احدهم بالاخر ويتدارسوا ، امور حياتهم .. ثالثا : كان ابو تمام شاعرا عربيا اصيلا . وغالبية المراجع القديمة لا تذكره الا مقرونا بلقبه الطائي . ولكن بعض الدارسين المعاصرين حاولوا نفيهعن عروبته الى مناخ اعجمي غريبعنه.. وكان هذا الفعل جزءا من الحملة التي تتعرض لها العروبة بتجريدها من امجادها . وعليه فان الاحتفال بابي تمام يمثل جزءا من نشاط العروبة للوقوف بوجه الحملات العدائية الظالمة » هذه هي الاسس التي بني عليها المؤتمر والاهداف التي رمى المشرفون على تحقيقه الى بلوغها فهل حققها المؤتمر كاملة ؟ .. وما هي اوجه القصور فيه ؟

حتى نجيب على هذا التساؤل علينا ان نبدأ القصة من اولها كما يقولون .. فنقول اقيم في الموصل ، وهي المدينة التي قضى بها ابو تمام اخر ايامه ومات ودفن فيها ، من ١١ الى ١٤ ديسمبر الحالي مهرجان ادبي للاحتفال بالذكرى الالفية لابي تمام . واقيم المهرجان تحت شعارين كبيرين . اولهما شعار له طابع سياسي ودعائي هو (الشعر للمعركة) والاخر هو البيت الذي يفتتح به ابو تمام قصيدته الشهيرة في فتح عمورية والذي يقول فيه :

السيف اصدق من انباء من الكتب : في حده الحد بين الجدواللعب

وهما شعاران قادرانعلى اثارة الكثير من قضايانا الراهنة وعلى استقطاب اهم عناصر رؤية ابي تمام للشعر والحياة . ولذلك كانا المحور الذي دارت حوله اغلب قصائد المهرجان بالرغم من ان جل هذه القصائد قد كتب قبل وفود الشعراء الى المهرجان وقبل معرفتهم لشعاره . وقد لبى الدعوة للمشاركة في هذا المهرجان الالفي المتاخر عن موعده بكثير عدد كبير من الكتاب والشعراء من مصر ولبنان والكويت واليمن والمغرب وسوريا . بالاضافة الى رهط من شعراء الموصل المبتدئين وعدد كبير من الكتاب والشعراء العراقيين .

وقد اتيح للمشاركين في المهرجان ومعظمهم مشتعل بالرغبة في المعرفة ان يذرعوا العراق من النجف جنوبا حتى الحضر شمالا وان يشهدوا وان يشهدوا بابل القديمة والنمرود والحضر الى جوار المشهد اليومي المعاصر في النجف وكربلاء ، واتيح لهم ان ينصتوا الى لغة الاحجار والنقوش وهي تروى قصة اسد بابل اوتشي ببعض ما دار في ايوان كسرى او في قلعه سنحاريب وتحكى الاسلوب الذي عاش به العراقي في الحضر القديمة . واتيح لبعض منهم ان يشهد حقيقة المشهد الثقافي في العراق .. وكنت واحدا من القلائل الذين حرصوا على ان يزوروا مجلة (الثقافة الجديدة) وجريدة (التآخي) ثم جريدة (الثورة) وهي بالترتيب المنابر المعبرة عن رؤى الشيوعيين والاكراد والبعثيين في العراق ، وعلى ان يسمعوا للمشرفين عليها ، ويشاركوا في بعض نشاطاتها . فبدون التعرف على هذه المنابر كاملة يصعب القول باننا قد تعرفنا حقيقة على واقع الحركة الثقافية الحية في العراق او على تياراتها المتعددة، وهي تيارات تتسم بطابع تقدمي واضح . يمكننا من خلالها ان نتعرف على تفاصيل الصورة التي يعيش ويفكر بها العراقي اليوم ، كما تعرفنا من خلال زيارة المناطق الاثرية في نينوي والحضر وبابل وسامراء وطاق كسرى على الطريقة التي عاش وفكر بها العراقي القديم . واذا كان المهرجان قد اتاح لمجموعة من المثقفين العرب التعرف على واقع الحياة الثقافية في العراق والحوار مع تياراتها والانصات لاصواتها المتنوعة فضلا عن تاريخها القديم وآثارها ومدنها الدارسة فان هذا في حد ذاته شيء كبير .

لكن المهرجان في الواقع فعل اكثر من ذلك ... اذ قدم في امسياته الثلاث التي اعقبت امسية الافتتاح الاولى مجموعات من القصائد الشعرية .. وقدم في بعض اصابيحه عددا من الدراسات كما قدم مجموعة من المطبوعات .. واذا بدأنا بالحديث عنالمطبوعات فلانني احب ان اشيد بالجهد العلمي المتاز الذي قدمه كوركيس عواد وميخائيل عواد في كتابهما (ابو تمام الطائي : حياته وشعره في المراجع العربية والاجنبية) .. وهو عمل ببليوجرافي جيد برغم هنات التصنيف والتبويب .. اذ تتبع كل آثار ابي تمام المخطوطة والمطبوعة في مختلف المكتبات العامة والخاصة في شتى البلدان ما وسعه الجهد .. ثم قدم قائمة ضافية بكل المراجع العربية

القديمة التي تناولت اعمال ابي تمام او حياته بالايجاز او التفصيل، محددا الصفحات التي تناولت ذلك في كل مرجع . وما ان فرغ من الكتب القديمة حتى قام بنفس العمل مع المراجع العربية الحديثة ومع المراجع الاجنبية .. هذا فضلا عن التمهيد لهذا العمل بعرض دقيق في سطور موجزة لحياة ابي تمام منذ ميلاده في قرية جاسم الواقعة بالقرب من هضبة الجولان السورية فيما بين دمشق وطبرية عام ١٨٨ هجرية المقابل لعام ٨٠٤ ميلادية حتى وفاته بالموصل عام ٢٣١ هجرية المقابل لعام ٨٤٦ ميلادية ... هذا العمل العلمي الهام هو اهم مطبوعات المهرجان في اعتقادي . وقد كان الاولى بوزارة الاعلام بدلا من ان توزعه على المشتركين ليلة افتتاح المهرجان ان ترسله الى من وجهت اليهم الدعوة قبل ميعاد المهرجان بشهر على الاقل .. لان ذلك الكتاب كان سيكون مفتاحهم الى معرفة ابي تمام ودليلهم الى بحوث حقيقية عنه . ييسر لمن اراد الكتابة عن ابي تمام التعرف على المصادر ويوطيء له الارض . ولو حدث ذلك فربما جاءت ابحاث المهرجان افضل وانضج مما جاءت عليه .

فالى جانب البحوث التي القيت في المهرجان كانت هناك اسهامات جامعة الموصل بعددين من دورياتها خصصتهما لهذه المناسبة . اولهما عدد خاص من مجلة (الجامعة) كرست اكثر من نصف صفحاته لعدة دراسات سريعة حول ابي تمام . والاخر عدد خاص من مجلة (آداب الرافدين) التي تصدرها كلية الآداب بجامعة الموصل كرس برمته لعدة دراسات اكثر عمقا وتخصصا عن ابي تمام .. لكنها ظلت جميعا هي والابحاث التي القيت في اصابيح المهرجان تدور في اطار دائرة الجزئيات التقليدية والمعلومات المكرورة التي سبق ان قتلت درسا وترديدا . وافتقدنا فيها الدراسة الجديدة التي تعيد قراءة بعض قصائد ابي تمام الهامة وفقا للمناهج النقدية الحديثة فتضيء معرفتنا بابي تمام وبعصره وبالشعر وبالحياة . او الدراسة التي تقرأ ديوانه الكبير برؤية جديدة ثم تطلع علينا باكتشاف نقدي باهر يقتلع بعض المسلمات القديمة ويزرع مكانها حقائق جديدة . فتجعلنا نحس بعدها باننا عرفنا ابا تمام بطريقة افضل ، او اننا كنا لا نعرفه حقا قبلها . او الدراسة التي تستخرج نظريته الشعرية ورؤاه الفكرية من خلال استقرائها لمنطلق اختياراته في (ديوان الحماسة) وفي (الوحشيات). هذه الانواع الثلاثة من الدراسات هي التي كانت جديرة بمهرجان لابي تمام يقام في الثلث الاخير من القرن العشرين ، وهي التي افتقدناها في دراسات المهرجان ومطبوعاته .. لكن عزاءنا الوحيد هو هذا الجهد العلمي الذي قدمه المهرجان من خلال العمل الببليوجرافي الذي اشرت اليه منذ قليل .

تبقى بعد ذلك القصائد التي القيت في امسيات المهرجان الثلاث . وهي قصائد وفيرة العدد ضئيلة الحصاد ، لا ينتمي منها الى جوهر الشعر بحق غير عدد قليل . فقد القيت في امسيات المهرجان عدة قصائد من الشعر العمودي التي اقنعتنا بان ابا تمام اكثر معاصرة من كل الشعراء التقليديين الذين القوا قصائدهم بالمهرجان .. اقول اكثر معاصرة لا اكثر شاعرية لانني اذا قارنت بين شاعريتهم وشاعرية ابي تمام ففي ذلك اجحاف كبير بالرجل ونحن نحتفي به فلا مجال للسخرية به وادخاله في مقارنة مع هؤلاء الناظمين . لا نستثني منهم سوى الشاعر اليمني عبدالله البردوني في جانب المعاصرة لا في جانب الشاعرية لان قصيدة البردوني تستمد كل تالقها الشعري من روح ابي تمام ومن لغته واسلوبه الشعري . ومع هذا او بسببه كان عبدالله البردوني مفاجاة المهرجان بحق . واستطاعت قصيدته (ابو تمام وعروبة اليوم) التي انشاها على غرار قصيدة ابي تمام البائية الشهيرة في فتح عمورية ان تكون محور احاديث المهرجان لوقت طويل .. اذ استطاع فيها ان يبلور بتمكن وشاعرية لا بأس بهما الكثير من القضايا العربية . وان يلمس عددا من الاوتار الحساسة التي سرعان ما استجاب لها الجمهور ..

ماذا ترى يا ابا تمام هل كذبت
احسابنا او تناسى عرقه الذهب

عروبة اليوم اخرى لا ينم على
وجودها اسم ولا لون ولا لقب

تسعون الفا « لعمورية » اتقدوا
وللمنجم قالوا اننا الشهب

فيما انتظار قطاف الكرم ، ما انتظروا
نضج العناقيد لكن قبلها التهبوا

واليوم تسعون مليونا وما بلغوا
نضجا وقد عصر الزيتون والعنب

تنسى الرؤوس العوالي نار نخوتها
اذا امتطاها الى اسياده الذنب

بهذه المقابلة التمامية بين ما جرى في عمورية حينما هب الجيش دون انتظار كنبوءة المنجمين الى نضج الكروم وقطاف عناقيده، وبين ما يجري الان من انتظار مرير عصر فيه كل شيء حتى الروح العربية .. استطاع البردوني ان يقدم شيئا من الشعر الناضج المعتمد على الصورة برغم عموديته .. وتتالق صوره الشعرية في المقطع الذي يتحدث فيه عن اليمن ..

اما قصائد الشعر الحديث فلم يتميز منها سوى قصيدتين في الامسية الاولى هما (مرثية للعمر الجميل) لاحمد عبدالمعطي حجازي و(قلبي على وطني) لمحمد الفيتوري .. وقصيدتان في الامسية الاخيرة هما قصيدة خليل خوري التي بلا عنوان وقصيدة محمد عفيفي مطر (وشم النهر على خرائط الجسد) .. اما الامسية الوسطى التي ملاها شعراء الموصل نظما وقريضا فلم يتميز بينها شيء ذو بال .. اللهم سوى بعض الومضات المرهصة بشاعر وشيك والتي تكررت لثلاث مرات طوال الامسية الحافلة بعشرات القصائد والشعراء .

وفي الامسية الاولى ايضا كانت قصيدة نزار قباني (قصيدة اعتذار لابي تمام) كاغلب شعر نزار قباني الاخير مباشرة ونثرية

وزاعقة ، تتلاعب بالكلمات وتنظم مـا يتداول على المقاهي نثرا .. استمع اليـه وهـو يقول :

امير الحرف سامحنـا
فقد خنا جميعا مهنـة الحرف
وارهقناه بالتشطير والتربيع والتخميس والوصف
ابا تمـام ان النار تأكلنـا
وما زلنـا نجادل بعضنا بعضا
عن المصروف والممنوع من صرف
وجيش الغاصب المحتل ممنوع من الصرف
وما زلنا نطقطق عظم ارجلنـا
ونقعد في بيوت الله ننتظـر
بان ياتي الامام علي .. او ياتي لنا عمر
ولن يأتـوا
فلا احد بسيف سواه ينتصر
لذلك ايها السادة ..
ساجمع كل اوراقي واعتذر

بهذا الاسلوب النثري وبهذه الكلمات المكرورة يقدم نزار قباني فهمه للشعـر وللواقع معـا ويستمر في قصيدته على هذا المنوال حتـى يختمهـا بكلمات كـان الاجدر به ان ينصت اليهـا جيدا والا لرأى انهـا وكأنهـا موجهة اليه او خير واصف لحاله ..

لماذا شعرنـا العربـي قد يبست مفاصله
من التكرار واصفرت سنابله
وقل لي ايها الشاعـر

لماذا الشعر حين يشيخ لا يستل سكينا وينتحر

الا يحس نزار قباني بان على شعره بعد هذه القصيدة وسابقاتها ان يستل هو الاخـر سكينا وينتحر ؟ فقـد يبست صوره وجفـت تراكيبه حتى اصبحت كالعملة الباهتة من كثرة التداول والاستعمال ، وهزل بنيانه فلم تعـد القصيدة سوى مجموعـة من الاستطرادات النثرية والافكار المصنوعة وفقدت بذلـك الدور الاول للشعـر باعتباره ريادة ونبوءة ورؤيـا لا مجرد تعليقعلى مـا حدث ويحدث كتعليقات المثرثرين في المقاهـي .

كنت اود بعد ذلك ان يكـون لديّ متسع من الوقت للحديث عن قصيدة محمـد الفيتوري الشجاعـة الفوارة بالصـور المسجلة لتمـرد الشاعـر الابدي على كل سلطـة غاشمة . وللحديث عن قصيدةحجازي التي تروي قصـة جيلنـا باكمله مـع الحلم والخديعـة ومكابداتـــه الرهيبة وهو يرى مدائـن الحلم تتهاوى وتقطعكمـا تهاوت الاندلس مع ملوك الطوائف ثم ميـلاده الجديد وسط نيران المعاناة متملصا مـنقبضة الخوف والغواية . وللحديث عن قصيدة خليلخوري التي تتناول نفس القضيـة ولكـن بأسلوب مغايـر ومن خلال توهج انفعالي تتالق فيـه الصور بالعنف والحركة . وللحديث عـن قصيدة محمـد عفيفي مطـر التي تخلق كونـاخاصا بهـا لا يمكـن الحديث عنه الا من داخل صوره وقيعانهوبمنطق رؤاه واحداثه .. لان كل قصيدة من هذه القصائـد الاربع عالم كامل من الرؤى والرموز والاسرار لا يمكـن للنـاقـد ان يوفيه حقه الا اذا افرد لـه دراسـة ضافيـة مستقلة ، واتمنى انافعل ذلـك في وقت قريب وخاصـة بمرثيـة للعمر الجميل ..

القاهـرة

صبري حافظ

في مهرجان الموصل

انطباعات عن الشعر والفسطاط وأبي تمّام

في الفترة من ١١ الى ١٧ ديسمبر (كانون اول) اقيم في مدينة الموصل بالعراق مهرجان ابي تمام الشعري . في المدينة التي احتضنت رفات الشاعر العربي حبيب ابن اوس الطائي ، ومنحت للعالم الاسلامي والعربي المؤرخ ابن الاثير تجمع عدد كبير من المثقفين والشعراء والمفكرين التقدميين العرب ، تحت شعار بيت ابي تمام الشهير :

السيف اصدق انباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

الاسماء اكثر من ان تحصى او تحصرها الذاكرة . الشعراء من مصر محمود حسن اسماعيل واحمد عبدالمعطي حجازي ومحمد عفيفي مطر ، ومن لبنان (بحكم الاقامة) نزار قباني ، ومن سوريا خليل الخوري ، ومن السودان محمد الفيتوري ، ومن اليمن الشمالية عبدالله البردوني ، ومن العراق عدد كبير من شعراء الموصل الشبان .

كان المهرجان نجاحا لتجمع المثقفين العرب التقدميين ، الذين لم يتعودوا ان يمثلوا بلادهم في كل الظروف ، واستطاع المهرجان ـ دون قرارات ولا توصيات ولا برقيات تأييد او استنكار ـ ان يكون تعبيرا عن وجه مستنير انساني ومتفتح للثقافة العربية وللشعر العربي (في معظم هذا الشعر) . ورغم ان المهرجان لم يتح الفرصة لدراسة الشاعر الذي اقيم تحت اسمه وفي المدينة التي شهدت آخر ايامه وتلقت جسده في ترابها (وربما لم يكن هدف دراسة ابي تمام هو اهم اهداف « مهرجان » يعقد تحت شعار بيته الشعري الذي يمجد القوة ويشجب الثرثرة) فان المهرجان خارج « الامسيات الشعرية » كان أشبه بـ « استاد » ثقافي يضم العديد من مجالات العمل الثقافي العربي ، الاكاديمي والجماهيري ، المنظم والعفوي الذي يتوج خطوات تطور مستقبلي او يقدم الاجابة على اسئلة ومطالب ويلبي اشواقا قديمة ومعلقة ، او ذلك الذي ينمو تلبية لوضع طبيعي لا يقع الا نادرا : وضع اللقاء الحر بين كل هذا العدد من المشتغلين بهموم امتهم والمشاركين بشكل او بآخر في صنع وجدانها .

***

افتتح شفيق الكمالي وزير الاعلام والثقافة العراقي ، المهرجان بكلمة اكد فيها على ضرورة اعادة اكتشاف التراث العربي التقدمي والمستنير . واشار في كلمته الى اهمية هذا الاكتشاف لتربية الوجدان القومي ولفتح الآفاق الفكرية والروحية امام العقلية العربية الجديدة ولتنمية وتطوير الاحساس بالانتماء القومي والوطني .

وساهمت وزارة الاعلام العراقية بكتاب عن « ابي تمام الطائي ، حياته وشعره » ، نشرت فيه الى جانب موجز حياة ابي تمام اسماء وتواريخ صدور اهم المراجع العربية والاجنبية ، القديمة والحديثة ، من كتب او مقالات ، التي كانت عن الشاعر او قامت بدراسته .

وقدمت جامعة الموصل عددا خاصا من مجلتها « الجامعة » ساهم فيه عدد قليل من المتخصصين ، وعدد كبير من الهواة ، فتحدثت اغلب المقالات عن نفس الزوايا من عبقرية الشاعر وعصره نتيجة لعدم تخطيط العدد وتوزيع موضوعاته على كتاب متخصصين .

***

الشعر ديوان العرب . ولا يصدق هذا القول الان كما يصدق على العراق . مئات من الشبان والكهول ـ دون مبالغة ـ يقرضون النظم ، وعشرات يكتبون ما يشبه الشعر ، وقلة قليلة هم الشعراء . ولكنك لن تجد عراقيا لا يحفظ الكثير من الشعر ، يتمثل به ، يتفجر به لسانه بعد لحظة صمت ثقيل ، او في غمرة انطلاقة الكلام المنثور . وكأن لغة التخاطب اليومية لم تعد تكفي الناس للتعبير بمدلولاتها المحددة عن افكار ومشاعر صاخبة ومختفية ومتضاربة . في العراق اكتشفت ان الشعر يمكن ان يكون للعرب لسان حال .

***

لقد عاش في العراق العباسي القديم ، في عصر ازدهار الحضارة العربية عشرات من الشعراء الافذاذ ، عاصر بعضهم ابا تمام نفسه ، او سبقوه او تتلمذوا عليه . فلماذا ابو تمام بالذات ؟.

لم يكن حبيب بن اوس من العراق . ولد في سوريا وتلقى اول علومه وانضج موهبته في مصر . تثقف في دمشق ثم في همذان (هي الان مدينة في جمهورية سوفياتية) واشتهر في حمص ثم في بغداد ، عاصمة العالم والحضارة العربية في عصره ، ثم مات في الموصل ودفن بها .

كل علاقته بالموصل انه زارها شابا ، ومات بها بعد ان عمل فيها « صاحبا للبريد » . ولكن علاقته بتاريخنا وربما بتكويننا الوجداني كله

اقرب الى علاقته بالارض التي احتضنت جثمانه ثم اضاعت قبره فلا يعرف الا بالظن والتخمين .

آخر شاعر انشد لآخر انتصار حقيقي للعرب واول شاعر بدأت تنتابه الشكوك في المستقبل . ((السيف اصدق)) كانت آخر نشيد منتصر حين فتح المعتصم عمورية . فمن البديهي ان تنطلق قصائد الانتصار مع الانتصار نفسه . الانتصار بالسيف حدث كبير وهائل وملموس . تتوقف عنده كتب المؤرخين وتتطلع اليه عيون اجيال متتالية . ولا بد ان يقف عنده الشعراء . ثم لا يذكر تاريخ الادب بعد هذا الا الشعر الذي استطاع ان يستخلص كل معنى الانتصار .السيف يلغي الكتب في مطلع قصيدة ابي تمام . كان هذا انشاءا عبقريا للانتصار بالسيف . ولكنه كان ايضا نذيرا للعقل المختنق .

لم تكن القاهرة قد شيدت بعد . كانت ما تزال هي ((الفسطاط)) التي شيدها ابن العاص لتكون اول عاصمة عربية لمصر . ابو تمام شاب شعره في الفسطاط وهو لم يزل في السابعة عشرة . لم يكن بالفسطاط سوى اصحاب السيف الصغار والتجار الكبار يقفون بين عالم البحر وعالم الصحراء ويغرفون الذهب من العالمين . صغار السيافة وكبار الصيارفة كانوا نجوم الفسطاط اللامعة . اما العلماء فقد انزووا في المساجد ، واشتبك الشعراء مع المهرجين في مشاجرات الاسواق .ابو تمام يتعلم في مسجد عمرو ابن العاص .يقرأ الشعر والتاريخ والفقه وترجمات الفلسفة اليونانية والاساطير الفارسية والديانات الهندية في مكتبة المسجد ومكتبات الشيوخ. شاعر آخر لم يولد بعد ، يريد ان يفهم البشر وان يستقطر اسرار الوجود . رغم علمه بانه ليس للشعر ولا للشاعر مكانة النجم : السياف او الصراف . لوعته لما عرفه لا تعيش كثيرا . فقد عرف مصيره شاعرا يعرف السر ، يتحايل بالمديح لكي يبوح به ، يكتفي من لوعته بان يشتم الدهر والزمان :

وكانت لوعة ثم استقرت كذاك لكل سائلة قرار
مضى الاملاك فانقرضوا وامست سراة ملاكنا وهم تجار
وقوف في ظلال الذم تحمى دراهمهم ولا تحمى الذمار
فلو ذهبت سنان الدهر عنه والقى عن مناكبه الدثار
لعدل قسمة الايام فينا ولكن دهرنا هذا حمار !

الدهر كان حمارا منذ عصر ابي تمام . اكتشف الشاعر هذه الحقيقة حين اكتشف ان السادة هم التجار ، يحمون دراهمهم ولا يحمون الذمار . والذمار هو العرض ، وهو الحمى ، وهو الوطن !

* *

لم يكن ابو تمام مجرد مداح يتكسب بالشعر :

اني امتدحتك لا لفائدة ولا همي جزاء مدائحي بجزاء .

كذلك خاطب ممدوحا نثر عليه الذهب لم يلتقط منه شيئا . القى قصيدته في الجمع ورحل .

لم تتفجر اصفى ينابيع شاعريته الا في مواجهة لحظة هائلة في تاريخ امته ، او حين يكتشف بحساسية مثقفة نافذة مقدار ما يتهدد هذه الامة من خطر ، او حين يكتشف ان قيمة عظيمة من قيمها تبدو او تهدر او تضيع ، وخاصة حساسية الشعر ،والشجاعة.

كان في سفر في شمال ايران في وسط شبابه حينما حاصرته الثلوج ، فاستضافه رجل عالم كريم وفتح له مكتبته . وخرج ابو تمام من المكتبة بعد شهور وقد جمع افضل مختارات الشعر العربي حتى الان : الحماسة الكبرى ، والحماسة الصغرى ، ومختارات الفحول .

ولم يكن ابو تمام مجرد شاعر نبيل ، ولا عالما من الشعر وناقدا، وانما كان يرى انما يمنحه للعالم من الشعر لا يساويه في قيمته اي عطاء ، ولا اي مجد :

نظمت له عقدا من المدح تنضب البحور وما داناه في حلبها عقد
تسير مسير الريح مطرفاتها وماء السير منها لا العتيق ولا الوخد
تروح وتغدو بل يراح ويغتدى بها وهي حيرى لا تروح ولا تغدو
وتقطع آفاق البلاد سوابقا وما ابتل منها لاعذار ولا خد
رغائب ما تنفك عنها لبانة لمرتجز يحدو ومرتجل يشدو
اذا حضرت ساح الملوك تقيلت عقائل حسن غير ملموسة ملد
اهين لها ما في البدور واكرمت لديهم قوافيها كما يكرم الوفد

هكذا الشعر عنده . كالريح او عقد الجوهر . يخصب الارض ولا تشبع منه شهوة الراغبين ، ولا تزال اطماعهم تدور حوله ويصبح في حضرة ((الملوك)) اعظم واجمل من كل قائم .

احساسه القومي العارم الذي انطلق في قصيدة ((السيف اصدق)) واكباره العظيم للبطولة القومية الذي ظهر في رثائه الرائع لابن حميد الطوسي : ((كذا فليجل الخطب وليندح الامر)) ، واحساسه القوي بحاجة الشعر العربي في عصره الى اعادة اكتشاف احسن ما في تراثه واجمله وتقييمه والتعلم منه ، واعتزازه العظيم بشاعريته وحرصه على تزويد هذه الشاعرية بكل ما يتيحه له عصره من الثقافة القومية والاجنبية : هذه هي القيم التي تحفظ لابي تمام مكانته في تاريخنا الثقافي ، والتي تجعله قادرا على المشاركة في الهام ثقافتنا المعاصرة. وله ايضا في تاريخنا القومي مكانة تدعمها احتياجات الحاضر .

في عصر ابي تمام كانت الحضارة العربية قد بدأت تواجه عوامل تفسخها من الداخل ، حين سيطر كبار التجار وحلفاؤهم من القادة من الشعوب غير العربية على الخلافة ، وحين اخذت قوة الولاة في الاقطار تزداد شيئا ، وحين تزايد الظلم الاجتماعي الى حد رهيب في المزارع والمناجم والموانىء والمدن ، وحين تحول الصراع المذهبي العقلي بين المعتزلة وخصومهم الى حرب مذهبية تخفي الحرب الاجتماعية في طياتها وتتخذ الارهاب المتبادل والمذابح وسيلة شائعة ومشروعة لمواجهة الخصوم .

ولكن في هذا العصر ايضا ، عصر المامون والمعتصم ، كانت حركة الترجمة والاهتمام بالعلوم الرياضية والطبيعية والعقلية قد بلغت اوجها . ويعدد الدكتور احمد فريد رفاعي في كتابه ((عصر المامون)) اكثر من الف من امهات الكتب في هذه العلوم وغيرها واسماء اكثر من مائة من كبار المترجمين قاموا بترجمة هذه الكتب من اللغات اليونانية والفارسية والهندية والسوريانية والارامية والنبطية وغيرها في اوائل عصر المامون وحده . بل ان المامون ثم المعتصم كانا يضعان في معاهدات الصلح مع ملوك بيزنطة والهند وجزر البحر الابيض بنودا تنص على اتاحة الفرصة امام العلماء العرب لنقل وترجمة ونسخ ما يشاؤون من الكتب الموجودة في مكتبات وخزائن هؤلاء الملوك .

ونحن نعرف ان ابا تمام في مصر ودمشق وفي مدن العراق وايران لم يكن يهتم بشيء قدر اهتمامه بالمكتبات . بل ان ابرز ما يلتفت اليه ابن الاثير المؤرخ ومؤلفو كتب الاغاني والكامل وغيرها عند تقييم شعر ابي تمام انه كان اسبق الشعراء العرب الى نقل ((مقاييس المنطق والتعقل بالحكمة)) الى الشعر (وهذا معناه الخروج من اطار الاحكام الجزئية المستمدة من تجارب الشاعر الجزئية وفطانته الشخصية المباشرة الى آفاق العقل البشري والثقافة الانسانية بوجه عام)، وانه كان الرائد في ذلك للعملاقين الآخرين ، ابي الطيب المتنبي والمعرّي . بل ان ابن الاثير يضع ابا تمام وتلميذيه (المتنبي والمعرّي) في مصاف الهة الشعر صراحة مستخدما اسماء الآلهة العربية الوثنية القديمة فيقول : هؤلاء الثلاثة هم مناة الشعر ولاته وعزّاه !

انه اول شاعر عربي اذن يرتبط مسار شاعريته بمسار الحضارة العربية ومسار امته التاريخي والسياسي والثقافي . اول شاعر يحاول الخروج بالشعر العربي حقا من مضمونه الانفعالي مديحا وفخرا ورثاء وهجاء وغزلا الى المضمون الفكري القادر على الاحاطة بقضايا الوجود الانساني الكلية (من خلال نفس القالب التقليدي للقصيدة العربية في بنائها واسلوبها ونسيجها وموسيقاها ، وهذا ما يجعل محاولته من الناحية الفنية مرتبطة بالماضي اكثر من ارتباطها بالمستقبل) . اول شاعر يعرف ان رزقه وحياته يعتمدان على الشعر، ولكنه يفضل ماء وجهه على دمه :

وما ابالي وخير القول اصدقه — حقنت لي ماء وجهي او حقنت دمي

واول شاعر عربي يعرف اقدار الناس بقدر تكريمهم للشعر ،

اغلى عذارى الشعر ان مهورها — عند الكرام وان رخصن غوالي

ولا نريد ان نغالي كثيرا ، ولكن قد لا يكون في كلامنا مغالاة ان قلنا ان في لغة ابي تمام ، على صعوبة تراكيبها وبدويتها احيانا، صورا وتعبيرات تنتمي حقا الى الاحساس الرومانتيكي الحديث باللغة وبالحياة ، او يمكن ان تكون طيفا عربيا قديما ، لم يتحقق كاملا ، لهذا الاحساس . والا فما « عذارى الشعر » وما «مستنقع الموت » وما « اجتماع النور والعشب » وما :

وغرّبت حتى لم اجد ذكر مشرق — وشرّقت حتى قد نسيت المغاربا

وما « ارتحل تتجدد » ، ان لم تكن صورا وتراكيب تمت بنسب قوي الى هذا الاحساس العصري الفردي والعاطفي الجارف باللغة اولا ثم بموضوعات الشعر والموت والنور والخصوبة والشعور بلا تحدد المكان والارتباط بين الرحيل والتجدد اللانهائي ؟! .

* * *

ولكن لا احد من الدارسين في المؤتمر ، ولا من الشعراء ، حقق ما طلبه شفيق الكمالي ، باستثناء الشاعر السوري المغترب خليل الخوري ، وباستثناء الشاعر المصري احمد عبدالمعطي حجازي ، الاول في ندائه للحياة ، والثاني في وداعه للموت ، ثم الشاعر اليمني عبدالله البردوني في بكائيته التي خاطب فيها ابا تمام دون حجاب !.

* * *

هؤلاء الشعراء الثلاثة هم الذين حاولوا اقامة الجسر بين ما حققه ابو تمام في عصره للثقافة والوجدان العربيين وبين ما ينبغي الان تحقيقه لهما .

يخيل الى ان شعراء من طراز ابي تمام ، وابي الطيب وابي العلاء، كانوا يعانون في عصرهم ما يعانيه شعراؤنا التقدميون والقوميون الآن. اكتشفوا انهم يعيشون في عصر يحكمه ارهاب غبي رغم انه آخذ في الحصول على ادوات الاستنارة والمعرفة والذكاء ، واكتشفوا ان امتهم يتهددها الذوبان (في عصرهم بسبب هجمات البرابرة المسلمين والنصارى والوثنية وبسبب تخاذل السياسة والصيارفة وتفسخ القيم القومية التي تحفظ للامة فضائلها وتماسكها – وفي عصرنا بسبب هجمات الاستعمار الجديد والصهيونية ، وتخاذل عينة اخرى من السياسة والصيارفة واستقرار تفسخ القيم القومية وصعوبة استعادة الفضائل المفقودة والقهر الذي تمارسه رجعية متراكمة يسندها تراث تاريخي هائل من السيطرة والتخلف وغيبة القيم الديموقراطية) واكتشفوا انهم كشعراء وكمثقفين يحملون تراث اعظم ما خلقته امتهم واجمل ما تصبو اليه في المستقبل لا وزن لهم وسط وزراء من نوع ابن الزيات وولاة من نوع كافور الاخشيدي الخصي واصدقاء من نوع ابن الفرات ، واكتشفوا ان امتهم في هذا الوضع – رغم ما تترجمه من كتب وما يقوم به بحارتها من اسفار وما تصنعه من حرير او سيوف اوتار يونانية ، وما تشيده من مساجد او مدارس او بيمارستانات – تعاني من احتقار حكامها للثقافة والمضمون الثقافة الحقيقي : الحرية ، ومن احتقار هؤلاء الحكام المكتوم – لولا تقاليد الخوف من « الشعر » وليس احترام الشاعر – للشاعر الذي يمدحهم . لهذا السبب تحولت مدائح ابي تمام وتابعيه الكبيرين الى افتخار بانفسهم وبشاعريتهم ومكانتهم ، وتحولت رؤاهم الفلسفية الى حكم في ذم الدهر والزمان وفي تمجيد العقل وتحقير القوة الجاهلة العمياء ، وفي ابراز قيم الشجاعة الفردية والكبرياء الشخصي والاباء وعزة النفس (كان الفارس العربي المجاهد غير الذليل هو النموذج الحقيقي الذي يطمح اليه المتنبي صراحة ، وكان الفيلسوف الزاهد محتقر الدنيا هو النموذج الذي حققه المعري)وكانت هذه القيم هي القيم التقدمية الحقيقية (لا يقابلها او يستبدلها الا موقف المتصوف او قاطع الطريق) التي يسمح بها عصرهم ويستطيع ان يتقبلها – كنقيض لمضمونه – الى حين تحترق نفس ابو تمام بشعلة نشاطه كما قال عنه الكندي الفيلسوف حينما رآه قبل وفاته بسنوات قليلة ، او الى حين يقتال بدوي قمىء ابا الطيب في الصحراء، او الى حين يموت المعرّي في محبسه الاختياري بهدوء .

هذه هي الاسباب عينها التي جعلت الشعراء المعاصرين الثلاثة يعبرون عن كل الشكوك والعذاب والحيرة التي امتلأت بها قصائدهم .

ولكن البردوني والخوري كشاعرين في عصر المقاومة والهزيمة اكتشفا قيمة ما انجزه ابو تمام في عصره للوجدان والعقل العربيين، اكتفيا بأن أخذا من ابي تمام قدرته على البكاء المحزون ،شتيمته للدهر ، ثم قدرته على الانشاء للانتصار .الفرق بينه وبينهما انه كان يبكي لامته وهو يبكي لشهدائها او لنفسه ، وانهما كانا يبكيان كل لنفسه وهو يبكي لامته ، وانهما لم يشتما الدهر وان شتما ما فعلناه نحن بدهرنا ، وانه كان ينشد لانتصار حقيقي يخشى من ورائه عوامل الهزيمة التي تختمر ، وانهما كانا ينشدان حلما بانتصار مقبل يتجاوز الهزيمة القائمة ، ولهذا السبب القى ابو تمام الكتب في مطلع قصيدته ، بينما غنيا للسيف الذي يهتدي بما تقوله « الكتب الصحيحة » كل من وجهة نظره .

ولكن خليل الخوري يعرف ان ابا تمام حين كان يتغنى بوجوده العربي بين الشام والفسطاط وبغداد والرفيق فانما كان يتغنى بوجود حقيقي ومتحقق . اما خليل فانه ينادي وجودا ملغيا متفتتا:

لا ، لا يا أبا تمام . سقاك الغيث
كانوا ، وانتهوا .
واليوم . من حد المياه الى الرمال
مفازة ، يعوي بها العدم الرهيب
وليس من ...

وهو حين يغتصب لنفسه مكان المتكلم بلسان الامة ، والخارج عليها في وقت واحد، يجد المبرر الفني والفكري لوجود من يمكن ان يخصب هذا العدم ببذرة الحياة . انه الشاعر نفسه . يحقق لذاته مكانة النبي والبشير حتى ولو في الشعر ، طالما لا يسمح له الواقع الا بمكانة النذير والمطارد .

اما البردوني فلم يسمح له بناؤه الكلاسيكي الوحيد الصوت ان يخلق في قلب قصيدته مثل ذلك النسيج . ولذلك فانه يستسلم طول القصيدة للوضع الذي حكم به عليه واقعه وواقعنا : وضع النذير والمطارد. وبناؤه متسق تماما مع اسلوبه في التفكير . ولذلك فان شتيمة الدهر اعلى عنده نبرة رغم انه يريد ان يشتم ما صنعناه نحن بانفسنا . وهذا هو السبب في اننا قد نتعاطف معه وهو

يقرأ قصيدته ويقول ان في حلقه ما تزال الف مبكيـة او ان
.. الاعادي اهدروا دمنـا ونحـن من دمنـا نحسو ونحتلب

او أن صنعاء جميلة « عاشقاها السل والجرب » ، ولكننا اذا خرجنا من وضع المستمعين القدامى ، عاقدي الحبا حول شاعـر يمتطي راحلته وينشد متنفساً معكنا سيفه او متكئا عليه ، وعدنا الى وضع « القراء » المتفحصين ، فوجئنا بأنـه لا مبرر لبيت النهاية الاخير ، وشطره الثاني على وجه التخصيص ، المأخوذ من أبي تمام نفسه :« ان السمـاء ترجى حين تحتجب » والذي اراد فيه البردوني ان يؤكـد وجود « الامل » في الخروج من ازمة الانقراض التي لا نرى غيرهـا طوال قصيدته . والعيب هنـا ليس هـو مجرد هذا العيب الفني الهين ،وانما هـو عيب ينم عـن خلل فكري خطير ، خلل معناه ان الشاعـر عاجز عـن ان يرى في الواقع عيانا الا وجها واحدا ، هـو وجه العقم والانهيار والهزيمـة والموت ، وان الرجاء في الغيث ليس رجاء نابعـا من اليقين في القوى الواقعيـة القادرة على التغيير ، وانمـا هـو رجاء ميتافيزيقي ينبع من الايمان برحمـة العنايـة الالهيـة .

ولم يكن كذلك نزار قباني الذكي . انه ببساطـة يكتفي بمهاجمـة كل شيء : الشعر والشعراء ، والثوار والرجعيين والكتابة والتراث، والمنجزات والنوايـا والدموع والقصور واللغـة والايمـان .يرانـا « نطقطق عظم ارجلنا » ، لا حس لدينا ولا خبر عـن ثورة البحر والشجر والبدو والحضر . ولذلك يرى انه مـن المناسب ان يعظنـا « لا أحـد بسيف سواه ينتصر ». ولذلك كـان نزار ـ بتعبيره ـ اول الرافضين دون سيقـان والخطباء دون اسنان . فليست الشتيمة والوعظ بديـلا ممكنـا عن الرؤيـة النقديـة وكشف اعماق تجاربنا السوداء . لم يكن كالبردوني لانه ضمـن نصائحه في ثنايا قصيدته ذات الموسيقى الخارجية القويـة (رغم كراهيته للتزمير والتطبيل ـ ولكنه يحسب حسـاب سهولـة الحفظ عند أحداث العقول) ولم يحاول ان يجهد نفسه بالعثور على رجاء من أي نوع ، ميتافيزيقي او مادي . وكالعادة لا نعرف لماذا يكتب شعـره اذن ، ولمن يكتبه ، ومن يتوقع ان يوقظه من راحة طقطقة عظـام الارجـل المتيبسـة !.

* * *

اما احمد عبدالمعطي حجازي فقـد القى واحدة من اجمل قصائده : « مرثية العمل الجميل » . كـان قـد اعدها لكي يلقيهـا في الذكرى الاولى لوفاة جمال عبدالناصر . ولم يسعفه الحظ لالقائها الا تحـت شعار : « السيف اصدق انباء من الكتب » .

من اللحظة الاولى يتكون الموقف ويتكون جوهـر التجربة في قصيدة حجازي . هناك قيمة عظيمـة كـان الشاعـر يؤمن بهـا .كشف رحيلهـا او موتهـا عـن ضرورة مفارقتها ، سواء كانـت حقيقية ام خدعة . فالحياة لا ينبغي ان تتوقف عند القيم الراحلة ، ولا عنـد اللحظات الجميلة المتسربة مع حبات رمل الزمن . والشاعـر يجب ان يستمر في الغناء للمستقبل مهمـا اكتشف من انخداعه بالماضي او عجز الحلم الجميل عـن التحقق . ولذلك لا يفاجئنـا في قصيدة حجـازي الا مـا ينبغي ان نفاجأ به : الرؤيـة الشعرية والكشف الوجدانـي الصادر عـن معنى عظيم من معاني الحياة والشعر ، ومن معاني وجـود الشاعـر نفسه في حياتنا ووظيفته . موت الرجل العظيم ينجلي دائمـا عـن مأساة . والمأساة هنـا كانت مأساة الشاعـر مع حلمه ، والشاعر ليس هـو « المغنى » الفرد ، وانمـا هـو المعبر عـن وجدان امـة بكاملها وعـن ضمير اجيالهـا بأسره . فهـو المعبر ايضـا عـن مأساتهـا ،والمأساة لا تنتهي ابدا بهزيمة البطل . انما هي تبدأ بهـا، ولا تنتهي الا باليقيـن في القدرة علـى تجاوزهـا في التجربة ،او في تجربة ، لاحقـة .

الشاعـر في قصيدة حجازي كـان باحثا عن حلم لمدينة يحقق لها الحرية والعدالـة واصالة النسب . وهـو يتساءل عـن السبب فـي يقظته من الحلم ، فلا يجـد شيئا مـن الكنوز الموعودة بين يديه . انه لا يتملص عـن المسؤوليـة ، لا ينكـر خطاه ، ولا المبالغات التي اسرف فيهـا الغناء والثقـة . ولكنه يعلن منذ اللحظـة الاولى « لـم يبق الا الفـراق ... ثم اقول وداعـا » ، يعلـن قدرته على الاستمرار في الانشاد للحلم ، تاركـا ضريح المأساة والاحلام المخفقة :

فوداعـا هنا يا اميري
آن لي ان اعود لقيثارتي
واواصل ملحمتي وعبوري .
تلك غرناطـة تختفـي
ويلف الضباب مآذنهـا
وتغطي المياه سفائنها
وتعود الى قبرك الملكي بهـا
واعود الى قدري ومصيري .
من ترى يعرف الآن في اي ارض اموت
وفي اي ارض يكـون نشوري .
انني ضائع في البحار ، ضائع
بين تاريخي المستحيل ، وتاريخي المستعاد .
حامل في دمي نكبتـي
حامل خطاي وسقـوطي
علني الآن اذكر صوتي القديم
فيبعثني الله مـن تحت هذا الرمـاد
أم أغيب كما غبت أنت ،
وتسقط غرناطة في المحيط ! .

القاهرة — سامي خشبة